مِنْ هُدَى القُرآنِ

١٠

تفسير سور

الروم إلى سبأ

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سورة الروم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة :

في كتاب ثواب الأعمال للشيخ الصدوق بإسـناده إلى أبي عبد الله (ع) قال :

«من قـرأ سـورة العنكبـوت والـروم في شـهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو ـ والله يا أبا محمد ـ من أهل الجنة لا اسـتثني فيه أبـدا ، ولا أخـاف أن يكتب الله على يميني إثما ، وإنّ لهـاتين السـورتين من الله مكانا»

تفسير نور الثقلين / ج (4) / ص (169)

الإطار العام

الاسم :

استوحي اسم السورة من واقعة تاريخية هامة جــرت بين الروم الـذين كـانوا على هـدى المسـيح بن مـريم (ع) ظاهرا ، وبين الفرس ، في عصر الرسول (ص).

تدور آيات هذه السورة حول عدة محاور ، أبرزها :

أ ــ تبصــير الإنســان بهيمنة الــربّ على الســموات والأرض ، وأنّ هناك تقديرا ظاهرا ، وقضاء خفيّا ، ويضرب القرآن مثلا من هذه الحقيقة بغلبة الفرس على الروم في أدنى الأرض ، كيف أنّها جرت ضمن تقديرات الخليقة ، إلّا أنّه ينبئنا بقضــاء الله الـذي لا يــردّ بنصر الله ، وهـذا وعد إلهي لا يخلف ، بيد أنّ أكــثر النــاس لا يعلمــون ســوى الظاهر من الحياة الدنيا.

وأعظم ما يجهله أغلب النــاس من الحيــاة : أنّ الله خلقها بالحق وأجل مسمّى ،

ولذلك ترى الظالمين قد دمّروا حين خـالفوا الحق ، ولكن عند ما حـان أجلهم ، بـالرغم من شـدة قـوّتهم وعظيم عمرانهم.

ب ـ ويتّصل هـذا المحـور بـالمحور الثـاني ، ألا وهو مسـئولية الإنسـان عن أفعاله دون أن يقـدر الشـركاء المزعومون على نجاته من جزاء السيئات.

ويطول الحديث حول هذا المحـور (12) و (28) حيث يـبيّن القـرآن أنّ المجـرمين يبلسـون عند قيـام السـاعة ، وأنّ الناس يومئذ يتفرّقون بين صالحين يجـزون وكـافرين يحضرون في العذاب.

ويحتجّ الذكر وجدانيّا لوحدانية الربّ وضـرورة إخلاص الدين له وتطهيره من دنس الشرك ، ويحـذّر من الشـرك في السياسة باتباع القـادة الـذين لم يـأمر الله باتّبـاعهم ، ومن الشرك في الاجتمـاع بـالتحزّب والتوسل بغـير الله ، ومن الشرك في الاقتصاد بالاستئثار بالثروة وعـدم إنفاقها في سبيل الله ، وكذلك بالربا الذي لا يربو عند الله.

ويبيّن القرآن أنّ ما يظهر من الفساد في الـبر والبحر إنّما هو بما كسـبت أيـدي النـاس ، وأنّ الحكمة منه : تحسـيس النـاس بنتـائج بعض أعمـالهم السـيئة ، لعلّهم يرجعون عن غيّهم.

وهذا دليل واضح على المسـؤولية ، وهنـاك دليل آخر يتمثّل في عاقبة المشـركين من قبل الـذين يـأمر الله بالسير في الأرض للنظر في نهايتهم.

ج ـ ولكي يعي البشر مسئوليته أكثر فأكثر ، لا بـدّ أن يـؤمن بالسـاعة ، حين يبعث للجـزاء. وهـذا هو المحـور الثـالث والأهم في السـورة. ولكن كيف يـؤمن البشر بـالبعث ، وهـوى نفسه ، وشـيطان قلبه يزيّنـان له سـوء عمله ، ويطوّلان أمله ، ويلقيان

في روعه الشبهات؟
والجــواب : بمعرفة اللــه. أليس الله بقــادر على أن يعيد الإنســـــان بعد هلاكـــــه؟ بلى. أو ليس حكيما ، ومن حكمته أن يجزي الصالحين بالحسنى والكفار بالنــار؟ بلى. إذا فالساعة آتية لا ريب فيها.

ولــــيزداد المــــؤمن معرفة بخالقه ، فـــــيزداد إيمانا وتصــديقا بالنشــور ، ووعيا للســاعة ، يــذكّرنا الــربّ بآياته المبثوثة في الآفاق والمحسوسة في النفس مساء وصبحا وعشيّا وعند الظهيرة ، والــتي يتجلّى بها أنّ حــقّ التســبيح والحمد لله وحده.

ويهــدينا إلى روعة الحيــاة ، وكيف يخـــرج الحيّ من الميت والميت من الحي ، ويــأمر بــالتفكر في أنفســنا : كيف خلقنا من الـتراب ، ثم جعل لنا أزواجا نسـكن إليها ، ويأمرنا بتعلّم آياته في الســــــماء والأرض ، وفي اختلاف ألســنة النــاس ، وكيف ننــام ليلا ثم يبعثنا نهــارا لاكتســاب المعائش ، ويذكّرنا بنعمة الغيث الذي يحـيي به الأرض بعد موتها ، ويلفت نظرنا إلى عظمة الســــــموات والأرض .. ويستدل بذلك كلّه على أنّه عزيز حكيم (17).

ومرة أخرى يبيّن لنا نعمة الرياح الـتي تبشّـر ببركـات الغيث ، كما تحمل الفلك ، وتــوجب الشـــكر ، ويصف لنا سبحانه نزول الغيث بأروح وصف ، ويأمرنا بــأن ننظر الى آثــار رحمته ، وكيف يحــيي الأرض بعد موتها .. ثم يــذكّرنا بأنّه سبحانه على كلّ شيء قدير.

ويــبيّن لنا آياته في أنفســنا : كيف نتقلّب بين ضــعف وقــوة ، ثم ضـعف وشـيبة ، ويـذكّرنا ــ مـرة أخـرى ــ بأنّه العليم القدير (46).

ويصــوّر لنا بعض مشــاهد القيامة حيث يعــالج طــول الأمل عند الإنسان ، وأنّه لا

ينفعه يومئذ عذر ولا هو يستتاب.

وبالإضافة إلى هـذه المحـاور نجد في السـورة حـديثا مبثوثا بين أرجائه عن شـــــروط المعرفة ، وعن أهميتها ، وأنّ في القرآن من كلّ مثل.

كما أنّ السـورة فـذكّرنا بـالزمن ، وموقف المؤمـنين منه ، وضرورة الصبر حتى يأتي وعد الله.

سورة الرّوم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الم (1) غُلِبَتِ الـرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْـدِ غَلَبِهِمْ سَـيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْـعِ سِـنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُـونَ (4) بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُـرُ مَنْ يَشـاءُ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الـرَّحِيمُ (5) وَعْـدَ اللـهِ لا يُخْلِـفُ اللـهُ وَعْـدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُـونَ ظـاهِراً مِنَ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِــــرَةِ هُمْ غــــافِلُونَ (7) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ

---

4 [بضـع] : البضع القطعة من العـدد ما بين الثلاثة الى العشـرة ، وهو من بضعته أي قطعته.

بِلِقـاءِ رَبِّهِمْ لَكـافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كـانُوا أَشَـدَّ مِنْهُمْ قُـوَّةً وَأَثـارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَـرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنـاتِ فَما كـانَ اللـهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كــانَ عاقِبَـةَ الَّذِينَ أَسـاؤُا السُّـواى أَنْ كَـذَّبُوا بِآيـاتِ اللـهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (10)

---

9 [وأثاروا] : من الآثار بمعنى التقليب ، لأجل الزرع والإنبات.
10 [السوآى] : العقوبة المتناهية في السوء.

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ

هدى من الآيات :

تــبين آيــات هــذا الــدرس الأوّل من ســورة الــروم ، العوامل الخفيّة الـتي تغـرب عن بـال كثـير من النـاس ، ويضرب الله سبحانه مثلين على ذلك :

الأوّل : الهزيمة التي لم تلبث أن تحـوّلت إلى انتصـار للروم ، الـذين كـانوا يعتـبرون أصـحاب رسـالة مقارنة مع الفرس الذين كانوا مجوسا.

وقد كان الكفـار ــ الـذين يعلمـون ظـاهرا من الحيـاة الدنيا ـ قد تفاءلوا بانكسار الروم ، بيد أنّ الله سبحانه أكدّ نصر عباده ، وهكذا كان حيث فرح المؤمنون بنصر الله.

الثاني : يضرب الله مثلا لأولئك الذين امتلكوا حضـارة كانوا أشدّ قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وكذبوا برسالة الله لما جاءتهم.

إنّ الناظر البسيط السـاذج سـيظن أنّ تلك الحضـارة لن تبيد أبدا ، ولكن من ينظر

إلى عـواقب الأمـور ، ويسـتدلّ بـالظواهر عمّا وراءها من السنن الخفيّة ، فيرى في الحضارة مثلا جــراثيم التخلف ، والظلم ، والبغي ، وسحق الكرامات ، يعـرف أنّها حضـاره هالكة في سنوات تطـول أو تقصر حسب حجم الانحــراف فيها ، الا أن يغيّروا ما بأنفسهم.

بينات من الآيات :

(1) (**الم**)

ـ كما سبق القول ـ ربما تكون هذه الحروف المقطّعة إشارة إلى القرآن الحكيم ، وتهـدينا هنا إلى عظمة كشف القرآن لأسرار الخليقة ، وربما تكون رموزا لا يهتــدي إليها سوى أولياء الله.

(2) (**غُلِبَتِ الرُّومُ**)

انتصــرت الفــرس على الــروم ، وكــان المســلمون يــأملون انتصــار الــروم ، لأنهم مثلهم أصــحاب رســالة ، بعكس الفرس.

(3) (**فِي أَدْنَى الْأَرْضِ**)

في الشــرق الأدنى. وقد روى التـاريخ أنّ حربا طاحنة دارت رحاها خلال (24) عاما بين الفـــرس والـــروم بين السنين (604) وهاجم القائدان الفارسيان (شـهر بـراز) و (شـاهين) الأراضي المسـتعمرة للـروم ، واحتلّت القـوات الفارسـية الشـامات ومصر وآسـيا الصـغرى ، وكـان ذلك حوالي السنة السابعة من بعثة الرسول. [1]

---

(1) تفسير نمونه / ص (369) / ج (16).

ولقد سـجّل القـرآن أعظم الحـوادث التاريخية ، وبيّن عبرها والبصـائر الـتي نسـتوحيها منها ، وهكـذا اختصر هنا الإشارة إلى تلك الحادثة ، ثم أشار إلى نهاية الحرب فقال :

(**وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**)

إنّهم سـوف ينتصـرون بعد أن غلبـوا وانهزمـوا. وهـذه نبـوءة قرآنية بـدأ الله بها سـورة الـروم ، لكي لا ننخـدع بظاهر الأمور ، بل نرى القوى الخفيّة التي تكمن وراءها.

فبـالرغم ممّا حقّق الفـرس من انتصـار ، إلّا أنّ هـذا الانتصار كان مقدمة لانتكاسـتهم ، لأنّ هـذا الانتصـار كـان سببا لترهّلهم ، واسترخائهم ، وكان من أسباب انتكاستهم انتشار الطبقية المقيتة.

وفي عام (622) قاد الإمبراطور الرومـاني (هر قـل) حملة مضادة ، وألحق هزائم متتالية بجيش الملك الإيراني (خسـرو) ، واسـتمرت حملاته لعـام (628) حيث صـادف العام الخامس أو السادس للهجرة ، حيث كـانت الجزيـرة العربية تشـهد ولادة حضـارة إلهيّة ، وتتـوالى انتصـارات المسـلمين ، ولعـلّ أعظمها عسـكريّا تمثّلت في هزيمة الأحـزاب في حـرب الخنـدق ، واعـتراف قـريش بقـوّة المسلمين في صلح الحديبية.

(4) وبعد بضع سـنين إذا بـالروم ينتصـرون على الفرس ، وتتحقّق نبوءة القرآن فيهم.

(**فِي بِضْعِ سِنِينَ**)

وهذا التعبير يدلّ على تأثير عامل الزمن على جريـان سنن الله ، فبعض الناس يريـدون أن تجـري سـنن الله بلا أجل ، وهذا لا يكون ، لأنّه يتنافى وحكمة الابتلاء ،

وقد جاء في الأثر : أنّ الفترة بين دعوة موسى واسـتجابة الله له كانت أربعين سنة.

فقد روي عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال :

أملى الله تعالى لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، وكان بين أن قال الله عز وجل لموسى وهارون : «**قَـدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما**» وبين أن عرّفه الإجابة أربعون [2]

ثم يؤكد القرآن أنّ هذه السنة إنّما هي سنّة ظاهرة ، وأنّ السنّة الخفيّة ، والاسم الأعظم بيد الله ، الـذي يشـاء أن ينتصر الفرس أو ينهزموا ، أو ينهزم الـروم أو ينتصـروا ، إذا ما غيّر أيّ طرف ما بأنفسهم ـ سلبا أو إيجابا ـ.

(**لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ**)

وهذه الآية تعبير عن كلمة «إنشاء الله» فإذا شاء الله سينتصر الـروم على الفـرس ، وإن لم يشأ لا ينتصـرون ، قال تعالى : (**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ**) [3]

كما أنّ هذه الآية تهدينا إلى سنّة الحريّة الـتي ضـمنها الله للإنسان ليبتليه في الـدنيا ، إذ جعل ربّنا لنفسه البـداء في كل شيء ولا يكون لايّ شيء فـرض حتم عليه ، إلّا ما حتّم على نفسه ووعد به فلا يخلف وعده سبحانه.

(**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ**)

بماذا يفرح المؤمنون؟

---

(2) تفسير نور الثقلين / ج (2) / ص (315).

(3) الكهف / (23).

(**بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**)

فبعزّته يأخذ الكافرين ، وبرحمته يفتح للمؤمنين.

(6) لا شيء يحدّد أو يعجز إرادة الربّ العزيز المقتدر ، وكل شيء مستجيب طوعا أو كرها لمشيئته التي لا تـرد ، ولكن ذلك لا يعــني أنّه ســبحانه يريد شــيئا بلا حكمة أو يخلف وعـــدا أو ينقض عهـــدا ، كلا .. لقد وعد عبـــاده الصالحين النصر ، وهو لا يخلف وعده أبدا.

(**وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ**)

وانّما يخلف العاجز أو الجاهل ، وربّنا عزيز عليم.

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)

فـتراهم يركنـون إلى الظـالمين خشـية بطشـهم ، ولا يأوون إلى ركن الحق الذي وعد الله بنصره.

(7) أكثر الناس لا يعلمون طبيعة الدنيا ، لأنهم :

(**يَعْلَمُــونَ ظــاهِراً مِنَ الْحَيــاةِ الــدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ**)

فهم غافلون عن عـواقب الأمـور ، وإنّما يـرون ظـاهر الأمور ، ومن العواقب التي يغفلون عنها النشور.

إنّ الآخــرة هي غيب الــدنيا ، والــدنيا منطوية عليها ، ولكنّ أكثر الناس ينظرون إلى هذا الظاهر المشــهود دون ذلك الغيب. إنّهم ينظرون إلى سلطة الجبابرة ولا يعلمون أنّ ســـنة الله (الـــتي يســـمونها بلغتهم المادية قـــانون الطبيعة) تقتضي زوال

الظلم ، لأنّه باطل ، ولأنّ المظلوم يثور ضدّه. ولأنّ صراع الظالمين كفيل بالقضاء عليهم و.. و..

وإنّ سنن الله تجري ولكن عبر مسيرة الزمن ، فكما أنّ من يـزرع القمح سـوف يحصـده بعد مـدة ، كـذلك من يزرع الظلم سوف يحصد الانقلاب ، ولكن بعد مدّة أيضا.

وهـــذه هي حقيقة الجـــزاء الـــتي تتجلّى جزئيا في عواقب الأمور في الدنيا ، بينما تتجلّى في الآخـرة بصـورة تامّة ، حيث يجـــزى المـــرء على أعماله هنا لك الجـــزاء الأوفى.

ولعـلّ كلمة الآخـرة هنا تـدلّ على عاقبة الأمر سـواء قبل المـوت أو بعــده ، حيث فســرها البعض بالعاقبة في الــدنيا ، بينما الكلمة تطلق عــادة على ما بعد المــوت ، وإنّما نستوحي من الكلمة هذا المعنى الشـامل لأنّ الـدنيا والآخرة في منطق القرآن ـ حسبما يبدو لي ـ لا تنفصـلان ، إنّما هما حقيقة واحده تنكشف لذوي الأبصار في الدنيا ، ولا تنكشف لغيرهم إلّا بعد الموت.

(8) أو لا ينظــرون إلى أنّ تركيبة الحيــاة قائمة على أساس الحق ، والأجل؟

فالزمن جـزء من الكـون ، لأنّ الكـون متغيّر ، والتغيّر جزء من الكون ، والزمن جزء من التغيّر.

(**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى**)

والأجل المسمّى يدلّ على :

أولا : أنّ الله إنّما خلق الكـون بحكمة ولهـدف محـدّد سلفا ، وكذلك الإنسان

فما هو الهدف من خلقه الإنسـان؟ الهـدف ليس إلّا البعث بعد الموت.

ثانيا : هذه الآية تـدلّ على أنّ الكـون ينتهي لأنّه لأجل مسمّى.

وجاء في الحديث القدسي :

«**يا ابن آدم إنّما أنت أيّـام فـإذا مضى يـوم فقد مضى بعضك**»

إنّ النظرة الجامـدة إلى الخليقة مسـئولة عن أخطـاء منهجيّة عديدة ، ومن لم يحسب للزمن حسـابه فإنّه ليس فقط لا ينجح في حياته ، ويأوي إلى ظـلّ الكسل والترهّل ، بل وأيضا لا يعي حقيقة الدنيا التي جعل الأجل جزء هامّا فيها.

من جهة ثانية : إنّ الحق الـذي يعـني جملة السـنن الإلهية أسـاس الخليقة ، فما من شـيء إلّا وتحيط به أنظمة إلهيّة تحدّد مسيرته.

وإذا تعمّق الإنسان في هاتين الحقيقتين الحق والأجل اهتـدى إلى الإيمـان بـالبعث والنشـور ، لأنّه يعـرف أنّ الأسـاس الـذي خلق عليه الخلق هو ذاته الأسـاس الـذي خلق به الإنسان.

(**وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ**)

(9) (**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**)

لينظروا بأعينهم تجسيد تلك الحقائق التي سبقت.

(**كانُوا أَشَـدَّ مِنْهُمْ قُـوَّةً وَأَثـارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها**)

فلا ينخــدع البشر بما صــنعه ، من أســلحة تدميريّة ، ومن إثارته للأرض واستخراج خيراتها ، واستنبات وتحسين نوعيّة المزروعـــات ، ولا ينخـــدع بما عمّر من ناطحـــات السحب والمحطّات و.. و..

يجب أن نفكّر حقّا في العاقبة ، بالرغم من أنّنا نراهم أشد قوّة ، وإثارة للأرض ، وعمارة لها.

(**وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ**)

لقد أكمل الله لهم الحجّة ، فأرسل الرسل ينــذرونهم من الله ومن عذابه ، فلما كذّبوا برسله :

(**فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ**)

حين أرسل عليهم عذابه الوبيل.

(**وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)

(10) بعد ذلك يذكّرنا الـربّ بأحد سـننه وتقـاديره في الحيـاة والـتي قد لا يراها البعض ، وهي : إنّ عاقبة الـذين أساؤا ستكون السوأى ، بـأن يكـذّبوا بآيـات الله ، ومن ثمّ الاستهزاء بها ، وهذه الآية ـ في الواقع ـ تهـزّ الإنسـان من الأعماق ، ذلك أنّ الشيطان حين يخـدع البشر يهـوّن عليه السـيئات إلى أن يسـتدرجه من الـذنب الصـغير إلى أكـبر منه ، حتى تغطّي الذنوب كـلّ أعماله ، ومن ثمّ يـأتي إلى عقيدته ويســلبها منه ، ويتركه في جهنّم ، وإنّ الســيئات تشبه منحدرا ، كلما هوى أكـثر كلّما ازدادت جاذبية الأرض وضعفت مقاومته.

ولكنّ الســؤال : كيف يصل البشر إلى هــذه المرحلة من الضلال ، فيكذّب بآيات

الله ويستهزأ بها؟

والجواب : إنّ للإنسان في داخله قـوة تبريرية ، تـبرّر لضـميره فعل السـيئات ، فقد يـرى ــ مثلا ــ يتيما يمسك قطعة خبز يأكلها ، فيسلبها منه ، ويأخذها عنوة ، ثم يشعر بوخز الضمير ، وعتاب الوجدان ، فيعمل على تـبرير عمله ، بمجموعة من الأعـــذار المعلّبة ، فيقـــول مثلا : أولا : أنا جائع واليتيم ليس بجائع ، ثانيا : النـاس يعطـون اليـتيم ولا يعطونـني ، ومن الـذي يقـول بـأن اليـتيم ليس بسـارق للخـبزة ، وإلّا لما أكلها بعيـدا عن الأنظـار؟! وأخـيرا : من الـذي يـدّعي بوجـود العطف على اليـتيم؟! وشـيئا فشـيئا تتبدّل قيم هذا الإنسان حتى يصدّق قناعاته الجديدة ، فهذا الـذي عمل الـذنب بـدافع الغريـزة ــ الجنس ، الجــوع ، الخوف .... ـ يفعل الذنب بعدئذ بدافع التعـوّد على الـذنب نفسه ، فيصبح مجرما محترفا.

وهكذا كان نمرود وفرعون وسائر المستكبرين ، فهم لم يدّعو الالوهيّة من أوّل يـوم ، بل اسـتدرجهم الشـيطان حـتى أنسـاهم ذكر الله ، وأصـبحوا كـذلك يكـذّبون بآياته ، ويسـتهزءون بها .. من هنا يجب على الإنسـان أن يحسب حساب الخطـوة الأخـيرة حينما يقـرر اتبـاع الشـيطان في الخطوة الأولى ، يقول الله تعالى :

(**ثُمَّ كانَ عاقِبَـةَ الَّذِينَ أَسـاؤُا السُّـواى أَنْ كَـذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ**)

السوأى : مـؤنّث الأسـوء ، أي كـانت عـاقبتهم أسـوء عاقبة.

ونعـوذ بالله فهـذا البشر الضـعيف الحقـير المسـتكين المحتاج ليس فقط يكذب بآيات الله ، بل ويستهزأ بها.

اللـهُ يَبْـدَؤُا الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُـونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كـافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُـونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَــةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقـاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (16) فَسُـبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُـونَ وَحِينَ تُصْـبِحُونَ (17) وَلَـهُ الْحَمْـدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18)

---

12 (يُبْلِسُ) : الإبلاس الياس من الخـير ، وقيل : هو التحـير عند لـزوم الحجة.

فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ

وَحِينَ تُصْبِحُونَ

هدى من الآيات :

المجرمــون لا يعرفــون الحقيقة إذ تحتجب عنهم فلا يرونها ، أو لا يرونها بوضــوح كـاف ، لأنّ قــدرة الإنســان التسويليّة ــ حسب تعبـير القـرآن ــ تظـلّ تـزيّن له أفعاله الســيئة حــتى تســلب عقله ولا يكتشف الحقيقة إلّا بعد فوات الأوان ، وعند ما يموتـون أو يـنزل بهم عـذاب حينها يسـتيقظون من غفلتهم ، ويعرفـون أنّه كـان بإمكـانهم أن يصبحوا من أهل الجنة فصاروا من أهل النار.

وفي ذلك اليــوم يتفرّقــون ، ويتميّز المؤمنــون عن المجــرمين ، أمّا المؤمنــون فهم في روضــات يحــبرون ، بينما يلقى المجرمــون في النــار ، ونتســاءل : كيف يمكن للإنســان الخــروج من دائــرة الجريمة الــتي يرتكبها ، إما بســبب ضــغط شــهواته وأهوائه ، أو بضــغط الآخــرين كـالمجتمع والطـاغوت ، ويتخلّص من الآثـار الـتي تتحـوّل بمرور الوقت إلى حجاب غليظ يحجبه عن الحقيقة.

الجواب نجده في الحديث المروي عن أمير المؤمنين (ع) حيث قال وهو يوصي

أصحابه بالصلاة :

«**أرأيتم إلى الحمّة تكـون على بـاب الرجل فهو يغتسل منها في اليــوم والليلة خمس مــرّات ، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن**؟!» [1]

فالصـلاة تغسل ذنـوب البشر ، ولهـذا السـبب يـذكّرنا ربّنا سبحانه في آخر هذا الدرس بأوقات الصلاة.

بينات من الآيات :

(11) لكي لا يسترسل الإنسان في ارتكاب السـيئات فتنتهي به إلى العاقبة الســوءى يــذكّره الــربّ ســبحانه بالساعة ، حين يقدم الناس للحساب بين يـدي الله العليم القدير.

وبإيجـاز بليغ يـبيّن السـياق الحجّة على السـاعة : أو ليس الله قد بدأ الخلق؟ فهو إذا يعيده كما بدأه ، وهنا لك يرجع الناس اليه للحساب.

(**اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**)

أي يعيد الخلق بعد الفناء.

(**إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

يعني حين تعودون فإنّكم تعودون إليه.

ويحتمل أن يكون معنى «ثم يعيده» أي يطويه بالفناء ، كما نشره بالخلق ، ثم اليه يرجعون بالخلق من جديد.

(1) نهج البلاغة / ج (199) / ص (316 ـ 317).

(12) وحين الرجــوع إلى الله مــاذا ســيكون مصــير المجرمين؟

في ذلك اليوم يلوذ المجرمـون ــ الـذين طالما بـرّروا بألسـنتهم الحـادّة جـرائمهم ــ إلى الصـمت البـائس ، لأنّ الحزن الناشئ من اليأس قد أحاط بقلوبهم.

(**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ**)

جـاء في القـاموس : أنّ المبلس من لا خـير عنـده أو عنــده بلاس ، وفي مفــردات الــراغب : الإبلاس الحــزن المعـترض من شـدّة اليـأس ، ولمّا كـان المبلس كثـيرا ما يلــزم الســكوت ، وينسى ما يعنيه ، قيل : أبلس فلان إذا سكت ، وإذا انقطعت حجّته.

وربما الســبب في ســكوت المجــرمين الناشئ من حــزنهم ويأســهم هو : إنّ الله لا يــترك لأحد حجّة يــوم القيامة ، وقد بيّنت الأحــاديث التالية جانبا من احتجــاج الــربّ لعبــاده يــوم القيامة ، مما يفحم المجــرمين والمذنبين.

1 ـ عن المفيد ، عن ابن قولويه ، عن محمد الحمـيري ، عن أبيه ، عن هـارون ، عن ابن زيـاد قـال : سمعت جعفر بن محمد (ع) ـ وقد سئل عن قوله تعـالى : «**فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ**» ـ فقال :

«**إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ، عبـدي أكنت عالما؟ فـإن قـال : نعم ، قـال له : أفلا عملت بما عملت؟ وإن قـال : كنت جـاهلا ، قـال له : أفلا تعلمت حــتى تعمــل؟ فيخصم ، فتلك الحجة لله عز وجل على خلقه**» [2]

2 ـ وروى معاوية بن عمار قال : سـمعت أبا عبد الله (ع) يقول :

إنّ الرجل منكم ليكـــون في المحلّة فيحتج الله يوم القيامة على جيرانه فيقال لهم : ألم يكن فلان بينكم؟ ألم تسـمعوا كلامـه؟ ألم تسـمعوا بكـاءه في الليل؟

---

(2) بحار الأنوار / ج (7) / ص (285 ـ 286).

فيكون حجة الله عليهم [3]

3 ـ وروى عبد الأعلى مولى آل سام قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول :

«يـؤتى بـالمرأة الحسـناء يـوم القيامة الـتي قد افتتنت في حسـنها فتقـول : يا ربّ حسّـنت خلقي حتى لقيت ما لقيت ، فيجاء بمريم (ع) فيقال : أنت أحسن أو هـــذه؟ قد حسّـــناها فلم تفتتن ، ويجـــاء بالرجل الحسن الذي قد افتتن في حسنه ، فيقول : يا ربّ حسنت خلقي حتى لقيت من النساء ما لقيت ، فيجاء بيوسف (ع) فيقال : أنت أحسن أو هذا؟ قد حسّـنّاه فلم يفتتن ، ويجـاء بصـاحب البلاء الـذي قد أصابته الفتنة في بلائه فيقول : يا ربّ شـددت عليّ البلاء حـــتى افتتنت ، فيجـــاء بـــأيوب (ع) فيقـــال : أبليّتك أشد أو بلية هذا؟ فقد ابتلي فلم يفتتن» [4]

(13) (**وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ**)

يشـفعون لهم حيث تسـقط آنئذ تلك التصـوّرات بـأنّ الشركاء سيشفعون لهم. والشـريك هو الـذي يظن البشر أنّه كما الله قـادر عليم وغـير ذلك ، بيد أنه عند ما يشـرك الإنسان بالله فمن الطبيعي أن يتشـبّث بالشـركاء ، لأنه لا يترك ربّه الا بضغط من الشركاء ، سواء كان الطاغوت أم الهوى أم المجتمع ، وعموما كلّ من يستمدّ منهم الإنسان التشريعات ، فيحلّون له ويحرمون بغير هدى من الله.

ولكن ماذا عسى أن ينفعه الشركاء؟!

في ذلك اليوم الـرهيب لا يقف أحد من الشـركاء إلى جانب المجرمين للدفاع عنهم والشفاعة لهم.

(3 ، 4) بحار الأنوار / ج (7) / ص (285 ـ 286).

والواقع : إنّ فطــرة الإنســان تهديه إلى أنّه ضــعيف عـاجز وبحاجة إلى من يـركن إليه ، والشـيطان يضـلّه عن ربّه ، ويغويه إلى الشــركاء ، ويــزعم له أنّهم هم الــركن الذي يمكنه الاعتمـاد عليهم ، فيحجبه بـذلك عن ربّه ، وإذا سـقط الشــركاء عن عينه ، وعــرف أنهم لا يضــرّون ولا ينفعـون سـقط عنها حجـاب كـثيف كـان يمنعه عن رؤية الحقّ ومعرفة الربّ.

وفي يــوم القيامة يتــبيّن للمشــركين مــدى ضــلالة الاعتمـــــاد على الشـــــركاء ، حيث لا يشـــــفعون لهم ولا ينصرون.

وليس فقط لا ينفعـونهم ، بل ويتــبرّءون منهم ، وآنئذ فقط يعرفـون أنّ ضـغط الهـوى والمجتمع والطـاغوت لم يكن حقيقة بل وهما.

(**وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ**)

(14) (**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ**)

فريقان ، بعكس ما كانوا في الدنيا مختلطين.

(15) فريق في الجنة :

(**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ**)

الروضة : هي المكان الذي تكثر خضرته وطيبه.

ويحبرون : (من أصل حـبر) بمعـنى نضـرة النعيم في وجوههم. أو ليس تغمرهم حالة الرضا ، وتحيط بهم ألـوان النعم ، فتنعكس على وجوههم انبساطا وبشرا؟!

وقد أوّلت الكلمة هذه بأمرين :

الأول : الإكـــرام ، كما جـــاء في تفســـير علي بن إبراهيم.

الثـاني : التلـذذ بالسـماع ، كما روي عن رسـول الله (ص) أنّه قال :

«ما من عبد يـــدخل الجنة إلّا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتـان من الحـور العين تغنيـان بأحسن صوت سمعه الإنس والجن ، وليس بمزمار الشيطان ، ولكن بتمجيد الله وتقديسه» [5]

وعن أبي الدرداء قـال : كـان رسـول الله (ص) يـذكّر النــاس ، فــذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم ، وفي القوم أعـرابيّ فجثا لركبته وقـال : يا رسـول الله هل في الجنة من سماع؟ فقال (ص):

«نعم يا أعــرابي ، إنّ في الجنة نهــرا حافتــاه الأبكـار من كـلّ بيضـاء يتغنّين بأصـوات لم تسـمع الخلائق بمثلها قط ، فذلك أفضل نعم الجنة» [6]

والغنـاء إشـباع لحاجة الإنسـان الروحيّة ، فبالإضـافة إلى النعم المادية الـــتي يتمتّع بها المؤمنـــون في الجنة كالأكل والشـرب ، هنـاك نعمة معنوية وهي إشـباع القلب ذكــرا لله ومعرفة به وحبّا له ، وبــالرغم من أنّ الصــوت الحسن ليس كل اللّــذة الروحيّة ، إلّا أنّه لو كـــان يحمل للإنسان فكـرا وعلما ، وتـذكيرا بالله ، وهـدى يبلـور القيم الحق ، آنئذ يكون لذة جسميّة ومعنويّة في نفس الـوقت ، ولذلك جاء في الحـديث السـابق : أنّ السـماع أفضل نعم الجنة حين تمجّد الحور الله وتقدّسنه.

وهكذا كانت أعظم لـذات المـؤمن في الـدنيا الصـلاة ومناجاة الله سبحانه ، يقول رسول الله (ص):

---

(5) تفسير نور الثقلين / ج (4) / ص (171).

(6) المصدر.

«**حبّب إليّ من الــدنيا النســاء والطيب ، وقــرة عيني الصلاة**» [7]

وكان يقول (ص) لبلال حين يحين وقت الصلاة :

«**أرحنا بالصلاة يا بلال**»

وفي مناجات العارفين للإمام السجّاد (ع) يقول :

«إلهي فاجعلنا من الــذين ترسّــخت أشــجار الشــوق إليك في حدائق صدورهم ، وأخـذت لوعة محبّتك بمجـامع قلــوبهم ، فهم إلى أوكــار الأفكــار يــأوون ، وفي ريــاض القـرب والمكاشـفة يرتعـون ، ومن حيـاض المحبّة بكـأس الملاطفة يكرعون ، وشرايع المصافات يردون ، قد كشف الغطاء عن أبصارهم ، وانجلت ظلمة الريب عن عقائـدهم ، وانتفت مخالجة الشك عن قلــــــوبهم وســـــــرائرهم ، وانشـــرحت بتحقيق المعرفة صـــدورهم ، وعلت لســـبق السعادة في الزهـادة هممهم ، وعـذب في معين المعاملة شربهم ، وطاب في مجلس الأنس سرّهم» [8]

(16) هذا عن حال المؤمنين في الجنة ، فما هو حـال الذين كفروا؟!

(**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَـذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقـاءِ الْآخِـرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ**)

فالمؤمنون يذهبون ســراعا إلى الجنة ، أمّا الكـافرون فـإنّهم يســاقون إلى النــار ســوقا ، ولأنّ الجنة تزلف إلى أهلها فهي أمــامهم ، بينما تقــرّب النــار إلى الكــافرين ، ويساقون إليها في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا.

---

(7) الخصال / الشيخ الصدوق / ص (165).

(8) الصحيفة السجادية المناجاة الثانية عشر.

ولعـلّ الآية تعـالج مرضا روحيّا ، وتـبريرا طالما يـأوي إليه الجاحـدون ، ألا وهو تكـذيب لقـاء الله ، حيث يـزعم الكفّار أنّه بمجرّد تكذيب الساعة تسقط عنهم المسـؤولية ، بينما القرآن يؤكّد أنّ هـذا التكـذيب بذاته جريمة يعـاقب عليها الجاحـــدون ، فلم يوضع الحســـاب فقط لمن آمن بالسـاعة ، بل وأيضا لمن كـذّب بها ، حيث أنّه ينـال جـزاء تكذيبه كما ينال جزاء جرائمه.

(17) (**فَسُبْحانَ اللهِ**)

إن أردت أن تكـــون من أصـــحاب الجنة ، لا من أهل النار ، فسبّح الله واحمده آناء الليل وأطراف النهار.

(**حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ**)

حين غروب الشمس وحين طلوعها.

(18) (**وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

ونحمده لما نرى من آياته في السموات والأرض.

(**وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ**)

عشـيّا عند صـلاة العصر ، وعند الـزوال وقت صـلاة الظهر ، وهـذه مـواقيت الصـلوات الخمس الـتي ذكـرت جميعا إلّا صلاة العشاء لقربها إلى ميعاد صلاة المغرب.

بلى. حين يتنفّس الصباح أو تودّع آخر أشعة الشـمس الـــروابي ، وعند ما ينتصف النهـــار وفي وقت العشـــية ، تحدث تطوّرات على الطبيعة ، وفي نفس البشر ،

تقتضي تســبيح الــربّ ، لكي يطمئنّ الإنســان إلى خالقه الذي جلّ عن التغيّر ، والذي يهيمن على اختلاف الزمن.

إنّ تسـبيح الله وحمـده طـرفي الليل ووسط النهـار يمنع النفس من تقــديس الطبيعة الــتي تعكس في هــذه الحـــالات هيبتها عليها ، ومن النــــاس من يعبّر عن ذلك بالسجود للشمس والقمر ، وتقديس الأشجار والأحجــار .. وإنّ تسبيح الله وحمده يتسع مع آفاق الخليقة حتى يشمل السـموات والأرض ، فلا ينظر العـارف بربّه إلى شـيء إلّا ويتجلّى له الــربّ بجلاله وجماله فيتــوهّج فــؤاده تقديسا وحمدا.

وقد عبرت الآيات هنا عن اتسـاع تسـبيح الله وحمـده عـبر آنـات الزمـان وآفـاق المكـان ببيـان رائع وإيجـاز بليغ فقـال : فسـبحان الله ، وقـال : وله الحمـد. هكـذا بصـفة عامة دون أن يــذكر ذاكر التســبيح وقائل الحمد ، لان كل شيء يسبّح له ويحمده ، وتسبيح الله وحمــده هو مقتضى تحوّل الحـالات بتـدبير حكيم ، ذلك أنّ انتقـال الـوقت من المسـاء إلى النهـار ومن النهـار إلى المسـاء يعـني وجـود نقصا في الطبيعة ، فالطبيعة ليست ثابتة ، وإنّما هي متغيّرة ، فنستدلّ بهذا النقص على أنّ ربّها ومقدّرها ليس بناقص ، ولأنّ لكل متحرك ثابتا يحركه ، لذلك كل ما نــرى في الطبيعة من نقص نســبح الله ، فــالنقص في الطبيعة أمر حق ، وقد كان القدماء يستدلّون على الله بأنّ العـالم متغيّر ، وكل متغيّر حادث ، وكل حادث يحتاج إلى محــدث ، والمحدث هو الله. وجوهر هذا الاستدلال صحيح.

فالطبيعة أعجز من أن تخلق نفسـها ، أو تـديرها ، فلا بد لها من خالق مدبّر ، وهكذا استدلّ إبراهيم (ع) لما رأى أفول كلّ من الشمس والقمر والكوكب.

ونســــتوحي من الآية أنّ مواعيد الصــــلاة مرتبطة بتغيّرات الطبيعة لا بحسب الساعات ، كالسـاعة العاشـرة مثلا ، لأنّ الساعة العاشرة ليست حدثا في الكون ،

ولكنّ الأوقــات الــتي رســمها الله للصــلوات مرتبطة بالظواهر الطبيعية التي تنعكس على النفس ، وتحتاج إلى رؤية سليمة للتعامل معها.

وكلمة أخـيرة : إنّ لهـذه الآيـات فضلا كبـيرا لما فيها من التسبيح والحمد لله ، ولذلك جاء في الحـديث المـأثور عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّه قال :

«من قـال ــ حين يمسى ــ ثلاث مـرات : (**فَسُبْحانَ اللـهِ حِينَ تُمْسُـونَ وَحِينَ تُصْـبِحُونَ وَلَـهُ الْحَمْـدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِـرُونَ**)» لم يفته خير يكون في تلك الليلة ، وصرف عنه جميع شرّها ، ومن قال ذلك حين يصبح لم يفته خير يكون ذلك اليوم وصـرف عنه جميع شره [9]

(9) نور الثقلين / ج (4) / ص (172).

يُخْــــرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْــــرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَـذلِكَ تُخْرَجُـونَ (19) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِـرُونَ (20) وَمِنْ آياتِـهِ أَنْ خَلَـقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْواجـاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيــــاتٍ لِقَــــوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آياتِــــهِ خَلْــــقُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِـنَتِكُمْ وَأَلْـوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِلْعـالِمِينَ (22) وَمِنْ آياتِـهِ مَنـامُكُمْ بِاللَّيْـلِ وَالنَّهـارِ وَابْتِغـاؤُكُمْ مِنْ فَضْـلِهِ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آياتِـهِ يُـرِيكُمُ الْبَـرْقَ خَوْفـاً وَطَمَعـاً وَيُنَـزِّلُ مِنَ السَّـماءِ مـاءً فَيُحْيِي بِـهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُـونَ (24)

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

هدى من الآيات :

ذكرنا السـياق بآيـات الحمد والتقـديس الـتي ترتسم على محيّا الخليقة مسـاء وصـباحا ، وأنّى قلّبت وجهك في السـموات والأرض بصـرت تسـبيحا لله وسـمعت حمـدا. وتأتي آيات هذا الـدرس تبيانا لتلك الحقيقة من خلال واقع الإنسان نفسه ، حيث يخـرج الله الحيّ من الميت والميّت من الحي ، ونــرى من حولنا تقلّب الأشــياء بين الحيــاة والموت ، لنهتدي إلى قدرة الربّ الواسعة ، ونـؤمن بيـوم البعث.

وحياة الإنسان ابتدأت بخلقه من التراب ، وانتشاره ـ بــإذن الله ــ في الأرض ، وأعظم ما حفظ الله به نسل البشر الــزواج حيث خلق الــزوجين وجعل بينهما مــودة ورحمة ، ومن أبرز سنن الحكمة التي نظّم بها حياة البشر فوق هذا الكوكب اختلاف السـنة النـاس وألـوانهم (حسب الحاجــات المتباينة والــتي تتكامل في وحــدة منســقة) ليتعــارفوا ، ومن أهمّ النظم الحياتية الــتي أجراها الــربّ لحفظ البشر المنــام بالليل والنشــاط من أجل الــرزق (فسكون الليل يمهّد لحركة النهار ، والله يبارك

فيها للبشر) ، ومن أعظم نعم الله على البشر الـتي حفظ بها حياته على البسيطة نعمة الماء الذي ينزله من السماء ، فيحــيي به الأرض .. أو ليس كـلّ ذلك آيـات تهـدينا إلى أسماء ربّنا الحسـنى وإلى قدرته ورحمته وحسن تـدبيره؟ بلى. ولكنّنا بحاجة إلى التفكّر والعلم والســـــماع والعقل حتى نهتدي بهذه الآيات إلى معرفة الربّ وصفاته.

بينات من الآيات :

(19) (**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَي**)

آية الحياة أعظم آية يتعرف عليها الإنســان ، حيث أنّ الحيـــاة تنبعث من الأشـــياء الميتة ، وربما تشـــير الآية الكريمة إلى حقيقة مهمّة يغفل عنها الإنســـان عـــادة : فالحياة موجودة سواء في النطفة ، أو في الحبة الصغيرة ، ولكنّها من مجموعة أشـــــــياء ميّتة تنبعث وتتكامل ، فالأرض ميتة ، والاوكسجين ميّت ، والمـواد الكيمائيّة ميّتة ، بل والغذاء من الأرض بالنسبة للنبتة أو من مجموع عدّة أشياء بالنسبة للحي ميّت أيضا.

كلّ هذه الأشياء الميتة تحيط بـالنواة الحية داخل حبة الحنطة ـ مثلا ـ فتخرج منها نبتة كبيرة حيّة ، فربّنا سبحانه يخـرج هـذا الحي من الميّت ، والعكس صـحيح ، فعند ما يمـوت الإنسـان الحي هل تنتهي حياتـه؟ كلّا .. بل تبقى ، ولكن تنفصل الحيـاة عن الأجـزاء الميّتة الـتي كـانت حيّة بحياته ، وتبقى تلك النطفة الحيّة ، ونســتطيع أن نشــبّه تمدّد الحياة في الأشياء الميتة والعكس بمصـباح كهربـائي تضـيؤه في غرفة حيث إنّنا نجد أنّ الأشـياء في الغرفة قد أضيئت بالمصباح ، ولا يعني أنّ الضوء قد انتهى لو وضـعنا ذات المصــباح في صــندوق. إنّ الأشــياء في الغرفة لمّا أضيء المصباح أصـبحت اضـاءتها غيريّة ، لا ذاتيّة ، أي إنّ الأشياء لم تتحوّل إلى مادة النور .. ، وهكـذا تمـدّد الحيـاة في الجمادات.

والإنســان كــان نطفة حيّة في أصــلاب آبائه جمعت حولها الأجزاء الميتة بإرادة

الله ، حتى صار إنسانا سويّا ، فأخرجه الله من الميّت ، ثم يعود كما كان عند ما يموت ، فتبقى الحياة في القبر ولكن في حالة هجعة ، ثمّ تنمو مرة أخرى في يوم القيامة ، ويعود كما كان خلقا آخر ، فيكون المعنى كالتالي : يخرج الله الحي من الأشياء الميتة ، ويخرج الميت من الحي حين تتحلل الأشياء الميتة ـ أصلا ـ عن الحي ، وتبقى نطفته الأساس.

وكما يحيي الله الأرض بالمطر ، كذلك يحيي الإنسان في الآخرة فيقول سبحانه : «**وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً**» (1)

وفي الروايات عن جعفر بن محمد الصادق (ع) قال :

«**إذا أراد الله عز وجل أن يبعث الخلق أمطر السماء أربعين صباحا ، فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم**» (2)

وهناك تفسير آخر للآية يقول : إنّ الله يخرج الحياة من الأشياء الميّتة كما خلق الإنسان من التراب ، ويخرج الشيء الميّت من الحي كما يميت الإنسان.

ولكن يبدو لي أنّ التعبير القرآني لا يتناسب وهذا التفسير ، كما أنّه لا يتناسب ومعلوماتنا الحديثة عن الحياة والموت.

ثم قال ربّنا :

(**وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**)

إنّ منظر الحياة تدبّ في الأرض الموات يبعث البهجة في القلب ، ويهدينا إلى

---

(1) نوح / (17).

(2) بحار الأنوار / ج (7) / ص (33).

جلال خالقنا العظيم ، كما يهدينا إلى قدرته الواسعة الـتي يخـرج بها النـاس من قبـورهم كما يخـرج الخبأ من رحم الأرض.

(**وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ**)

وإنّ للآية تأويلا بيّنته

الرواية المأثورة عن الإمام الكاظم (ع) قـال : «ليس يحيها بـالقطر ، ولكن يبعث الله رجـالا فيحيـون بالعـدل ، فتحيي الأرض لإحياء العـدل ، ولإقامة العـدل فيه أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحا» [3]

كلما أمعن النظر البصـــير في تقلب الأشـــياء بين المـوت والحيـاة كلما ازداد معرفة بقـدرة ربه ، وانه يبعث الناس بعد الموت.

(20) ومن آياته سبحانه خلق الإنسان من التراب في عالم الذر ، ثم أودعه في أصلاب الرجال وأرحام النساء.

(**وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ**)

قـــــال العلامة الطبرسي في قوله : (**خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ**) أي خلق آدم الذي هو أبوكم وأصـلكم (**مِنْ تُـرابٍ**) ثم خلقكم منه وذلك قوله : ثم إذا أنتم تنتشـرون [4] ولكن يبـدو أنّ التفسـير المناسب وأحـاديث المعصـومين هو انّ الله خلقنا جميعا ذرا من الـتراب ، ثم أودعنا صـلب أبينا آدم (ع) ثم نشرنا بقدرته.

(21) ومن آياته سـبحانه الحاجة إلى الجنس الآخر ، تلك الحاجة التي تتجاوز

---

(3) نور الثقلين / ج (4) / ص (173).

(4) تفسير مجمع البيان / ج (8) / ص (299).

الجسد لتتصل بالروح ، وتنتهي حالة التوتّر لـدى الطـرفين بالزواج.

إنّ حالة التوتّر الموجودة لدى الطرفين تـدلّ على أنّ خلق الإنسان لم يكن عضويا ، فالله عزّ وجـلّ جعل نظـام الكــون قائما على أســاس الزوجيّة في كـلّ شــيء قــال تعـــــــــالى :

(**وَمِنْ كُـلِّ شَـيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ**) [5] وهو سـبحانه الـذي خلق الزوجين الذكر والأنثى.

ولم لم يكن الإنسان ليجوع لما شـعر بلـذّة الطعـام ، كـذلك لو لم يتـوتّر لما شـعر بلـذّة الـزواج ، وهـذا دليل التقدير في الحياة.

(**وَمِنْ آياتِـهِ أَنْ خَلَـقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْواجـاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها**)

إنّ الله جعل اسـتمرار حيـاة نـوع البشر عـبر التقـاء الذكر بـالأنثى ، ولكن هـذا الالتقـاء لا يتمّ قسـرا ، إنّما يتمّ برغبة الطــــرفين ، فيبحث الرجل عن أنثــــاه ، وقد يلقي بنفسه إلى التهلكة حــــتى يجــــدها ، ولو لا هــــذه الرغبة الجامحة للـــــزواج لتخلّى عن الــــزواج رأسا ، لما فيه من مسـئوليات كبـيرة ، ولكنّ الله الـذي جعل خلقة الإنسـان عن طريق الــــزواج هو الــــذي جعل فيه حاجة نفســـية لا تتحقق إلّا به فقال :

(**وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**)

الزوجان اللذان لم يعرفا بعضهما حـتى لحظة الـزواج يندمجان معا ، وكأنّهما روح واحدة تقمّصت بدنين.

إنّ الصـلة الـتي يمتّن ربنا أصـرتها بين الـزوجين ومن خلالهما بين سـائر أبنـاء المجتمع تتجـاوز المـودّة الماديّة القائمة على أســاس المصـــالح المشـــتركة والخـــدمات المتبادلة

---

(5) الذاريات / (49).

لتصبح صلّة روجية يفكّر كـلّ طـرف في مـدى عطائه قبل أن يبحث عمّا يأخـــــذه ، وقد يضـــــحي بنفسه من أجل المحافظة على قرينه أو قريبه.

وبتعبـــير آخر : ينطلق التقــــاء الـــزوجين من أرض الشـهوة الجنسـية ، والحاجة إلى إشـباع الحاجـات المادية المختلفة ، ولكنه لا يقف عند هـذا الحد ، بل يمضي قـدما حتى يصبح حبّا عميقا ، يقوم على أساس الإيثار والعطاء ، ويصل إلى حدّ الفداء والتضحية.

وهكذا تكـون العلاقة في البداية «المـودة» ، ولكنها لا تلبث حتى تصبح «رحمة»

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)

وهدف التفكّر هو إثارة المعلومـات الظـاهرة وتقليبها على بعضها للحصول على معلومات جديـدة ، وحين يتفكّر الإنسان في ظواهر الحياة المحيطة به والتي قد يسـتخف بها لأنها أصــبحت جــدّا واضــحة ، فإنّه يبلغ غــور المعرفة ويفهم حكمة الحياة.

(22) ومن آياته ســبحانه خلق الســموات والأرض ، واختلاف ألوان الناس وألسنتهم ذلك الاختلاف الواسع.

(**وَمِنْ آياتِــهِ خَلْــقُ السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ**)

يبــدو أنّ هنــاك علاقة بين خلق الســموات والأرض ، وبين اختلاف اللّـون واللّسـان ، وربما تكـون هـذه العلاقة موجودة ، ففي المناطق الإستوائية لون البشرة سـمراء ، وتقلّ السمرة كلّما ابتعدنا عن خط الإستواء ، حتى تتحوّل الألوان من

الأسـمر حـتى الأبيض فالأصـفر ، وهـذا الاختلاف يسـهّل التعارف الذي هو أساس تنظيم الحياة البشريّة. والحـديث التـالي يـبيّن كيف أنّ طبـائع الأرض ذات أثر في اختلاف البشر ، وما هي حكمة هـذا الاختلاف : يسـأل رسـول الله (ص) عبد الله بن يزيد بن سـلام فيقـول : فـأخبرني عن آدم لم سمّي آدم؟ قال :

«**لأنه من طين الأرض وأديمها**»

قـال : فـآدم خلق من الطين كلّه أو من طين واحـد؟ قال :

«**بل من الطين كلّه ، ولو خلق من طين واحد لما عرف الناس بعضـهم بعضا ، وكـانوا على صـورة واحدة**»

قال : فلهم في الدنيا مثل؟ قال :

«**التراب فيه أبيض وفيه أخضر وفيه أشقر وفيه أغـبر وفيه أحمر وفيه أزرق وفيه عـذب وفيه ملح وفيه خشن وفيه لين وفيه أصـهب ، فلـذلك صـار النـاس فيهم لين وفيهم خشن وفيهم أبيض وفيهم أصفر وأحمر وأصهب وأسود على ألوان التراب**» [6]

أمّا اختلاف اللسـان فهو خاضع للظـروف والبيئة المحيطة بالإنسان.

وهـذا الاختلاف دليل الحكمة ، ذلك لأنّ كـلّ نـوع يتناسب ومحيطه ، كما لو رأينا اختلاف أجهـزة الطيّـارة ومختلف أجزاءها ، وعرفنا كيف أنّ كـلّ جهـاز يقـوم بـدور وهو مناسب لدوره ولو بدلنا جهازا أو جزء من جهاز يجهاز آخر أو جزء ثان لما تكاملت الطيارة ونهتدي من وراء ذلك إلى كلمة صانع الطيّارة.

---

(6) نور الثقلين / ج (4) / ص (177).

(23) ومن آياته ـ عزّ وجلّ ــ منـامكم بالليل والنهـار ، وحسبما أعلم لم يتوصّل العلماء حتى الآن إلى سرّ النــوم ، وكيف ينـــام ، ولمـــاذا عند ما يتعب الإنســـان تـــتراخى أعضاؤه وينام ، ويكون مثله مثل الميت؟

(**وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ**)

فالإنسان ينام ليلا ، وقد ينام نهـارا في القيلولة ، وقد أكـدّت بعض الروايـات على اسـتحباب نـوم النهـار إذ أنّه يسـاعد على قيـام الليل ، وقد جـاءت بعض الروايــات لتوضح حقيقة النوم.

1 ـ عن أمير المؤمنين (ع) قال :

«**النوم راحة من ألم ، وملائمة الموت**» [7]

2 ـ عن أبي عبد الله (ع) قال :

«**ان النـوم سـلطان الـدماغ ، وهو قـوام الجسد وقوته**» [8]

(**وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ**)

نهارا.

ما الــذي يـدفعك إلى الحصـول على الـرزق ، وبينك وبينه الكثير من العقبات ، إنّك تصل إلى رزقك عـبر حاجة غريزية ولو لا تلك الحاجة الملحّة ، ولو لا قدرات الإنســان العقلية والجسدية الـتي تمكّنه من تحصـيل رزقه بتسـخير ما في الأرض ، لما

---

(7) غرر الحكم.

(8) بحار الأنوار / ج (62) / ص (316).

بقيت الحيـــــــاة. أو ليس في ذلك دليلا على حكمة خالقه ولطف عنايته ، ودقة تدبيره؟

ثم إنّ لكـلّ شـخص رزقه الـذي يهديه إليه ربّنا ، ولو أمعنا النظر في أحـوال النـاس لغمرنا الإيمـان بربّنا الـذي يهيئ لكلّ واحد منهم طريقا للـرزق حـتى لا يـدع أحـدا إلّا ويطعمه من رحمته.

جاء في الدعاء :

(اللهمّ إنّه ليس لي علم بموضع رزقي ، وإنّما أطلبه بخطـرات تخطر على قلـبي ، فـأجول في طلبه البلـدان ، فأنا فيما أنا فيه كـالحيران ، لا أدري أفي سـهل هو أم في جبل ، أم في أرض أم في سماء ، أم في بـرّ أم في بحر ، وعلى يد من ، ومن قبل من ، وقد علمت أنّ علمه عنـدك وأسـبابه بيـدك ، وأنت الّـذي تقسـمه بلطفك ، وتسـبّبه برحمتك ، اللهمّ فصـــــــلّ على محمد وآله واجعل يا ربّ رزقك لي واسـعا ، ومطلبه سـهلا ، ومأخـــذه قريبا ، ولا تعنّـني بطلب ما لم تقـدّر لي فيه رزقا ، فإنّك غـنيّ عن عذابي وأنا فقير إلى رحمتك ، فصلّ على محمد وآله وجد على عبدك بفضلك إنّك ذو فضل عظيم) [9]

(24) ومن آياته رزق الإنسـان من السـماء ، فهو سبحانه يرسل السحاب حاملا معه الخـوف والطمع ، ذلك أنّ الإنســان يخشى الســحب الــتي قد تكـــون نــذيرا بالصـواعق أو السـيول ، ولكنّه يطمع في خيراتها في ذات الوقت.

(**وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)

(9) مفاتيح الجنان / تعقيب صلاة العشاء.

وللــــبرق قيمة زراعيّة ، إذ أنّه يـــؤمن الجو فيتكـــوّن المـــازوت من انـــدماج ذرّات الأوكســـجين بالهيـــدروجين بالنيتروجين.

هــذا التناسب في الكــون دليل على أنّ الّــذي يقــدّر الكون ويديره هو الله سـبحانه ، وأنّ هـذه الآيـات القرآنية المبثوثة في الكـــون لا يفهمها ولا يســـتفيد منها إلّا أولئك الذين يفكّرون ويستفيدون من عقولهم.

ذكر الله سبحانه في هذه الآيـات أربع جمل عقب كل آية ، ولعلّها تخبر عن مراحل المعرفة ، فقال تعالى :

«**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**»

«**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ**»

«**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**»

«**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**»

فنحن بحاجة إلى الفكر والعلم والسماع والعقل.

فنحن نفكّر حــتى نحصل على العلم ، والعلم يــدعونا للاستفادة من علوم الآخرين عبر سماع علومهم وأخبارهم ، وعند ما نجمع علومنا إلى علـــومهم آنئذ نعقل ، وعند ما نعقل نصــبح مؤمــنين بالله عــزّ وجــلّ ، لأننا نســتطيع أن نستوعب آياته ونتوصّل بها إليه.

وَمِنْ آياتِــهِ أَنْ تَقُـومَ السَّــماءُ وَالْأَرْضُ بِـأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُـونَ (25) وَلَـهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (26) وَهُوَ الَّذِي يَبْـدَؤُا الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ وَهُـوَ أَهْـوَنُ عَلَيْـهِ وَلَـهُ الْمَثَـلُ الْأَعْلى فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (27) ضَـرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِـكُمْ هَـلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمــانُكُمْ مِنْ شُــرَكاءَ فِي ما رَزَقْنــاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَـذلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُـونَ (28) بَـلِ اتَّبَـعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللــهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (29) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

27 [المثل الأعلى] : الصفات العليا.

اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَلا تَكُونُـوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُـوا دِينَهُمْ وَكـانُوا شِـيَعاً كُـلُّ حِـزْبٍ بِما لَـدَيْهِمْ فَرِحُـونَ (32) وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُـرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

فأقم وجهك للدين حنيفا

هدى من الآيات :

بعد أن أرسى الـذكر قاعـدة الإيمـان في النفس حين ذكر بآيات الله في خلقه البشر شـرع في تصـفية الإيمـان من رواسب الشرك ، تلك العقبة الكأداء في طريق البشر الى ربّه ، والشرك في القـرآن الكـريم ليس لونا واحـدا ، بل لأنّه نقيض الإيمـان فهو متعـدّد الأبعـاد ، والألـوان ذلك لأنّ من يـترك الحـقّ ويتجه إلى الباطل فليس بالضـرورة أن يعبد بـاطلا من نـوع واحد ، بل إنّ كـلّ كـافر قد يعبد باطلا مختلفا عمّن سواه ، فمن اتبع هواه فقد أشرك بالله ، وهكـذا من اتبع سـلطانا جـائرا أو مجتمعا فاسـدا أو غنيّا مترفا ، فقد أشـرك بالله سـبحانه ، وهكـذا من فـرّق دينه حسب هواه ، وهكذا كلّما لم يكن إيمان المرء خالصا كـان مشوبا بالشرك.

وكلّما أردنا معالجة نـوع من الانحـراف لا بد أن نؤكّد على التوحيد ، لأنّ التوحيد عصـمة الإنسـان وحصـنه من الانحـراف ، وكل انحـراف عن طريق التوحيد هو بالتـالي سقوط في ماديّة الشرك.

ويـــذكّرنا الـــربّ بنظـــام الســـموات والأرض وحسن التـــدبير في حركتهما ، لعلنا نهتـــدي الى قـــدرة المـــدبّر الحكيم الواسعة والـتي تحيط بنا من حولنا ، ونـؤمن بيـوم النشور حيث يدعونا دعـوة واحـدة ، فـإذا بنا خـارجون من القبور بلا تريّث أو تباطؤ.

وما دامت الهيمنة التامّة له فإنّ كلّ شيء مملـوك له قانت لأمره ومطيع لسلطانه أو ليس قد بـدأ الخلق ، وهو يعيـده بأيسر ممّا خلقه ، وإنّه له الأسـماء الحسـنى الـتي تهـــــدي إليها آياته في الســــموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم؟ بلى. إذا لا ينبغي الشرك به. أو يجوز أن يشـركك فيما تملكه بجهد غـــيرك ممن لا ســـلطان لـــه؟ كلا .. إذا حـرام أن نشـرك بربّنا من خلقه أحـدا .. هكـذا يـبيّن ربّنا آياته بوضوح بـالغ لمن يعقل ، أمّا الـذين ظلمـوا فـإنّهم لا ينتفعون بعقولهم بل يتبعون أهواءهم بغير علم ولا يهـديهم الله. أرأيت من لم يهده الله هل يهديه من بعـده أحـد؟ أو هل ينصره أحد؟

دين التوحيد فطـرة إلهيّة خلق الله النـاس عليها ، ولا تبـديل لخلق الله وهو دين قيم لا عـوج له ولا أمت ، وإنما يخالفه الناس لجهلهم ، فعلينا أن نتبعه طاهرا من الشرك ، ونعـود إليه كلّما أبعـدتنا عوامل الانحـراف ، مسـتعينين بالصـلاة الـتي هي ركن كيـان التوحيد ، فلا نشـرك بربّنا أحدا.

وآية التوحيد في الواقع وحـــــدة الـــــدين ، وألّا نفرّقه ونكـون شـيعا متفـرقين ، يفـرح كل شـيعة بما يملكـون ، ويتركون ما يؤمنون به من الدين الّذي يوحّدهم.

إنّ ما يملكه كـــلّ حـــزب زيف يتلاشى عند ما يمس الناس ضر ، إذ يـدعون هنا لك ربهم عائـدين اليه ، ولكنّهم إذا أحسّـــوا برحمة لا يثبتـــون جميعا على الهـــدى ، بلى. يشركون بربهم ، وهذا عين الكفر بالنعمة ، ويهـددهم الله بزوالها وسوف يعلمون مدى خسارتهم بالشرك.

بينات من الآيات :

(25) بين القــدر والقضــاء ما بين التشــريع والتنفيذ ، ولقد سنّ ربّنا للخليقة سننا نســميها بالأنظمة والقــوانين ، ولكنّها لا تعني شيئا لو لا إجرائها وإمضائها وتنفيذها والّذي لا يكون إلّا بالقضــاء وهو يتجلّى في أمر الله ، فما هو أمر الله؟

لكي نعــرف قــدرا من ملكــوت الســموات والأرض يســتخدم القــرآن ألفاظا تعوّدنا عليها في حياتنا اليومية ، فنحن حينما نريد أن يتحقق شــيء نــأمر به من هو دوننا ، وعند ما يريد الله شيئا يأمر به ولكن أمره مشيئته الـتي لا رادّ لها.

والســموات والأرض منظمة بتقــديرات إلهية وســنن ثابتة ، ولكن من يطبّق تلك النظم ويجري تلك السنن؟

إنّه ربنا وبماذا؟ بأمره.

إذا أمــره مظهر ســلطانه الــدائم وهيمنته على كــلّ صغيرة وكبيرة.

دعنا نضرب مثلا ـ وتعالى الله عن الأمثال ـ :

إنّ الساعة الصغيرة ليس فيها نظام داخلي فحسب ، بل فيها أيضا قـوة تجعل هـذا النظـام يطبّق ، فلو سـحبت هذه القوة لتوقّف النظام ، هكـذا أمر الله لو انعـدم فرضا فان الكون ينتهي ، وذلك لسببين :

أولا : لأنّ النظـام يتوقف تماما لعـدم وجـود ما يقـوم به.

ثانيا : لأنّ وجــود الخلق ذاته ينتهي ، لأن وجــود كــلّ شيء قائم بأمر الله سبحانه ، ولعلّ الآية التالية تشير الى كلا السببين :

(**وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ**)
بأمره قامت السموات والأرض ، وكلمة «أمر» توحي بالقـــدرة التامة ، وبـــأنّ الفعل لا يكلّف صـــاحبه عملا ولا يورثه نصــبا ، وهو أصــدق تعبــير عن قيــام الخليقة بالله سبحانه جاء في الدعاء :

(**وجعلت الشمس والقمر والبرية سراجا وهاجا ، من غير أن تمارس فيما ابتدأت به لغوبا ولا علاجا**) [1]

وكلمة القيــام تــوحي بتمــام الشــيء وكماله فكما إنّ البشر حين يقوم يكون على أتمّ استعداد وفي أفضل حالة ، فكذلك قيام السموات والأرض تعبير عن أفضل حالاتهما ، ومعـروف ان تمـام الشـيء لا يعـني مجـرد وجـوده ، بل وأيضا صلاحه وسلامته كل ذلك يدلّنا على تمـام قـدرة ربّنا ومطلق ســـلطانه وانه يقيم الخليقة ب (أمـــره) فهو إذا يهلكها ب (أمره) ويعيدها ب (امره).

والإنسان بين الخليقة يقـوم بـأمر الله ، ويهلك بـأمره ودعوته ، وينشر بأمره ودعوته ، وقد اسـتخدمت هنا كلمة الدعوة لان البشر صاحب عقل ، والعاقل يدعى فيجيب.

وقدرته هي الـتي تسـتطيع ان تعيد ما في السـموات وما في الأرض الى ما كانت عليه سابقا.

(**ثُمَّ إِذا دَعـــــاكُمْ دَعْـــــوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ**)
حين يأمر إسرافيل أن ينفخ في الصور فـإذا هم قيـام ينظرون ، يخرجون من

---

(1) مفاتيح الجنان / دعاء الصباح.

الأجداث إلى ربّهم ، وكلمة «إذا» تدلّ على المفاجأة.

أي تخرجـــون كلكم جميعا ، دفعة واحـــدة ، بمجـــرد دعوته إليكم دون ان تملكـوا قـدرة الامتنـاع والتمـرد أو التريث والتباطئ.

(27) والله يبـدؤا الخلق بقدرته ، إذا فهو أهـون عليه حين يعيـده ، وبالنسـبة إلى المخلـوق فـإنّ تقليد شـيء مصـنوع أسـهل من ابتكـاره ، أمّا بالنسـبة إلى الخـالق المبدع فإنّ الأمـور لا تقـاس بالصـعوبة أو بالسـهولة ، لأنّ أمره بين الكاف والنـون ، (**إِنَّما أَمْـرُهُ إِذا أَرادَ شَـيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**) [2] وإنّما عبّر بأنّه أهون لبيـان هـذه الحقيقة ، أنّ اعـادة الشـيء بعد الخلق بـذاتها أهـون من ابتداع خلقه (حتى ولو كانا بالنسبة إلى قـدرة الله سـواء) فلما ذا نـراهم يؤمنـون بـأوّل الخلق ، ويكفـرون برجعته ، وهي عند الله يسير؟!

ومن هنا قـال الحكمـاء : إنّ الكلمـات عـاجزة عن التعبـير عن ذات الـربّ سـبحانه ، وإنّما تعبّر عن أسـمائه وأفعاله ، وقالوا : خذ الغايـات واتـرك المبـادئ ، فـإذا قلنا انّ الله رحيم ، فإنّنا لا نعني أنّ لله قلبا ينبض بـالحب ، بل انه عند ما يـرحم يفعل موجبـات الرحمة ، وكـذلك عند ما نقول : «**هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**» «**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**».

وهو إذ يبـدأ الخلق وإذ يعيـده هينا لا يمـارس لغوبا ولا علاجا ، ولا يحتـــــاج إلى أدوات وآلات ، ولا تجد في خلقه ثغـرات أو فطـورا ، وكلما مشـيت في منـاكب أرضه ، وقلّبت وجهك في ملكـوت سـماواته ، وأنعمت النظر في عظيم تـــدبيره ، وحسن نظامه ، ومتانة صـــنعه ، كلّما ازددت بصـيرة بأسـمائه الحسـنى بأنّه الملك القـدوس السلام

(2) يس / ص (82).

المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، وبالتالي بأنّ له المثل الأعلى الّذي تشير إليه آيات الجمال والكمال في السموات والأرض.

(**وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

بلى. السموات عظيمة واسعة ، وجميلة ، ورائعة النظام ، وحسنة التدبير ، إذا فهي تهدينا إلى أنّ لربنا المثل الأعلى فهو العظيم الواسع (قدرة) والجميل والمدبر. وفي الأرض آيات الجمال والجلال وهي تهدينا إلى سلطان الربّ وملكوته وسائر أسمائه الحسنى.

ولأنّ لربنا المثل الأعلى فلا يمكن أن نقيس به شيئا فهو الأعلى مما نرى ومما لا نرى في السموات والأرض ، ولا يجوز إذا أن نشبّهه بشيء أو نتوهّمه أو نتصوره سبحانه ، جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق (ع) في تفسير الآية :

«الّذي لا يشبهه شيء ولا يوصف ولا يتوهم فذلك المثل الأعلى» [3]

(28) يضرب ربنا سبحانه مثلا من واقع الجزيرة العربية ، حيث كانوا يعيشون نظام السادة والعبيد فيخاطبهم : هل يقبلون أن يشاركهم عبد من عبيدهم ما يملكون فهم وإياه سواء ، علما انه وما يملك لهم؟!

إذا كانوا لا يوافقون على هذا الاقتراح. فكيف يجعلون لله أندادا؟!

(**ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ**)

متساوون في الشركة ، وأكثر من ذلك ...

---

(3) نور الثقلين / ج (4) / ص (180).

(تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

كما هي عادة الشركاء يخاف بعضهم من بعض ، فهل تخافون عبيدكم؟ كلّا ..

(كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

لأنّه لا يعقل آيات الله إلّا ذوي الألباب.

(29) والحقيقة هي : إنّ الذين يشركون ليس يتبعـون شـــريكا كرها ، ولا يضـــلّون عن الحق لغموضه أو لعـــدم قدرتهم على معرفته ، بل لاتباعهم الهوى.

(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

وعبادة الهوى هو جـوهر الشـرك ، لأنّ المشـرك إنّما يتبع طاغوته خـوف الـذبح ، ولا يخضع المشـرك للغـني إلّا طمعا في ماله ، فالمشـــكلة بالنســـبة إلى المشـــرك هي حبّ الخلود والراحة.

والآية تـذكّرنا بـأنّ الظلم أسـاس اتبـاع الهـوى ، وهو بدوره سبب الضـلالة ، ولعـلّ ذلك يهـدينا إلى دور الفسـاد في العلاقـات الاقتصـادية والسياسـية والاجتماعية ودوره في ضلالة الإنسان.

فإذا كانت العلاقات القائمة بين أبنـاء البشر سـليمة ، ولم يكن بعضـــهم يظلم بعضا ، لم تكن حاجة إلى اتبـــاع الهوى.

كما تـذكّرنا الآية انّ الهـوى والعلم ضـدّان ، فمن اتبع هـواه رحل عنه العلم ، ومن خـالف هـواه استضـاء بنـور العلم ، والّذي يتبع هواه بغير علم سوف يضله الله.

(**فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ**)

إنّ الله يضل الإنســـان ، ويســـلب منه علمه إذا لم يعمل بـذلك العلم ، وتـرك علمه إلى جهله ، واتبع هـواه ، ولا يجد إذا من يهديه من دون الله.

ثم إنّ الإنسـان يتبع هـواه ، ويطيع الأنـداد ، طمعا في نصـرتهم ، وبحثا عن القـوة عنـدهم ، ولكنّ الله يـذكّرهم بأنهم لا ينتصـرون له إذا جـاءه عـذاب الله ، إذ لا يقـدرون على ذلك.

(**وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ**)

في الـدنيا والآخـرة من الـذين عبـدوهم ، وما لهم من شافعين.

وهذا يعني أنّ الإنسان يحتـاج في حياته إلى شـيئين : عقل يهديه ، وقـــوة تنصـــره ، فمن اتبع هـــواه فقد خسر العقل والقوة معا.

(30) ثم يقـول الله للإنسـان : إذا أردت أن تعبد الله حقّا ، عليك أن تنحـــرف عن كل الضـــغوط ، وبتعبـــير آخر عليك ان تكون حنيفا عن الشرك طاهرا نظيفا.

(**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً**)

الوجه أظهر شـيء عند الإنسـان ، ولـذلك يعبّر به عن مواقفه وجهة سـيره فيقـال : توجّهـات فلان أي طريقته وسلوكه.

والقيام بمعنى الكمال ، لأنّ الإنسان يكون في أفضل حالاته عند القيام ، ولذلك يقـول الـذكر : «**أَقِمِ الصَّـلاةَ**» تعبيرا عن إتيانها بالوجه الكامل.

ويعبّر الذكر هنا عن خلوص العمل بالدين عن شوائب الشرك ب «**أَقِمْ وَجْهَكَ**

لِلدِّينِ» لأنّ مجرد قبول الدين لا يكفي ، بل ينبغي تطبيق كل المواقف والسلوكيات والتوجهات مع شـرائعه ، ويؤكد ذلك قوله سبحانه «حنيفا» أي طاهرا من رجس الشرك ، ودنس الرذائل.

ولا يكون ذلك إلّا بتحدي الضغوط.

فالحنيفية حقّا أن تقـــــدم ومنذ البداية على مخالفة المشركين ، انك ان تتبع الـذين يضـلونك بغـير علم فـأنت لست على طريق مســـــــتقيم ، يجب ان تشق طريقك بنفسك ، الى حيث ..

(**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها**)

حيث الاســـتقامة. وهـــذا يعـــني أنّك إذا كنت تواجه ضـغوطا خارجية تـدعوك لاتبـاع الطريق المنحـرف فـإنّ هنـاك ضـغطا معا كسا في ذاتك يـدعوك لاتبـاع الطريق المستقيم ، وهي الفطـرة الـتي فطر النـاس عليها ، حيث قـال الله : (**وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قـالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيامَـةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هـذا غافِلِينَ ـ* أَوْ تَقُولُـوا إِنَّما أَشْـرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْـلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**) [4]

وأصل الفطرة الشق ، وسمّي الخلق فطرة ربما لأنّ الخلق يتم عادة بانشقاق شيء عن شيء ، ومعنى فطـرة الله هنا : الوحدانية ، حيث انها جزء من خلق الناس جميعا (وليس المؤمنون منهم فقط).

(**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**)

---

(4) الأعراف / (172 ـ 173).

لعل معناها ان الإنســـان لا يمكن ان يغــــير فطرته بالتربية أو التوجيه ، وحتى الأعمال السـيئة لا تغـير فطـرة البشر.

فأنت ومن يعاقر الخمر أو يقتل الآدميين في الفطـرة سواء ، صحيح ان الفطرة تنتكس ، وتغطّى بالذنوب الا ان المذنب يشعر بذنبه ، والكاذب يشعر بكذبه ، والضال يعلم بخطئه ، ولكن فطرتهم ضعيفة.

وهـــذه الفطـــرة الالهية الثابتة أفضل دين يلـــتزم به البشر ، ويتبعه ، ويرى شخصيته فيه لأنه قيم لا عوج فيه ، وتســتقيم معه شخصـية الإنســان وحياته ومجتمعة ، بينما تتطرف سائر الأديان يمينا وشمالا ، وتفسد ضمير البشر ، وتمسخ شخصيته وتضيّع حياته.

ونستوحي من هذه الكلمة ان الدين ضرورة انسانية ، يشـعر القلب من دونه بفـراغ كبـير ، الا ان أغلب النـاس يخطئون في نوع الدين الّذي يعتنقونه.

(**ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**)

ونســـتنتج من هـــذه الآية ان طريق معرفة الـــدين الصحيح يتلخص في دليلين : الاول : هدى الله حيث يقـول : «**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً**» والثاني : الوجدان.

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)

مشـكلة النـاس انهم لا يسـتفيدون من علمهم ، لأنهم يتبعـون أهـواءهم ، وعلينا الّا توحشـنا قلة الـدّيانين بـدين الحق ، أو كـثرة الميـالين إلى سـبل الشـيطان ، ذلك لأن أكثر الناس هم الذين لا يعلمون.

(31) وليس هيّنا الاســتقامة على الــدين الحق ، لأنّ دواعي الشهوة ، ووساوس

الشـيطان ، وضـغوط المجتمع تميل بالإنسـان عن طريق الحق ، فلا بد إذا من الإنابة الى الله دائما ، فكلما مـــالت أسباب الانحراف به شرقا أو غربا أنـاب إلى ربه ، والـتزم التقـوى بتطـبيق كافة الشـرائع الـتي هي حصن التوحيد ، وسور المعرفة ، ومن أبرز معاني التقـوى إقامة الصـلاة ، تلك الحصن المنيعة للإيمــان ، والســور الرفيع لعرفــان الرب.

(**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**)

والفـــرق بين هـــذه الآية وما قبلها ان ما قبلها تــأتى بصـورة مفـردة بتعبـير «فـأقم» بينما في هـذه الآية تـأتي بصـــــورة جمع ، وذلك لأن الإنســـــان واحد في مقــــام المسـؤولية ، ولكن في مقـام العمل يعمل مع الآخـرين ، فالإنسان مسئول أمـام الله لوحـده ، وكل نفس مسـئولة عن نفسها.

ان الله طلب منا الالـتزام بالصـراط المسـتقيم عـبر اقامة الوجه لدينه ، واتباع فطرته التي غرسها فينا ، ولكن كيف يتم ذلك ، وكيف نحافظ عليهما؟ يقول ربنا سبحانه :

(**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**).

فــأنت مــؤمن بــدينك وبــدافع فطرتك ، انك عند ما تـذهب إلى المسـجد مثلا تجد هنـاك أمثالك ، فـأنت وهم تكوّنون مجتمعا ، فـأنيبوا إلى الله ، وهنـاك نظرية تقـول : ان الايمان يتبلـور في مجتمع ، وليس الفـرد بوحـده قـادر على ان يترجم دين ربه لوحده ، فالله يدفع الناس بعضهم ببعض كي يحوطون هذا الدين.

والانابة إلى الله ، وتقــــواه ، واقامة الصــــلاة كعجلة القيـادة الـتي لا تـدع السـيارة تنحـرف لو أمسـكنا بها في طريق مثلج ، فـــالمجتمع يســـحبنا يمينا ويســـارا ، ولكن الإنابة إلى الله وتقـــــواه ، واقامة الصـــــلاة تجعلها على الطريق المستقيم.

وهناك فرق بين اقامة الصـلاة وبين الإتيـان بالصـلاة ، فإقامة الصلاة هو الالتزام بحدودها.

عن أبي عبد الله الحسين (ع) انه قال :

«وحق الصـلاة ان تعلم انه وفـادة إلى الله ــ عز وجل ــ وانك فيها قـائم بين يـدي الله ــ عز وجل ــ فإذا علمت ذلك قمت مقام الذليل الحقير ، الـراغب الـراهب ، الـرّاجي الخـائف ، المسـتكين المتضـرّع ، المعظم لمن كـــان بين يديه بالســكون والوقــار ، وتقبل عليها بقلبك وتقيمها بحـدودها ، وحقوقها» [5]

وعن أبي عبد الله الصـــــادق (ع) انه قـــــال : «إذا اســتقبلت القبلة فـانس الـدنيا وما فيها ، والخلق وما هم فيه ، واســتفرغ قلبك عن كل شــاغل يشــغلك عن الله ، وعــاين بســرك عظمة الله ، واذكر وقوفك بين يديه يــوم تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مــولاهم الحق ، وقف على قدم الخوف والرجاء.

فإذا كبرت فاستصغر ما بين السموات العلى والــثرى دون كبريائه ، فــان الله تعــالى إذا اطلع على قلب العبد وهو يكــبر وفي قلبه عــارض عن حقيقة تكبــيره قــال : يا كاذب أتخدعني؟! وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكــري ، ولأحجبنك عن قربي ، والمسارة بمناجاتي.

واعلم انه غــير محتــاج إلى خــدمتك وهو غــني عن عبادتك ودعائك ، وانما دعاك بفضله ليرحمك ويبعّـدك من عقوبته» [6]

---

(5) بحار الأنوار / ج (84) / ص (248).
(6) المصدر / ص (230).

وفي بعض الأحاديث ان للصلاة حدودا.
عن زكريا بن آدم ، عن الرضا (ع) قال : سمعته يقول :
«**الصلاة لها اربعة آلاف باب**» [7]
وعن أبي عبد الله الصادق (ع) قال :
«**للصلاة اربعة آلاف حدود**» [8]
(**وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)
[32] من أجل الاستقامة على الدين الحنيف ، والطهارة من رجس الشرك ، لا بد من الإنابة ، والتقوى ، واقامة الصلاة هنالك يدخل المؤمن في حصن التوحيد ، ويتقى مظاهر الشرك ومن أبرزها الاختلاف في الدين شيعا وأحزابا.
(**مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ**)
اي اختلفوا عن الطريق الذي رسمه الله لهم ، فلم توحدهم مناهج الشريعة ، ولعل (الشّيع) تعني اتباع الشخص بينما الحزب هو التقاء مجموعة من الناس في الأفكار.
فاذا أردتم ان تعرفوا هل أنتم على شرك أم على بصيرة من ربكم فانظروا هل عندكم خلافات تنبع من أهوائكم ، فالمجتمع الّذي يتبع الله لا يختلف لان افراده جميعا يتبعون شخصا واحدا ، يقودهم الى الله ، ولكن لماذا يسمّي الله الذين فرقوا

(7 ، 8) المصدر / ج (82) / ص (303).

دينهم مشركين؟

الجواب أحد احتمالين :

1 ـ اما انهم متبعون أهواءهم ، حيث قـال ربنا : «**بَـلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ**».

2 ـ أو لأنهم اتبعــوا اشخاصاً بعينهم شــذوا بهم عن سبيل الله.

والمشـــكلة الأهم ليس تفـــرقهم فحسب ، بل هم مغـــرورون بمكتسـباتهم ، وكل حـزب فـرح بما حقق من مكتسبات وانتصارات.

وهذه الآية تكشف طبيعة التحزب الّذي هو الغرور بما يملكه الشخص أو التجمع من حطـام الـدنيا ، دون التوكل على الله ، والفرح بما يؤتيه عباده الصالحين من فضله.

وحين يعتمد البشر على غـير الله يكله الله الى نفسه فيخسر الـدارين أرأيت كيف أخذ يقلب كفيه على ما أنفق على حقوله الزراعية ، ذلك المغرور الّـذي نصحه صـاحبه ان يقول ما شاء الله ، فرفض ، أو رأيت قــارون حين أبى نصـيحة قومه إذ قـالوا له : لا تفـرح ، كيف خسف الله به وبداره الأرض؟!

كـذلك الـذين يفرحـون بما لـديهم من امـوال وأنصـار فيفرّقهم هـذا الغـرور عن بعضـهم ، ويبعـدهم عن دينهم ، ويلحقهم بالمشـــركين وهم يحســـبون ان مكتســـباتهم الدنيوية دليل صدقهم ، بينما هم الأخسرون أعمالا.

[33] مـــتى يعـــرف البشر انه على حق ، أم على باطل؟

ان ربنا يعطينا مقياسا وجـــدانيا ذاتيا ، ففي حـــالات الضر والاضطرار هنالك

ينسى كل الآلهة المزيفة الـتي كـان يعبـدها ، ينسى هـواه ويتجه بقلبه الى ربه.

(**وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ**)

ولكن ..

(**ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِـرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**)

وهذه مشكلة الإنسان انه ينسى ساعات الحرج الـتي مربها ، ولا عذر للإنسان ان يقـول : لم اعـرف اللـه. بلى. قد عرفت حين الحاجة ، فقد توجهت آنذاك الى الله.

ونجد في الآية التعبـــير ب «مسّ» و «أذاقهم» وهما يــدلان على أدنى الاحســاس ، ويعكســان بالتــالي طبيعة البشر الجزوع ، وكيف انه بمجـرد ان يمسه ضر يجـأر الى ربه ، ثم بمجرد ان يذيقه طعم رحمته ينكفئ ويشرك به.

والمفهــوم من الآية ان النــاس جميعا يتوجهــون الى ربهم عند ما يحسون خطرا ، بينما بعضهم فقط يشــركون بربهم عند النعمة.

وفي الآية هـذه علاج حالة التحـزب ، حيث ان الـذين فرقوا دينهم إنما فرحوا بما لـديهم ، واغـتروا بما يملكـون من ثـروة أو سـلطان ناســين نعم الله عليهم ، وكيف انه سبحانه ملجأهم الأخـير حين تتقطع بهم السـبل ، وتضـيق عليهم مذاهب الـدنيا ، هنالك ينسـون محـاورهم الحزبية ، وانتماءاتهم المختلفة ، ويتجهون الى ربهم العزيز المقتدر.

(34) وهؤلاء الذين يشركون فور إحساسهم بالنعمة ، ويفرحــون بما لـديهم من نعم ظـاهرة فيتبعـون الأنـداد ، ويتحزبون لبعضهم غرورا بما يملكون ، انهم يكفرون

بنعم الله ، وينذرهم الله بأن كفرهم هذا يـدعهم خاسـرين لتلك النعم في الدنيا ، ولحظّهم في الآخرة.

(**لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**)

ونستوحي من هذه الآية الحقائق التالية :

أولا : ان حالة التحـــزب القائمة على أســـاس الفخر ببعض ما لدى صاحبها من نعم تسبب الكفر بسائر النعم ، فمن بـــالغ في الفخر بابنائه لا يمكنه ان يتنعم بســـائر الشـباب في المجتمع ، ومن تطـرف في الاهتمـام بثقافته وفكر حزبه لم ينتفع بعلوم النـاس ومعـارفهم ، ومن فـرح بما يملكه من مـال توقف سـعيه ولم يسـتفد من فـرص الاكتساب التي امامه ... وهكذا.

وعادة يصاب المتحزبـون بـانغلاق فيحرمـون أنفسـهم من نعم الله في الحياة.

ثانيا : ان الشـــكر على النعم ليس فقط يحافظ عليها ويزيـــدها ، وانما أيضا يجعلها هنيئة لصـــاحبها ، لان وعي النعم غذاء القلب ، ولذة الروح ، بينما الذين يكفرون بنعم الله انما يتمتعـون ببعضـها ، كما تتمتع الأنعـام ولا يهنـؤون بها كما يهـنئ البشر ، إذ ان تـوجههم سـيكون فقط الى الجانب المادي من النعم ، وينسون الأبعاد المعنوية منها.

ثالثا : ان الكفر بـــالنعم يكـــون ســـببا لزوالها ، بل لتحولها الى نكال ، إذ ان من يتمتع بـالنعم فقط سـوف لا يراعي حدودها فيفسـدها على نفسه ، كمن ينهم بـالجنس مثلا لمجـــرد لذته تـــراه يســـرف فيه حـــتى يفسد نفسه ، كـذلك الّـذي يطعم لشـهوة الأكل فقط يتجـاوز الحد في التهام الطعام مما يفسد معدته ... وهكذا.

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35) وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (36) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37) فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38) وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

---

39 [ليربوا] : ليزيد ذلك الربا.

الشرك بين التبرير الثقافي

والآثار الاقتصادية

هدى من الآيات :

بعد ان يبين القرآن أثر الشرك في الدرس الماضي ، حيث ان الشرك يبث الخلاف ، ويكرس الصـراع ، ويفـرق الديانات ، ينسق في هـذا الـدرس أساسـين يعتمد عليهما المشركون.

الاول : التبرير الشرعي للشرك ، وذلك بالاعتقاد بـان ربنا سبحانه قد خـول هـذه الفئة أو تلك بشـؤون الـدنيا أو الدين ، من دون اقامة دليل صادق على هذا الادعاء.

الثاني : التبرير الاقتصـادي بـزعم ان الأنـداد يملكـون للناس رزقا ، ويعالج السياق خلفية هـذا الـزعم النـابع من الجهل بالله ، والقنـــوط من روحه عند الضـــراء ، والكفر بفضله ـ غرورا ـ في السراء.

وهكذا يعيش الإنسان بين خطرين :

الرجـاء المفـرط حـال النعمة ، واليـأس القاتل عند البلاء ، بينما الرجاء واليأس

يجب ان يتعادلا عند الإنسان.

ولإكمـال بيـان جـوانب الموضـوع يشـير السـياق الى البعد الاقتصـادي للصـورة ، مقارنا بين المجتمع التوحيـدي والمجتمع الشركي.

يستوحي ربنا من هـذه الآية فكـرة أخـرى نجـدها في الآيتين التّاليتين ، وهي : ان الإنسان الّذي ينفق في سـبيل الله سيضــاعف له الأجر ، فيما ذلك الإنســان الّــذي يأخذ الربا أضـعافا مضــاعفة لن يربو عند الله ، ذلك لان الّـذي ينفق ماله في سبيل الله يعلم بأن الله سيعوّضه خيرا منه ، بينما المرابي لا يثق بالله ، ولا يتحرك كما أمره الله بـأن يشد عضده بأخيه المسلم.

بعد ذلك يـذكرنا سـبحانه بأنه هو الـرازق لمن خلق ، وانه يحيي ويميت ، فهل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء؟! سبحانه وتعالى عما يشركون.

بينات من الآيات :

[35] انى كـانت دوافع الضـلالة والاجـرام عند البشر فانه يبحث لنفسه عن تــبرير ثقــافي ليســكت صــيحة الوجدان الـتي لا تـزال تـدوي في ضـميره ، واخطر تـبرير ثقافيّ يكون عند ما يزعم الإنسان ان الله امره بما يهـواه ، ذلك ان فطــرة الــدين الراســخة في كل قلب ، أعظم ضمانة لإصلاح البشر ، فاذا انتكست هذه الفطرة ترى اي ضمانة تبقى عنده؟!

والســؤال : كيف نقف في وجه التــبرير الشــرعي للجــرائم ، وكيف نواجه ادعيــاء الــدين ، الــذين لا زالــوا يفترون على الله كذبا ، وكيف نتحدى هؤلاء الحكام الـذين يبررون سلطانهم أبدا بان الله معهم ، وانهم ظل الله في أرضه؟

الجواب : انما يتم ذلك بالتأكيد على ان من يـدّعي انه من عند الله لا بد ان يأتي

بسلطان مبين ، بما لا يدع للشك مجالا ، وآنئذ فقط يجـوز للعباد الاستماع اليه والتسليم لأوامره.

وهكذا يتساءل الذكر قائلا :

(**أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً**)

وبرهانا يتســلط على القلب كله ، بما لا يــدع فرصة للشك ، كما السـلطان الّـذي أنـزل الله على موسى (ع) بالعصي ، وعلى عيسى (ع) بإحياء المـوتى ، وعلى محمد (ص) بـالقرآن ، ولا بد ان يكـون هـذا السـلطان واضـحا صريحا وكأنه ينطق بالذي يدعونه.

(**فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ**)

اننا ربما نتسـاءل : لمـاذا يـرد الله على مثل هـؤلاء المشركين؟ فنقول :

ان مشكلة هؤلاء مشكلة ثقافية ، وربما بـنيت حيـاتهم وسياسـتهم وأعمـالهم على أمثـال هـذه الأفكـار ، فينسف الله أمثال هذه الأفكار من أساسها ، ولكي لا يحتجوا على الله يـــوم القيامة بأنه لم يوضح لهم الحقيقة ، لقد أوضح لهم إياها ، ولا حجة لهم.

وكثير من المشركين يتصورون انهم مكلفون من الله باتباع شركائهم ، أو يزعمون ان الأصنام شفعاء عند الله ، وانها تقربهم اليه زلفى!

كما يــزعم الطغـاة اليـوم حيث يعتـبرون أنفســهم ممثلين عن الله سبحانه ، وكذا كـان سـلاطين المسـلمين الذين قاموا باسم الـدين ، كـان يصـورهم الشـعراء بـأنهم آلهة من دون الله كما قال بعضهم في وصف أحد الخلفـاء العباسيين :

ما شـــئت لا ما شـــاءت الأقــــــــــــــدار	فاحكم فأنت الواحد القهـار

وقد ادعى هتلر انه مكلف من قبل الله سبحانه بأن ينقذ الشعب الالماني ، وكان رمزه الصليب المعكوف ، وهكذا المستكبرون في الغرب اليوم ، والقرآن يواجه كل هذه القوى الجاهلية التي تستعبد البشر باسم الدين بأنها ضالة ما لم ينزل الله عليهم سلطانا مبينا.

كما يجعل القرآن الناس امام مسئولياتهم مباشرة ، من دون واسطة أدعياء الدين ، لكي يقطع الطريق على وعاظ السلاطين ، وتجار الدين فلا يستغلوا سذاجة الناس ، ويحذروهم باسم الدين ، ويحرفون كلمه لقاء دراهم معدودة ، يتلقونها من الحكام.

(36) لماذا يتوسل الناس بالشركاء والأنداد من دون الله؟ السبب قد يكون التبرير الشرعي الّذي نسفه السياق آنفا ، وقد يكون الزعم بأنهم يرزقونهم من دون الله ، والّذي يعالجه القرآن من الجذور ويقول :

(**وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها**)

اي أحسوا بالبطر والغرور ، ويبدو ان الفرح هو حالة الاحساس بالإشباع والاستغناء ، وهي حالة ذميمة نهى الله عنها على لسان قوم قارون إذ قالوا له : «**لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**» ولكنها حالة حميدة إذا اتصلت بالله ، فمن استغنى بالله أحس بالقوة بتوكله عليه.

وقد أمر الله بذلك إذ يقول :

(**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**) [1]

(1) يونس / (58).

(**وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**)

فـأن السـيئات لا تصـيب البشر الا بسـبب ذنـوبهم ، وعليهم ان يغيّروا واقعهم الفاسد حـتى يغـير الله ما بهم ، ولكنهم يصابون بالقنوط بعد السيئة.

(**إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ**)

ويستوحى من كلمة «إذا» ان القنوط يداهمهم فجـأة ، وذلك بسـبب ضـعف نفوسـهم ، وضـيق أفق التفكـير عندهم ، والآية تبصرنا بعدة حقائق :

أولا : ان الجهل بالله يجعل القلب متقلبا بين الغـرور والقنوط ، بينما الثقة بالله تتسـامى بـالقلب فـوق النعم ، فلا يبطر بها ، والنقم فلا ييأس بسببها.

والقلب الجاهل بربه والمتطـرف بين البطر واليـأس هو الميت المنكر لله ، المشرك به ، إذ ترى صاحبه يهـوى الى درك التسليم لأصحاب الثروة والسلطة رجـاء وفـدهم ، وخشية حرمانه.

ومن هنا تجد المؤمنين يـدعون ربهم الا يحـوجهم الى لئـام خلقه ، بل لا يبتليهم بالحاجة الى غـيره لكي لا تميل نفوسـهم الى غـير الله ، فـيزعمون انهم الرازقـون لهم ، جاء في رائعة مكارم الأخلاق :

(**اللهم اجعلـــني أصـــول بك عند الضـــرورة ، وأسـألك عند الحاجة ، وأتضـرع إليك عند المسـكنة ، ولا تفتنّي بالاسـتعانة بغــيرك إذا اضــطررت ، ولا بالخضوع لسؤال غيرك إذا افتقرت ولا بالتضرع الى من دونك إذا رهبت فاسـتحق بـذلك خـذلانك ومنعك واعراضك يا ارحم الراحمين**) [2]

---

(2) الامام علي بن الحسين (ع) / مفاتيح الجنان / ص (601)

ولعل في هــذا تكمن الصــلة بين هــذه الآية والــتي سبقتها.
ثانيا : تمهد الآية للحديث عن الصورة المشـرقة الـتي يتحلى بها المجتمع القـائم على أسـاس التوحيد ، والتباعد عن رجس الشرك. كيف ذلك؟
ان كثيرا من الخصال الرذيلة تأتي بسبب حالة الجـزع عند البشر ، فانما البخل والغش والكسب الحـــرام كالربا وغيره من افرازات شح النفس (الفرح ـ القنوط).
كما ان فضيلة الإنفاق والكـرم والعفة تـأتي من الثقة بالله ، وبأنه الرازق ذو القوة المتين.
وهكذا مهّد السياق للأمر بالإنفاق ، والنهي عن الربا ، بمعالجة هذه الحالة البشرية.
ثالثا : ان قلب المـؤمن يعيش بين اليـأس والرجـاء ، ولذلك يعيش التوتر الإيجابي الفاعل الّـذي يبعث أبـدا نحو النشاط والسعي ، بينما قلب المشرك يتطرف نحو الفرح ، فيغله جمــود الغــرور والبطر ، أو يتطــرف نحو اليــأس فيقعده القنـوط عن السـعي ، وهل يتحـرك من لا أمل له في النجاح؟! (37) ما علاقة هذه الحقيقة بالتوحيد؟
العلاقة هي ان المــؤمن يعتقد بــان الــرزق من الله ، وانه يبســطه لمن يشــاء ، ويضــيقه على من يشــاء ، فلا يفــرح ببسط الــرزق لأنه قد يســلبه في أيّة لحظة ، ولا يقنط بقبضه ، لان الله قـــادر على ان يبســـطه في اية لحظة.
(**أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللـهَ يَبْسُــطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشــاءُ وَيَقْدِرُ**)

بلى .. ولكن أغلب الناس يبصرون العوامل المباشرة للرزق ، وينسون العامل الغيبي لذلك قال ربنا :

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

اما المؤمنــون فــإنهم لا ينظــرون فقط الى العوامل الظــاهرة ، بل يبصــرون أصــابع الغيب الــتي تحــرك تلك العوامل وتــدبرها ، انهم يعلمــون ان الفلّاح لا يقــوم الا بأعمال جـدّ ضـئيلة إذا قيست بالعوامل الـتي تسـاهم في نمو الزراعة ابتــداء من خصــوبة التربة ، وعذوبة المــاء ، وانتهاء بالمواد التي تنفّسها الشمس عبر أشعتها ، ومرورا بسائر العوامل الرئيسية المفقودة مثلا في سـائر الكـرات الاخرى ، ولذلك أضحت الزراعة فيها مستحيلة.

وكما في الزراعة كـذلك في سـائر مـوارد الـرزق ، ولـذلك تـرى المؤمـنين وحـدهم يهتـدون بآيـات الـرزق ، ويشكرون ربهم عليها.

(38) لان الـرزق من الله ، ولان المـؤمن لا يقنط من رحمته إذا فقد شــيئا من ثروته ، ابتغــاء رضــوانه ، ولان المـؤمن لا يفـرح بما يـؤتى ، ولا يحسب ما بيـده دائما بل يراه عواري ، سوف يذهب منه في اية لحظة ، لــذلك كله ينبغي ان ينفق من ماله للاقــــــربين ثم ذوي الحاجة من حوله.

(**فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ**)

ليس دور الـترتيب الّـذي ذكر في هـذه الآية اعتباطا ، فقد جــاء في الروايــات ان ذوي القــربى مقــدمون على غيرهم في الإنفاق.

جاء في حديث مأثور عن أبي الامام الحسين (ع) قال :

«سـمعت رسـول الله (ص) يقـول : ابـدأ بمن تعـول أمك وأبـاك وأختك وأخـاك ، ثم أدنـاك أدنـاك ، وقـال : لا صدقة وذو رحم محتاج» [3]

وقد جاء في بعض الأحاديث تفسير ذوي القـربى بـآل بيت الرسول (ص).

1 / وفي كتاب الاحتجاج للعلامة الطبرسي (رض) عن علي بن الحسين (ع) لبعض الشاميين أما قرأت هذه الآية «**وَآتِ ذَا الْقُـــرْبى حَقَّهُ**» قـــال : نعم ، قـــال (ع) : «**فنحن أولئك الـــذين أمر الله عز وجل نبيه (ص) ان يؤتيهم حقهم**» [4]

2 / وفي مجمع البيان ، عن أبي سعيد الخدري قـال : لما نزلت هـذه الآية : «**وَآتِ ذَا الْقُـرْبى حَقَّهُ ..**» اعطى رسول الله (ص) فاطمة (ع) فدكا. [5]

(**ذلِـكَ خَيْـرٌ لِلَّذِينَ يُرِيـدُونَ وَجْـهَ اللـهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)

يـــتراءى للإنســـان بـــادئ النظر ان الإنفـــاق غرامة وخســـارة ، بينما الحقيقة انه خـــير ، شـــريطة الا يداخله الرياء ، وحب السيطرة ، وان يكون بالتالي في سبيل الله ، والا فـــان ضـــره يطغى على نفعه ، إذ ان المســـتكبرين أيضا ينفقون أموالهم ولكن من أجل تحكيم قبضـــتهم على المستضعفين ، وسرقة ما تبقى عندهم من ثروات.

والسؤال : كيف يكـون الإنفـاق خـيرا؟ ولمـاذا مجتمع الإنفاق مجتمع مفلح؟

الجواب : ان الإنفاق سوف يزيد التكامل الاجتماعي ، مما يـــؤدي الى تماسك المجتمع وتقدمه ، بينما المجتمع المفكك ينهار سريعا امام المشاكل ، ولا ريب ان

---

(3) نور الثقلين / ج (4) / ص (147).
(4) تفسير نور الثقلين / ج (3) / ص (155).
(5) مجمع البيان / ج (8) / ص (306).

فوائد التقدم تشمل المنفق كما المنفق عليه.

ثم ان يدك اليوم أعلى فهل تضمن ان تبقى كذلك كلا فقد تحتاج الى من أنفقت عليه ، أو غيره وجاء في معـنى الحـديث من كف يـده عن النـاس فانه يكف يـدا واحـدة وتكف عنه مأة يد.

والإنفاق يحـرك عجلة الاقتصـاد ، وينمي الـثروة ، لأنه يرفع الحاجات الملحة التي تقعد أصحابها عن النشاط.

ولعل أعظم فائـدة للإنفـاق هي تحرير نفس صـاحبه عن أسر المادة ، ومساعدته على الخروج من شح الـذات ، وتحسيسه بلذة العطاء التي تفوق عند الإنسـان السـوي لـذة الأخذ ، وربما جـاء الأمر بالإنفـاق هنا بهـذه المناسـبة لأنه يمهد سبيل الايمان بالله أمام الإنسـان ، أو ليس حب الدنيا من أسباب الشرك.

(39) ان ما أخذ ربا لا يربـوا عند الله ، لان المـرابي يسـلب من الآخـرين اتعـابهم وجهـودهم ، اما من يـؤتي الزكاة بغية وجه الله فأولئك هم المضعفون.

وفي الحديث عن النبي (ص) قال :

«**كل معـروف صـدقه الى غـني أو فقـير ، فتصـدقوا ولو بشق تمـرة ، واتقـوا النـار ولو بشق تمرة ، فان الله عز وجل يربيها لصـاحبها كما يـربي أحـدكم فلـوه أو فصـيله ، حـتى يوفيه إياها يـوم القيامة ، حتى يكون أعظم من الجبل العظيم**» [6]

(**وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِبـاً لِيَرْبُـوَا فِي أَمْـوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ**)

(6) بحار الأنوار / ج (96) / ص (122).

ان الهـــدف من المـــال اقامة النظـــام الاجتمـــاعي ، وتنشــيط اجهــزة المجتمع والإنفــاق يقــوم بهــذا الهــدف بأفضل وجه ، بينما الربا يعوّق ذلك ، إذ انه يقيد المال في حــدود فوائد الــدائن ، ويجعله شــريكا ثقيل الظل لا تعــاب الناس وجهودهم ، دون ان يتحمل خسارة أو يبذل جهدا.

والربا ينمي طبقة مســــــتكبرة متعالية وطفيلية في المجتمع ، مما تتجــاوز أضــراره الجــوانب الاقتصــادية الى الحياة السياسية فالثقافية والاجتماعية.

ولعلنا اليوم نعي معاني هذه الآية أكـثر من آبائنا ، لان الربا انتشر ليس في حدود أبنــاء المجتمع الواحد ، بل في مجــال العلاقــات الاقتصــادية بين الأمم المختلفة ، وافــرز الواقع المقيت الّـــذي تعـــاني منه البشـــرية المتمثل في التمــايز بين الــدول المســتكبرة الــتي تتــأثر بكل خــيرات الأرض والدول المحرومة التي تحتاج الى أبسط مقومــات الحيــاة ، فبينما تخــتزن الــدول المســتكبرة مثلا حــوالي (350) مليــون طن من الغلال لعــام (1407 ه) (1987 م) وتحتــار كيف تختزنها ، بل كيف تتخلص منها نــرى الــدول المستضـعفة محتاجة الى كل كيلو منها ، ويتضــور أطفالها جوعا ، ويتساقط الملايين منهم كل عام لسوء التغذية.

ولعل أعظم أسباب هذا التمايز النظام الربوي السائد في العــالم ، حيث بلغت ديــون البلاد المحرومة أكــثر من كــاترليون (الف مليــار) دولار و (35) مليــار دولار أخــذت الفوائد المتضــاعفة تبتلع كل جهــود الشــعوب المحرومة ، وتجعل الأمل في تقــدمها واســتقلالها يتلاشى في طوفــان الديون.

ولو دفعت البلاد المتقدمة زكـــاة أموالها للشـــعوب المحرومة لنشــطت من عقــال التخلف ، وللحقت بــركب الحضارة ولأفــادت حــتى الــدول الصــناعية بتبــادل التجــارة معها.

ولو استجاب المحرومون لنـداء القـرآن ، والغـوا الربا في علاقـــاتهم الاقتصـــادية ، وتحـــرروا من أغلال الفوائد الباهظة (كما اضـــطرت البرازيل ودول أخــــرى ان تفعل ذلك أخــــيرا) إذن مشـــوا خطـــوة في طريق تقـــدمهم واستقلالهم لذلك قال ربنا سبحانه :

(**وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ**)

اما العطــــاء الّـــذي يتبعه المن والأذى فانه مقدمة للطبقية المقيتة ، ولاســتثمار البعض للبعض ، وبالتــالي لا ينمي الثروة.

كما ان المعونات الاستعمارية للـدول المحرومة الـتي تربط هــذه الــدول بعجلة الاســتكبار هي الاخــرى لا تنفع تقدما ، ولا تعطي خيرا.

(**فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**)

ولعل الســبب هو ان الزكــاة تنشط المجتمع ، وتضع عن اقتصــاده أغلال الاســتثمار ، وقيــود الطبقية ، ويتوجّه الجميع تجـــاه نعم الله المنبســـطة في أرجـــاء الطبيعة ليســـــتفيدوا منها ، دون ان يفكر كل فريق اســـــتغلال الآخرين.

اللـــــهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَـلْ مِنْ شُـرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَـلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَـيْءٍ سُـبْحانَهُ وَتَعـالى عَمَّا يُشْـرِكُونَ (40) ظَهَـرَ الْفَسـادُ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ بِما كَسَـبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ لِيُـذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُـوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ (41) قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْـلُ كـانَ أَكْثَـرُهُمْ مُشْـرِكِينَ (42) فَـأَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّـدَّعُونَ (43) مَنْ كَفَـرَ فَعَلَيْـهِ كُفْـرُهُ وَمَنْ عَمِـلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْـلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكـافِرِينَ (45) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّـراتٍ وَلِيُـذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْـلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)

---

44 [يمهدون] : يوطئون مواطن النعيم.

ظهر الفساد بما كسبت أيدي الناس

هدى من الآيات :

كما ان التوحيد هو المحــــور الاساسي في عــــالم التكوين ، كذا هو يعتبر المحور الرئيسي في عالم التشريع لسائر الأحكام ، وهكذا يكون الشرك هو السـبب الرئيسي لكافة المشــاكل والمصــائب الــتي تعــترض البشر ، وهو محور كل انحراف عن شرائع الله.

ولقد بين السياق القرآني في سـورة الـروم جانبا من آثار التوحيد والشـرك اللـذان ينعكسـان على حيـاة الفـرد وســلوكياته ، وفي هــذا الــدرس يــبين لنا جانبا من آثــار التوحيد والشرك في المجتمع.

لقد فطر الله الخليقة صــالحة ، واعطى الإنســان القدرة على تسـخيرها ، وبيّن ان ما يكتسـبه من موبقـات يفسد في الطبيعة ، وحذّره من أن عليه ان يعتبر بالفسـاد الذي ظهر في البر والبحر فيرتدع عن السيئات ، والا فان عاقبته سـتكون مثل عاقبة الأمم الغـابرة ، الّـذي لو سـار الإنســان في الأرض عــرف ســبب دمــارهم المتمثل في الشرك.

كيف نتقي هذه العاقبة السوئى؟
بإقامة الـدين القيم الّـذي ينفعنا أولا في الـدنيا حين يقينا الهلاك ، وثانيا : في الآخـــــرة حين ينقسم النـــــاس فريقين : الكفار الذين يحتملون وزر كفرهم ، والصـالحون الذين يمهدون لأنفسهم حين يجزيهم الله من فضله.

بينات من الآيات :

(40) الله هو محور الحياة الطبيعية للإنسان.
(**اللـــــــهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**)
وإذا كـان الله هو الّـذي خلق ورزق ، وأمـات وأحيا ، وإذا كـان الله هو المحـور في الحيـاة الطبيعية ، فلما ذا لا نتبع الله في النظـام الاجتمـاعي ، ولم لا نجعل التوحيد لا الشرك هو الّذي يرسم حياتنا؟!
(**هَــلْ مِنْ شُـــرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَــلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ**)
كلا ..
(**سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**)
(41) (**ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْـرِ بِما كَسَـبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**)
ان الانحـراف الّـذي نشـاهده كل سـاعة ليس بـالطبع ناتج عن انحراف الطبيعة ، لأنّ الله خلق الطبيعة حسـنة ، واتقن صنعها ، والفساد انما هو بما كسبت ايدي الناس.
وحقيقة فساد الإنسان ان المحـور الأساسي لحيـاتهم كان التوحيد فبدلوه الى

الشرك ، وحين يوصل القرآن الفساد بذنوب البشر تعرف ان المنهج الاسلامي متقدم على المنهج الاجتماعي القـائم بدرجة ، كما انه متقـدم على النظـرة الجاهلية بـدرجتين ، فالجاهليون يعتقدون بان ما يظهر من الآثـار في الحيـاة لا يمت الى سبب ، فلا يبحثون عن سبب معقول.

بينما المنهج القرآني يربط الظواهر الطبيعية بأسبابها المشهورة والغيبية ، فالظلم ـ مثلا ـ سبب لشـقاء الظـالم ، ونــزول العــذاب عليه ، اما بصــورة مشــهورة حيث انه يكـون سـببا لتحـدي المظلـوم ، مما يزعـزع أمن الظـالم واستقراره ، وأما بطريقة غيبية حيث ان الرب الّذي بيــده ملكوت كل شيء يقدّر للظالم العذاب أو الشقاء بتسـليط الأمراض عليه وإنزال الصـواعق والكـوارث الطبيعية على بلاده.

هكــذا تضــحى مســئولية البشر عن أفعاله حقيقة لا فكـاك منها في منطق القــرآن ، لان الّــذي يجريها بيــده الأسباب الطبيعية وغير الطبيعية.

ونحن حين نتلــوا هــذه الآية لنتخــذها بصــيرة لــوعي العصر الّـذي نعيشه نـزداد يقينا بعظمة القـرآن ، وصـفاء بصائره.

بلى. ظهر الفســاد في الــبر والبحر بانتشــار وســائل الدمار فيهما ، من اسـلحة نارية تقليدية تتكـاثر كـالجراثيم في جسم مــريض ، وتــدعمها اســلحة نووية تنشر مظلة رعب رهيبة ، واخطر منها الاســــلحة الكيمياوية الـــــتي طفقت البشرية التنافس عليها.

وفي آخر تصــريح لمــراقب عليم عن اخطــار هــذه الاســلحة جــاء : ان نشــوب حــرب نووية بين القــوتين العظمــيين ستسـفر عن سـقوط (4) مليـارات قتيل في العــالم الثــالث ، وذلك ان تغيــيرا أساســيا يحــدث في اتجاهات الرياح الموسمية ، وان الشمس تحتجب

بسبب الدخان الأسود الناجم عن احتراق المدن. [1]

وإذا عرفنا ان سكان العالم هم اليوم خمسة مليارات بشر فان ذلك يعني ان الحرب تهدد اربعة أخماسهم.

ومن الرعب النووي الى الأمراض الـتي لا شـفاء منها كالسـرطان ، والايـدز ، والقلق ، والجنـون ، وامـراض الاعصـاب المتكـاثرة ، والى التخلف القاتل الّـذي يحصد الملايين في جنـوب أرضـنا ، والتخمة الـتي تطغى النخبة في الشمال ، مما حدى بعض العلماء اليائسين في فرنسا الى القـول بـان عضـلات البشـرية لا تعـالج بسـوى حـرب نووية.

أما عن الخطر المحدق فعلا بالبشـرية (تلـوث البيئـة) فتقول مجلة (الحقيقة الواضـحة) الـتي تـدعو الى العـودة الى الدين في عددها المؤرخ (1 م) والّـذي طبع منه أكـثر من سبعة ملايين نسخة تقول :

هل القوة النووية هي المصدر الوحيد لتدمير الأرض؟

لننظر الى مجموعة معلومـات جـاءت في بعض المجلات الرائدة : ان التلوث الجدي الّذي لا يقارن بحادثة بوبـال في الهند ، ولكن بتراكماته سـوف يهـدد الأرض وتضيف : لقد أظهـرت الأبحـاث الجديـدة ان تـدمير طبقة الاوزون بواسـطة الغـازات الـتي ينتجها الإنسـان سـوف يكـون أكـبر مما كـان متوقعا ، ثم تقـول : لقد اكتشـفنا أخطر المـواد الكيماوية وادخلناها في موادنا الغذائية ، وتعطي احصائية عن وسائل التدمير في امريكا ، وتقول : ان المواطنين الامريكيون ينتجون (5) مليار رطل من

---

(1) أحد علمـاء الطبيعة البـارزين واسـمه (فردريك وورنـر) من جامعة (اسكس) البريطانية. انظر جريدة الوطن بتاريخ (10 / ج 2 / 1407 هـ) الموافق (9 / فبراير / 1987 م).

المخلفات المدمرة في اليوم وتضيف : ان تدمير البيئة يجري سريعا ، وإذا لم يوقف هذا التدمير فسوف يكون مرعبا.

وتضرب مثلا لحجم التلوث في امريكا وتقول : ان الأبحاث تقول : ان هناك حاجة ل (100) مليار دولار وخمسين سنة من الوقت حتى تتم ازالة المواد السامة من الولايات المتحدة ، حتى ان خبيرا في شؤون المحيطات قال : اننا نواجه النكبة ، وتختم المجلة تحذيرها : لن يكون هناك خيار للإنسان الا الدمار إذا ما نظر الى سياسة الربح والتوسع الصناعي بشكله الحالي.

وقد أكدت الروايات الاسلامية على الصلة بين النكبات والمصائب التي يتعرض لها البشر (افرادا أو مجتمعات) وبين أعماله. دعنا نقرأ بعض هذه الروايات :

عن الامام الباقر (ع) قال :

أما انه ليس من سنة أقل مطرا من سنة ، ولكن الله يضعه حيث يشاء ، ان الله ـ جل جلاله ـ إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدّر لهم من المطر في تلك السنة الى غيرهم ، والى الفيافي والبحار والجبال ، وان الله ليعذب الجعل في حجرها بحبس المطر عن الأرض التي هي بمحلّتها لخطايا من بحضرتها ، وقد جعل الله لها السبيل الى مسلك سوى محلّة أهل المعاصي ، قال : ثم قال ابو جعفر الباقر «**فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ**» [2]

ثم قال : وجدنا في كتاب علي (ع) قال : قال رسول الله (ص) :

«إذا ظهر الزنا كثر موت الفجأة ، وإذا طفف المكيال أخذهم الله بالسنين

(2) بحار الأنوار / ج (73) / ص (372).

والنقص ، وإذا منعـــوا الزكـــاة منعت الأرض بركتها من الـزرع والثمـار والمعـادن كلها ، وإذا جـاروا في الأحكـام تعـاونوا على الظلم والعـدوان ، وإذا نقضـوا العهد سـلط الله عليهم عدوهم وإذا قطعوا الأرحام جعلت الأمـوال في أيـدي الأشـرار ، وإذا لم يـأمروا بمعـروف ولم ينهـوا عن منكر ولم يتبعـوا الأخيـار من أهل بيـتي سـلط الله عليهم شرارهم ، فيدعوا عند ذلك خيارهم فلا يستجاب لهم» [3]

وروي عن الامام أمير المؤمنين (ع) قال :

قـــال رســـول الله (ص): «ثلاثة من الـــذنوب تعجل عقوبتها ولا تـؤخر الى الآخـرة : عقـوق الوالـدين والبغي على الناس ، وكفر الإحسان» [4]

وروي عن الامام الصادق (ع) قال :

«الذنوب التي تغير النعم البغي والذنوب الـتي تـورث النـــدم القتل ، والـــتي تـــنزل النقم الظلم ، والـــتي تهتك الستور شرب الخمر ، والـتي تحبس الـرزق الزنا ، والـتي تعجل الفنـاء قطيعة الـرحم ، والـتي تـرد الـدعاء وتظلم الهواء عقوق الوالدين» [5]

وروى في تفسير الآية عن الامام الصادق (ع) انه قال :

«حيـاة دواب البحر بـالمطر ، فـاذا كف المطر ظهر الفســاد في الـــبر والبحر ، وذلك إذا كـــثرت الـــذنوب والمعاصي» [6]

---

(3) المصدر / ص (373).
(4) المصدر / ص (374).
(5) المصدر / ص (373).
(6) نور الثقلين / ج (4) / ص (190).

ربما لا يكتشف العلم العلاقة بين الزنا ومـوت الفجـأة أو بين التطفيف والفقر ، أو بين المعاصي وانقطاع المطر ، ولكن الحقيقة ان هـــــذه أثر من تلك ، وان طاعتك أو معصـيتك تـؤثر فيما حولك ، وقد أكد القـرآن على هـذه الفكرة مرارا فقال :

1 ـ «**وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً**» [7]

2 ـ «**وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرى آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكــاتٍ مِنَ السَّــماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَــذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**» [8]

3 ـ «**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَـةً كـانَتْ آمِنَـةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِـأَنْعُمِ اللـهِ فَأَذاقَهَا اللــهُ لِبــاسَ الْجُــوعِ وَالْخَــوْفِ بِما كــانُوا يَصْنَعُونَ**» [9]

انك إذا لم تعـرف سـبب الابتلاءات انها من الـذنوب ، فلا دليل لك على ان تبقى على ســـلوكك المنحـــرف ، وتحتمل تبعة هذا السلوك ، فقد جاء في الحـديث المـأثور عن أمـير المؤمـنين (ع) في قوله تعـالى : «**وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ**» :

«ليس من التواء عرق ، ولا نكبة حجر ، ولا عثرة قدم ، ولا خدش عود الا بذنب ، ولما يعفو الله أكـثر فمن عجل الله عقوبة ذنبه في الـدنيا فـان الله أجل وأكـرم وأعظم من ان يعود في عقوبته في الآخرة» [10]

وقد عـبر الله عن عمل الـذنب بما كسـبت اليد ، لان اليد هي التي تباشر عادة

---

(7) الجن / (16).

(8) الأعراف / (96).

(9) النحل / (112).

(10) بحار الأنوار / ج (73) / ص (374).

فعل الـذنب ، وتعبـير اليد تعبـير عن الارادة كقولك : هـذا الأمر بيدك.

(**لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)

وتشير خاتمة الآية الى حقيقتين أخريين :

الاولى : ان الله سبحانه يعفو عن كثـير من الـذنوب ، وانما يعجل عقوبة بعض الّـــذي عملـــوا ، وفي التعبـــير القرآني بلاغة نافذة ، فـان ما يـنزّل العـذاب يكـون ذا ألم يذاق «ليذيقهم» وانه تجسيد لـذات المـذنب حيث لم يقل ربنا سـبحانه «ليـذيقهم عقوبة بعض ..» وانما قـال تعـالى «**لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ**» فالذي عملوه بذاته يضحى عذابا.

الثانية : ان حكمة العـــذاب تنبيه البشر لعله يرعـــوي عن غيه ، ويعود الى الطريق المستقيم والدين القيم الّذي يقي الناس ألوان العذاب.

(42) قد يتخذ البعض القـرآن رصـيد معلومـات ، وقد يتخذه البعض منهجا لبلوغ معلومات جديدة عـبر بصـائره ، وبـالرغم من أهمية الحصـول على المعلومـات المباشـرة من القـــرآن إلا أن آياته الكريمة تؤكد على أولوية اتخــاذه منهجا للبحث ، ووســـــــيلة للمعرفة ، وبابا الى العلم ، وبصائر وهدى.

وأكد الرب المرة تلو المرة : ان القرآن بصائر وأمثال وهدى ونور ، وان فيه آيات لقوم يعقلون وللعالمين ولقوم يسمعون.

والبصــــيرة اداة البصر ، والمثل وســـيلة لمعرفة ما يشابهه. انه النموذج الّـذي يقـاس عليه ما يطابقه والهـدى يبصرنا سنن الله ، والنور يضيء لنا الدرب لنراها بأنفسنا.

ومن أمثـال هـذه الآيـات يعـرف خطأ الـذين اتخـذوا القرآن نهاية المطاف ، وليس

وراءه عمل يقومون به لمعرفة الحقائق ، بل القرآن منهج لفهم الحيـــاة ، واثـــارة لعقل الإنســـان ، بالاضـــافة الى اشتماله على رصيد لا ينتهي من العلوم والمعارف وهكــذا فهو اطــار يتحــرك عــبره البشر ، وبداية الانطلاقة ، وربما هــذا هو الفــرق بين الامة الاســلامية في بداية انطلاقها ، وعما عليه الآن بعد جمودها.

فالامة الاســلامية في بداية انطلاقها كــانت تتخذ من القــرآن وســيلة للبحث ، ومنهجا للتفكــير ، ولــذلك كــانوا يشــدون الرجــال لطلب العلم ولو في الصــين لأنهم كــانوا طلاب تجربة ، لم يقولــوا كما قــال البعض : حســبنا كتــاب الله ، إذ لم يكن كتاب الله بديلا عن الجهد ، بل كان إطارا له ، ولقد كان رســول الله (ص) يبعث أصــحابه الى اليمن ليتعلمــوا فنــون الحــرب والتجسس على بعض الاســلحة الجديدة ، ولقد كان يزرع فيهم حب المعرفة بقوله :

«**الحكمة ضالة المؤمن**»

من هنا نجد القــرآن يأمرنا بالســير في الأرض لننظر آثار التاريخ على الأرض مباشرة

(**قُــلْ سِــيرُوا فِي الْأَرْضِ فَــانْظُرُوا كَيْــفَ كــانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ**)

ليس فقط ننظر الى ظــواهر الأمــور ، بل نبحث عما وراء الظــواهر من حقــائق ، فننظر الى آثــار الماضــين ، ونســتدل بها على حيــاتهم ، ونعــرف منها بعض الســنن الاجتماعية التي كانت حاكمة عليهم.

ان السير في الأرض ، والبحث فيها عن ركام القصور المهدمة ، وبقايا المــــزارع المعطلة ، ونمــــاذج الأدوات المدفونة تحت الانقــاض ، يــدعونا الى النظر في نهايــات تلك الأمم الــتي كــان جل ســعيها الخلــود في الأرض ، وتحدي سنن الله في الخلق .. لقد بنوا

أهراماتهم بمصر ، وقلاعهم في بعلبك ، وزرعوا ارض بابل ونينوى بالآثار العظيمة ، ولكنهم ابيدوا حين أشركوا بالله.

يقول الامام أمير المؤمنين (ع): «اين العمالقة وأبناء العمالقة! اين الفراعنة وأبناء الفراعنة! اين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين ، واطفؤوا سنن المرسلين وأحيوا سنن الجبارين! اين الذين ساروا بالجيوش ، وهزموا بالألوف ، وعسكروا العساكر ، ومدّنوا المدائن!» [11]

(**كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ**)

حينما تبحثون في الأرض ، وحينما تنقبون في الآثار ، وتبحثون في الانظمة الاجتماعية السائدة عليهم ستكتشفون بأنهم كانوا مشركين في الأغلب ، فإما كانوا عبدة الأصنام وما ترمز اليه من الثروة والقوة أو عبد الطاغوت.

في الآيات السابقة بيّن القرآن الشرك والتوحيد في مجال الاقتصاد ، وبعدها في الأخلاق ، وهنا بينها في مجال الصراع الحضاري ، أو بتعبير آخر الصراع من أجل البقاء ، فالشرك ليس الوسيلة المثلى للبقاء بل هو السبب الرئيسي للإنهيار.

(43) فاذا اكتشفنا بان الشرك هو مادة الفساد ، وسبب نهاية البشر فردا كان أو مجتمعا ، فعلينا ان نخلص العبادة لله.

(**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ**)

(11) نهج البلاغة الخطبة / (182) / ص (262).

فاقامة الوجه لله أمان يوم القيامة.

(**يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ**)

يتفـرق بعضـهم عن بعض ، وحيث يتمـيز الكفـار عن الصــالحين ، وتلك هي المفارقة الشــرعية الوحيــدة بين الإنسان وفطرة الإنسان.

(44) فالذين كفـروا فعليهم كفـرهم يـوم القيامة ، إذ يتحول الى حميم وغسّاق ، والذين آمنـوا فسـوف يجـدون أعمالهم الصالحة.

(**مَنْ كَفَــرَ فَعَلَيْــهِ كُفْــرُهُ وَمَنْ عَمِــلَ صــالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ**)

فالعمل الصالح سيأتيك في يـوم أنت أحـوج ما تكـون اليه ، ولكن من كفر فان نتيجة كفره ستكون وبالا عليه.

وفي هــــذه الآية ملاحظة هامة وهي : ان الله عند ما ذكر من كفر ، قال : «فعليه كفـره» بصـيغة الفـرد ، وعند ما ذكر من عمل صـالحا قـال : (**فَلِأَنْفُسِـهِمْ يَمْهَـدُونَ**) بصيغة الجمع ، والفكـرة هي : ان نتيجة الكفر تكـون على صـاحبها فقط ، أما نتيجة الايمـان والعمل الصـالح فتكـون اضافة على أنها لصاحبها لذويه وأقربائه وسائر المؤمنين ، فقد ورد :

«**ان المؤمن يشفع في مثل ربيعة ومضر**»

وقد ورد في تفسـير الآية : «وكـان ابو هما صـالحا» في قصة اليتيمين اللذين اقام جدارهما الخضر (ع).

عن أبي عبد الله عليه السلام :

«انه كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سـبعة آبـاء»[12]

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله (ع) قال :

«ان الله ليحفظ ولد المـــؤمن الى الف ســـنة ، وان الغلامين كان بينهما وبين أبويهما سبعمائة سنة»[13]

(45) (**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ**)

في الآية الســـابقة أبـــان الله في كتابه إنّ العمل هو الّذي يحدد نهاية البشر «**مَنْ كَفَـرَ فَعَلَيْـهِ كُفْـرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ**» وفي هذه الآية يــبيّن انه يتفضل على الصــالحين ، وحين يكــون الفضل من الله فبشرى للإنسان وطوبى.

ولعل التعبـير السـابق (**فَلِأَنْفُسـِهِمْ يَمْهَـدُونَ**) كـان تمهيدا لبيان أن جزاء الصالحين ليس مجرد تمثل أعمالهم الصالحة في صورة نعيم ابدية في الآخرة وانما هي مجـرد تمهيد لفضل الله الّذي لا يحد ولا ينتهي.

وجاء في الحديث المروي عن الامام الصادق (ع):

«**ان العمل الصـــالح يســـبق صـــاحبه الى الجنة فيمهد له كما يمهد لأحدكم خادمه فراشه**»[14]

ولكن الله يجزيهم من فضله ، وهو لا يحب الكافرين.

(46) بعد ذلك يعـــود الله الى عـــرض بعض آياته في الحياة فيقول :

(12 ، 13) تفسير نور الثقلين / ج (3) / ص (291).

(14) المصدر / ج (4) / ص (191).

(**وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ**)

من نعم الله على الإنسان النظرة الايجابية الى الحياة ، والتي تنبع من الايمان بالله ، فالذي يؤمن بالله يجد ان الحياة تبتسم له ، وإذا رأى مشاكل الحياة فانه يتجاوزها بسهولة ، اما الكافر فان سحبا سوداء تكتنف قلبه ، فلا يبتسم لنور الشمس ، ولا لنعم الحياة ، والقرآن يثير فينا الاحساس بالجمال فيما يحيط بنا من حقائق ، أو تترى علينا من ظواهر.

ان الإنسان مفطور على حب الجمال ، وان مظاهر الطبيعة الرائعة غذاء مريء لروحه الحساس ، ولكن هذه الفطرة قد تدس في تراب العقد النفسية ، والانشداد الى المشاكل اليومية ، والغرق في طوفان الأوهام والتمنيات.

وهكذا نحتاج الى ما يدغدغ هذه الفطرة حتى يوقظها وينميها ، وهذه مسئولية الفن والأدب.

وآيات القرآن تثير فطرة الجمال في قلوب المؤمنين وتنميها ـ كما تنمّي نوازع الخير والفضيلة جميعا ـ حتى تغدو تلك القلوب تعيش مهرجان الحب ، وتستريح الى همسات الطبيعة التي تحدثها حفيف الأشجار وتلاعب المياه عند الشواطئ والغدران.

الا ترى كيف يحدثنا الرب عن المبشرات من الرياح التي تنطلق من المنخفضات الجوّية وتنساب بين الصخور والأحجار ، وتهب على أولئك المزارعين الذين مزّق اعصابهم طول انتظار الغيث ، وقد صرفوا أسابيع من عمرهم جاهدين لاستصلاح الأرض وزراعتها؟! بلى .. ها هي الرياح تأتي مبشرة بالسحب الخيرة ، وإذا بقطعات السحب تتسابق وتتكاثف وتحتك وتعلن عن نفسها بالبرق والرعد ،

وترخى السماء عزاليها.

بلى .. كما تقوم الريـاح بتلقيح الأشـجار ، ونشر بـذور الــزرع المتراكمة في منطقة على مســاحات شاســعة ، وتــوزع غــاز الأوكســجين على النــاس ، وتحمل منهم الى الأشجار الغازات السامة لتتغذى بها وتمنع اشعة الشـمس من حرق الأوراق ، وتقـوم بتحريك السـفن الشـراعية من بلد الى بلد ، كما تسـاهم في انطلاق الطيـارات والسـفن التجارية أيضا.

كل ذلك من أجل ان يتـــذوق الإنســـان رحمة الله ، ويتصل قلبه الصغير بالكون الواسع عبر هذه المتغيرات.

(**وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ**)

من نعمة المطر فتخضر الأرض.

(**وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ**)

فهذه الرياح تدفع السفن الشراعية من بلد إلى بلد.

(**وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**)

من نعم أخرى عبر التواصل التجاري بين الأمم.

(**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

إن ذروة الســعادة ـــ وهي غاية النعم ـــ حين يبلغ الإنسان مستوى الشكر لله ، يرضى قلبه ، وتطمئن نفسه ، وتملؤ البهجة أرجاء فؤاده ، اما حين يكفر بنعم الله فان

الهدف منها لا يتحقق أبدا. أو ليس الهدف منها الإحســاس بالسعادة ، وكيف يسعد من يكفر بالنعم؟!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47) اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50) وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)

---

48 [فتثير سحابا] : تحركه وتنشره.

إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا

هدى من الآيات :

الايمان يفتح عين الإنسان على الحياة فيراها كما هي ، من دون حجب ، اما من لا ايمـــــــان له فكمن هو في الظلمــات ، فالصــلة مقطوعة بينه وبين ما حوله لأنه ـــ أساسا ـ لا يعـترف بضـرورة البحث عما هو حق وعما هو واقع ، بل يكتفي بما يظنّه ظنّا ، وان الظن لا يغـــني عن الحق شــيئا ، اما الايمــان فانه يجعل الإنســان يبحث عن الحق انى وجده ، لان الايمان ذاته هو التسليم للحق.

جاء في توحيد المفضل :

«فــاعتبر بما تــرى من ضــروب المــآرب في صــغير الخلق وكبــيره ، وبما له قيمة وما لا قيمة له ، واخسّ من هذا وأحقره الزبل والعذرة ، الـتي اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معا ، وموقعها من الزرع والبقول والخضر أجمع (أجمل) الموقع الّـذي لا يعد له شــيء حـتى ان كل شــيء من الخضر لا يصلح ولا يزكوا الا بالزبل والسماد الّذي

يستقذره الناس ، ويكرهون الدنو منه.

واعلم انه ليس منزلة الشيء على حسب قيمته ، بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين ، وربما كان الخسـيس في سـوق المكتسب نفيسا في سـوق العلم ، فلا تستصـغر العبرة في الشيء لصغر قيمته ، فلو فطنوا طالبوا الكيميا لما في العذرة لاشتروها بأنفس الأثمان ، وغالبوا بها» [1]

انك إذا سـلمت للحق فسـوف تبحث عنه ، وحين تبحث عنه تجـده ، وإذا كـانت الحاجة أم الاخـتراع ، فـان الاحساس هو السـبب الرئيسي للمعرفة ، لان الإنسـان لا يعرف بالشـيء الا إذا أحس بالحاجة الى معرفته ، فمن لا ايمـان له واكتفى بظنونه لا يحس بالحاجة الى المعرفة ، لان الهوى موجود عنده أساسا فلا داعي للبحث عنه.

وفي الدرس ما قبل الأخير في سورة الـروم نجد ربنا سـبحانه يـبين لنا بـان الايمـان هو البصـيرة ، فالكـافر كـالأعمى والأصم ، بينما المـؤمن هو البصـير والسـميع لا تحجبه حجب الهـوى ، ولا المسـبقات الفكرية والعقد النفسـية ، انه ينظر نظـرة مجـردة عفوية ، انه لا يلبس نظارة ملونة ، سواء كانت هذه النظارة افكارا جاهلية ، أو نظـرات سـلبية وقاتمة عن الحيـاة كنظـرات الـذي يعيش الحـزن والهم والكآبة ، أو نظـرات مغرقة في الغـرور والتمني والتبرير.

فـالمؤمن عـادة ما يكـون متفـاعلا في الحيـاة ، إذ انه يرى الحياة كلها بصـورتها الطبيعية ، فهو يشـكر الله على النعم ، ويصبر في حال البلاء على النقم ، فكلما راى شيئا في الحياة شكر الله وحمده. لماذا؟

(1) بحار الأنوار / ج (3) / ص (136).

لأنه يــرى ان النعم من الله ســبحانه ، بينما الكــافر يتصور ان النعم من نفسه ، فكلما أعطاه الله خيرا قـال : هل من مزيد.

ومن نعم الله العظيمة : الرســالة الــتي حمّلها أطهر خلقه إلينا ، وما أخسر أولئك الــــذين أجرمــــوا حين لم تنفعهم الرسالة ، وطوبى للمؤمنين الذين نصرهم الله بما فرض على نفسه سبحانه من تأييدهم.

والرسالات تجلّ عظيم للرحمة الإلهية ، كما الســحب المباركة الــتي تــروي الأرض وتملأها خصــبا ورزقا ، وتملأ النفوس بشرى ، بعد ان استبد بها اليأس والقنوط.

أفلا تنظر الى الأرض تهــــــــتز وتربو ، وتزهو بزرعها البهيج. ان ذلك من آثـار رحمة الله ، وهكـذا يحـيي الأرض بعد موتها. أفلا نهتـدي بـذلك الى قـدرة الـرب ، وانه كيف يحي الموتى؟!

وآيــات هــذا الــدرس تثـير فينا الاحســاس بالتفــاؤل والايجابية.

بينات من الآيات :

(47) **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَـوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا)**

هــذه من آثــار رحمة الله ، انه لم يبــادر إلى إنــزال العقوبة بعبــاده فــور انحــرافهم عن الــدين القيم مما يعرضـهم للاصـطدام بالسـنن الالهيـة. كلا .. وانما انـذرهم عبر رسله.

أرأيت لو شــــــــاهدت طفلا يلعب على حافة جبل أو لست تخشى عليه الســقوط ، وتســعى بكل جهــدك ان تردعه؟! كذلك رسل الله سعوا من أجل إيقاف سقوط

الأمم في وديان الفساد.

ولكن ذلك لا يعني أبدا إكـراه النـاس ــ عبـاده ــ على الهداية ، بل الــذين أجرمــوا تعرضــوا لانتقــام الــرب في النهاية ، أما المؤمنــون فكــان على الله حقا ان ينصــرهم قال تعالى :

(**وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**)

ورد في الحديث عن رسول الله (ص) انه قال :

ما من امرء مسـلم يـرد عن عـرض أخيه الا كـان حقا على الله ان يــرد عنه نــار جهنم يــوم القيامة ، ثم قــرأ (ص) : «**وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**» [2]

ونصر الله المؤمــنين لا يعــني بالضــرورة ان يكــون مباشرة بيد الله سبحانه ، بل قد يكون نصر المؤمنين عن طريق بعض المؤمــنين أنفســهم ، فالله ســبحانه يــدفع النـاس بعضـهم ببعض ، ومثل ما يعـذب الكـافرين بأيـدي المؤمنين كذلك ينصر المؤمنين ببعضهم.

(48) (**اللـهُ الَّذِي يُرْسِـلُ الرِّيـاحَ فَتُثِـيرُ سَـحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ**)

فالله يرسل الريــاح فتكثّف الســحاب ، وتركمه بعضه على بعض ، وتبســـطه في الســـماء كيف يشـــاء الله ، ويمطره على من يشاء من عباده.

والإثارة بمعنى السّوق ، وأثـار الغبـار هيّجه ، والبسط قد يقال للبساط من البسط

(2) تفسير نور الثقلين / ج (4) / ص (191).

والفرش ، فيفرش الله السحاب في السماء ، كيف يشـاء ، حتى إذا أمطر السحاب تناوله أكبر قدر من الأرض.

(**وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً**)

متراكما على بعضه قطعة قطعة ، يراها ركـــــــــاب الطائرات.

(**فَتَرَى الْوَدْقَ**)

ولعـلّ المـراد منه رذاذ المطر الـذي تفـرزه قطعـات السحاب.

(**يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ**)

من خلال الســحب المتراكمــة. هكـذا يولد الغيث بعد مخاض مرير.

فلو لا حركة الريـاح وضـغوطها على السـحب ، ولو لا تـــراكم الســـحب ومرورها بتيـــارات هوائية بـــاردة ، لما أمطرت.

ثم ينتقل الـــربّ من قلب الســـحب في الفضـــاء إلى تقلّبات فؤاد البشر على الأرض حيث ينتظر بفـارغ الصـبر بركات الغيث فإذا هطلت السماء طار فرحا.

(**إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**)

لأنه يبشرهم برخاء واسع وثراء عريض.

(49) (**وَإِنْ كـانُوا مِنْ قَبْـلِ أَنْ يُنَـزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ**)

مشـــكلة الإنســـان انه عند ما تتـــأخر عنه رحمة الله يكون من القانطين ، أفلا يـرى بـأنّ الـذي خلق السـموات والأرض برحمته لا يتركه؟ بلى. ولكن البشر حين يفقد

التوكل على الله يفقد الأمل في المستقبل.

(50) كيف نـــــــزداد بربّنا معرفة ، وفي رحمته أملا؟ وكيف نسعى نحو اليقين بقدرته على إحياء الموتى؟

والجــواب : بـالنظر إلى آثـار رحمة الله ، الى الغيث حين ينزله على الأرض الميتة فتستقبله بترحـاب وتهـتز له وتنبت الــزرع ، وإذا بالبســيطة لبست حلّة خضــراء ، إنّ النظر إلى هــذه الآثــار تجعل القلب ينفتح لأنــوار معرفة الله.

(**فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ**)

والهدف من النظر ليس مجـرد الإذعـان بقـدرة الله ، بل وأيضا بمعرفة تجليات قدرة الله على الخليقة والسـنن التي أجراها الله فيها ، وكيفية اجراء تلك السنن.

(**كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**)

وهنالك إذا عرف كيف أحيا الله قد يهتدي إلى حقـائق اليوم الآخر حيث ان خـالق الـدنيا هو خـالق الآخـرة ، وان قدرته فيهما سواء.

(**إِنَّ ذلِـكَ لَمُحْيِ الْمَـوْتى وَهُـوَ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ**)

إنّ انتقـــال الســـحاب من أقصى الأرض ليمطر في أقصاها ، تعكس في وجداننا الإيمان بالبعث ، والحيــاة بعد المــوت ، فكما يحــيي الله الأرض بــالمطر ، كــذا يحــيي الأنفس بعد موتها.

(51) (**وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحـاً فَـرَأَوْهُ مُصْـفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ**)

هنـاك فـرق بين كلمـتين (ريح) و (ريـاح) في القـرآن الكريم ، فالريح تستخدم

في موارد العـذاب ، والريـاح تسـتخدم في مـوارد الرحمة والبشارة.

وفي الرواية عن رسـول الله (ص)، انه إذا رأى الـريح قد هاجت يقول :

«**اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا**» [3]

واما لماذا سمّيت الريح بالصفراء؟

جاء في تفسـير البيضـاوي : إنّ الصـفراء الـتي تجعل الأرض والزرع صفراء ، وقد فسّرها البعض بأنها التي تنذر بالعــذاب ، ولا خــير فيها ، وجــاء في الحــديث عن أمــير المؤمنين (ع)، انه قال :

«الرياح خمسة ، منها العقيم ، فنعوذ بالله من شــرها ، وكان النبي (ص) إذا هبت ريح صفراء أو حمراء وسـوداء تغير وجهه واصفر ، وكان كالخائف الوجل ، حتى ينزل من الســماء قطــرة من مطر ، فــيرجع اليه لونه ، ويقــول : جاءتكم بالرحمة» [4]

وعند ما يـرى الإنسـان الـريح مصـفرة يكفر بـالربّ ، وبقدرته على دفع المكـروه عنه ، وينسى بـان الله الـذي بعث بهذه الريح قادر على أن يبدلها برياح مباركة.

(52) لقد تليت علينا آنفا آيــات الله ، ولكن ليس كل الناس قـادرين على وعيها ، بـالرغم من شـدة وضـوحها ، ونفاذ بلاغتها ، فمن الناس من هو ميّت الأحيـاء قد سـدّت منافذ قلبه تماما كالجاحدين ، ومنهم من فقد السـمع وهو يتــولّى هاربا من الحقــائق كمن أخــذتهم العــزة بــالإثم ، ومنهم العمي الذي حجب بصره غشاوة.

---

(3) المصدر / ج (60) / ص (17).

(4) المصدر / ص (6).

هؤلاء بحاجة إلى إصلاح أنفسهم قبل تلقّي آيات الله.

(**فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**)

(53) (**وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ**)

ويبدو ان السياق يقسّم هؤلاء الناس إلى ثلاثة أقسام : الميّت والأصم والأعمى.

ولعلّ الأوّل هو الكافر الذي يكون بمثابة الميت ، الذي لا يسمع ولا يرى ، أمّا الثاني فهو الأصم الذي يمكن أن يفهم بالاشارة ، ولكن بسبب تولّيه مدبرا لا يسمع ، كما انه لا يرى ، والثالث الأعمى الذي يمكن ان يسمع ويعي ، ولكنه لا يستطيع ان يطبق ما يسمع لأنه أعمى.

واستخدم السمع للميت ، باعتباره آخر ما يفقده الحي ، واستخدم السمع للأصم لان ابرز عيب فيه عدم السماع ، ولم يستخدم السماع للأعمى لأنه يسمع ، بل قال : «**وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ**».

ان السمع الذي هو بداية فهم التجربة والانتفاع لا يكون الا عند التسليم ، فمن فقد حالة التسليم النفسي للحق لم ينتفع حتى بسمعه.

وكلمة أخيرة :

في درس مضى قرأنا قوله تعالى : (**وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) وفي الآية بعدها يذكر إرسالا آخرا ، ولكن ليس للرياح وإنّما للرسل ، فيأتوهم

بالبينات : (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ**) وفي الآية بعدها يبسط القول في الرياح فيقول : (**اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**) ، وان كانوا من قبله لمبلسين.

وبعد ذلك يتكلم عن إحياء الأرض بعد موتها بالمطر.

ونستوحي من هذا الترتيب :

أولا : إنّ الله كثيرا ما يربط بين إرسال الرياح وبين إرسال الرسل ، قال تعالى : (**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ، لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) [5]

وهكذا تكون رسالاته مظهرا لبركاته ، كما الرياح الخيرة.

ثانيا : لقد فسّر آل البيت (ع) السحاب بالرسول (ص) وفسروا إحياء الأرض بعد موتها بإحياء الأرض بأئمة الهدى.

وجاء في بعض الروايات ان ذلك جاء في حق صاحب الأمر القائم (عج).

فعن أبي جعفر (ع) في قوله تعالى : «**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**» قال

---

(5) الأعراف / (57 ـ 59).

«يحييها الله تعـالى بالقـائم بعد موتها ــ يعـني بموتها كفر أهلها ـ والكافر ميّت» [6]

(**إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ**)

---

(6) كمال الدين وتمام النعمة / ص (668).

اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْـدِ ضَـعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَـلَ مِنْ بَعْـدِ قُـوَّةٍ ضَـعْفاً وَشَـيْبَةً يَخْلُـقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَـدِيرُ (54) وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُـونَ ما لَبِثُـوا غَيْـرَ سـاعَةٍ كَـذلِكَ كـانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَـدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُـونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَـعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هـذَا الْقُـرْآنِ مِنْ كُـلِّ مَثَـلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُـونَ (58) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللـهُ عَلى قُلُـوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ (59) فَاصْـبِرْ إِنَّ وَعْـدَ اللـهِ حَـقٌّ وَلا يَسْـتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (60))

---

54 [شيبة] : حال الشيخوخة والهرم.
60 [لا يستخفنك] : لا يستفزنك.

هذا يوم البعث

هدى من الآيات :

تقلّب البشر في كفّ التقدير دليل على قـدرة المـدبّر ، كما أن تقلّبات الأرض تجليات قـدرة ربنا سـبحانه ، وفي دروس مضت ذكرنا الســـياق بتغيّـــرات الطبيعة ، وها هو الــدرس الأخــير يــذكرنا بــان الله سـبحانه وتعــالى خلق الإنسان من ضعف ، ويردّه الى ضعف من بعد قــوة ، فهو الـــذي يخلق ما يشـــاء (وليس البشر نفســـه) وهو العليم القدير.

وسـفينة الـزمن تحمل البشر عـبر أمـواج المتغـيرات إلى شاطئ الساعة حيث يواجه الحساب ، أما المجرمـون فإنهم يقسمون ما لبثوا غير ساعة ، لأنّهم كانوا يؤفكـون ، بينما يعرف أهل العلم والايمـان ان هـذه نهاية المطـاف ، إنّه يوم البعث الذي لم يعلموا عنه شــيئا ، وهنا لك لا تنفع الظــالمين المعــذرة ، ولا هم يســألون عن ذنــوبهم ، بل يلقون جزاءهم بلا عتاب استخفافا بهم.

وهكــذا لم يــدع القــرآن حقيقة إلّا وبيّنها عــبر مثل ، ولكن الكافرين لن ينتفعوا به لأنهم يجحــدون بــه. بلى. إنّ قلـوبهم مغلقة ولا بــدّ أن يصـبر المؤمنـون ، ولا تـدعوهم إثارات الكفار إلى العجلة.

بينات من الآيات :

(54) نظرة المؤمن إلى الزمن تختلف عن غــيره ، إذ انه يســــتوحي من التغــــيرات الطارئة إيمانا ومعرفة بالحقائق الثابتة ، ويستشهد بها على ما سيحدث مســتقبلا ، أمّا الكـــافر فإنّه ليس لا يســـتوحي من التحـــولات والتغــيرات الطارئة عــبرة ، بل وتشــوّش رؤيته هـــذه التحولات أيضا.

إنّ هــذا التطــور في حيــاة الإنســان يــدل على أنّ الإنسان هو الإنســان نفسه ، ولكن التغيـير إنّما طـرأ على شيء خارج ذاته ، فالقوة التي كـانت ضـعفا في الصـغر ، وتعــود ضــعفا في الكــبر ليست من ذات الإنســان ، وإلّا لاستمرت معه ، والعلم ليس من ذات الإنسان ، وإلّا لكان يلازمه ، ولكن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا ، فجعل لنا الســمع والأبصــار والأفئــدة ، وكل شــيء فيك سوف يزول.

(**اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ**)

ولم يكن خلق الإنسان أساسا من مادة الضعف ، لأنّ الله جـلّ وعلا يخلق الأشـياء بـالإرادة الإلهية (كن فيكـون) وانما جعله ضــعيفا ، لأنّه خلقه من الـــتراب ، أو كـــان الضعف أساس خلقته ، وواقع ذاته ، جـاء في دعـاء مـأثور عن الامام الحسين (ع):

«**أنا الفقـير في غنـاي ، فكيف لا أكـون فقـيرا في فقري؟! أنا الجاهل في علمي ،**

فكيف لا أكون جهولا في جهلي؟!» [1]

(**ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً**)

في شبابه حتى كهولته ، إذا القوة ليست من ذات البشر.

(**ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً**)

وهذا الضعف الثاني يعتريه نتيجة المرض أو نتيجة الشيخوخة. ومن المعروف ان مرض الشيخوخة لا يعالج إذ أنّه يتسبب من انعدام أو ضمور خلايا المخ التي لا تعوّض بأية وسيلة.

قال بعض الشعراء :

عجوز تمنّت أن تكون فتية	وقد شاب منها الرأس واحدودب الظهر
فمرّت على العطّار يصلح شأنها	فهل يصلح العطّار ما أفسد الدهر

(**يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**)

هذه التحولات التي تجري على الإنسان تكشف عن قدرة الله وعلمه سبحانه. ان أعظم آية على قدرة الرب انه يقلب الإنسان من حال إلى حال ، في إطار تقدير حكيم ، وتدبير رشيد ، حتى يعرف انه القادر المهيمن العليم الحكيم ، جاء في دعاء الامام الحسين (ع):

«**إلهي علمت باختلاف الآثار ، وتنقّلات الأطوار أنّ مرادك مني أن تتعرف**

---

(1) مفاتيح الجنان / ص (271).

اليّ في كل شيء ، حتى لا أجهلك في شيء» [2]

(55) لا يتوقع المجـــــرم امتثاله للمحاكمة ، وتـــــراه يســوّف في نفسه الجــزاء ، ويتمنّى لو أنّه لا يأتيه أبــدا ، ولكن المكتــوب عند الله غــير ذلك تماما ، فكل يــوم يمر يقرّبه إلى يوم الجزاء خطوة وما دامت السـاعة آتية ، وما دمنا امتطينا صهوة الأجل ، فلا بد أن نلتقي يوما وإياها.

ولهول المفاجئة يحلف المجرم إنّما لبث ساعة واحدة ، وهي اللحظة العـــابرة من الـــوقت ، وهكـــذا تتلاشى المسافة آنئذ بين لحظة الذنب ولحظة الحساب ، وفعلا ما هي قيمة أيّـام الـدنيا بالقيـاس إلى الخلـود ، بل ما وزن اللحظـات العـابرة الـتي يقضـيها المجـرم مع شـهواته بالأحقاب التي يلبثها عند الجزاء.

وهكذا يحلف المجرم بأنه ما لبث غـير سـاعة ، ولعلّه صـادق بالقيـاس إلى المـوازين الـتي اختلقها بنفسه فيما يرتبط بالعقـاب ، فهو كـان يـزعم انه لا يأتيه أبـدا ، أو إذا كـان يأتيه فهو بعيد ، وبعيد جـدا في زعمه ، وهكـذا كـذب على نفسه ، وصــرف ذاته عن الحقيقة بهــذا التســويف وتلك التمنيات.

(**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ**)

بأهوالها ، وصـــــــعقة مفاجئتها ، وعظيم وقعها في السموات والأرض ، يومئذ ..

(**يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ**)

وهم الـــذين ارتكبـــوا الموبقـــات ظـــانين ألّا جـــزاء ينتظرهم.

---

(2) المصدر / ص (272).

(**ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ**)
حتى كأنهم يواجهون الجزاء فور الانتهاء من الجريمة.
ولو أننا ننتبه إلى مـدى سـرعة طيّ الـزمن ، ومـدى اقتراب الأجل ، وكيف أنّ العقاب أقرب بكثير مما نتصـور ، وأنّ المسـافة الـتي نتخيلها تفصل بيننا وبين الجـزاء ليست إلّا وهما ، إذا لارعوينا.
هكذا يقول المؤمنون في دعائهم لربهم :
«**ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته**»
ويقولون :
«**اللهم عظم بلائي ، وأفـرط بي سـوء حـالي ، وقصرت بي أعمالي ، وقعدت بي أغلالي ، وحبسني عن نفعي بعد املي ، وخـدعتني الـدنيا بغرورها ، ونفسي بجنايتها ، ومطالي يا سيدي**» [3]
ويقول الامام أمير المؤمنين (ع):
«**أيّها الناس إنّ أخـوف ما أخـاف عليكم اثنـان : اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فاما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة**» [4]
(**كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ**)

---

(3) رائعة من دعـاء الكميل للإمـام علي (ع) / مفـاتيح الجنـان / ص (63).
(4) نهج البلاغة / الخطبة (42) / ص (83).

ويصرفون عن الحق ، ويزعمـون أنّ الجـزاء بعيد ، أو أنه لا يأتي أبدا ، والسؤال :

من الـذي يصـرفهم عن الحـق؟ الجـواب : قد يكـون الشـيطان أو المجتمع الفاسد أو هـوى النفس ، وبالتـالي أنّى كان عامل الضلالة فـإنّهم لا يمكنهم أن يغيّـروا الواقع بتمنيـاتهم الحلـوة ، كلّا .. الجـزاء آت ، وسـوف يقولـون عنده أنهم لم يلبثوا غير ساعة.

ولعـلّ كلمة «كـذلك» هنا تـوحي بـأنّ ضـلالتهم في معرفة مدة لبثهم تشبه ضـلالتهم في إبعـاد فكـرة الجـزاء عن أذهانهم.

ومن هنا ينبغي أن يتضرع الإنسـان إلى ربّه ألّا ينسـيه الآخرة ، وأن يقصر أمله بحسن العمل.

(56) أمّا المؤمنــون فــإنّهم على يقين من الآخــرة ، ويحـذرون الحسـاب ، ويشـفقون من السـاعة ، ويسـعون دائبين لاتقاء عذاب ربهم ، فلذلك لا تفاجأهم السـاعة ، أو ليسـوا قد أعـدّوا عـدّتها ، وتـزودوا لـرحلتهم إليها الـزاد الأوفى؟

(**وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ**)

لعل العلم هنا هو علم السـاعة ، بـدليل قوله سـبحانه في آخر هــــذه الآية : (**وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُـــونَ**) أمّا الإيمـان فهو التصـديق لما يقتضـيه العلم بـالقول الصـادق والعمل الصالح.

(**لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ**)

ليس المهم المــدة الــتي لبثتم خلالها ، طــالت أم قصــرت ، المهم انكم بالتــالي واجهتم ما هــربتم منه بزعمكم.

ولعل التعبير ب «**فِي كِتابِ اللـهِ**» يشـبه ما نقوله : (في الواقع) أي انه بعكس

تمنيـاتكم بـألا تـأتي السـاعة أو أن تطـول المسـافة بينكم وبينها لم يقع ما هوت أنفسكم ، بل وقع ما أراد الله ، وما أثبته في كتابه الـذي هو مقيـاس الحق ، وليس أهـواءكم وتمنياتكم وما تشتهيه أنفسكم.

إنّ أهم ما ينبغي أن يعرفه الإنسان أنّ العالم المحيط به لا يتبع اهواءه ، ولا يمشي حسب أحلامه ، بل حسب ما كتب الله.

(**فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ**)

الذي أنكرتموه ولم يجدكم انكـاركم له نفعا ، بلى. إنّ إنكاركم أفرز نتيجة واحدة هي جهلكم وعدم استعدادكم.

(**وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**)

ونسـتوحي من هـاتين الآيـتين : أنّ الكـافر لا يعيش الزمن ، ولا يعترف بالنهاية ، ولا يحترم وقته الذي يسـوّفه إلى تلك النهاية الفظيعة ، بينما المؤمن يعي حقيقة الزمن التي هي فرصته الوحيـدة ، ويتحسّـس بمرورها ، فلا يـدع ساعة من وقته دون ان يملأها عطاء ليتزود به ليوم فاقته «**يَوْمَ لا يَنْفَـعُ مـالٌ وَلا بَنُـونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللـهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**».

بلى. إنّ منطق المؤمن من الزمن يجسده الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) حين يناجي ربه قائلا :

«**وأعـــني بالبكـــاء على نفسي ، فقد أفـــنيت بالتســـويف والآمـــال عمـــري ، وقد نـــزلت منزلة الآيسين من خيري**»

ثم يضيف ضارعا :

«ومالي لا ابكي ولا ادري الى ما يكون مصيري ، وأرى نفسي تخاد عني وأيامي تخـاتلني وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت»

ثم يصوّر نفسه السـاعات الرهيبة الـتي تنتظـره لكي يتزود لها ويقول :

«فمــالي لا أبكي ، أبكي لخــروج نفسي ، أبكي لظلمة قــبري ، أبكي لضــيق لحــدي ، أبكي لســؤال منكر ونكير اياي»

ويبلغ ذروة ضراعته عند تذكّر أهوال الساعة فيقول :

«أبكي لخــروجي من قــبري عريانا ذليلا ، حـاملا ثقلي على ظهري ، أنظر مـرة عن يميـني ، وأخـرى عن شمالي ، إذ الخلائق في شأن غير شـأني ، لكـلّ امرء منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة ، ضــاحكة مستبشــرة ، ووجــوه يومئذ عليها غــبرة ، ترهقها قترة وذلة» [5]

(57) لعلّ الشيطان يسـوّل للعاصي فعل المحرمـات بــأنّ الآخــرة مثل الــدنيا ، إذا ارتكب جريمة تنصل عنها ، واعتذر ، فتقبل معذرته ، يقول ربنا لعلاج هذا الوسواس :

(**فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ**)

وأساسا إنّ ذلك اليــوم هو يــوم الجــزاء ، لــذلك لا يطالب الظالمون بالتوبة ، لأنّ فرصتهم قد انتهت.

(**وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**)

---

(5) روائع من دعاء أبي حمزة الثمالي / مفاتيح الجنان / ص (193).

(58) (**وَلَقَدْ ضَـرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هـذَا الْقُـرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**)

يـــبيّن القـــــرآن لنا من كل حقيقة في الخلق أو في النفس جـــزءا لنســـتدل به على الحقيقة كلها ، ولكن كل تلك الحقـائق لا تنفع الكـافرين رغم وجـود آيـات الصـدق عليها.

(**وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُـولَنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ**)

لماذا ينكر هـؤلاء أبـدا الحـق؟ وما هي عوامل الإنكـار عنـــدهم؟ الجـــواب : لأنهم بظلمهم فقـــدوا القـــدرة على الفهم.

(59) (**كَـذلِكَ يَطْبَـعُ اللـهُ عَلى قُلُـوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**)

لأنهم تركـــوا العلم والإيمـــان بالرســـالة إلى الجهل والعنـاد ، وعند ما يـترك الإنسـان علمه الى جهله يتحـوّل قلبه إلى صندوق مقفل ، ومختوم عليه.

(60) كـــان ذلك موقف الـــذين كفـــروا ، أمّا موقف المـؤمن فهو الصـبر ، وانتظـار الفـرج ، ولان الله آل على نفسه أن ينصر عباده الصالحين.

(**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَـقٌّ وَلا يَسْـتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ**)

وهذه إشارة الى النـبي (ص) ان يسـتمر على عمله ، ولا يتأثر بما يقوله الذين لا يوقنون.

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

روي عن الامام الباقر (ع) انه قال :

«**من قرأ سورة لقمان في ليلة وكلّ الله به في ليلته ملائكة يحفظونه من إبليس وجنـــوده حــــتى يصـبح ، فـاذا قرأها بالنهـار لم يزالـوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يمسى**»

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (193).

الإطار العام

الاسم :

لم يكن لقمــان نبيا ولكنه كــان رجلا حكيما ، وكــانت حكمته الهية ، وقد خلـدها الـذكر الحكيم في آياته لتكـون نبراسا وهدى ، وسـمّى السـورة باسـمه ليضـرب مثلا من واقع عبد شكر الله فشكره الله ، وآتاه الحكمة بفضله.

جملة معارف سـورة لقمـان التّنويه بحكمة الله الـتي تجلت في الكتاب وتتجلى في قلـوب المحسـنين ولا ينتفع بها المستكبرون.

ولقد آتاها ربنا لقمـان ، ولخصـها في كلمة هي شـكر الله ، وفصـــلها لقمـــان لابنه في عشر وصـــايا تنبعث من الشــكر. أولها معرفة الخــالق وآخرها عــدم التكــبر على المخلوقين.

وتــبين السـورة بتفصـيل آيـات الله الـتي تهـدي الى توحيده ، وتوحيد الله هو حـدود شـكر عبـاده ، اي لا يجـوز ان يطيع الفرد والديه إذا أمراه بالشرك بالله.

وضمن هـذا الإطـار تنتظم موضـوعات سـورة لقمـان وفيما يلي بعض التفصيل :

الف : ان حكمة الكتـاب تنفع المحسـنين فتكـون لهم هدى ورحمة ، وهم الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكـاة ، ويوقنـون بـالآخرة ، فهم أصـحاب الهداية والفلاح ، بينما هنا لك أناس يشترون بأعمـارهم وأمـوالهم لهو الحـديث ، من أفكـار باطلة ، وممارسـات ما جنة كالغنـاء ، وهـدفهم الضلالة عن سبيل الله ، ويحذر القرآن بـأن لهـذه الطائفة عذابا مهينا.

بينما أعد ربنا للصــالحين جنــات النعيم. أو ليس ربنا حكيما ، يعطي كل فريق جـــزاءه العــادل وهو القـــوي العزيز؟! ولكي نعرف حكمة الله وبالتالي نشـكره ليرزقنا من حكمته يذكرنا السياق بخلق السموات بغير عمد يـرى ، ووضع الجبال في مراسيها لتحافظ على استقرار الأرض ، وخلق كل دابة (ممكنة التصور) ورزقها عبر النبات الـذي ينبته في الأرض بـــــالغيث ، ويجعله زوجا كريما (بحكمته البالغــة) هــذا ما خلقه الله ، وهكــذا خلقه ، فما ذا خلق الشركاء. كلا .. ان الظالمين في ضلال مبين (1).

ويعـود السـياق لبيـان آيـات الله (20) بعد ان يـذكرنا بمفــردات الحكمة الــتي آتاها لقمــان ولخصــها في كلمة واحدة (شـكر اللـه) ذلك لأن شـكر الله لا يتم الا بمعرفته ومعرفة آلائه ونعمائه علينا ، وأول ما يذكره ان الشكر لله يعود الى نفس الشاكر ، لان الله غنيّ حميد ، ثم يذكر بأن شرط الشكر اجتناب الشرك ، وينبغي أن يشـكر الإنسـان والديه ولكن في حدود شكر الله ، فاذا أمراه بالشـرك فلا يجوز إطاعتهما.

ولا بد ان يعــرف الإنســان انه مســئول عن أعماله ، وأنه حتى لو كان العمل بوزن

خردلة أتى الله به انى كـان (وهكـذا تعـود الى الإنسـان أعماله).

ومن مفردات الشكر وبالتالي الحكمة اقامة الصـلاة ، والأمر المعـــروف ، والنهي عن المنكر ، والصـــبر ، ومن مفرداته المشي هونا ، وعـــدم المشي مرحا ، واجتنـــاب الاختيـــــــــال والفخر ، والقصد في المشي ، والغض من الصوت (12).

ثم يــذكرنا السـياق بنعم الله علينا والـتي تسـتدعي الشكر. أو ليس كل شيء نقدر عليه فانما سـخره الله لنا ، وأسـبغ النعم ظـاهرة وباطنة ، بينما نجد البعض يجـادل في الله بغير أثارة من علم أو هدى أو كتاب منير.

وهم يتبعون آباءهم الذين اتبعوا الشـيطان ، وأكد ربنا ان الخوف من الآباء لا أساس له ، لان التسليم لله وحـده ، والإحسـان الى العبـاد يجعل العبد مصـونا من الأشـرار ، لأنه العروة الوثقى ، ولأن لله عاقبة الأمور.

أما الكفـار فـإنهم لا يحزنـون المؤمـنين لأن عـاقبتهم الى الله الّذي يجازيهم ، بلى. يمتعهم في الدنيا قليلا (دون ان يــدل ذلك على قــربهم الى اللــه) ثم يضــطرهم الى عذاب غليظ.

ويذكر السياق بعشر أسماء حسنى لرب العـالمين مع تقـديم شـواهد حـقّ عليها ، لترسـيخ قواعد الايمـان في قلــوبهم ، فالله هو الخــالق الّــذي لا ينكر أحد ذلك ، وهو الغـني الحميد ، فله ما في السـموات والأرض وهو العزيز الحكيم الّذي لا تحصى كلماته وهو السميع البصير.

وهو الخبير الّـذي يـولج الليل في النهـار ، والنهـار في الليل ، وقد سخر الشـمس والقمر وأجراهما في المسـير المحدد لهما.

وهو الحق الّذي لا يزال ملكه ، بينما يبطل ما يــدعون من دونه وهو العلي الكبير.

والله يهدي النـاس عـبر آياته ، ولكن الـذين يعيشـون الصبر والشكر يهتـدون بها ، ويعـرض ربنا سـبحانه النـاس لبعض السـاعات الحرجة ليتضــرعوا اليه ، ولكنهم بعــدها ينقسـمون فـريقين فمنهم مقتصد ومنهم جاحد ، والجاحد هو كل ختـار كفـور ، وهو الّـذي لا يفي بوعـده ولا يشـكر نعماء ربه.

ويحـــذر ربنا النـــاس من يـــوم القيامة حين لا تنفع العلاقات النسبية الحميمة ، ويؤكد لهم ان وعـده حق ، فلا تغـرنهم الـدنيا وأهلها (وبـذلك يلخص الـرب التحـذير من عوامل الانحراف).

وفي الخاتمة يذكرنا بعلمه المحيط وقدرته الواسعة.

سورة لقمان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الم (1) تِلْـكَ آيــاتُ الْكِتــابِ الْحَكِيمِ (2) هُـدىً وَرَحْمَــةً لِلْمُحْسِـــنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُــونَ الصَّـــلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِـالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُـونَ (4) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَـذابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْـمَعْها كَـأَنَّ فِي أُذُنَيْـهِ وَقْـراً فَبَشِّــرْهُ بِعَـذابٍ أَلِيمٍ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8)

---

6 [لهو الحديث] : الباطل الملهي عن الخير.
7 [وقرا] : الوقر الحمل الثقيل ، أي كان في مسامعه حمل ثقيل يمنعه عن الاستماع ، حتى يهتدي.

خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللـهِ حَقًّا وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَــدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيـدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُـلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِـهِ بَـلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (11)

---

10 [أن تميد بكم] : لئلا تضطرب بكم.

الإحسان تكامل وهداية

هدى من الآيات :

تدور الآيات في هذا الدرس حول موضوع الإحسـان ، الّذي يجب ان يكون صيغة العلاقة بين الإنسان والآخرين ، ولا ريب ان سـعي البشر لبنـاء المسـتقبل الفاضل لنفسه طموح شريف ، اما إذا كان هذا السعي مبنيّا على أسـاس الاسـتئثار والأخذ من الآخـرين فقط فهو أمر مرفـوض ، إذ ينتهي بـــالمجتمع الى الصـــراع والشـــقاء ، من هنا يحث القـرآن الحكيم على علاقة متوازنة ، تعتمد ركـيزتي الأخذ والعطـاء ، الـتي لو انتهجهما المجتمع لتـدرج نحو الكمـال الحضـاري لان العلاقة حينها سـتكون البنـاء والتكامل بين افـراد المجتمع ، وعلى عكس ذلك العلاقة المعتمـدة على عبـادة الـذات ومحورية المصـلحة ، حيث تصل بـالمجتمع الى حضـيض التخلّف والانهيـار ، ويصـبح الشـغل الشـاغل لكل فرد آنئذ هو افتراس الآخـرين بأية وسـيلة كـانت ، ولا غرابة ان تؤكد هذه السورة المباركة على ضروة العطاء ، وتبتـدئ بعبـارة «**وَرَحْمَـةً لِلْمُحْسِـنِينَ**» لان السـبيل الى رحمة الله هو العمل برسالته ، ولا يتأتى ذلك الا بالإحسان والعطاء.

ولكي تحل علينا رحمة الرب لا بد ان نحسن للآخـرين فنأخذ منهم لنعطيهم ، وإلا فلن تكـون الرحمة من نصـيبنا ولا الهـدى. لمـاذا؟ وما هي علاقة الإحسـان بالهداية في حياة الإنسان؟

والجـواب : ان الّـذي يعيش حالة مناقضة للإحسـان كابتزاز حقـوق الآخـرين ، انما يقـوم بـذلك لما يعيشه من حب مفرط للذات ، فلا يرى من هذا الكون الرحيب سوى نفسه ، فيعبد هـواه ، وبالتـالي يبتعد عن الحق ، وهكـذا يكـون مقياسه المصـلحة لا القيم ، وهدفه الـذات لا الحق وهـذا يسـبب كل انحـراف. ان العقل والرسـالات الإلهية توجه الإنسـان الى حقـائق الخليقة ، بينما توجهه شـهواته واهواؤه الى داخل ذاته ومن هنا فان استمرار اتباع الهوى يطفئ شـعلة العقل ، وهـذا هو الضـلال البعيد ، ومن هنا يؤكد ربنا بأن المحسن هو الّذي يصـيب طريق الهـدى في عالم المعنويات ، والرحمة في عـالم المـادة ، والـتي هي الأخرى نتيجة للهدى.

ولو تـدبرنا آيـات القـرآن لوجـدنا ان من أهم مـيزات الأنبياء الإحسان الى النـاس ، بل وقد تكـون العامل الهـام في اصطفائهم للنبوة.

قـال تعـالى عن نبيه يوسف (ع) : (**وَلَمَّا بَلَـغَ أَشُـدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**) [1]

وقــال عن النــبي موسى (ع) : (**وَلَمَّا بَلَــغَ أَشُــدَّهُ وَاسْــتَوى آتَيْنــاهُ حُكْمــاً وَعِلْمــاً وَكَــذلِكَ نَجْــزِي الْمُحْسِنِينَ**) [2]

وأكد ربنا هـذا المعـنى بصـورة عامة إذ قـال : (**وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ**

---

(1) يوسف / (22).
(2) القصص / (28).

إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَـرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [3]

ولعلنا نسـتوحي من آيـات الـذكر ان الـذين يتخـذون الـدين وسـيلة لابـتزاز الآخـرين واسـتغلالهم ، أو مطيّة للمصالح والأهواء ، لا يفهمون الدين فهما حقيقيا وعميقا ـ لأنه لا يفهمه الا من كـان محسـنا ، بعيـدا عن شـهواته واهوائه ـ ، **(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُـرْآنِ ما هُـوَ شِـفاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلّا خَساراً)** [4]

وبـالرغم من أن الجميع يطمحـون الى الإحسـان ، الا أنهم يجدون أيـديهم وأنفسـهم مقبوضة عن العطـاء حينما يـنزلون إلى سـاحة العمل ، فكيف نخلق صـفة الإحسـان في أنفسنا؟!

بالصـلاة لأنها تخلق في الإنسـان دوافع الإحسـان ، وبالزكـاة لأنها تطهر القلب من حب الـذات كما تطهر المـال ، وكـذلك بـاليقين ، فكلما تأكـدت الحقـائق عند الإنسان كاليقين بالموت وبما بعـده من الجـزاء كلّما كـان أكـثر إحسـانا للآخـرين ، إذ يتأكد بـان ما يعطيه لا يـذهب سدى ، بل يعود إليه في صورة جنـات أعـدها الله للمتقين ، فهو آنئذ لا يعتـبر المغنم ما يصـرفه على نفسه ، بل المغنم كل المغنم هو ما ينفقه في سبيل الله.

وفي السيرة ان رسـول الله (ص) ذبح شـاة وتصـدّق بها ولم يبق الا الكتف ، فقـالت له عائشة : لم تبق الا الكتف يا رسول الله! فقـال (ص) : لم يـذهب الا الكتف ، لأنه يعلم بـان ما يأكلونه يتنعمـون به وينتهي ، بينما يبقى ما يعطونه صدقة في سبيل الله ، وينفعهم في يوم لا ينفع فيه الا العمل الصالح.

---

(3) الأعراف / (56).
(4) الإسراء / (82).

وفي نهاية الدرس يحدثنا القرآن الحكيم عن الطـرف المقابل من الـذين يقتصـدون لهو الحـديث ، لان الأشـياء تعـرف بأضـدادها ، وبينما يهتـدي أولئك لآيـات الله ، يصد هـؤلاء عنها ، كـأن في آذانهم وقـرا ، وليس جـزاء هـؤلاء سوى النار.

بينات من الآيات :

(1) (**الم**) كما احتملنا سابقا : ان الا حرف التي تـرد في أوائل السـور رمـوز لا يعلمها الا الله والراسـخون في العلم ، ويحتمل ان تدل على ألفاظها.

(2) ومن تركيب هذه الأحرف البسيطة في ظاهرها ، انزل الله سـبحانه القـرآن وآياته ، في كتـاب ثـابت ينبعث بالحكمة.

(**تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ**)

(3) كما تعطي هـــذه الآيـــات الهـــدى والبصـــائر للمحسنين.

(**هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ**)

والإحسان ليس رحمة للمجتمع وحسب ، بل هو هدى له أيضا ، إذ يهديه الإحسـان الى سـبل اسـتغلال الطبيعة وتســـخيرها في خدمة الإنســـان ، ذلك ان من صـــفات المجتمع الايمـــاني ، بحث افـــراده عن وســـائل للعطـــاء والإحســـان ، ولا يمكنهم ذلك الا بتســـخير الطبيعة ، مما يـدفعهم لاسـتغلالها ، واعمـال عقـولهم بحثا عن حل لكل المشاكل والعقبات الـتي تعـترض هـذا الهـدف ، وبالتـالي فان أبوابا كثيرة سوف تنفتح أمامهم ، وكلها طرق جديـدة للســيطرة على الحيــاة واســتغلالها ، وهــذا جــانب من الهداية. أو ليست الحاجة أم الاختراع؟!

(4) ولكن كيف يمكن ان نوجد صـــفة الإحســـان في المجتمع؟

1 ـ بالصـــلاة لأنها معـــراج الـــروح نحو الفضـــيلة ، باعتبارها تقرب الإنسان الى رب العالمين.

(**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ**)

واقامة الصلاة بالمعنى الحقيقي تتضمن بل تســتدعي الإحســان ، كما ان الصــلاة تــأتي نتيجة الإحســان ، أليس المحسن يهديه اللــه؟! أو ليس الإحســان يــروض النفس ويزكيها؟!

2 ـ بالزكــاة الــتي تــربي الــروح على الإحســان ، وتطهرها من حب الذات.

(**وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ**)

والزكاة ليست مجرد واجب ديـني يقـوم به المـؤمن ، بل هي برنــامج يــدرّ به على الإحســان ، ومنطلق له نحو العطاء.

3 ـ باليقين بالآخرة ، فالذي يقتصر نظـره على الـدنيا يكون منتهى السعادة عنـده ان يتنعم ويسـتلذ حـتى يعتقد كما قيل : ان الحياة لـذة وشـهوة ، اما الآخر الّـذي يـتيقن بـالآخرة (الجـزاء) وان مسـتقبله فيها قـائم على ما يقدمه في ســبيل الله هنا في الــدنيا ، فهو يكتفي بما يقيم أوده لنفسه ، ويدخر ما سواه لآخرته.

(**وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**)

(5) ويؤكد القــرآن الكــريم : ان هــذه الصــفات دليل على الهدى من جهة ، وسبب الفلاح من جهة أخرى.

(**أُولئِكَ عَلى هُـــــــــــدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)

في الــدنيا بالهـدى والنمو الّـذي يســببه الإحســان ، ومحبة النــاس لهم ، وفي الآخــرة بجــزاء الله لهم ، وإذ يحـدثنا الله بصـيغة المجتمع عن تجمع بصـفة عامة وليس عن فرد واحد ، فلأن الإحسـان بالنسـبة لفـرد واحد يعيش في مجتمع فاسد قد لا ينفعه في الدنيا ، اما إذا كان ضمن تجمع من المحسـنين فانه سـيكون ذا جـدوى في الآخـرة والدنيا أيضا ، بتعميقه روح المحبة والوئام داخل المجموع.

(6) ولأن من ممــيزات الســياق القــرآني انه يعرفنا مختلف المسائل والحقـائق بـذكر أضـدادها ، فبـذكر النـار يعرّفنا الجنة ، وبذكر الكفر يعرفنا الإيمان ، نجده هنا أيضا يحدثنا عن الحالة المخالفة للإحسان.

فهناك من ينفق في سبيل الله من أجل الهداية ، وهو بالتــالي يمهّد أرضــية الهــدى لنفسه بإحســانه وإنفاقه ، وهناك من ينفق في سبيل الضلال ويشـتري لهو الحـديث. كلاهما يعطي من نفسه وماله ولكن هـــذا للهـــدى وذاك للضلال.

(**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِـلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**)

ولكن لمـاذا يكـون الضـلال هـدف هـؤلاء؟ حـتى انك تجدهم يشترون (لهو الحديث)؟

لأنهم يـــرون الحق ينــاقض أنانيّــاتهم ، تماما بعكس المحسنين الذين يرون الحق محورهم ، وقلب الإنســان لا يمكن ان يكون فارغا أبدا ، فاذا لم يملأه بالايمان والعلم ، فسيكون بيتا للهو والانحرافات.

واللهو هو القــول والعمل الّـذي يخلو من أي هـدف ، وهو في النهاية يعــود على الإنســان بالخســران ، فهو لا يشتري اللهو بدراهم معدودة ، انما يــدفع من أجله عمـره الغـالي وما يملك من فـرص ، ومثـال ذلك الّـذي يشـتري الافلام والاشــــــرطة والمجلات والكتب المنحرفة ، ومن الطبيعي ان يبتعد هذا الإنسان عن آيات الله ويرفضها.

(**وَيَتَّخِذَها هُزُواً**)

على عكس المحسنين الذين يهتـدون بالآيـات (**هُـدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ**) وهذه من اخطر المراحل التي يصل إليها البشر في الضلال.

(**أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**)

لاستهزائهم بآيات الله ، واستكبارهم عليها.

والملاحظ أن الســياق ربط بين الإحســان والهــدى ، ولكنه لم يسمّه (شـراء الهدايـة) بينما سـمي الإنفـاق في سبيل الضلال (بشـراء لهو الحـديث) وذلك لان الهداية من الله ، وهي أعز من أن تشترى.

كما ان هنــاك مفارقة بين الكتــاب الحكيم وبين لهو الحديث ، كما بين الهدى للمحسنين والضلال لمن يشتري لهو الحديث.

ومفردات لهو الحديث كثيرة تشير الى بعضـها الرواية المأثورة عن الامام الصادق (ع) حيث قال :

«هو الطّعن في الحق ، والاسـتهزاء به ، وما كـان ابو جهل وأصـحابه يحيّـون به ، إذ قـال : يا معاشر قـريش ألا أطعمكم من الزقوم الّذي يخوفكم به صاحبكم؟ ثم أرسل الى زبدة وتمر ، فقال : هذا هو الزقوم الّذي يخوفكم به»

قال : «ومنه

الغنا» [5]

وقد استفاضت الأحـاديث المـأثورة في تفسـير هـذه الآية بالنهي عن الغناء ، باعتباره من لهو الحديث.

نقرأ معا بعض تلك النصوص.

جاء في الأثر عن الامام الباقر (ع) انه قال :

«**الغنا مما أوعد الله عز وجل عليه النــــار**» وتلا هذه الآية [6]

وروي عن الامام الصادق (ع) انه قال :

الغنا مجلس لا ينظر الله الى اهله وهو مما قـال الله عز وجل وقرأ : «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**» [7]

وروى أبو أمامة عن النبي (ص) انه قال :

لا يحل تعليم المغنيات ، ولا بيعهن ، وأثمانهن حـرام ، وقد نـزل تصـديق ذلك في كتـاب الله «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ**» [8]

وجاء في حـديث مـروي عن الامـام الصـادق (ع) وهو يعدد مفاسد الغناء :

«**بيت الغناء لا تؤمن من فيه الفجيعة ، ولا تجاب فيه الدعوة ، ولا يدخله الملك**» [9]

---

(5) نور الثقلين / ج (4) / ص (195).
(6) المصدر / ص (194).
(7) المصدر.
(8) المصدر.
(9) وسائل الشيعة / ج (12) / ص (225).

وجاء في نص آخر مأثور عنه أيضا قال :

«**الغناء يورث النفاق ، ويعقب الفقر**» [10]

ويبدو ان حكمة تحريم الغناء في الشـريعة الاسـلامية تتشابه وحكمة تحـريم الخمـرة والمسـكرات والمخـدرات والقمـــار ، حيث أنّها جميعا تلهي النـــاس عن ذكر ربهم ، وتنسيهم الآخرة ، وتخدّرهم فيما يتصل بمشاكل حيــاتهم ، وهي بالتالي نوع من الهروب عن مواجهة تحـديات الحيـاة التي يتناسونها عـبر الملهيـات ، كما انها تجر المجتمع الى المفاسد الاجتماعية ، الـــتي تســـبب الصـــراعات وتـــزرع النفاق.

ولهـذا أكد رسـولنا الأكـرم (ص) على هـذا الجـانب ، فيما رواه عنه احمد امـام المـذهب ، عن ابن مسـعود انه قال :

«**الغناء ينبت النفـاق في القلب كما ينبت المـاء البقل**» [11]

والغناء يشجع أيضا الفساد والجنس ، ويتخذه أصحاب الهـوى وسـيلة لاثـارة شـهواتهم ، واتخـاذ السـبل السـيئة لاشباعها مما يهدد التماسك الأسري بأخطار كبيرة.

من هنا جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر (ع) حول الغناء ... انه سئل عن كسب المغنيات فقال :

«**التي يدخل عليها الرجال حرام ، والـتي تـدعى الى الأعراس ليس به بأس**» [12]

---

(10) المصدر / ص (230).

(11) تفسير نمونه / ج (17) / ص (22) نقلا عن تفسـير روح المعـاني للآلوسي عند تفسير الآية.

(12) نور الثقلين / ج (4) / ص (194).

وفي الغنـــاء بالاضـــافة الى كل ذلك حالة إدمـــان كما المسـكرات والمخـدرات ، لأنها تخلف آثـارا خطـيرة على شبكة الأعصاب ، ومن هنا دلت البحوث الـتي أجـريت في حياة كبار رجال الغناء والموسيقى ، انهم تعرضوا لمتاعب روحية ، حـــتى أنهم فقـــدوا قـــدراتهم العصـــبية ، وابتلي بعضهم بأمراض نفسـية ، وفقد البعض منهم مشـاعرهم ، وانتهى ببعضـــهم المطـــاف الى المصـــحات العقلية ، أو أصيبوا بالشـلل ، وبعضـهم تعـرض لمـوت الفجـأة بسـبب ارتفاع ضغط الدم عند ضرب الموسيقى. [13]

(7) ولا يمكن ان تنطفئ شعلة الهدى من قلب البشر بصـفة كلية ، بل لا بد ان يبقى فيه وميض من نـور العقل مهما تـراكمت عليه الشـهوات ، هكـذا أراد الله ان يقيم الحجة عليه أبدا من نفسه.

فبـالرغم من وصـول فرعـون الى قمة العنـاد ، حيث ادعى الربوبية ، ولكنه ما استطاع إطفـاء الفطـرة داخله ، وإذا به يقـول «**آمَنَّا بِرَبِّ هـارُونَ وَمُوسى**» بلى. يمكن للبشر أن يخالف فطرته في فكره وسلوكه ، لـذلك تجـده يسعى جادّا للانفلات من وخز ضميره ، ويهرب من أسباب هدايته.

(**وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً**)

عنادا منه.

(**كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها**)

ولم يقل لم يســـمعها ، وهـــذا دليل على الاختيـــار ، فالإنسان هو الّـذي يختـار بنفسه لنفسه ان لا يسـمع نـداء الفطرة ولا آيات ربه مع تمكنه من الاستماع لذلك.

---

(13) تفسير نمونه / ج (17) / ص (26) / نقلا عن كتاب تأثير موسيقى بر روان واعصاب / ص (26).

(**كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً**)

وهو الثقل في السـمع أو الصـمم ، وهـذا الـوقر أو الحجـاب بينه وبين الآيـات يكـون تـارة بسـبب الأفكـار المسبقة ، وتارة أخرى بسبب العوامل الآنيّة كالاسـتكبار ، وعموما فان المقاييس الخاطئة التي يعتمدها الإنسان في تقييمه للأفكار والأشخاص والأشياء هي السبب في النتائج الخاطئة.

(**فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ**)

هناك قال ربنا «مهين» لأن جزاء الاستكبار في الـدنيا الإهانة في الآخرة ، حـتى جـاء في الحـديث ان الله يحشر المسـتكبرين في صـورة ذرّ يطـأهم النـاس حـتى ينتهي الحساب.

وهنا يقول ربنا سبحانه : (**أَلِيمٍ**) لأن الإنسان يسـتكبر ، ويعـرض عن الآيـات من أجل التلـذذ بشـهوات الـدنيا ، وجزاء ذلك الإيلام في الآخرة ، ويدل انسجام التعـابير في موارد العـذاب على ان الجـزاء من جنس العمل ، وبتعبـير أبلغ الأعمال هي التي تتجسد جزاء وفاقا في الآخـرة ، بل في الدنيا أحيانا كثيرة.

(8) وفي مقابل هذا الجـزاء يـأتي الحـديث عن جـزاء المؤمنين.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ**)

جـزاء لهم على ما أنفقـوا من نعيم الـدنيا في سـبيل الله.

(9) ويختلف هذا النعيم عن الدنيا بأن الجنة خالدة.

(**خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللهِ حَقًّا**)

ويــدل على صــدق وعد الله عزته وحكمته ، ذلك أن الّذي يخلف الوعد اما يكون قاصرا عن تحقيقه والوفـاء به ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

(**وَهُوَ الْعَزِيزُ**)

القوي القادر.

وإما ان يكون عن جهل كأن يعد الإنسان أخاه بشــيء ما ثم يكتشف خطـأه انه غـير قـادر على الوفـاء فلا يفي بوعده ، وحاشا لله وهو ...

(**الْحَكِيمُ**)

الذي يحيط علمه بكل شيء.

(10) ومن آيـات عـزة الله وحكمته الظـاهرة الإبـداع والمتانة المتجليان في خلقه.

(**خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها**)

وهذا مما يزيدنا ثقة بوعد الله سبحانه ، فهذه السماء الواســعة خلقها ورفعها كالســقف ، من دون عمد نراها ، وفي الحديث :

«**فثم عمد ولكن لا ترونها**» [14]

وقــال البعض : ان المقصــود من العمد هو الجاذبية التي تثبت السماء وما فيها بقدرة الله وحكمته.

وحينما ننظر الى الأرض ، نلمس تجليـات صـفات الله وأسمائه الحسنى في بديع

(14) نور الثقلين / ج (4) / ص (195).

خلقه فيها.

(**وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ**)

وهي الجبال.

(**أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**)

لكي تحافظ على توازن الأرض ، وتمنع عنها الحركات ، وسـميت بالرواسي تشـبيها لها بالمرسـاة ، الـتي تثبت السفينة في البحر. فالجبال الـتي تتصل ببعضـها من تحت الأرض يجعلها شبيهة بدرع صخري متين ، تمنع عن الأرض الهزات الهائلة التي ــ كـانت ــ لو لا الجبـال تحـول الأرض الى ارجوحة لا تتوقف ، وذلك بفعل الغـــازات الكثـــيرة الموجــودة في وسط الكــرة الترابية ، والــتي منها تــأتي الزلازل وانفجار البراكين.

من جهة أخرى كـانت جاذبية القمر تجعل الأرض لو لا الجبال كسطح البحـار خاضـعة لقـانون المد والجـزر ، كما ان اعتدال الهواء منوط بوجود الجبال ، ولولاها لكان البرد القارص والحرّ الشديد يجعل الحياة صعبة ، كما أن الرياح الشـديدة كـانت تلعب فــوق الكــرة كما في الفلــوات الواسعة ، وتجعلها ميدان جولاتها الخطيرة.

على ان في الجبال منابع المـاء ، وفي داخلها مخـازن حفظ الميـاه من مواسم المطر الى أيـام الصـيف ، وفي بطونها معادن لمختلف الفلزات والأحجـار الكريمة وسـائر ما يحتاج اليه البشر.

أو ليس كل ذلك دليل قــدرة الله ، ومــتين صــنعه ، وحسن تقديره وتدبيره؟!

(**وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ**)

ونســتوحي من الآية ان كل نــوع ممكن ومناسب من الدواب قد خلقت ، فهناك الصغير والكبير وما بينهما كثـير من الاحجام ، وهناك الطـائر والماشي ، والزاحف والهـائم فــوق البحــار والغــائص في أعماقها وهكــذا ، مما جعل داروين يــــذهب الى نظريته في أصل الأنــــواع وتسلسل نشــوئها ، والواقع ان انعــدام الحلقــات الــتي قيلت بأنها مفقـودة في المخلوقـات وعظيم تشـابهها وكـثرة أنواعها جعلت أصحاب نظرية التكامل يذهبون الى ما ذهبوا اليه ، وهذا دليل قدرة الله ، وعظيم تدبيره ، وقد سـأل علي بن الحسن بن علي بن فضّال عن أبيه عن أبي الحسن الرضا (ع) قـال : قلت له : لم خلق الله سـبحانه وتعـالى الخلق على أنواع شتى ، ولم يخلقهم نوعا واحدا؟! فقال :

«لئلا يقع في الأوهــام انه عــاجز ولا يقع صــورة في وهم ملحد إلا وقد خلق الله عز وجل عليها خلقا لئلا يقول قائل : هل يقـدر الله عز وجل على ان يخلق صـورة كـذا وكذا ، لأنه لا يقول من ذلك شيئا إلا وهو موجود في خلقه تبارك وتعـالى فيعلم بـالنظر إلى أنـواع خلقه انّه على كل شيء قدير» [15]

فأجابه (ع) : انما فعل ذلك حتى لا يقـول أحد لو كـان قادرا لكان يخلق كذا وكذا ، ومن كانت هذه قدرته فلما ذا يخلف وعده؟ فليكن عندنا يقين بوعد الله ، حينما نستقيم في سـبيله ، وهـذا ما يـدفعنا للإحسـان والإنفـاق من أجل الله.

وتستمر الآية في ذكر خلق الله فيقول :

(**وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّــماءِ مــاءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُــلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**)

وهكذا نجد الحياة يكمل بعضها البعض الآخر ، وتحتـاج أجزاؤها لبعض ، وهذا

(15) علل الشرائع / ج (1) / ص (14).

من حكمة الله البالغة لعلمه بصلاح ذلك.

(11) ثم يتحدى الله الأنداد.

(**هـذا خَلْـقُ اللـهِ فَـأَرُونِي ما ذا خَلَـقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**)

انهم لم يخلقوا ذبابة حتى ذبابة وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب.

(**بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

وهل يشك أحد في ضلال هذا الإنسان الضعيف حينما يدعي الالوهية؟!

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمـانَ الْحِكْمَـةَ أَنِ اشْـكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْـكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيــدٌ (12) وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّـيْنَا الْإِنْسـانَ بِوالِدَيْــهِ حَمَلَتْــهُ أُمُّهُ وَهْنــاً عَلى وَهْنٍ وَفِصــالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْـرِكَ بِي ما لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفـاً وَاتَّبِـعْ سَـبِيلَ مَنْ أَنــابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَــرْجِعُكُمْ فَــأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ

---

14 [فصاله] : فطامه.

[جاهداك] : بذلا ما في وسعهما كي يبدلا دينك.

15 [أناب إليّ] : رجع إليّ بالطاعة.

16 [مثقال حبة] : مقدار أصغر شيء.

خَـرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَـخْرَةٍ أَوْ فِي السَّــماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَاصْـبِرْ عَلى ما أَصـابَكَ إِنَّ ذلِـكَ مِنْ عَـزْمِ الْأُمُـورِ (17) وَلا تُصَــعِّرْ خَــدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحــاً إِنَّ اللــهَ لا يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتـالٍ فَخُـورٍ (18) وَاقْصِــدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَـوْتُ الْحَمِيرِ (19)

---

18 [لا تصعر خدك] : لا تمله كبرا وتعاظما ، وصعر بمعنى أمال.
[مرحا] : فرحا وبطرا وخيلاء.
[مختال فخور] : متكبّر مباه بمناقبه.
19 [واغضض من صوتك] : اخفض وانقص من صوتك.
[أنكر] : أقبح ، يقال : وجه منكر أي قبيح.
[أسبغ] : أتمّ وأوسع.

وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ

هدى من الآيات :

كيف تتكامل البشـرية وتحظى بالهـدى والسـعاد؟ وما هي الحكمة الإلهية الــتي تجعل الفــرد فاضلا والمجتمع سويّا؟ في هذا الدرس من هـذه السـورة إجابة كافية لمن تدبر عبر وصايا يلقيها الحكيم الالهي لقمان (ع).

فقد أعطـــــاه ربنا الحكمة ، واوجزها في كلمة «**أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ**» ويبدو ان الشكر جماع فضائل عديدة أبرزها :

الف : الاعتراف بفقدان النعمة ذاتا ، فلو لا فضل الله علينا لما كنّا مخلوقين ، ولما كـانت لنا الأسـماع والأبصـار والافئــدة ، ومن هــذا الاعــتراف تنبثق فضــيلة التواضع ، وتجنب الخيلاء والفخر ، وعــدم تحــدي النــاس اســتكبارا وسائر ما ذكر في الآيات.

باء : التصديق بفضل من أنعم علينا وهو الله ســبحانه ، ولا يتم التصديق الا

بتوحيــده ، والا نشــرك به من لا فضل له علينا انى كــان حتى ولو كان واسطة وصول الفضل إلينا. وهـذا ما أمـرت به الآية (13) ثم الآية (15).

جيم : احترام وسـائط الفضل الـذين قـاموا بـدور من وصول النعمة إلينا وأبرزهم الوالـدان ، وهـذا ما أمـرت به الآية (14) والآية (15) إذ ان اتبــاع ســبيل من أنــاب إلى الله يشير إلى احترام التجمع الايماني.

دال : السعي نحو تكـريس النعمة ، واتقـاء ما يسـبب زوالهـا. أولا : بمعرفة ان عمل الإنسـان يـؤثر في بقـاء أو زوال النعمـــة. ثانيا : بإقامة الصـــلاة ، الـــتي هي مظهر الشـكر للـه. ثالثا : بالـدعوة الى الخـير والنهي عن الشر والصبر عند المكاره.

هكـذا نعـرف ان الشـكر لله حقا هو أسـاس الحكمة الالهية.

بينات من الآيات :

لقمان الحكيم الالهي :

(12) لقد خلد الله لقمان في كتابه بالرغم من انه لم يكن نبيا ، فمن هو وكيف أضحى حكيما؟

في الحـــــديث الـــــذي يرويه العلامة الطبرسي في تفســـيره مجمع البيـــان عن نـــافع ، عن ابن عمر ، عن الرسول صلى الله عليه وآله نجد الجواب :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :

«حقا أقول لم يكن لقمان نبيّا ، ولكن كان عبـدا كثـير التفكر ، حسن اليقين ، أحبّ الله فأحبّه ، ومنّ عليه بالحكمة ، كان نائما نصف النهار إذ جاءه نداء : يا لقمــان! هل لك ان يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين النـاس بالحق؟

فأجاب الصوت : إن خيّـرني ربي قبلت العافية ، ولم اقبل البلاء ، وان هو عزم علي فسمعا وطاعة ، فـاني اعلم انه ان فعل بي ذلك اعـانني وعصـمني ، فقـالت الملائكة بصـوت لا يـراهم : لم يا لقمـان؟ قـال : لان الحكم أشد المنـازل وآكـدها ، يغشـاه الظلم من كل مكـان ، ان وفى فبـالحرى ان ينجو ، وان اخطأ اخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلا وفي الآخرة شريفا خـير من أن يكـون في الدنيا شريفا في الآخـرة ذليلا ، ومن تخـير الـدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخـرة ، فعجبت الملائكة من حسن منطقه ، فنـام نومة فـأعطي الحكمة ، فانتبه يتكلم بها ، ثم كـان يـوازر داود بحكمته ، فقـال له داود : طـوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمة ، وصرفت عنك البلوى» [1]

ويبين لنا الامام الصادق عليه السـلام تفاصـيل أخـرى عن حيـاة لقمـان ، والسـبب الـذي جعل به حكيما ، نثبت منه بعض النقاط العامة.

قال الامام الصادق (عليه السلام):

«اما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ، ولا مـال ، ولا أهل ، ولا بسط في جسم ، ولا جمـال ، ولكنه كـان رجلا قويا في أمر الله ، متورّعا في الله ، سـاكتا ، مسـتكينا ، عميق النظر ، طويل الفكر ، حديد النظر ، مسـتغن بـالعبر ، لم ينم نهـارا قط ، ولم يـره أحد من النـاس على بـول ولا غائط ولا اغتسـال لشـدة تسـتره ، وعموق نظره ، وتحفظه في أمره ، ولم يضحك من شيء قط مخافة الإثم ، ولم يغضب قط ، ولم يمازح إنسانا قط ، ولم يفرح بشيء آتاه من أمر الدنيا ، ولا حـزن منها على شيء قط ، وقد نكح من النساء وولد له من الأولاد الكثير ، وقدم أكثرهم إفراطا [2] فما بكى على مـوت أحد منهم ، ولم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان الا أصلح

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (196).

(2) من أفرط فلان ولدا أي مات له ولد صغير قبل ان يبلغ.

بينهما ، ولم يمض عنهما حتى تحابا ، ولم يسـمع قـولا قط من أحد استحسـنه الا سـأل عن تفسـيره وعمن أخـذه ، وكـان يكـثر مجالسة الفقهـاء والحكمـاء ، وكـان يغشى القضاة والملوك والسلاطين فيرثي للقضاة مما ابتلوا به ، ويرحم الملوك والسـلاطين لغـرتهم بالله وطمـأنينتهم في ذلك ، ويعتـــبر ويتعلم ما يغلب به نفسه ، ويجاهد هـــواه ويحـترز به من الشـيطان ، وكـان يـداوي قلبه بـالفكر ، ويـــداوي نفسه بـــالعبر ، وكـــان لا يظعن الا فيما يعنيه ، فبذلك أوتي الحكمة ومنح العصمة» [3]

الإحسـان الى النـاس ظـاهرة تنبع من الشـكر لله سـبحانه ، ذلك انه يعـني الرضا النفسي والعملي ، الـذي ينعكس على السلوك في صورة عطـاء وتضـحية وجهـاد ، مقابلة لجميل نعم الله ، وإحساسا بالمســؤولية تجاههـا. ولكل نعمة شكر يختص بها ، تبعا لمعطياتها ، فشكر نعمة العلم نشره وهداية الناس به :

«زكاة العلم نشره» [4]

وشكر الجاه بذله للمحتاجين :

«زكاة المال بذله»

بينما شـكر نعمة القـوة السـعي لتحقيق الأهـداف السـامية كاقامة حكم الله في الأرض من خلال الجهـاد الشامل.

(**وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ**)

وبذل الإنسان للنعمة في مجالها الـذي حـدده الله هو الشكر ، وسنن الله في الحياة

---

(3) المصدر / ص (196 ـ 197).

(4) بحار الأنوار / ج (78) / ص (247).

ـ التشريعية منها والتكوينية ـ تقتضي بـذلك نمـاء النعمة ، فمن حكمة الله ان تسقي السماء الأرض ذات الزرع أكثر من الجرداء ، وان من يستخدم عضلاته أكثر هو الذي تنمو العضلات لديه بينما تضمر عند الخامل ، وأن من يقرأ أكثر ينمو عقله وفكـــره ، والـــذي لا يســـتفيد من النعم أو يستخدمها في غـير مجالاتها المحـددة لا تنمو لديه وتكـون مضرة له ، كما لو بـذل العلم للتبـاهي أو المـال في اللهو واللعب.

(**وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**)

لان المحتاج للشكر هو الإنسـان لا الله المتعـالي عن الحاجة ، والشــكر هنا يشــمل أيضا النــاس ، لكن ضــمن هدف محدد هو ان يكون ذلك من أجل الله وحــده ، وطلبا لمرضاته وذلك كله يعود على الإنسـان نفسه ، بما يسـببه الشكر من انماء النعمة (**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**). [5]

(**وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**)

وليس غــنى الله كغــنى النــاس ، لان الآخر غالبا ما يتأسس على النهب والاســتغلال ، أو يصــرف في سـحق الآخرين وابتزازهم حقوقهم ـ وهو غـيري ـ بينما غـنى الله ذاتي يتفضل به على الآخرين خيرا ونعمة ، وهذا هو الغنى المحمود.

(13) ثم تتعرض الآيات لبعض وصايا لقمـان (ع) لابنه ، والتي تشكل أبعاد الحكمة ، ومفردات الشكر لله.

وأول ما يفتتح وصاياه يـبين له العلاقة الفاضـلة الـتي يجب ان ينتهجها مع الآخـــرين والـــتي تقـــوم على مبـــدأ التوحيد ، فيحذره من الشرك ، فالخضوع المطلق لا

---

(5) إبراهيم / (7).

ينبغي الا لله سـبحانه ، أما البشر فيتقبل توجيهـاتهم الصائبة ، ولكن بشرط المحافظة على استقلاليته تجـاههم بالتوحيد.

اذن فالتوحيد هو الجـوهر الـذي يجب على الإنسـان اعتمـاده في كل سـلوك فـردي أو اجتمـاعي وهـذا ما دعا اليه كل الأنبيـاء ، ولعل هـذا التأكيد على موضـوع الشـرك في القرآن يرجع إلى عامل مهم وهو ان مشكلة الإنسـان في غـالب الأحيـان ليس الكفر المحض ، فهو يـؤمن باله لهذا الكون ، انما مشكلته هي الشرك بالله.

(**وَإِذْ قـالَ لُقْمـانُ لِابْنِـهِ وَهُـوَ يَعِظُـهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**)

ما هو ذا الظلم العظيم الذي يفرزه الشرك بالله؟

إن هناك جوانب خفية ، وأخرى ظاهرة لهذا الظلم.

حقا ان ضـياع الإنسـان عن ربه الكـريم الـذي أسـبغ عليه نعمه ظـاهرة وباطنة ، وهبوطه إلى حضـيض عبـادة الأشـياء الضـعيفة العـاجزة الـتي لا تنفع ولا تضر إنه لظلم عظيم.

ما الذي نجده لو فقدنا رب العزة وهو الرحيم الـودود الذي احاطنا بإحسـانه ، ودعانا الى نفسه ، ووعـدنا المزيد من عطائه؟!

من هو أشد فقـرا وفاقة ومسـكنة منا حين نضل عن السبيل الوحيد للهدى والفلاح والغنى والعز والكرامة؟!

من أكـثر عجـزا وذلّا وهوانا منا لو خرجنا من حصن الـرب الى مسـبعة ذئـاب القـدرة ، وحقل ألغـام الـثروة ، حيث المستكبرين في الأرض بغير الحق ..

الله أكبر.

ما أخسر من تـــرك متجر ربه وتوجه تلقـــاء غـــرور الشيطان ، ورام عن ربه بدلا.

إن علينا أن نتأمل كثيرا لنعرف هول الابتعـاد عن الله ، وأخطـار الشـرك به في عمق ذواتنا ، وفي آفـاق حياتنا الشخصية.

لكن هــذا الظلم العظيم قد يخفى على من لم يتأمل فيه. بيد ان هناك ظلما عظيما ظاهرا يتجلى للناس جميعا ، ويتمثل في عاقبة النظام المشرك السائد على الانسانية جمعاء ، هذا النظام العالمي الـذي انسـاقت اليه البشـرية حين خــرجت عن حصن التوحيد وعبــدت رجــال الــثروة والقوة والضلالة.

لا يسع تفسـيرنا المـوجز لسـرد تفاصـيل هـذا الظلم ولكن لا يسعنا أيضا ان نمر عن هذه الآية الكريمة دون ان نلقي نظرة خاطفة على الحيـاة من خلالها وعـبر بصـيرتها النافذة.

ولنتخذ مثلا واحدا من بين الحقـائق الأشد ظهـورا في حياة الخاضعين للشرك ، ونرى اي ظلم عظيم هم فيه.

يقول شاهد من أهل عصرنا ما يلي :

* لو حاولنا إتلاف الأمـــوال الـــتي دفعت للأغـــراض العسكرية في سنة (1986 م) بمعـدل دولار واحد في كل ثانية لاحتجنا الى (36000) سنة.

* بتعبير آخر فان معدل ما يصرفه العالم على السلاح في الدقيقة الواحدة هو (2) مليون دولار في الوقت الذي يعيش فيه مليـــاري إنســـان في العـــالم في حالة فقر ، وخمس مائة مليون منهم يعانون من سوء التغذية بشدة.

* لقد وصف السكرتير السابق للأمم المتحدة «يوثانت» المدفوعات العسكرية للعالم انها تضييع مفرط للثروات.

* ان قيمة غواصة نووية واحدة تزيد كثيرا عن ميزانية التعليم السنوية لاكثر من اثنى عشر دولة نامية ، ان العالم يدفع للتسلح أكثر مما يدفع للتعليم سنويا.

* روسيا ، الولايات المتحدة الامريكية ، الصين ، بريطانيا والسعودية هي الدول الأكثر دفعا في المجال العسكري.

* من الملفت للنظر ان كثيرا من الدول النامية قد زادت من مدفوعاتها على التسلح وذلك بتخصيص مبالغ كبيرة من الناتج الوطني.

* ان الدول المديونة لا زالت تخصص أموالا للسلاح أكثر مما تخصص لبناء المدارس ، ويكفيك ان (800) مليون نسمة في العالم لا يقرءون ولا يكتبون (أميون).

* انه من الأحسن ان يدفع بذلك المال ، وبتلك الطاقة البشرية ، وبتلك الخامات إلى بناء السدود والقضاء على البطالة ، وتحسين الأحوال المعيشية للبشر ، وبناء المساكن ، واقامة السدود والمصانع ، وبناء المدارس ، وتخزين الحبوب بدلا من ان تدفع تلك الأمور في صنع الدبابات والطائرات القاذفة للقنابل والصواريخ.

* ان العالم ينظر الى امتلاك السلاح على انه حافظ للسلام أو مثبط عن إشعال الحرب.

* لكل دولة قصتها التي يمكن ان تحكى ، فمثلا اتيوبيا من الدول التي تعاني من المجاعة ، ومعدل دخل الفرد فيها (110) دولار سنويا وبها طبيب لكل

(69000) شـــخص ، وعشـــرين في المائة من أطفالها يموتـــون قبل بلـــوغ الخامسة في حين ان ربع الميزانية الحكومية يصـــرف على الـــدفاع ، وبعض المتخصصـــين يقولـــون : ان مـــدفوعات اتيوبيا على الـــدفاع تبلغ نصف ميزانية الدولة ، والـــروس بـــاعوا لا ثيوبيا بثلاثة مليـــارات دولار ليس الغذاء وانما السلاح.

اتيوبيا تستخدم ما يقارب (250000) جندي لا لخدمة الجائعين ونقل الغذاء لهم ، وانما لمحاربة بعض الحركـات الفدائية.

ونفس القصة يمكن ان تروي عن الـدول الأخـرى في العالم الثالث :

* مسـتوى المـدفوعات العسـكرية السـنوية يقـدر ب (تريليـون) دولار ، ومن العجيب ان كثـيرا من الاسـلحة قد اسـتخدم ، حيث ان (100) مليـون نسـمة قد قتلـوا في القرن العشرين.

وأكـــثر من (100) حـــرب قد وقعت بعد الحـــرب العالمية الثانية ، وان (7) ملايين نســـمة قد قتلـــوا في حروب وحرب اهلية خلال الخمسة عشر سنة الماضية.

* وأنت تقرأ هذه المقالة ، فان هناك (30) الى (40) شـعب يسـتخدمون السـلاح في حـروب أهلية ، أو حـروب حدودية ، أو نزاعـات دينية ، أو أسـباب أخـرى ، ان واحـدا من بين كل ثلاثة من سكان العالم (5 مليار نسـمة) داخل في نزاع مسلح.

* ان هذه الفـترة هي أخطر فـترة تمر على الإنسـان خلال (6000) سنة.

(1) رشاش (600) دولار 82 مسحاة (8) دولار.

(1) دبابة (2800000) دولار 6222 بقـــــرة (450) دولار.

(1) طائرة (27000000) دولار 1350 تراكتور (78) حصان (20000) دولار.

(1) غواصة (2000000000) دولار 25000 بيت (80000) دولار. [6]

(14) ثم يوصي الله بالوالـــدين خـــيرا ، حفاظا على نعمة الحنان والعطف من قبلهما للابن ، وشكرا لهما على جهدهما تجاهه ، فـاذا كـان الأكل والشـرب غـداء الجسد ، فـان الحنـان والعطف أفضل غـذاء للـروح ، ولنمو النفس نموا فاضلا متكاملا ، والذي يسبب استمرارهما هو الشـكر للوالدين ، وبقاء العلاقة معهما ، ولا يعـني هـذا من قـريب ولا بعيد ان لا يشـــكر الإنســـان ربه ، بل يجب ان يقـــدم شـــكره لله على شــكرهما ، لأنه مصـــدر كل نعمة ، وانما الآخرون وسيلتها اليه.

(**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْـهِ حَمَلَتْـهُ أُمُّهُ وَهْنـاً عَلى وَهْنٍ**)

ويخصص الله الام أكـــثر من الأب ، لأنها هي الـــتي تتحمل اعبــاء الوليد منذ اللحظة الــتي تنعقد فيها نطفته ، أضف إلى ذلك ان المــرأة وهي المخلــوق الضــعيف حين تحمل في بطنها وليــدا إلى مــدة تــتراوح بين الســتة إلى التسعة أشهر أليس يزيـدها ضـعفا على ضـعفها؟! ولـذلك ورد الأثر المروي عن النـبي صـلى الله عليه وآله انه جـاء اليه رجل فقـال : يا رسـول الله من أبـر؟ قـال : «أمـك» قال ثم من؟ قال : «أمك» ، قال : ثم من؟ قال : «أمك» ، قال ثم من؟ قال : «أباك» [7]

(**وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ**)

---

(6) ترجمة مجلة الحقيقة الواضــحة العــدد (3) المجلد (52) التــاريخ مارس / 1987 م وطبع منه (7140000).

(7) نور الثقلين / ج (4) / ص (200).

وبعد الــولادة تســتمر رضــاعتها له عــامين ـــ كحالة طبيعية ـ يمتص فيهما من طاقة أمه وقدراتها غذاؤه ، كما تسقيه من عطفها وتربيتها الكثير.

(**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**)

وإذا كان شكر نعمة الوالدين هو الوفاء بحقّيهما ، فان شكر الله هو ان يفي الإنسان بحقـوق الوالـدين في اطـار أوامر الله ، وتعـــاليم دينه ، فالشـــكر للوالـــدين واجب شــرعيّ على الولد ، ولكن بشــرط ان لا يفقد اســتقلاله تجاههما لان ذلك يخالف روح التوحيد.

ان توحيد الله يقتضي معرفة انه سـبحانه صـاحب كل نعمة عليه ، فيحمده عليه ، جـاء في الحـديث المـأثور عن الامام الصادق عليه السلام قال :

«**أوحى الله عز وجل الى موسى : يا موســـى! اشكرني حق شكري ، فقـال : يا رب وكيف أشـكرك حق شــكرك وليس من شــكر أشــكرك به إلّا وأنت أنعمت به علي ، قــال : يا موســى! الآن شــكرتني حين علمت ان ذلك مني**» [8]

اما إذا شكر الفـرد ربه ولم يشـكر والديه فقد خـالف تعـاليم دينه ، وبالتـالي خـرج عن اطـار توحيد الله أيضا ، وهكــذا ورد الحــديث المــروي عن الامــام الرضا (عليه السلام):

«**وأمر الله بالشكر له وللوالـدين فمن لم يشـكر والديه لم يشكر الله تعالى**» [9]

وهكذا كل منعم من الناس من ترك حقه من الشـرك فقد ترك شكر الله أيضا ،

---

(8) المصدر / ص (201).

(9) المصدر.

كـذلك جـاء في الحـديث المـأثور عن الامـام الرضا (عليه السلام):

«**من لم يشكر المنعم من المخلـوقين لم يشـكر الله عز وجل**» [10]

(15) صحيح ان الوالدين هما القناة التي تنتقل عبرها المكاسب المادية ، والخبرات الحضارية للإنسان ، ولكن لا يصح ان يستقبل الإنسان كلما تحمله هـذه القنـاة اليه من غث وسمين ، لأنها كما تحمل ايجابيات الحضـارة التاريخية أو القائمة ، تنقل اليه أيضا السلبيات ، لذلك يؤكد الرب :

(**وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِـهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما**)

اذن على الإنســـان ان يكـــون ذكيّا ، يســـتفيد من المكاسب والمغانم الحضارية القادمة اليه عـبر والديه من التـــاريخ أو المجتمع ، ويـــترك الســـلبيات لأنهما ـــ على فطرتهما ـــ يغـــذيان الطفل بشـــتى الأفكـــار الواقعية والخرافية ، الايجابية والسلبية ، دونما تمييز على الأغلب ، وهما بـذلك يحـاولان فرضـها على ولـدهما ، وهنا تقع على الفرد نفسه مسئولية مقاومة الضغط ولكن بمعروف.

(**وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً**)

يقول الرسول (ص):

«**كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يهوّدانه وينصرانه**» [11]

فـاذا ما قـاوم الابن الأفكـار الخاطئة اسـتطاع النمو على الفطرة ، لأنه بذلك يبعدها

---

(10) المصدر.

(11) بحار الأنوار / ج (3) / ص (281).

عما يدنسها من الأفكار الخاطئة ، والتوجيهات السقيمة ، وذلك لا يعني بالضرورة التعدي على الأبوين ، فقد جاء في الحديث :

«**ثلاثة لا يدخلون الجنة : قاطع رحم ، وعاق لوالديه ، وشيخ زان**»

وهنا تستوقفني مسألة وهي : اني لا أعلم من اين استخرج البعض انه تجب طاعة الوالدين طاعة مطلقة ، بينما تخالف النصوص الاسلامية صراحة ذلك ، فهي تأمر بالشكر والإحسان لهما ، أما الطاعة فهي لله ، ولمن أمر الله بطاعته ، وولاية الوالدين التي تشير لها بعض النصوص لا تكون الا ضمن الحدود الشرعية.

من هنا نقرأ في كتاب مصباح الشريعة : ان الامام الصادق (ع) قال :

«بر الوالدين من حسن معرفة العبد بالله ، إذ لا عبادة أسرع بلوغا بصاحبها إلى رضا الله تعالى من حرمة الوالدين المسلّمين لوجه الله ، لانّ حق الوالدين مشتق من حقّ الله تعالى ، إذا كانا على منهاج الدين والسنة ، ولا يكونان يمنعان الولد من طاعة الله إلى معصيته ، ومن اليقين إلى الشك ، ومن الزهد إلى الدنيا ، ولا يدعو انه إلى خلاف ذلك ، فاذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعة ، وطاعتهما معصية» [(12)]

ولكن السؤال هو : إذا ما ترك الإنسان والديه عند شركهما فالى من يتجه؟ يجيب السياق عن ذلك :

(**وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَ**)

وهم الأولياء ومن يسير في خطهم من أبناء المجتمع ، حيث يجب على الإنسان البحث عنهم في المجتمع ، ليتبع سبيلهم ، وينظمّ إلى تجمعهم الرسالي ، لان

(12) نور الثقلين / ج (4) / ص (202 ـ 203).

الوالدين حينما لا تكـون طاعتهما طاعة لله ، ويـترك الابن الانصياع لهما ، فانه سيجد من هو أكـثر عطفا وحنانا عليه منهما في الله ، أو لم يترك مصعب ابن عمر أبويه؟ فوجد من عوّضه عنهما بأفضل صـوره ، أو لم يـترك فلان وفلان آباءهم؟ ولكن إلى اين وفقهم الله؟

لقد وفقهم إلى احضـان الإسـلام ، حيث تربـوا على يدي الرسول (ص) وبين ظهراني المؤمنين ، وأخـيرا كـان الرجوع إلى ربهم الودود.

(**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

بلى. قد يخسر الإنســان بعض المكاسب الدنيوية ـــ مادية ومعنوية ـــ ولكن الله ســوف يعوضه عن ذلك في الآخرة.

(16) وهناك حقيقة هي ان عمل الخير لا بد وان يعود لمن عمله ــ مهما كـان صـغيرا أو كبـيرا ، معلنا أو خفيّا ، سـواء كـان جـزاؤه في الـدنيا أو الآخـرة ــ والله لا يظهر العمل الصالح وحسب ، بل يجازي عليه مهما قل وصغر.

(**يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ**)

وهي حبة صغيرة ليس لوزنها اعتبار لدى الناس.

(**فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**)

فبلطفه قـرب من الأشـياء ، وبخبرته أحـاط بها علما ومعرفة ، ومن الحـري بنا ان نهتم بأعمالنا لأنها تحت عين الله ، ولا نحقر ذنبا أو نسـتهين بـواجب ، فقد جـاء في الحديث عن الإمام الصادق (ع):

«اتقـوا المحقّـرات من الـذنوب ، فـإنّ لها طالبـا. لا يقولن أحدكم : أذنب واستغفر الله. ان الله تعالى يقـول : (**إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ**) ..» [13]

(17) (**يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ**) لأنها زكاة الأعمـال ، إذا كانت بشروطها ، كما يقول الحديث ، فهي حينـذاك تشـبه النهر لو اغتسل منه الإنســـان في اليـــوم الواحد خمس مـرات لا يبقى عليه من الـدرن شـيء ، وإذا أراد الإنسـان تنمية معرفته بالله وايمانه به ، فما عليه الا ان يســـــبغ الوضوء ، ويصلي خاشعا لله ، لذلك قال الرسول (ص):

«**وقرة عيني في الصلاة**» [14]

وقال الامام علي (ع):

«**الصلاة قربان كل تقي**» [15]

وكما ان للصلاة جانبا عباديّا روحيّا ، فإن لها جانبا آخر لا تكتمل الا به وهو الجـانب الاجتمـاعي الـذي يتمثل في الشهادة على الواقع القائم.

(**وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ**)

واقامة الصـــلاة كما الأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر ، كل ذلك يحتاج إلى الصبر على ما يصيبه في هـذا الطريق ، فـــان الجنة حفت بالمكـــاره ، كما حفت النـــار بالشهوات.

---

(13) المصدر / ص (204).
(14) الخصال / ص (165).
(15) نهج البلاغة / ص (494).

ولكن ترك هذه الواجبات تـؤدي إلى عـواقب وخيمة ، لا تقـاس اخطارها العظيمة ببعض الصـعوبة الـتي تكتنف العمل بها. قال الامام أمير المؤمنين (عليه السلام):

«لا تــتركوا الأمر بــالمعروف والنهي عن المنكر فيـولّى عليكم شــراركم ، ثم تــدعون فلا يســتجاب لكم» [16]

(**إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**)

التي يضبط بها الإنسان الحياة الشخصـية والاجتماعية معا. ويحتمل ان يكون معنى (**عَزْمِ الْأُمُورِ**) الأمــور الــتي تحتـاج إلى عزيمة راسـخة ، وارادة قويّة ، وهي مما عـزم الله وفرضه علينا ، ويبدو ان كلمة «ذلــك» تشـير إلى كل الأوامر التي سبقت.

(18) الشكر لله يعني الاعتراف بان ما لدى الإنســان من حول وقوة فمن الله ، فبماذا يفتخــر؟! ولمـاذا يتحـدى الناس ويتعالى عليهم؟!

(**وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ**)

تحديا بهدف إثارة العداوة والبغضاء ، لأن الميل بالخد مثـال للتحـدي والاسـتعلاء على الآخـرين ، وذلك مما يزيد الأعداء ، بينما ينبغي للإنسان السعي لكسب العـدد الأكـبر من الأصدقاء.

(**وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً**)

متفاخرا.

فقد روى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله):

---

(16) نور الثقلين / ص (422).

«من مشى على الأرض اختيالا لعنه الأرض ومن تحتها ومن فوقها» (17)

ونهى ان يختال الرجل في مشيته وقال :

«من لبس ثوبا فاختـــال فيه خسف الله به في سـعير جهنم ، وكـان قـرين قـارون ، لأنه أوّل من اختـال فخسف الله به وبـداره الأرض ، ومن اختـال فقد نازع الله في جبروته» (18)

(**إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ**)

يختال بنفسه ويفتخر بماله ، وذلك نـوع من الشـرك ، وفي الحديث القدسي عن الله عز وجل :

«العظمة ردائي ، والكبرياء إزاري فمن نـازعني فيهما قصمته»

(19) (**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**)

وكلمة القصد هنا تعـني تحديد الهـدف ، ولا يصح من العاقل ان يمشي بلا هدف ، كما تعني الاقتصـاد أيضا ، ولا شك ان من يمشي على بصـيرة ولهـدف معين لن يحتـاج إلى صـرف المزيد من الطاقـات الـتي لا داعي لها ، فلو افترضـنا ان سـيارة تحـركت باتجـاه معلـوم فـان مقـدار الوقود الذي ستصرفه سيكون اقتصاديا متناسبا مع الهدف ، اما لو تحركت سيارة أخرى تريد هدفا غـير محـدّد أو من دون هدف فستبقى تحـرق الوقـود من غـير نهاية ، وليس ثمة شك في ان حركة الإنسان دليل على نفسيته.

(**وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ**)

---

(17) المصدر / ص (207).
(18) المصدر.

لان الهدوء دليل العقل بينما الصـراخ خلافه ، والكثـير انما يعلي صوته ويكثر من الدعايات ليصنع الظروف الـتي تجـبر النـاس بشـكل من الأشـكال على تقبل أفكـاره ، والصحيح ان يقبل الآخرون الأفكار لمحتواها لا لوسـائلها ، اذن فلا داعي للصراخ ، وانما يحتـاج إلى الصـراخ صـاحب الفكرة الخاطئة ، ليعوض الفراغ في المحتوى.

(**إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**)

لأنه يزيد الآخرين نفورا من صاحبه.

وجاء في السنة عن الامام الصادق عليه السـلام قـال (في تفسير هذه الآية):

«**وهي المرتفعة القبيحة ، والرجل يرفع صـوته بالحـديث رفعا قبيحا إلّا أن يكـون داعيا أو يقـرأ القرآن**» [19]

---

(19) المصدر / ص (208).

أَلَمْ تَـرَوْا أَنَّ اللـهَ سَـخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَـةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجـادِلُ فِي اللـهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلا هُـدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (20) وَإِذا قِيـلَ لَهُمُ اتَّبِعُـوا ما أَنْـزَلَ اللـهُ قـالُوا بَـلْ نَتَّبِـعُ ما وَجَـدْنا عَلَيْـهِ آباءَنا أَوَلَـوْ كـانَ الشَّـيْطانُ يَـدْعُوهُمْ إِلى عَـذابِ السَّـعِيرِ (21) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللـهِ وَهُـوَ مُحْسِـنٌ فَقَـدِ اسْتَمْسَـكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللهِ عاقِبَـةُ الْأُمُـورِ (22) وَمَنْ كَفَـرَ فَلا يَحْزُنْـكَ كُفْـرُهُ إِلَيْنا مَـرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُـوا إِنَّ اللـهَ عَلِيمٌ بِـذاتِ الصُّـدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْـطَرُّهُمْ إِلى عَـذابٍ غَلِيـظٍ (24) وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُـولُنَّ اللـهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (25) لِلّهِ ما فِي السَّماواتِ

---

22 [استمسك] : تمسك وتعلق.

وَالْأَرْضِ إِنَّ اللـهَ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـدُ (26) وَلَـوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْـرُ يَمُـدُّهُ مِنْ بَعْـدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيــزٌ حَكِيمٌ (27)

---

27 [يمده] : يزيده.

لماذا سخر الله الخليقة للإنسان

هدى من الآيات :

بعد ان يـذكرنا الله سـبحانه هنا بنعمه الـتي أسـبغها علينا يستأدينا الشكر عليها ، ويـذكرنا بـأن من النـاس من يأكل رزق الله ، ويعبد غيره ، لأنهم لا يتبعون حجة حقيقيّة ، ولا بصيرة سـليمة ، فلا علما ، ولا هـدى ولا كتابا منـيرا ، بل يتبعـون آبـاءهم دون أن يعرفـوا بـأنهم أيضا يتـأثرون بعوامل الغواية والانحراف ، فالشيطان الذي يضـلّ الأولاد هو نفسه الـذي يضل الآبـاء ولا تصـبح الضـلالة هـدى إذا اتّبعها الآباء.

ثم تـبين الآيـات بـان الشـكر الحقيقي هو التسـليم المطلق لله تعالى ، لأن الهـدف الأسـمى من نعم الله هو أن يعبد الإنسـان ربه : (**وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**) وان تكـون علاقته بالنـاس من خلال هـذه النعم هي الإحسـان والعطـاء ، وهـذا ما تؤكـده هـذه السـورة الكريمة ، وإذا ما تـوفرت هاتـان الصـفتان في البشر فقد استمسك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم.

أما الكفـار فـان كفـرهم يعـود إليهم بالضـرر العظيم حيث يخـبرهم الله بعد عـودتهم إليه بما عملـوا من ظـاهر العمل ونياتهم ، أو ليس ربنا عليما بذات الصدور؟!

وعلى المـؤمن الا يحـزن عليهم لأن متعة هـؤلاء في الدنيا قليلة وعذابهم في الآخرة غليظ.

ويـذكّرنا السـياق بأسـماء ربنا لـنزداد إيمانا وشـكرا ، ويبين عشرة من أسماء الله سبحانه بشـواهدها الظـاهرة وأولها : أنه الخـــالق لما في الســـموات والأرض ، وأن الحمد كله له بالرغم من أن أكثرهم لا يعلمون.

الثـــاني : انه ســبحانه الغــني. أو ليس يملك ما في السموات والأرض ، والثالث : انه الحميد في غناه.

والرابع والخامس : أنه ــ تعـالى اسـمه ــ عزيز حكيم وشواهد عزته ، وكلمات حكمته لا تحصى ، حتى ولو كانت الأشجار أقلاما والبحار مدادا.

وفي الــدرس القــادم يــذكرنا الســياق بــان ربنا هو السميع العليم ، وانه هو الخبير والعلي الكبير.

بينات من الآيات :

(20) تحيط بالبشر حقــائق لو اســتوعبها وعيه أوتي الحكمة واهتدى إلى السبيل.

ولكن يعيش ويموت أكثر الناس في ضلال. لماذا؟

لان بينهم وبينها حجب متراكمة ، وإنما القــرآن هــدى لأنه يثـير العقل ، ويرفع الحجب ، فـاذا بـالقلب المحـدود ينفتح على الآفاق الرحيبة.

حقّا ما أبعد غـور العلم عند المـؤمن الـذي ينظر إلى الخليقة من دون حجاب ، وبفؤاد فارغ من العقد والأوهـام والتمنيـات ، فـاذا أبصر البـدوي الموغل في الصـحراء مع سفينته التي يحبها ويرتل لها الاشعار على نغم الحدى فاذا بينه وبين إبله أكثر من مجرد صلة مادية.

هنالك يقـول المـؤمن : ما شـاء الله كيف سـخّر هـذا الحيـوان الصـبور للبشر ، وجعل أفضل عـابر للرمـال المتحركة والصحاري القفر.

وإذا رأى رجلا شـجاعا يمتطي ظهر جـواده في المعركة ، فاذا بـالجواد يسـتجيب لاشـاراته الخاطفة وكأنه جهـاز الكـتروني حسـاس ، هنالك يقـول : الله أكـبر كيف سخر الله لنا هذا الحيوان الذكي ، وما كنا عليه بقادرين.

وحين يجتـاز البشر أعمـدة القـرون ويمتطي صـهوة الطائرات الأسرع من الصوت ، والصواريخ الفضـائية ذات الوقود الذري ، يقـول المـؤمن بـذات النـبرة سـبحان الله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين.

ان من سـخر لنا الإبل والجـواد هو الـذي سـخر لنا الحديد والذرة ، وعلمنا كيف نصنع من خردة حديد ، وبضع كيلوات من مادة متفجرة صواريخ مدارية.

ان مثل المـؤمن مثل الفنـان الـذي يقف أمـام لوحة بارعة الجمال فتغمر قلبه الحساس موجات من الاعجـاب والرضا والانشراح ، بينما الكافر كالأعمى لا تزيـده اللوحة إلّا ظلاما.

أغلب النـاس ينشـرحون إذا زار والاول مـرة مزرعة للورود ، أو حقولا خضراء منبسطة على امتـداد البصر ، أو شـاهدوا مصـنعا عظيما أو إنجـازا علميّا بـاهرا ، ولكنهم يعـودون بعد لحظـات محـدودة إلى واقعهم الاول فتشـغل قلوبهم الهموم ، ويغرقون في

بحر المشاكل الحياتية. أليس كذلك؟

بينما المــؤمن يــرى كل شــيء وكأنه ينظر اليه لأول مــرة ، فاحساسه المرهف يجعله أبــدا كالقائد العسـكري الذي يستعرض جيشه اللجب في يوم عيد ، كذلك المؤمن ينظر إلى الطبيعة من حوله وقد ســــخرت له كما ينظر ذلك القائد إلى جنــده العظيم ، انه يعيش أبــدا كما لو ولد الآن أو جاء من كوكب بعيد ، قلبه بــريء ، ونظراته عميقة ، وفطرته نقية.

أرأيت الذي يـزور ـ لاول مـرة ـ حديقة الحيـوان في لنــدن أو معرضا الكترونيا في بــاريس ، أو مصــنعا عظيما في اليابـــان ، أو ناطحة ســحاب في شــيكاغو أو مـــترو موسكو ، أو أهرام مصر؟

هكذا حال المـؤمن أبـدا في الحيـاة بينما غـيره يشـبه الذي يزور غرفة نومه لا يرى فيها جديدا.

والسؤال : ما الفرق بينهما؟

الجــواب : أولا : قلب المــؤمن صــاف بينما النــاس يعيشـــون هموما كثـــيرة ، كما أن أكـــثرهم يعيش العقد والسلبيات.

ثانيا : المـؤمن يعلم ان كل شـيء قـائم بالله ، ولو لا فضل الله المتـــوالي ، وعطـــاؤه المســـتمر ، وتـــدبيره وسلطانه لما قام شيء ، ولا بقيت نعمة ، ولا دام نظـام ، لذلك فهو يتعامل مع الأشياء وكأنها جديـدة ومثله في هـذا التعامل مثل من يعطيه الملك كل يوم مأة درهم من دون اسـتحقاق وهو يعيش عليها ، وانه مـتى ما شـاء منعه منه في أي يوم ، فتراه يستلم كل يـوم عطـاءه بوجد وفـرح ، ولعل هذا الإحساس هو مصدر الشكر عند المؤمن فاذا به يسبّح ربه بكرة وعشيا ، وفي المساء وعند الظهيرة ، لان

استمرار وجوده أساسا عند هذه الساعات نعمــة. أو ليس هناك البعض الذي عـاش صـباحا وكـان عند المسـاء تحت الــتراب ، أو امسى حيا ولكنه حـــرم رؤية الشـــمس في اليوم التالي وإلى الأبد.

ان المؤمن يملك من الثقة برحمة الله ما يجعله قادرا على التخطيط المســتقبلي ، ولكنه في الـوقت ذاته ينظر إلى الخليقة نظـرة بعيـدة عن الجمـود والتحجر ، فيخشى زوال النعم في اية لحظة ، ويســعى أبــدا لإبقائها ، وقلبه بذلك وصّى لقمان ابنه قائلا له :

«يا بني! خف الله عز وجل خوفا لو أتيت القيامة بــبر الثقلين خفت ان يعـــــذبك ، وارج الله رجـــــاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت ان يغفر الله لك»

«فقــال له ابنه : يا ابــه! كيف أطيق هــذا ولي قلب واحد؟»

«فقال له لقمـان : يا بـني لو اسـتخرج قلب المـؤمن يوجد فيه نوران ، نـور للخـوف ونـور للرجـاء ، لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة»

«ثم قـال له : يا بـني! لا تـركن إلى الـدنيا ولا تشـغل قلبك بها ، فما خلق الله خلقا هو أهـــــون عليه منها ، الا تـــرى انه لم يجعل نعيمها ثـــواب المطيعين ، ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين؟!» [1]

ثالثا : تــرى أغلب النــاس يلبســون نظــارات مختلفة الألــوان ، وينظـــرون من خلالها إلى الأشــياء ، فلا يرونها على حقيقتها. ان الثقافـات البشـرية والتفسـيرات المادية الـتي تبث إلى القلـوب هي بمثابة عدسـات ملونة لا تـدع نور الحقائق يغمر القلب.

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (199).

بينما نظـــرات المـــؤمن مباشـــرة لا تمر بقنـــوات التفسيرات المادية. انه ينظر ببراءة الطفل إلى الحقائق ، ولذلك فان نظراته نافذة إلى العمق ، فاذا نظر إلى حركة الفلك وما في السـموات والأرض من نعم نفـذت بصـيرته إلى الخالق الذي سخرها للإنسان.

وانما يبلغ المؤمن هـذه الـدرجات بـالقرآن. أنظر إلى التعبير القرآني هنا وكيف يجعلنا نرى الخليقة بواقعية :

(**أَلَمْ تَـرَوْا أَنَّ اللـهَ سَـخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

انها رؤية مباشرة ، وبلا عقد ، ولا جمود ، ولا نظارات من الثقافات الجاهلية.

ثم يقول :

(**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ**)

كما يســـــبغ المقاتل على نفسه درعه المتناسب مع جسمه ، أو يسبغ الواحد منا ثيابه المقدرة له على جسـده ، وهكذا النعم تحيط بنا ولكن بقدر ودون زيـادة مضـرة أو نقصان.

(**نِعَمَهُ ظاهِرَةً**)

كنعمة الحيـــاة ، ونعمة العافية ، ونعمة الأمن ، ونعمة الطعام.

(**وَباطِنَةً**)

كنعمة الأعضـــاء الـــتي لا تـــرى (القلب الكبد والكلية والاعصـــــاب و. و.) ونعمة الوقاية من أنـــواع المكـــاره والاخطــار ، ونعمة الهداية إلى الحق ، وولاية أئمة الهـدى عليهم السلام.

وهناك حـديث مفصل يتلو علينا نعم الـرب ، وقد رأينا إثباته هنا لأن هذه السورة هي سورة الشكر فيما يبـدو لنا ، وعلينا ان نـــربي قلوبنا عليه أو ليس الشـــكر أســـاس الحكمة؟!

الحديث مأثور عن الامام الباقر (ع) انه قال :

حـــدثني عبد الله بن عبـــاس ، وجـــابر بن عبد الله الانصـاري قـالوا : أتينا رسـول الله (ص) في مسـجده في رهط من أصحابه فيهم أبو بكر وأبو عبيـدة وعمر وعثمـان وعبد الرحمن ورجلان من قرّاء الصحابة ـ إلى قوله حاكيا عن رسول الله (ص) ـ وقد أوحى إلى ربّي جل وتعالى أن أذكركم بالنعمة وأنذركم بما اقتص عليكم من كتابه وأملى «**وَأَسْـبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَـهُ**» الآية ثم قـال لهم : قولـوا الآن قـــولكم ، ما أول نعمة رغبكم الله وبلاكم بهـــا؟ فخـــاض القوم جميعا ، فذكروا نعم الله التي أنعم عليهم ، وأحسن إليهم بها من المعاش والرياش والذرية والأزواج إلى سائر ما بلاهم الله عز وجل من أنعمه الظـــاهرة ، فلما أمسك القوم أقبل رسـول الله (ص) على عليّ (ع) فقـال : يا أبا الحسن قل فقد قـال أصـحابك ، فقـال : وكيف بـالقول فـداك أبي وأمي وانما هـدانا الله بـك! قـال : ومع ذلك فهـــات قل ما أول نعمة أبلاك الله عز وجل وأنعم عليك بهـا؟ قـال : ان خلقـني جل ثنـاؤه ولم أك شـيئا مـذكورا ، قال : صدقت ، فما الثانية؟ قال : ان أحسن بي إذ خلقني فجعلني حيّا لا مواتا ، قال : صـدقت ، فما الثالثـة؟ قـال : ان انشـأني ـ فله الحمد ـ في أحسن صـورة ، وأعـدل تركيب ، قـال : صـدقت ، فما الرابعـة؟ قـال : ان جعلـني متفكـــرا ، راعيا ، لابلها ســـاهيا ، قـــال : صـــدقت ، فما الخامسة؟ قال : ان جعل لي سرا عن ادراك [2] ما ابتغيت بها ، وجعل لي سراجا منيرا ، قال :

(2) كـذا في النسخ ولا تخلو عن التصـحيف وفي البحـار (ج (70) ص (21)) قال : «ان جعل لي شواعر ادراك ما ابتغيت ..» الحديث.

صدقت ، فما السادسة؟ قال : ان هـداني الله لدينه ، ولم يضلّني عن سبيله ، قال : صـدقت ، فما السـابعة؟ قـال : ان جعل لي مردّا في حياة لا انقطاع لها ، قال : صدقت ، فما الثامنة؟ قال : ان جعلـني ملكا مالكا لا مملوكا ، قـال صدقت ، فما التاسعة؟ قال : ان سخر لي سـماءه وأرضه وما فيهما وما بينهما من خلقه ، قـــال : صـــدقت ، فما العاشــرة؟ قـــال : ان جعلنا ســبحانه ذكرانا قواما على حلائلنا لا إناثا ، قال : صدقت فما بعدها؟ قال : كثرت نعم الله يا نــبي الله فطــابت «**وَإِنْ تَعُــدُّوا نِعْمَــةَ اللــهِ لا تُحْصُـــوها**» فتبسم رســـول الله (ص) وقـــال : ليهنئك الحكمة ليهنئك العلم يا أبا الحسن فـــــأنت وارث علمي والمبين لامتي ما اختلفت فيه من بعدي ، من أحبك لدينك وأخذ بسبيلك فهو ممن هدي الى صـراط مسـتقيم ، ومن رغب عن هـواك وأبغضك وتخلاك [3] لقى الله يـوم القيامة لا خلاق له [4]

ويبقى سؤال : لماذا سخر الله كل ذلك للإنسان؟ هل بقوته المادية؟ كلا .. لأن السموات والأرض والجبال أقوى منه.

أم بقوت سمعه؟ كلا .. لأن الكلب أفضل سمعا منه.

أم لحدّة نظره؟ فالصقر أحدّ نظرا منه.

كلا .. ان قـوة الإنسـان الـتي جعلها الله يسـخر بها ما في الســموات والأرض ، تكمن في العقل والعلم الــذي أنعم به الله عليه ، فلما ذا اذن نـترك العلم الــذي يهـدينا الى عبادة الله ، ونتبع الجهل الذي يقودنا الى غيره؟!

ان الإنسـان مطـالب بتلك الصـفة الـتي جعله الله بها يسير المخلوقات بان يكـون سـيد العابـدين ، إلّا أن هنـاك حجبا تستر عنه نور العقل من بينها :

(3) تخلّاه ومنه وعنه : تركه.
(4) نور الثقلين / ج (4) / ص (213 ـ 214).

1 ـ الجــدال : وهو من الناحية اللغوية يعــني اللف والدوران ، وفي الاصطلاح : هو الكلام بهدف التهــرب من الحقيقة ، والمجـادل هو الـذي يـرى الحقيقة ولكنه لا يريد الخضوع لها.

(**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجـادِلُ فِي اللـهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ**)

حتى يبلغ الإنسـان للحقيقة يجب ان يتبع أحد الطـرق الثلاث :

أـ ان يتبع علما كما لو كان يرى مصباحا أمامه ، وهـذا هو العلم بالشيء مفصلا.

ب ـــ ان يتبع الهــدى ومثــال ذلك أن يهتــدي لوجــود المصـباح عـبر رؤية النـور المنبعث منه ، وهـذا ما يسـمى بالعلم المجمل.

ج ـــ ان يتبع الكتــاب المنــير ، وهو معرفة الحقــائق بالواسطة ، كما لو أخبر إنســان آخر بوجــود المصـباح في مكان ما ، وكان ذلك الإنسان مـورد ثقة ، أو أخـبره كتـاب صــدق ، ولأن هـؤلاء المجــادلين لا يتبعــون هــذه الســبل السليمة فإنهم لا يهتدون للحقيقة.

(21) 2 ـ تقديس الآباء : حيث يترك الإنســان الهـدى لأنه يتعارض مع اعتقادات آبائه ويعالج القرآن هذه العقـدة النفسية التي تمنع عن الهدى وذلك ببيان واقع اتباع الآبــاء ، وانه ليس بــدافع صــالح كما يصــوره الشــيطان ، حيث يوحى الى أوليائه ان تقديس الآبـاء نـوع من الوفـاء لهم ، وأداء لحقهم. كلا .. ان اتباعه ليس سوى ضلالة.

(**وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِـعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا**)

والملاحظ ان الأجيـال اللاحقة تتبع الجـوانب السـلبية في تراث الأولين ، والقرآن يخالف المقاييس الجاهلية في تقييم الأشياء ، لان الإنسـان الـذي يتمـيز بالعقل ينبغي له ان يتبع المقــاييس الصــحيحة ، وهي العلم أو الهــدى أو الكتاب ويستنكر عليهم ذلك قائلا :

(**أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ**)

فهل تذهب مع الآبـاء حـتى لو كـانت طـريقتهم تنتهي الى النار؟

(22) قد يشعر الإنسان بنعم الله عليه ، ومن ثم يرى نفسه مســـئولا عن أداء الشـــكر له عليها ، ولكن يقف متســائلا : كيف يمكن لي ذلــك؟ ونجيبه عد الى القــرآن واقرأ :

(**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**)

بــان يخضع له خضــوعا مطلقا ، وبكل ما يملكه من الطاقـات المادية والمعنوية ، ولكن اي خضـوع ذلك الـذي تدعو الآية الإنسان اليه هل هو الخضوع الـذي يـدعوه الى السكون والخمول؟

بــالطبع كلا .. انما تــدعو إلى ذلك الخضــوع المليء بالنشاط والحركة فصاحبه من جـانب يتوجه إلى الله بكلّه ، ومن جــانب آخر يتفجر إحســانا وعطــاء لعبــاد الله في سبيله.

وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من الكمال ، بـأن تصبح علاقته مع الله

علاقة تسليم وخضوع ، ومع الناس علاقة إحسان وعطاء.

(**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ**)

فمن جانب يكون هذا الإنسان قد تمسك بخـطّ واضح وسليم في الدنيا فحظى بالسـعادة ، ومن جـانب آخر فانه سيرجع إلى الله ليجازيه على شكره بتسليمه له وإحسانه للعباد.

ولعل تأكيد القرآن في آيات عديـدة بـان التسـليم لله هو التمسك بحبله المـتين ، وبـالعروة الـوثقى يهـدف إلى علاج عقـدة مستعصـية عند البشر هي عقـدة الخـوف من المخلوقــات ، هــذا الخــوف الــذي يدفعه نحو الخضــوع للمخلوقين والشـرك بالله العظيم ، بينما الـرب يؤكد بـأن من يكفر بالطـاغوت ويـؤمن بالله فقد استمسك بـالعروة الوثقى ، وانه لا أمان للإنسان الا بالتوحيد الخالص.

التسليم لله ـ في الواقع ـ لا يتحقق من دون التسـليم للقيادة الشرعية المتمثلة في أئمة الهـدى ، والرضا بولاية من أمر الله بولايتهم.

(23) (**وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَـرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا**)

وما دام الأمر كـذلك فلما ذا يحــزن الإنســان نفسه ، هل لان الآخرين على خطأ؟! وإذ ينهى الله عن هذا الحزن فلأن المؤمن لو ادام حزنه على كفر الكفـار فلربما يجـره هذا الحزن شيئا فشيئا إلى طـريقهم المنحـرف ، فلكي لا يقع المؤمن في خطأ فظيع كهـذا يوجهه الله إلى ضـرورة تجنب الانفعال النفسي كما يفعله الآخرون.

(**إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**)

فلا تخفى عليه خافية ، وانما خصص بالـذكر «الصدور» بالذات لأن عمل الإنسان يخضع إلى مقياسين :

الاول : مقياس ظاهري مثل كثرة العمل وقلته ، وعظمته وحقارته.

الثاني : مقياس باطني ، وهو نية العمل.

وإذا زعم الإنسان أنه قادر على خداع الناس بظاهر عمله ، فلا يظن بأنه يخفي عن ربه شيئا وهو العليم بذات الصدور.

(24) بلى. هناك بعض المكاسب الظاهرة لمثل هؤلاء ، ولكنهم هم الخاسرون أخيرا لأن عاقبتهم النار.

(**نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ**)

(25) يتلو علينا القرآن عشرة أسماء لربنا الكريم ، وببلاغة نافذة يستثير الذكر وجدان البشر بذكر الآيات التي تشهد على تلك الأسماء الحسنى.

ولعل مناسبة الحديث عنها التذكرة بمفردات الشكر. أو ليس بداية الشكر معرفة المنعم؟ وكيف نعرف الله أو ليس بأسمائه؟!

على ان القرآن ذاته تذكرة بالله ، ويهدف ترسيخ دعائم الايمان في القلب ، بيد أنه بالاضافة إلى هذا الهدف العام هنالك حكمة خاصة وراء كل ذكر لله ولاسمائه وآياته ، تتعلق بالموضوعية الخاصة ، مثلا : هنا يجري الحديث عن الشكر ، ولا بد ان يجري حديث عن صاحب النعمة ، لأن الشكر لا معنى له من دون معرفة من نشكره ، وهكذا كل الحقائق تتصل مباشرة بمعرفة الله وأول أسمائه تكشف عن أعظم نعمة علينا وهو الخلق.

(**وَلَئِنْ سَـــأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَــقَ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**)

انها الفطـــرة الـــتي يشـــترك النــاس فيها ، وحـــتى المشــركون يعـترفون بـان الله خـالق كل شـيء الا انهم يخشون غيره ، ويشركون به لجهلهم بـان الله الفعـال لما يريد.

وما دام الجميع يعـترفون بـأن نعمة الخلق وهي أصل ســائر النعم من الله فالحمد كله لله ، وعلينا ان نحمـــده بكل معاني الحمد.

(**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**)

ولعلنا نســتوحي من هـــذا الســـياق ان الحمد بداية الشـكر ، وأول كلمة في القـرآن بعد البسـملة هو الحمد ، لقد كـان النـبيّون والأئمة والصـديقون يفتتحـون حـديثهم بحمد الله والثناء عليه.

(**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

فهم يحمــدون المربــوبين ولا يعلمــون ان الحمد كله للـــه. أو ليست النعم جميعا منـــه؟! أو ليس النـــاس انما يعملون الحسنات بحوله وقوته ، فان استحقوا حمـدا فبما خوّلهم من نعمه؟!

ويبقى السـؤال : لمـاذا يكفـرون بالله وهم يزعمـون بأنه خالق السموات والأرض؟

ان هذا التنـاقض نـابع من ذات البشر ، وسـبحان الله ان يكون مصدرا لهذا التناقض ، فله الحمد في الســموات والأرض ، ومن له الحمد ليس ناقصا البتـــــة. كلا .. فآياته مبثوثة في الأنفس والآفـــاق ، فلا ينكـــره من ينكر لقلة الآيـات ، ولا حجة لهم عليه فقد أركز في أفئـدتهم معرفته بالفطرة.

بلى. ان جهلهم الـــذاتي ، وظلمهم ، وتـــراكم العقد النفسـية على قلـوبهم هو مصـدر التنـاقض بين اعـترافهم بالخالق وبين عدم شكرهم له.

(26) لان الله هو الخــالق فهو المالك ومن هو أعظم ملكا ممن خلق ولا يــزال يتصــرف في خلقه بما يشــاء ، دون أن يسأله أحد عما يفعل.

(**لِلّٰهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

فهو المالك الحق ، أما النــاس فــإنهم إنما يملكــون الشيء بقدر تمليكه وفي حـدود منحهم صـلاحية التصـرف تكوينا وتشريعا.

(**إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**)

ومن النــاس من يملك ــ بحــول الله وقوته ــ ملكية محدودة فيسيء التصرف فيه فهو غـني غـير حميد ، بينما الله حميد في غنـاه لأنه يفعل الخـير وما يسـتوجب الحمد والشكر.

والملاحظ : ان خاتمة الآية تكــريس لفكرتها ، كما أن فاتحتها شـاهدة على خاتمتهـا. فـان من يملك السـموات والأرض هو الغـــني لأنه المالك لهما ، وهو الحميد لأن كل النعم مصدرها السموات والأرض ظاهرا ، فلنحمد خالقهما بدل ان نحمد من يملك جزء منهما.

(27) وربنا العزيز المقتــدر ، لأنه الســلطان القــاهر فــوق عبــاده ، المهيمن على حركة الســموات والأرض ، والقائم بنظامهما ، وتصدر كلماته النافذة (كن فيكون) بما لا تحصى عددا في كل ساعة ولحظة ويهبط قضاءه الحتم في كل حدث صغير أو كبـير ، حـتى الورقة الواحـدة الـتي تسقط في غابة كثيفة أيام الخريف انما

تسـقط بعلم الله وأمـره وكلمته ، وما تـزداد الأرحـام وما تغيظ انما هو بعلم الله وقضائه وإمضائه ، وحركة جزئيات الــذرة داخل عالمها الصــغير العظيم ، ومكونــات الخلية المتواضــــعة والعظيمة ، وخلجـــات الفكر ، ونبضــــات الاعصاب و. و.

وهذه هي العزة. أو ليست العزة هي تجليات القدرة ، وتطبيقات المالكيـة؟! ان التصـوير القـرآني للعـزة الالهية بالغ الروعة ، وروائع البلاغة ، ولعمري ان هذا التصوير ذاته تجلّ لعزته بما يحمل من شواهد تطبيق القدرة ، وتجليات تحقيق الهيمنة في عالم الكلمة المقروءة.

تدبر في هذه الكلمات وفكر. أليس الأمر كذلك؟!

(**وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ**)

لا تحضرني الآن احصائية تقريبية لعـدد أشـجار الأرض المنتشرة في الغابات الكثيفة والحقول الواسعة في أنحاء الأرض ، ولكن لا ريب انها هائلة العــــدد ، وإذا عرفنا أن الشـجرة الواحـدة تصـبح مئـات الألـوف من الأقلام ، وأن القلم لا يسـتهلك بسـهولة عند الكتابة ، لعرفنا مـاذا تعـني هذه الأقلام من العدد.

(**وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ**)

اي تكون بحار الأرض التي تتصل ببعضها حـتى تصـبح بحرا واحدا تغمس فيه تلك الأقلام ثم يكتب ببلله مدادا.

(**مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ**)

والسبعة تعبير عن الكـثرة ، والسـؤال إذا كـانت ثلاثة أرباع الكرة مغطاة بالبحار التي سماها الرب بحـرا واحـدا فكم هي سعة الأبحر السبعة الاخرى؟!

(**ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ**)

وكيف تنفذ كلمـــات الله الـــتي لا تحصى ، والتصـــوير القرآني أهمل ذكر الدفاتر لعله لان أفق تفكيرنا يعجز عن تصور القرطاس الذي يمكنه ان يستوعب ما يمده البحر ، ويكتبه هذا العدد الضخم من الاعداد ، أليس كذلك؟!

(**إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ**)

وكيف لا يكون عزيزا من لا يستوعب ذلك الحشد من الأقلام كلماته (أو قضاؤه وإمضاؤه).

وقد ذهب بعض المفســرين إلى ان معــنى الكلمــات العلـــوم ، والواقع ان علم الله ليس مما يخضع للاحصـــاء فانه قديم لا يعزب عنه مثقال ذرة ، ولكن المعلومات هي التي تعد والكلمات هي المعلومات.

وخاتمة الآية تشهد بالتفسير الذي اخترناه للكلمات.

(**حَكِيمٌ**)

فعزة الله المتجلية في سلطانه ، وسعة أبعـاد قضـائه وإمضائه تتّصف بالحكمة ، حيث انه سبحانه يحكم بالعــدل ويقضي بــالحق ، ولا يتخذ من لدنه لعبا ولا لهـوا ، بل لكل كلمة يلقيها هدف معلوم ، وأجل مسمى.

ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِـيرٌ (28) أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللـهَ يُـولِجُ اللَّيْـلَ فِي النَّهـارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ كُـلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُـونَ خَبِـيرٌ (29) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ الْباطِـلُ وَأَنَّ اللـهَ هُـوَ الْعَلِيُّ الْكَبِـيرُ (30) أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِـهِ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِكُـلِّ صَـبَّارٍ شَـكُورٍ (31) وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللـهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الـدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ

---

29 [يـولج] : ينقص من النهـار ليزيد على الليل أو يـدخل ليلة كل يـوم في نهاره.

32 [غشيهم] : علاهم وغطّاهم.

[كالظلل] : الظلل جمع ظلّة ، وهو ما أظلك كالسحاب والجبال.

فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُـورٍ (32) يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِـدِهِ شَـيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَـقٌّ فَلا تَغُـرَّنَّكُمُ الْحَيـاةُ الـدُّنْيا وَلا يَغُـرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّـاعَةِ وَيُنَـزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحــامِ وَما تَــدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللــهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34))

[مقتصد] : عدل في الوفاء في البر عما عاهد الله عليه في البحر.
[ختّار كفور] : الختر أقبح الغدر.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

هدى من الآيات :

هل أن الأصل في الحياة الكمال أم النقص؟ العدم أم الوجود؟ فإذا كان الأصل هو الكمال ، فان كل نقص يطـرأ على الكـون يخـالف انتظارنا وتوقفنا ، وإذا كـان العكس ، فان من واجبنا الشكر لله على كل اضافة جديدة.

حسبنا عودة إلى الـوراء توضح لنا الأمر ، حيث أننا لم نكن شيئا مذكورا بـالأمس ، وأن الكمـالات قد أضـيفت لنا شيئا فشيئا ، فصرنا إلى القـوة بعد الضـعف بقـدرة الله ، وبعد الجهل إلى المعرفة برحمته.

هكذا كان العدم مهيمنا علينا من كل جـانب وصـوب ، فمنّ علينا ربنا بنعمة الخلق ، وأسـبغ علينا من نعمه الظـاهرة والباطنة ، حـتى أن كل ذرأت كياننا المـادي والمعنـوي هي نعم إلهية علينا ، فلما ذا نكفر ونتكـبر ونطغى ونحن نعلم بأن هذه النعم لن تكـون الا إلى فـترة يسـيرة ، وانها عرضـية تـزول عند ما يقـرر الإنسـان ان لا يشكر ربه

عليها ، أو حينما يكتب الله لها الزوال.

ويتجلى الفرق بين الإنسان الذي يتصـور بـان الكمـال هو الأصل في ذاته ، وبين الآخر الـذي يعـرف انه لم يكن شـيئا ، انما خلقه الله شـيئا ثم أضـاف اليه من نعمه ، يتجلى الفـرق في الصـفات بين الصـبّار الشـكور والختـار الكفـور ، لأن كلا هـذين المـوقفين منطلق من إحـدى النظرتين السابقتين ، فمن يتصور بـأن الأصل هو الكمـال لا يـرى ضـرورة للشـكر أو الصـبر ، لأنه سـيعتبر ذهـاب النعمة من بين يديه شذوذا لا يطاق ، بينما يشـكر الآخر ـ الـذي يعتقد بـان الأصل هو النقص والعـدم ـ عند النعم ، ويسـتفيد منها في تكامله ، ويصـبر عند البلاء لأنه يعتـبر النعمة حينذاك أمانة استرجعها الله ، وهـذا الايمـان يجعله يحير في مهرجان الرضا بقضاء الله والتسليم بقـدره ، أما الكفـور فـاذا مسه الخـير تـراه منوعا ، أما إذا مسه الشر فهو جزوع ، يدفعه شعوره الدائم بـالنقص (الحقـارة) الى التفتيش عن إضـافات توصـله إلى الكمـال ، دون التفكـير في الوسيلة السليمة ودون معرفة.

ومن أجل ان نخلق في أنفسنا صفة الصبر والشـكر ، يدعونا القرآن إلى التفكر في أنفسنا في الكون ، بحثا عن الحقيقة العظمى فيه ، وهي معرفة الله ، والإنسـان غالبا ما يفكر في مخلوقات الله بذاتها ، دون ان يقـوده تفكـره فيها إلى معرفة ربه وهذا منهج خـاطئ ، والقـرآن الكـريم يوسع أفقنا ويأخذ بأذهاننا إلى ما وراء الحيـاة الـدنيا ، ويعطي لنا منهجا ينتهي في كل اتجـاه إلى معرفة الله ، ذلك أن هـذه المعرفة تعطي الإنسـان نظـرة سـليمة إلى هذه الحياة ، في سرائها وضرائها ، وفي ظاهرها وباطنها.

بينات من الآيات :

(28) ويمضي السـياق قـدما في تـذكرة المؤمـنين بأسماء ربهم وإتمام الحجة على الناس جميعا ، ويبين لهم جانبا من قدرة الله ، بعد أن صوّر لهم جانبا من عزته

وحكمته ، وذلك ببلاغة نافـــــذة ، أرأيت كيف هــــدانا إلى عظيم عزته بأن كلماته لا تحصى؟ هكذا يهــدينا إلى قدرته ولطف تـدبيره بأنه يخلق النـاس جميعا كما لو يخلق نفسا واحـدة ، ثم يبعثهم كما لو يبعث نفسا واحـدة. أرأيت كيف يقرب إلينا حقيقة قدرته ولطفه واحاطته بالأشياء خبرا!

(**ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ**)

ثم يذكرنا بضرورة خشيته ويقول :

(**إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**)

يسمع ما نقوله ، ويرى ما نصـنعه ، وهـذا يـدعونا إلى تحمل مسئولية كلامنا وأعمالنا.

(29) ان الله جعل الشـمس والأرض في حركة دائمة ، من خلالها يحدث الليل والنهار وتتغير الفصول.

(**أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللـهَ يُـولِجُ اللَّيْـلَ فِي النَّهـارِ وَيُـولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ**)

والتعبــير القــرآني «يــولج» دقيق جــدا من الناحية العلمية ، إذ يشير إلى الحركة الفصلية على مدار السـنة ، فاذا ولج الليل في النهار ـــ دخل فيه وأخذ منه ـــ حـتى إذا تعادلا صار الربيع ، وهكـذا يسـتمر دخوله في النهـار حـتى يصير أطول منه فيحيل الفصل شتاء ، ثم يمتد النهار شيئا فشيئا ـ يلج في الليل وينتقص منه ـــ الى ان يصـير أطـول منه فيكون الفصل صيفا.

وكما أن للإنسـان وسـائر المخلوقـات أجلا مسـمى ، فـان للشــمس والقمر أجلا مســمّى ، مما يـدل على ان الشمس والقمر لم يكونا شيئا في يوم من الأيام ـ تماما

كالإنسان ـ وهذا يهدينا إلى انهما يجريان إلى نقطة الصفر في النهاية ، وإلى وجـــود خطة وتـــدبير لهما من قبل الله عز وجل.

(**وَسَـخَّرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ كُـلٌّ يَجْـرِي إِلى أَجَـلٍ مُسَمًّى**)

عند الله ، وقد ثبت في العلم الحـــديث أن الشـــمس والقمر وسائر الكواكب والنجـوم الاخـرى في طريقها إلى الانتهاء.

(**وَأَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**)

(30) ما ذا تـــرى حولك في الخلق ، أو لست تـــرى ســـماء مبنية بغـــير عمد ، محبوكة من دون اي فطـــور ، وأرضا مدحية ، والليل والنهار يختلفـان عليها ، وكل شـيء فيها بمقـدار ، فـالى ما تهـديك كل تلك الحقـائق؟ أو ليس إلى رب مقتـــدر دائم الملك ، دائم القـــدرة ، لا يحد علمه شيء ، ولا يبلي سلطانه الزمن ، ولا يزيل عزته تنـافس ، ولا يمتنع عن قهـره أحد ـ سـبحانه ـ ذلك هو الله الحق ، الثـابت بلا تغيـير ، الـدائم بلا زوال ، المعطي بلا نفـاد ، القاهر بلا نصب.

(**ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُ**)

اما الآلهة التي تعبد من دون الله فهي الزائلـة. أرأيت كيف تغيب الشـمس ، ويأفل القمر ، وينفجر النجم ، أو ما تبصر اختلاف الليل والنهـــار وكيف يبليـــان كل جديد ، ويقضـــيان على كل ســـلطان؟! فمن أراد أن يتمسك بالعروة الوثقى ، ويعتمد على السند القـوي ، ويـدخل في حصن منيع فعليه بتوحيد الله الحق.

(**وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ**)

الذي لا ثبات له ولا استمرار.

(**وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ**)

الـذي تعـالى عن صـفات المخلـوقين ، فلا زوال ولا اضـمحلال ، ولا نفـاد ولا تحديد ، ولا نقص ولا عجز ، ولا سنة ولا نوم سبحانه.

(**الْكَبِيرُ**)

قدرته واسعة ، وعلمه محيط ، ورحمته شاملة ، ومنّه قديم ، وفضله عميم ، وآياته في كل أفق ، وشهادته أكـبر شهادة. فلا شيء في الحياة الا بتدبير منه سبحانه.

وهنـاك علاقة بين دعـوة الله لنا في أول الآيـات إلى النظر في الكـون ، ودعوته لنا في آخرها إلى النظر في سـلوكنا ، عند ما يخبرنا بأنه محـاط بعلم الله ، وتحت سمعه وبصره ، وتتلخص هذه العلاقة في ضرورة انعكاس نظرتنا إلى الكـون على سـلوكنا في الحيـاة ، كما تسـوقنا الآية إلى حقيقة التوحيد في هذا الكون ، إذ تهـدينا إلى أن الرب الذي يولج الليل في النهار ، والـذي سـخر الشـمس والقمر هو الذي يـدبر الإنسـان ويرعـاه ، فيعلم ما يعمل ، ويحاسبه ويجازيه عليه.

(31) (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْـرِ بِنِعْمَتِ اللهِ**)

الفلك هي السفن الـتي كـانت تحركها الريـاح ، وذلك بنعمة الله ورحمته ، إذ بعث هـذه الريـاح واجـرى السـفن التي عبرها جعلت الرياح في خدمة الإنسان.

وبما أن الهـدف الأسـمى من نعم الله على الإنسـان تكامل روحه ومعنوياته ، فقد قال الرب :

(**لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ**)

ان البحـــــار تحتضن عجـــــائب خلق الله من خلية اسفنجيّة متواضعة الحجم والتطور ، الى الحيتان الضـخمة الـــتي تبلغ عين الواحد منها وزن فيل وهو أعظم حيـــوان بري.

الايمان صبر وشكر :

جاء في الحديث :

«**الايمان نصفان ، نصف صبر ونصف شكر**» [1]

والواقع : أن الشــكر والصــبر يشــعبان من مشــكاة واحدة هي التسـليم لله ولقضـائه ، والايمـان بأنه الـواهب المتفضل المنان ، بيد أن الشكر هو تجلّ لهـذه الحالة عند النعمة ، والصـــبر تجل لها عند النقمة ، لـــذلك جـــاء في الحديث عن الامام الباقر عليه السلام :

«**العبد بين ثلاثة : بلاء وقضاء ونعمة ، فعليه في البلاء من الله الصبر فريضة ، وعليه في القضاء من الله التسـليم فريضة ، وعليه في النعمة من الله عز وجل الشكر فريضة**» [2]

ولعل أعظم ما في الشــــكر هو تنمية روح الرّضا في النفس بعيـــدا عن الغـــرور والفخر والكبريـــاء ، والنفس الراضية تستدر ثواب الله ، وتسعد في الدنيا.

يـروي الامـام الصـادق (عليه السـلام) عن الرسـول (صلى الله عليه وآله):

«**الطاعم الشاكر له من الأجر مثل أجـر الصـائم المحتسب ، والمعـافى الشـاكر لـه من الأجـر كـأجر المبتلى الصابر ، والغني الشّاكر له من الأجـر كـأجر المحروم**

---

(1) المصـدر / ص (217) نقلا عن مجمع البيـان ، ولم ينسب الحـديث إلى أحد والظاهر انه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله).

(2) موسوعة بحار الأنوار / ج (71) / ص (43).

القانع» [3]

ولعل الحكمة في ذلك أن الشـــكر يزيد في الإيمـــان بالله ، وبأنه المتفضل المنّان ، ويمنع عن صاحبه الغـرور ، ويدفعه نحو الالتزام بواجبات النعمة.

هذا عن ثـواب الله أما عن سـعادة القلب فـان أعظم ما في النعم تحقيق طموحـــات النفس ، أما لـــذة الجسد فانها تتلاشى بسرعة وهي لا تمنح البشر سعادة. أرأيت لو حكم بالإعدام على شخص ثم أوتي أفضل أنواع الطعـام ، وهـيئت له اللـذة الجنسـية مع أجمل بنـات العـالم ، فهل يهنئ بذلك؟! كلا ..

كذلك لو كان القلق النفسي يؤرق الفرد لا يهنئ بلـذة جســدية مهما كـــانت عارمة ومتنوعة ، ذلك أن المهم هو سعادة القلب ورضاه.

فمن كــــان ينتظر مليـــون دولار ربحا إذا حصل على نصف مليـون تـراه آسـفا ، أما إذا لم ينتظر شـخص ربحا فــربح نصف دولار فانه يعيش الفــرح ، كــذلك لو تمــنى شخص الرئاسة في بلد فقدر له منصب نـائب الـرئيس لم يتحسس بالسـعادة بقـدر من لم يطمع في منصب صـغير فحصل عليه.

وهكذا الشاكر لأنعم الله يتحسس بالنعم ، ويعرف أنه لم يكن يســـــتحقها إلا بفضل الله ، فهو كمن لا ينتظر اي مكسب بل ينتظر خسارة فيأتيه الربح ، كأنك تـراه يسـعد به أنّى كان ضئيلا.

دعنا نقـرأ حـديثين يؤكـدان هـذه الفكـرة الهامّة الـتي اعتبرها مفتاحا هامّا للإحساس بالسعادة دائما.

---

(3) المصدر / ص (41).

يقول محمد بن خلّاد : سمعت أبا الحسن صلوات الله عليه يقول :

«**من حمد الله على النعمة فقد شــكره ، وكــان الحمد أفضل من تلك النعمة**» [4]

ويقـــــول مالك بن أعين الجهــــني : اوصى علي بن الحسين (عليه السلام) بعض ولده فقال :

«**يا بــــني! اشـــكر الله لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شـكرك ، فانه لا زوال للنعمة إذا شـكرت ، ولا بقاء لها إذا كفـرت والشـاكر بشـكره أسـعد منه بالنعمة الـتي وجب عليه الشـكر بها ، وقـرأ علي بن الحسين : وإذ تأذّن ربكم لأن شكرتم لأزيدنكم**» [5]

ويكفي المـؤمن دافعا الى الشـكر انه ينظر الى البلاء يـنزل على النـاس وهو معـافى عنه ، ويقـول في نفسه : ماذا لو قدر الله على هذا البلاء ، فيتلألأ قلبه نورا وشكرا.

هكذا أجاب الامام أمـير المؤمـنين رجلا سـأله : بمـاذا شكرت نعماء ربك؟ فقال :

«**نظـــرت الى بلاء قد صــــرفه عــــني ، وأبلى به غيري ، فعلمت أنه قد أنعم علي فشكرته**» [6]

وكلما رأى المؤمن مبتلى ازداد لربه شكرا على انه لا يزال معافى.

هكـــذا علمنا ديننا أن نشـــكر الله حين نـــرى مبتلى ، وهكذا يقول إمامنا الباقر عليه

---

(4) المصدر / ص (31).
(5) المصدر / ص (50).
(6) المصدر / ص (43).

السلام :

«**تقـول ثلاث مـرات إذا نظـرت الى المبتلى من غير ان تسمعه ، الحمد لله الذي عافـاني مما ابتلاك به ، ولو شـاء فعل ، قـال : من قـال ذلك لم يصـبه ذلك البلاء أبدا**» [7]

والشـكر يقي النفس من الانـزلاق في مهـوى الفخر والغرور ، لأنه يوحي الى النفس أن النعمة ليست ذاتية له بل هي اضـــــــافة خارجية ذات عوامل خاصة لا بد من المحافظة عليها حتى تستمر ، فـالغرور يضـحى تواضـعا ، والفخر ســعيا ، والكسل اجتهــادا ، وكل ذلك مما يحفظ النعم ويزيدها.

جاء في الحديث : قال الامام الصادق عليه السلام :

«**ما أنعم الله على عبد نعمة ، فعرفها بقلبه ، وحمد الله ظاهرا بلسانه فتمّ كلامه ، حـتى يـؤمر له بالمزيد**» [8]

بينما عدم الشكر يـورط أصـحاب النعم في الجـوانب السلبية لها ، بل تتحول النعمة عندهم الى وبال ونقمة.

أرأيت كيف بادت حضارات كانت سـائدة. لمـاذا؟ لأنها لم تشــكر ربها ، بل غـــرقت في بحر الغـــرور والتجـــبر ، وبالتـــالي عـــاثت فســـادا في الأرض فكبت بها أخطاؤها ، ودمرت تدميرا.

من هنا جاء في الحديث الشريف عن الامـام الصـادق عليه السلام أنه قال :

---

(7) المصدر / ص (43).

(8) المصدر / ص (40).

«ان الله أنعم على قوم بالمواهب فلم يشـكروا فصـــارت عليهم وبـــالا ، وابتلى قوما بالمصـــائب فصبروا فصارت عليهم نعمة» [9]

ومن أبرز أخطـار تـرك الشـكر أنه ليس فقط يسـبب في زوال النعم ، بل ويتحـول الى وبـال يمنع عـودة النعم عادة. مثلا : إذا أنعم الله على عبد فأصبح قائدا ، وأبطـره المنصب فأقيل منه لا يعـود اليه هـذا المنصب بسـهولة ، لأن الناس يرفضـونه بسـبب تجربته الفاشـلة في الحكم ، كذلك ينبغي التشبث بالنعم عبر الشكر حتى لا تزول ثم لا تعود أبدا.

قال الامام الصادق عليه السلام حسبما جاء في رواية زيد الشحّام :

«أحسنوا جـوار النعم ، واحـذروا أن ينتقل عنكم إلى غـيركم ، أما إنها لم ينتقل عن أحد قط فكـادت ان ترجع اليه وأضاف عليه السلام قائلا : وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقـول : قـلّ ما أدبر شـيء فأقبل» [10]

والذين يشـكرون النعم يعرفـون أنها قد تكـون البداية لسلســلة متكاملة من فضل الله ، وهكــذا يســتدرجونها لأنفسهم بشكرها ، بينما غيرهم يبطـرون بها فلا تسـتكمل النعم عنـــدهم ، فمن حصل على ألف ، وشـــكر النعمة بالسعي والنشاط ، وأداء حقوق الناس اسـتدرج الألـوف ، بينما الــــذي يبطر بها فهو لا يحصل على المزيد بل يفقد الموجود.

هكذا يقول الامام أمير المؤمنين (عليه السلام):

---

(9) المصدر / ص (41).

(10) المصدر / ص (47).

«**إذا وصــلت إليكم أطــراف النعم ، فلا تنفــروا أقصاها بقلة الشكر**» [11]

كيف نشكر الله على النعم

؟ هناك عدة وسائل لشكر النعم :

أولا : ينطلق الشاكر من قاعدة الإيمان بأن النعم من الله لــذلك فــان إذعــان قلبه بــان النعمة من الله عنــوان شكره عليها.

قال الامام الصادق عليه السلام :

«**من أنعم الله عليه بنعمة ، فعرفها بقلبه فقد أوتي شكرها**» [12]

ثانيا : ذكر «الحمد لله» على لسانه ، هكـذا روى عمر بن يزيد عن الامـام الصـادق (عليه السـلام) قـال سـمعته يقول :

«**شكر كل نعمة ـ وان عظمت ـ ان تحمد الله عز وجل**» [13]

ثالثا : اجتناب المحرمات ، وبالذات تلك التي تقتضـيها النعمة مثل الفخر والتجبر أو الإسـراف والبخل أو الفسـاد الجنسي.

هكذا روى عن أمير المؤمنين عليه انه قال :

«**شكر كل نعمة الورع عما حرم الله**» [14]

---

(11) المصدر / ص (53).
(12) المصدر / ص (32).
(13) المصدر / ص (43).
(14) المصدر / ص (42).

رابعا : أداء حقـوق النعمة ، والالـتزام بالحـدود الـتي شرعها الدين لها.

دخل سدير الصـيرفي على الامـام الصـادق (وكـان ذا غنى حسب الظاهر) قال له :

يا سدير! ما كثر مـال رجل قط إلّا عظمت الحجة لله عليه ، فان قدرتم [على أن] تدفعونها [كذا] على أنفسكم فافعلوا.

فقال له : يا ابن رسول الله بماذا؟

قال :

بقضاء حوائج إخوانكم من أمـوالكم ، ثم قـال : تلقّـوا النعم ـــ يا سـدير ـــ بحسن مجاورتها ، واشـكروا من أنعم عليكم ، وأنعمـوا على من شـكركم ، فـانكم ـــ إذا كنتم كـذلك ـــ اسـتوجبتم من الله الزيـادة ، ومن إخـوانكم المناصحة ، ثم تلا : «**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**» [15]

خامسا : بالاجتهاد في سبيل الله ، وابتغـاء مرضـاته ، ذلك ان النفس الشـاكرة تنبعث عفويا نحو الطاعة ، والاجتهـاد في العبـادة لا لأداء حق الله الـذي عليها ، لأن حق الله أعظم من ان يؤديه شكر العبد ، أو ليس العمل ـ بالتالي ـ يكون بحـول الله وتوفيقه مما يقتضي المزيد من الشكر ، انما حبّا لله وشوقا الى لقائه الكريم. تعـال معي الى الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ـ صـلى الله عليه وآله ـ لنرى كيف كان يجهد نفسه في العبادة شكرا لله.

يدخل عليه عمر بن الخطاب والنـبي محمـوم ، فقـال له عمر : يا رسول الله! ما أشد

---

(15) المصدر / ص (48).

وعكك أو حماك؟! فقال :

«**ما منعــني ذلك ان قــرأت الليلة ثلاثين ســورة فيهن السبع الطوال**»

فقال عمر : يا رســول الله غفر الله لك ما تقــدم من ذنبك وما تأخر ، وأنت تجتهد هذا الاجتهاد؟! فقال :

«**يا عمر! أفلا أكون عبدا شكورا**» [16]

سادسا : القناعة بما يجــده المــرء ، والابتعــاد عن الحــرص والشــره. ان الشــكر ليس وليد الرضا بــأمر الله فقط ، وانما يســاهم ــــ أيضا ــــ في تنمية روح الرضا والقناعة ، ويجعل الإنســان يركز أبــدا على الجــوانب الإيجابية للحيــاة ، ويتمتع بها ، ويســتفيد منها ، وينطلق للحصــول على المزيد منها بخطي ثابتة وواقعية ونفس راسخة العزم وهو مطمئن البال.

والقصة الطريفة التالية تعكس طبيعة النظــرة الإيجابية عند أولياء الله الشاكرين ، فهذا الصحابي الجليل سلمان (الفارسي) يدعو أبا ذر رحمة الله عليهما ذات يوم الى ضــيافة ، فيقــدم اليه من جرابه كســرة يابسة وبلها بركوته.

فقال أبو ذر : ما أطيب هذا الخــبز لو كــان معه ملح ، فقام سلمان وخرج ورهن ركوته بملح وحمله اليه ، فجعل أبو ذر يأكل ذلك الخــبز ويــذر عليه ذلك الملح ، ويقــول : الحمد لله الــذي رزقنا هــذه القناعة ، فقــال ســلمان : لو كانت قناعة لم تكن ركوتي مرهونة. [17]

---

(16) المصدر / ص (48).

(17) المصدر / ص (46).

الصبر هدى وظفر :

والصبر ـ كما الشكر ـ تجلّ لروح الإيمان عند النـوائب ، وفي لحظات عصف الشهوات ، وعند تحمل الصعاب.

والآية تربط بين الصــبر والشــكر ، وتجعلهما وجهــان لروح واحدة ، كما يتبيّن ان آيـات الله تتجلى عند أصـحاب هذه الروح.

بلى. لأن النفس الــتي تنســاب مع النعم أو النقم لا تملك استقلالية في الـرأي ، ولا وضـوحا في الرؤية ، لأنها تميل مع ريــاح الظــروف أنّى مــالت ، فــاذا عصــفت بها الشـهوات طغت وتجـبرت ، واسـتأثرت بـالنعم ، وتعـالت على الآخـــرين ، وإذا تـــوالت عليها المصـــائب انهـــارت وأظلمت الدنيا عندها وجزعت ، لذلك تتجلى الآيات الإلهية للصبار الشكور أكثر من غيره.

والواقع ان الصبار الشكور هو الحرّ حقّا ، الــذي ينظر الى الحقائق نظرة موضوعية ومجردة عن المصالح.

جـاء في الحـديث المـأثور عن الامـام الصـادق عليه السلام :

«ان الحر حر على جميع أحواله ان نابته نائبة صـــــبر لها ، وان تــداكّت عليه المصــائب لم تكســره ، وإن أسر وقهر واســتبدل باليسر عســرا كما كـان يوسف الصـديق الأمين لم يضـــــرر حريته ان اســـــتعبد وقهر وأسر ، ولم يضــرره ظلمة الجب ووحشــته وما ناله أن منّ الله عليه فجعل الجبـار العـاتي له عبـدا بعد إذ كـان مالكا فأرسـله ورحم به أمة ، وكـــذلك الصــبر يعقب خــيرا ، فاصــبروا ووطّنوا أنفسكم على الصبر تؤجروا» [18]

(18) المصدر / ص (69).

هكذا الصبر عنوان الإنسان الحر ، ومفتـاح الفـرج بعد الشدة ، وهو ـ كذلك ـ صلاح العمل. أو ليس الزمـان جـزء من فطـرة الخليقـة؟! فمن لا صـبر له لا يمكنه ان يوظف عامل الـزمن لمصـلحته ، فيكـون سـببا لفسـاد أعمالـه. أرأيت الفلاح الـــذي لا ينتظر الموسم المناسب لزراعته ، والتاجر الـذي لا يصـبر حـتى تزدهر السـوق لـبيع سـلعته ، والثائر الذي يستعجل تفجير ثورته. أو ليس يفشل هؤلاء ، بينما ينجح الصـابرون؟! بلى. كـذلك قـال أمـير المؤمـنين عليه السـلام للرجل الـذي رآه على بـاب المسـجد كئيبا حزينا فقال له : مالـك؟! قـال : يا أمـير المؤمـنين أصـبت بابي وأخي ، وأخشى ان أكـون قد وجلت ، فقـال له أمـير المؤمنين (عليه السلام):

«**عليك بتقـوى الله ، والصـبر تقـدم عليه غـدا وأضاف الامام (ع) قائلا : والصبر في الأمور بمنزلة الرأس من الجسد ، فـإذا فـارق الـرأس الجسد فسد الجسد ، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور**» [19]

وبالـــذات الايمـــان فـــان رأسه الصـــبر ، لأن أعظم خصـائص الايمـان الاسـتثمار لليـوم الآخر ، ولا يبلغه من لا صبر له.

يقول الامام علي بن الحسين عليهما السلام :

«**الصبر من الايمـان بمنزلة الـرأس من الجسد ، ولا ايمان لمن لا صبر له**» [20]

وحقيقة الصـــبر الاســـتفادة من عامل الـــوقت ، واستشـــــراف المســـــتقبل ، والتخطيط له ، وتوظيف الطاقات لأجله ، وبالنسبة إلى المـؤمن يعتـبر اليـوم الآخر الحياة الحقيقية ، ولـذلك فهو يعمل له أبـدا ، ولكنه يقتطع من كل مساعيه جزء مناسبا

---

(19) المصدر / ص (73).
(20) المصدر / ص (81).

للدنيا ، حسب وصية ربه له حيث يقول :

(**وَابْتَـغِ فِيما آتـاكَ اللـهُ الـدَّارَ الْآخِـرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا**) [21]

ولذلك فان المؤمن يستسيغ الصبر في كل الظـروف ، وفي مواجهة مختلف الاحتمـالات ، وقد قسم الشـرع الصـبر على ثلاثة : الصـبر عند النـوائب ، والصـبر على الطاعات ، والصـبر على المعاصي ، ووضع لكل واحد منها درجة من الثـواب. تعـال نسـتمع الى الامـام علي عليه السلام يحدثنا عن حبيبه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويقول :

«الصبر ثلاثة :

صبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصـبر على المعصية.

فمن صـبر على المصـيبة حـتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء الى الأرض.

ومن صـبر على الطاعة كتب الله له سـتمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخـــوم الأرض الى العرش.

ومن صبر على المعصـية كتب الله له تسـعمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخـــوم الأرض الى منتهى العرش» [22]

(32) ان مـيزة الصـبار الشـكور وعيه لآيـات الله ، واهتـداؤه بها الى حقـائق الخلق ، فهو لا يعيش لحظته العابرة بل يعيش ـ بوعيه الواسع ـ المستقبل فيصبر على

---

(21) القصص / (77).

(22) المصدر / ص (77).

نوائب الحاضر انتظارا للفرج ، ومعرفة بـأن هنـاك نـوائب أخطر لمّا تحل به ، وانّ عليه أن يشـكر ربه حـتى لا تحل به أبدا ، وهكذا جاء في النص المأثور عن أمـير المؤمـنين (ع):

«**كان رسول الله (ص) إذا أتاه أمر يسرّه قـال : الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات ، وإذا أتـاه أمر يكرهه قال : الحمد لله على كلّ حال**» [23]

وهو يعيش كـذلك الماضي ، فيشـكر الله على نعمه وعلى دفع النقم عنه.

بينما الختـار الكفـور الـذي لا يملك وفـاء ولا شـكرا ، فانه يتعامل مع اللحظة الراهنة وكأنها أبدية فيتغير حسبها ، فاذا افتتن بالنوائب تـراه يجـأر الى ربه ، فـاذا نجّـاه الله منها عاد الى غيّه ونسي ما ألمّ به.

(**وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ**)

ان غشيان الموج امر رهيب. إذ معناه الظاهر إحاطته بهم من كل صـوب وحـدب ، ثم يعـبر القـرآن عنه انه «كالظلل» بصيغة الجمع لأن الموج يتعاقب ويتكاثف.

(**دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**)

حيث أخلصـوا التسـليم والانقيـاد لـرب العـالمين ، وانقشـعت عن أبصـارهم غشـاوة الغفلة ، وتلاشت العقد النفسـية الـتي منعت عنهم الايمـان ، وانـزاح عن قلـوبهم خـوف الشـركاء أو الرجـاء فيهم ، حيث لا يقـدرون على شيء في تلك الساعة الرهيبة عند تكـاثف المـوج ، وتزايد خطر الموت.

---

(23) بحار الأنوار / ج (71) / ص (47).

ان هذه الحالة تتكرر عند الإنسان في أوقات عديدة ، عند ما يحيط به حريق هائل ، عند ما يـــدخل عزيز له الى غرفة الانعـاش ويشـير الأطبـاء انهم لا يملكـون من أمـره شـيئا ، وحين تـرتطم سـيارته في طريق مهجـور فيتـدفق الدم من جوارحه ، و. و.

إن تعلق القلب آنئذ بـالرب الحق وحـده لا شـريك له لشـاهد صـدق على زيف الشـركاء ، ولكن الإنسـان يفقد هذا الايمان النقي بعد مرور الخطر.

وينقسم الناس فـريقين : فمنهم من تبقى عنـده آثـار تلك الساعة فيشكرون الرب ، ويصبرون على بلائه وهؤلاء هم المقتصدون.

(**فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ**)

وهو المعتدل والموفي بعهده.

وهـؤلاء تبقى في نفوسـهم آثـار تلك الشـعلة الإلهية ، التي أوقدتها حالة الانقطاع الى الـرب ، ومنهم الجاحـدون الذين يفقدون الوفاء والشكر للنعماء.

(**وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**)

والختـار هو الـذي ينكث عهـده كثـيراً ، ولعل الكلمة تقابل الصـبار لأن حالة الصـبر تعـني الاسـتقامة ، والبقـاء على العهد ، وبالتالي عدم تبدل المواقف حسب الظروف أو حسب المصالح ، والكفور صفة مقابلة للشكور.

(33) لكي يتسع وعي الإنســان المســتقبل لا بد أن يتصــوره باســتمرار ، ويعــرف مــدى خطورته ، ولــرب مستقبل أعظم ثقلا وحضورا وشـهادة من اللحظة الراهنة لأهميته القصوى كذلك اليوم الآخر.

وحين يعيش الإنسان ذلك اليوم الــرهيب يحافظ على توازن قلبه عند الشدائد ، وعند تواتر النعم ، فلا يجزع عند المصائب ، ولا تبطرة الآلاء.

ولعل ذلك هو مناســـبة التـــذكرة بالقيامة في خاتمة السورة.

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ**)

وهكـذا لا يجـوز الخضـوع للوالـدين إذا خـالف أمرهما أمر الله.

(**وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً**)

فلا ينبغي ان يســـعى الإنســـان لا ســـعاد ابنائه على حساب دينه.

(**إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ**)

والساعة آتية لا ريب فيها.

(**فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا**)

التي تحجب البشر عن النظر في آيات الآخـرة ، وعن العمل لها.

والواقع : ان القـــريب يحجب البعيد ان لم يتســـلح الإنسان بالبصيرة النافذة ، لذلك جاء في الحديث :

«**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»

ويفسر النص التـالي هـذا الحـديث بصـورة رائعة فقد روى محمد بن مســلم بن شــهاب قــال : ســئل علي بن الحسين (عليهما السـلام) أي الأعمـال أفضل عند الله عز وجل؟ فقال :

ما من عمل بعد معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله ـ صلى الله عليه وآله ـ أفضل من بغض الدنيا ، وان لـذلك لشـعبا كثـيرة ، وللمعاصي شـعبا ، فـأول ما عصى الله به الكـبر ، وهي معصـية إبليس حين أبى واسـتكبر وكـان من الكافرين ، والحرص وهي معصية آدم وحوّا حين قـال الله عز وجل لهما : «**فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِـئْتُما وَلا تَقْرَبا هـذِهِ الشَّـجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ**» فأخـذا مـالا حاجة بهما اليه ، فدخل ذلك على ذريتهما الى يوم القيامة ، وذلك أن أكـــثر ما يطلب ابن آدم مـــالا حاجة به اليه ، ثم الحسد ، وهي معصية ابن آدم حين حسد أخاه فقتله ، فتشعب من ذلك حب النســـاء ، وحب الـــدنيا ، وحب الرياسة ، وحب الراحة ، وحب الكلام ، وحب العلو والثروة ، فصـرن سـبع خصــال فــاجتمعن كلهن في حب الــدنيا ، فقــال الأنبيــاء والعلمــاء بعد معرفة ذلك : حب الــدنيا رأس كل خطيئة ، والدنيا دنيائان : دنيا بلاغ ودنيا ملعونة [24]

(**وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ**)

ان بعض الناس يتحدى الغرور الذي ينتابه بسبب حب الدنيا لأنه غرور مباشر ، أو لأنه لا يملك شـيئا منها ، ولكنه يغوى عبر المغرورين بالدنيا ، مثل الملايين الـذين تضـلهم اليــوم أجهـزة إعلام المـترفين ، فهم يخسـرون آخـرتهم ليحصل غيرهم على الدنيا ، فهم خسروا الدنيا والآخرة.

(34) ولكي تترسخ دعـائم الايمـان بالله واليـوم الآخر في النفس ، ويعلم البشر انه لا يملك مســـــتقبله بل ولا حاضــره ، فتطمئن نفسه الى قضــاء الله ، ويصــبر على بلائه ، ويشـكر نعمـاءه وفي ذات الـوقت يـزداد إحساسا بمسؤوليته عن مساعيه ، من أجل ذلك وغيره ذكّرت الآية الأخيرة من هذه السورة بإحاطة قدرة الله وعلمه

(24) نور الثقلين / ج (4) / ص (218).

بالإنسـان ، فهو الـذي يملك علم السـاعة ـ وهي أخطر ـ حين يمر بها أبناء آدم ، ثقلت في السموات والأرض.

(**إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**)

مـتى ترسو سـفينة الخليقة على الشـاطئ الأخـير. لا أحد يعلم ذلك ، بل لم يحدد ربنا لذلك وقتا ـ حسب بعض النصوص ـ انما يقررها الرب متى شاء ، وقد قـال عز من قائل : (**يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّـاعَةِ أَيَّانَ مُرْسـاها فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها**) [25]

(**وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ**)

بقدرته ، فيحـــيي الأرض بعد موتهـــا. ان قدرته أيضا محيطة بالبشر كما علمه.

(**وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ**)

حيث تنعقد نطفة البشر على أسس بيولوجية بالغة الدقة ، وخاضـعة لعوامل متشـابكة لا يعلمها الا الله ، ولا يقدر أحد على التحكم بتفاصيلها أبدا ، وهنالك تـرى أسس شخصـــيته ظـــاهرة وباطنة ، جميل أم قـــبيح ، طويل أم قصــير ، قــويّ أم ضـعيف ، حـاد الطبع أم لين ، وما هي توجهاته العلمية والادبية والفنية ، وما هي مواهبه ، وأهم من كل ذلك هل في طينته نزعة شريرة أم لا.

يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام عن الآية :

«فيعلم الله سـبحانه ما في الأرحـام من ذكر أو أنثى ، وقـبيح أو جميل ، وسـخيّ أو بخيل ، وشـقيّ أو سـعيد ، ومن يكـون للنـار حطبا ، أو في الجنـان للنبيين مرافقا ،

(25) النازعات / (42 ـ 44).

فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلّا الله» [26]

(**وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ**)

غـدا لأن العوامل الـتي تـؤثر في سـلوك الإنسـان لا تحصى عـــددا ، فكيف يتحكم فيها بصـــورة جازمة ، بلى. هنالك تخطيط وتقـدير واطمئنـان نسـبيّ ، ولكن علم الغد خاص بالرب.

وحين لا يعلم البشر ما يفعله غـدا فبالتأكيد لا يعلم ما يفعله الآخــرون ، وما قد يقع مسـتقبلا ، وأفضل الخـبراء عـاجز عن معرفة المسـتقبل تفصـيلا ، مما يـدل على ان المدبر للحياة ليس الإنسان نفسه.

كذلك قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام :

«**عـــرفت الله ســـبحانه بفسخ العـــزائم ، وحل العقود ، ونقض الهمم**» [27]

(**وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**)

وهكذا تكون النهاية بيد الله وحده ، فلما ذا الغرور؟!

يقول الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام :

«**إن النّطفة إذا وقعت في الرحم ، بعث الله عز وجل ملكا فأخذ من التربة التي يـدفن فيها فماثها** [28] **في النطفة فلا يزال قلبه يحن إليها حتى يدفن**

---

(26) المصدر / ص (219).

(27) نهج البلاغة قصار الحكم / رقم (250).

(28) ماثها : أذابها.

فيها» [29]

(إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

---

(29) نور الثقلين / ج (4) / ص (220).

سورة السّجدة

الإطار العام

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم :

في أربع سور في القرآن يجب السـجود عند الأمر به ، وهي التي تسمى بالعزائم.

وهـذه السـورة أولها في الـترتيب ، ولـذلك حـقّ ان تسمى بذلك ، وقد تسمى ب (الم السجدة).

لعلّ آية السجدة (15) هي محور السورة ، وهي تبيّن أعظم صـفات المؤمـنين المخلصـين ، المتمثلة في تجلّي الله لقلـوبهم الزكية ، حـتى أنهم يخـرّون سـجدا لله إذا ذكروا بآياته ، وتتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم.

وتـترى آيـات السـورة للوصـول الى هـذا المحـور ، انطلاقا من اسم الربوبية لإله العـالمين ، فهو الله الـذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، مما يـوحي بترتيبها خلقا بعد خلق ، وطورا بعد طـور. ثم هو الـذي يـدبر الأمر من السـماء الى الأرض ، وإليه يرجع العبـاد وأعمـالهم ، وهو عالم الغيب والشهادة ، يحيط علما بالخلق ، فلا

يعزب عن علمه شيء في السموات والأرض.

ويذكرنا السياق بتجليات اسم الرب في خلق الإنسان الـذي بـدأ خلقه من طين ، وتعاهد أمـره طـورا بعد طـور حتى جعله بشرا سويا ، ويتقلّب في تقدير الـرب وتـدبيره ما دام حيّا ، ثم يتوفّاه ملك المـوت الـذي وكّل به من عند الرب ، وحين يتحول ترابا ، وتنتشر اجزاؤه في الأرض ، لا يكـون بعيـدا عن هيمنة الـرب وتقـديره ، وحين يبعث إلى محكمة العدل الإلهية ، ترى المجرمين ناكسي رؤوسـهم ، يتضرعون إليه ، ويدعونه ان يرجعهم ليعملوا صالحا.

كلّا .. ان الله أقسم صــــادقا أن يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، ولذلك تـركهم يختـارون طـريقهم بحرية تامة ، فـاذا شـاؤوا اختـاروا الجنة ، ولكن كيف النجـاة من ذلّ ذلك الموقف ، حين يندم المجرمون على أعمالهم؟

إنما بالتضـرع اليه ، وهكـذا يحصر القـرآن المؤمـنين بآيات الله. أولئك الذين إذا سمعوها خرّوا سجدا ، وسبحوا بحمد ربّهم.

وجزاء هـؤلاء عظيم الى درجة لا يمكن وصـفه ، حيث يقرّ الله أعينهم بالجزاء الحسن.

وإن من هــــؤلاء من يختـــــارهم الله للإمامة ، لأنهم يهدون بأمر الله ، ويصـبرون على الأذى في جنبه ، ولأنهم كانوا بآيات الله يوقنون.

ولعـلّ الهـدف الأسـمى للسـورة بنـاء هـذه الطائفة المختارة ، وهذا هو محور السورة الأساس ـ فيما يبدو لي ـ الّا انّ هنـاك بصـيرة أخـرى تعطيها آيـات السـورة هي : نسف التمنيـات الـتي يحلم بها الإنسـان ، ويريد ان يكـون المؤمن والفاسق سـواء. كلّا .. لا يسـتوون. إن للمؤمـنين جنات المأوى ، بينما مأوى الفاسقين النار

خالدين فيها ، ودليل الفـرق في الآخـرة عـذاب الله الـذي يصـيب الفسـاق بأعمـالهم في الـدنيا ، الفقر ، والـذل ، والأمراض ، والحروب ، والزلازل ، والفيضانات و.. و.. كل ذلك دليل مسئولية البشر عن أعمـالهم السـيئة ، وانها لن تمر بلا حساب.

وميزان الله دقيق ، يفصل به يـوم القيامة بين هـؤلاء وهـؤلاء ، ونظـرة الى التـاريخ تهـدينا الى نكـال الله الـذي يصيب الكفار ، وهو ـ برغم عظمته ـ يعتـبر عند الله عـذابا أدنى ، فكيف يهـــرب الفاســـقون والمجرمـــون الـــذين يعرضون عن آيات الله عن الانتقام بالعذاب الأكبر؟!

وفي خاتمة السورة يذكرنا الـربّ بآيـات رحمته ، وانه يسوق الماء الى الأرض الجرز لينبت لهم ولأنعامهم زرعا.

ويحذر أولئك الـذين ينتظـرون الآيـات الواضـحة الـتي تجبرهم على الإيمـان وينـذرهم بأنه في يـوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم في ذلك اليوم.

ثم يـأمر المؤمـنين بـالإعراض عنهم ، والانتظـار ، كما ان الكفار ينتظرون. ليرى الجميع جزاء أعمالهم ، إن خيرا فخير ، وان شرا فشر.

سورة السّجدة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الم (1) تَنْزِيـــلُ الْكِتــابِ لا رَيْبَ فِيـــهِ مِنْ رَبِّ الْعـالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُـونَ افْتَـراهُ بَـلْ هُـوَ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتـاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ مِنْ قَبْلِـكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) اللـهُ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَـرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَـذَكَّرُونَ (4) يُـدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْـهِ فِي يَـوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذلِكَ

---

2 [الريب] : الشك.
3 [افتراه] : اختلقه من تلقاء نفسه.
4 [استوى] : استولى على العرش بالقهر والاستعلاء.
5 [يعرج إليه] : يصعد ويرتفع إليه.

عـــالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـــهادَةِ الْعَزِيـــزُ الـــرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَـلَ نَسْـلَهُ مِنْ سُـلالَةٍ مِنْ مـاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَـــوَّاهُ وَنَفَخَ فِيـــهِ مِنْ رُوحِـــهِ وَجَعَـــلَ لَكُمُ السَّـــمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (9) وَقـــالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيـدٍ بَـلْ هُمْ بِلِقـاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (10) قُـلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَـكُ الْمَـوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)

---

8 [سـلالة] : السـلالة الخلاصة ، وقيل الصـفوة الـتي تنسل من غيرها ، ويسمى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه.
[ماء مهين] : مني حقير لقذارته ورائحته.

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

هدى من الآيات :

تذكرنا الآيات هذه بأن الربّ الـذي يجب أن يسـجد له من في السماوات والأرض ، هو الله ربّ العرش ، وأن ما يعبد من دونه ليس سوى أوهام وأسـاطير أبتـدعتها أفكـار الناس ، وأن القـرآن كتـاب حكيم لا ريب فيه لأنه من عند الله ، ولكن لماذا يقول القرآن عن نفسه (**لا رَيْبَ فِيهِ**)؟

الجــواب : إنّ الشك نوعــان : الأول ينبعث من العقل لعــدم تـوفر الحجج والآيـات الكافية ، والثـاني ينبعث عن هـوى الإنسـان بسـبب كـبره أو حجب الغفلة الـتي تعمي قلبه ، لذلك نجد القرآن يقول في إحدى الآيات عن الكفار : (**فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**) [1] ناسبا الشك الى الكفـار أنفســهم ، أما القــرآن ذاته فهو لا ريب فيه ، لأنه صــورة أخــرى لعقل الإنســان المحض والمجــرد عن المــؤثرات السلبية ، كما أن

---

(1) التوبة / (45).

العقل هو الآخر صـورة باطنية للقـرآن ، وإذ يثـير الـوحي الالهي عقل البشر فـان هـذا العقل يؤيد حقيقة القـرآن ، للتطـابق التـام بين الـذي يـذكره القـرآن وبين العقل البشري ، ولذلك تتكرر في الآيات كلمة : (**لا رَيْبَ فِيهِ**).

ثم يسـتمر السـياق في الحـديث عن القـرآن نفسه ، مؤكـدا بأنه لا يمكن أن يكـون افـتراء كما يتقـوّل البعض ، لان هـدف القـرآن هو إنـذار النـاس وهـدايتهم للحق ، ولا يمكن أن يتحقق الهـدى بالكـذب ، كما أن القـرآن ليس مجـردا عن الادلة والـبراهين حـتى يكـون موضـعا للـريب والشك ، ومن أنصع الادلة أن الكاذب انما يكذب لمصـلحة نفسه ، ونحن لا نرى من جاء بـالقرآن وهو الرسـول (ص) يدعو الى نفسه أبدا بل الى ربّهم ، وهذا دليل على صـدق الرسل ، بل والدعوات الاجتماعية الـتي تأخذ هـذا المنحى وتتبع منهج الرسل ، والـتي تتمحـور حـول العقل وعبـادة الله فهي الصـادقة ، وأنصـارها هم الصـادقون ، أما الدعوات التي تنتهي الى الأشـخاص لا الى القيم ، وتعتمد غير الله هدفا وغاية فهي خاطئة ، وأنصارها كاذبون.

والأنبياء من أول نظرة إليهم يعرفون بأنهم انما جاؤوا من عند الله ، فالرجل الـذي يلبس الخشن ، ويأكل الجشب ، ولا يجمع من حطـام الـدنيا شـيئا ، ولا يـدعو الناس الى نفسه ، ويتحمل كل الأذى من أجل خير النـاس ليس أنانيا ، انما يضحي لإيمانه فهو صادق لا ريب فيه.

ثم يذكرنا القرآن بخلق السماوات الـذي تم في سـتة أيـام ، مثنّيا بخلقة الإنسـان الـتي تمت على مرحلـتين : الاولى : خلقه من الطين ، والثانية : خلقه في الأرحـام ، وهـذا قد يشـير الى عـالم الـذر حيث خلق الإنسـان مـرة واحدة على صورة ذر (موجودات صـغيرة) ثم وضـعت في أصلاب الرجال ، وخلق مرة أخرى عبر النكـاح ، ونمى في بطن أمه ، ثم يشـير الى نفخ الـروح فيه وهـذا خلق آخر بعد ذلك الخلق ، ويوصل

كل ذلك بقضية النشور بعد الموت.

بينات من الآيات :

(1 ـ 2) (**الم* تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

كلمة الرب توحي بالعطاء المتدرج (كالتربية) والله رب السماوات والأرض أي يعطيها كمالا بعد كمال ، وخلقا بعد خلق وكما أشار الله لذلك حين قال : (**وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**) [2] وكيف يعترى الريب كتابا أنزله رب العالمين ، المهيمن على خلقهم وتدبير شؤونهم؟! إنّ فطرة البشر جبلت على الثقة بالله ، وتزداد هذه الثقة بتنامي معرفتهم بربهم ، لذلك فإنّ المنهج الصائب لبعث الثقة بالكتاب في النفوس تذكيرهم أولا بالله الذي أنزله ، كما نجده هنا وفي سورة الفرقان وغيرهما.

(3) (**أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ**)

ويرد الله على الكفار بأن القرآن ليس مفترى وذلك لسببين :

الاول : أن المحور في هذه الدعوة هو الحق ، وليس ذات الرسول مثلا ، كما يفترض في الدعوات الكاذبة التي هدفها تأكيد مصلحة أنصارها وأصحابها.

(**بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**)

الثاني : أن ما تنتهي إليه هذه الرسالة وهو الهداية دليل على صحتها ، ذلك أن الدعوة الكاذبة لا يمكن أن تنتهي الا الى إضلال الناس.

---

(2) الذاريات / (47).

(**لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ مِنْ قَبْلِـكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**)

والكتـاب يهـيئ الفرصة للهداية ، ولا يحققها بصـورة إكراه ، فإن شاء الإنسان اهتدى بالكتاب ، وإن شاء جحد.

(4) ثم يذكر السـياق بخلق السـماوات والأرض الـذي تم في ستة أيّام ، ولعل سائلا يقول : لماذا في سـتة أيـام وليس عشـرة؟ الا أن الجـواب الفطـري على ذلك أنه لو قال القرآن عشرة أيام لقالوا : لماذا لم تكن سـتة؟ وهـذا لا ينفي وجود حكمة يعلمها الله تفسر هذا العدد. ومع ذلك فإننا نجد السياق يـبين بـأن الحسـاب عند الله يختلف عنه عند الناس إذ يقول : (**وَإِنَّ يَوْماً عِنْـدَ رَبِّكَ كَـأَلْفِ سَـنَةٍ مِمَّا تَعُـدُّونَ**) ، وعموما فـان في الآية اشـارة الى حقيقة التكامل في الخلق.

(**اللـهُ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**)

يتطور خلالها الخلق يوما بعد آخر.

بالاضـــافة الى دلالة هـــذه الآية على نظرية التكامل الاسلامية ، فانها تدل على دور الـزمن في واقع الأشـياء ، إذ هو جزء منها ، وهذا ما نسـتوحيه من عـدة آيـات قرآنية من بينها قوله تعـالى : (**ما خَلَقْنَا السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِـالْحَقِّ وَأَجَـلٍ مُسَـمًّى**) [3] أي وبأجل مسـمى ، ولعل البـاء المحذوفة هنا هي نفسـها الـتي في كلمة بالحق وتعني الاستعانة.

وإذ خلق الله الخلق لم يتركه سـدى كما تـدعي ذلك اليهـود ، مسـتوحية من النظريـات الفلسـفية البائـدة ، بل هيمن عليه بتدبيره.

---

(3) الأحقاف / (3).

(**ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ**)

وهو تعبير عن القـدرة والهيمنـة. وما دام الكـون خلق بإرادة الله ، ويدبر بمشـيئته فلا بد أن نتوجه إليه ونعبـده ، لأنه لا أحد يقف دون تنفيذ إرادته ، واجراء قضائه.

(**ما لَكُمْ مِنْ دُونِــــهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَـــــفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ**)

هـذه الحقيقة مغـروزة في فطـرة الإنسـان ، وآياتها مبثوثة في الخليقة ، ولكن ينســـــــاها البشر مما يجعله محتاجا الى التذكرة.

(5) ثم تؤكد الآيـات هيمنة الله على الخلق ، وتـدبيره له من مراكز أمره في السماء :

(**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ**)

أي يجعله محددا ، وكلمة تدبير مـأخوذة من الـدبر أي النهاية ، وتدبير الأمور أي معرفة عواقبها ، وما تؤول إليه.

(**ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كـانَ مِقْـدارُهُ أَلْـفَ سَـنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**)

حينما يتـدبر الأمر لا يعـني أنه انتهى ، بل أن أي عمل يقوم به الإنسان يحدده الله ثم ينتهي اليه عند ما يكتســبه العبـد. ونسـتوحي من هـذه الآية أن كل شـيء في هـذا الكون لا ينعدم ، فـالكون يشـبه الشـريط السـينمائي وهو يتحرك مع الـزمن ، وما نعتقد حـدث وانتهى ليس كـذلك ، فهو موجود في هذا الشـريط ، ويعـود يـوم القيامـة. قـال تعالى : (**يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**). [4]

---

(4) الأنبياء / (104).

والآية هنا صريحة في ان مقدار يوم القيامة الف عام ، بينما نجد في آية أخرى ان مقداره خمسـين الف سـنة ، لماذا؟ لعلّه لأنّ ساعات يوم النشور خمسون ، ويـدّبر الله في كل ساعة امرا ، وان عروج الأعمـال اليه انما يتم في سـاعة واحـدة منه ، بمثل هـذا جـاءت رواية مـأثورة عن الامام الصادق عليه السلام :

«**إنّ في القيامة خمســـين موقفا ، كل موقف مثل الف سنة مما تعدون**».

ثم تلا (ع) هذه الآية :

«**فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**» [5]

(6) وبعد أن تعرفنا الآيــات على ربنا ، لتنتهي بنا الى أن القرآن لا ريب فيه ، باعتباره من عنده تعالى ، تؤكد لنا بعض صفاته الحسنى :

(**ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**)

يعلم خفيـات الأمـور وظواهرها ، فـان كـان الإنسـان أحسن في عمله ، جـــزاه الله برحمته ، وإن أســاء عاقبه بعزته ، أو تاب عليه برحمته.

(7) (**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**)

ولعل هـــذه الآية تشـــير الى أن كل مخلـــوق يحس وانطلاقا من وظائفه الحياتية وظروفه بالكمال في خلقه ، فلو أبدلت أسنان الأسد بأسنان الإنسان أو منقـار الغـراب لما كـان صـالحا ولا مناسـبا ، فكل شـيء تجـده متناسـقا ومتكاملا في حدوده ، وبالنسبة الى وسطه وطبيعته.

(5) تفسير نمونه ج (17) / ص (117).

ثم يبـدأ الحـديث عن خلق الإنسـان ، والمراحل الـتي يمـرّ بها ، ودوره الـذي يؤديه في الحيـاة منذ البداية حـتى الموت والى الرجعة.

(**وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ**)

(8) (**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ**)

للإنسان بدايتان : الاولى عند خلق آدم (ع) وذريته في صـورة ذر ، ولقد تم خلقهم مباشـرة من الطين ، والثانية عند خلق سائر البشر من أصلاب الرجـال ، وذلك من مـاء مهين ، يحتقره الإنسان ولكنه أساس خلقه ، وفيه انطـوى سرّ حياته.

بلى. من الطين ومن المـــاء المهين خلق الله هـــذا البشر السـويّ ، الـذي اضـحى خصـيما مبينا ، ويتكـبر في الأرض بغـــير الحــــق. أو لا ينظر إلى أصل خلقه المهين فيرعوي عن غيّه؟! قال تعـالى : (**فَلْيَنْظُـرِ الْإِنْسـانُ مِمَّ خُلِـقَ* خُلِـقَ مِنْ مـاءٍ دافِـقٍ* يَخْـرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّـلْبِ وَالتَّرائِبِ* إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ**). [6]

(9) ثم أن الله بعد أن كون هيكل الإنسـان الاول وهو آدم وحـــواء ، نفخ فيهما من روح انتســـبت اليه لفـــرط عظمتها ، ليصبحا بشـرا سـويا ، حيث يكـون الإنسـان من جسد وروح ، إكراما للإنسان في مقابل الماء المهين.

(**ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ**)

ثم أحسن هـــذا الخلق إذ منّ عليه بنعمة الحــــواس والعقل.

(**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ**)

---

(6) الطارق / (4 ـ 7).

وكان من واجب البشر أمـام هـذه النعمة أن يشـكروا ربّهم ويتبعوا رسالاته ، ولكن غالبيتهم كفروا بأنعم الله.

(**قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ**)

وهـذا يـدل على أن الطبيعة الطينية في الإنسـان هي التي تغلب عليه في أكثر الأحيان ، ولهـذا نجد في القـرآن أمثال (**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ**) أو (**وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**).

إن الشــكر الحقيقي هو تحسس الإنســان بــأن النعم من عند الله ، ومن ثم التسليم المطلق له ، وفي الحديث عن الامام الصادق (ع):

«أوحى الله تعــــالى الى موسى (ع) يا موســــى! اشـكرني حق شـكري ، فقـال : يا ربّ كيف أشـكرك حق شــكرك ، وليس من شــكر أشــكر به الا وأنت أنعمت به عليّ؟!

فقال : يا موسى شكرتني حق شكري حين علمت أن ذلك مني» [7]

(10) ولعـلّ من عوامل كفـران النعم الجحـود بيـوم البعث ، لمــاذا؟ لأنّ النعم عند من يشــكرها عبــارة عن مسئوليات ، وشكرها الوفـاء بحقوقها ، ومن يجحد القيامة يتهرب عن مسئولية النعم ، وبالتالي لا يشـكرها. بل لعـلّ السبب النفسي لجحود البعث التهرب عن مسـئولية النعم وحقوقها المفروضة علينا.

(**وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ**)

توزعت اشلاؤنا ، وتناثرت اعضاؤنا.

---

(7) بح ج (13) / ص (351).

(**أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**)

هذا هو ظاهر الاعـتراض على دعـوة الرسـالة ، ولكن الواقع هو التشكيك في قدرة الله سـبحانه ، والكفر بلقـاء الله.

(**بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ**)

ولعــلّ الآية تشــير الى أنّ الكفــار إنما ذكــروا هــذا الاعتراض جدلا فثم عقدوا العزم على الكفر بلقــاء ربهم ، خشية تحمل المسؤولية في الدنيا ، فأخذوا يتشبثون بأدلة جدلية لتبرير كفرهم هذا.

(11) ولكن الله يؤكد أنه هو الذي يدبر شؤون الحيـاة ، وليست الصــدفة ، وما دامت الحيــاة قائمة على تــدبير الهي فلما ذا التشكيك في يـوم المعـاد ، وهو مما تقتضـيه الحكمة؟!

ولماذا يستغرب الإنسان من فكرة البعث ، وقد خلقه الله ولم يكن شــيئا مــذكورا ، ثم أنه هو الــذي يميته بمشيئته وليست الصدفة.

(**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**)

ولقد وكّل الله الملائكة بـإجراء قضـائه بما آتـاهم من قوته ، وحسب ما يهبط إليهم من أمره ، دون ان يسـبقوه بـالقول ، ووكـلّ ببــني آدم ملك المــوت ليقبض أرواحهم وليتوفاهم دون نقيصة.

وملك الموت أعظم زاجر لأبنـاء آدم الـذين لا يمكنهم الفرار منه ، جاء في حديث مـأثور عن سـيد المرسـلين ـ صلى الله عليه وآله ـ :

«الأمـراض والأوجـاع كلها بريد المـوت ، ورسل المـوت ، فـاذا حـان الأجل أتى ملك المـوت بنفسه فقال : يا أيها العبد! كم خبر بعد خبر ، وكم رسـول بعد رسول؟ وكم بريد بعد بريد؟ انا الخبر الذي ليس بعدي خبر» [8]

---

(8) تفسير نمونه ج (17) / ص (141).

وَلَوْ تَـرى إِذِ الْمُجْرِمُـونَ ناكِسُـوا رُؤُسِـهِمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَـــرْنا وَسَـــمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَـــلْ صـــالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُـداها وَلكِنْ حَـــقَّ الْقَـــوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14) إِنَّما يُـؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَـرُّوا سُـجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجافى جُنُـوبُهُمْ عَنِ الْمَضـاجِعِ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفـاً وَطَمَعـاً وَمِمَّا رَزَقْنـــاهُمْ يُنْفِقُـــونَ (16) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً

---

16 [تتجافى] : تبتعد وترتفع.
[المضاجع] : المضجع موضع الاضطجاع أي الفراش.

بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (17) أَفَمَنْ كـانَ مُؤْمِنـاً كَمَنْ كـانَ فاسِــقاً لا يَسْــتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُــوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَـقُوا فَمَـأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِـــهِ تُكَــذِّبُونَ (20) وَلَنُـــذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَـرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ (21)

تتجافى جنوبهم عن المضاجع

هدى من الآيات :

تثـير فينا السـور القرآنية الـتي تتحـدث عن مشـاهد القيامة ، مزيجا من الرغبة والرهبة ، وتدعونا الى السـعي الحـثيث نحو عمل الصـالحات ، حـتى لا نكـون من ضـحايا الغفلة ، وفي هذا الـدرس يصـور لنا القـرآن المجـرمين ــ الذين يعتقدون بأن الجريمة والخط المنحـرف هو السـبيل لإشـباع الغـرور في الـدنيا ــ وهم منكّسي الـرؤوس ، بما نسوا وتغـافلوا عن يـوم القيامة ، تـاركين الاسـتعداد لهـذا اليوم ، فنسيهم الله.

ثم يؤكد السـيـاق على أن الاتكـاء على الأحلام والامنيات من دون العمل الصالح والمسـتمر لتحقيق ذلك خطأ كبـير ، وأنه من عمل الشـيطان ، فالجنّة لا تنـال الا بالايمان ، والعمل بما يقتضيه هذا الايمـان ، أما أن يتصـور الإنسان بأن الله رحيم ورؤف لا يعذب أحدا فذلك خطأ.

والقرآن يبرّر هذه الأمنيّة بثلاثة أمور :

الأول : القسم الالهي بأنه تعالى سوف يملأ النـار من الجنة والناس ، ويكفينا هذا خوفا وحذرا.

الثـاني : إن العـذاب الـدنيوي يعطينا فكـرة تخـالف الامـاني والأحلام السـاذجة ، فكما أن نعم الله الظـاهرة والباطنة تـدلنا على أنه رحيم ورؤف بعبـاده ، فـان جـانب العذاب فيها يدلنا على أنه جبّار متكـبر ، يغضب ، وينتقم ، ويعذّب ، ويدمّر تدميرا.

الثالث : يخبرنا القرآن بأن عدالة الله تأبى أن يستوي المحسن والمسيء ، والمؤمن والكافر. وهذه من الأفكـار الحساسة في تربية النفس ، أن يطـرد الإنسـان عن ذهنه حلم التسـاوي مع الصـادقين من دون عمل وسـعي (**أَمْ لِلْإِنْسـانِ ما تَمَنَّى**) [1] فكيف مثلا يسـتوي عند الله السـاكت عن جـرائم الظلمة ، والآخر الـذي يقاسي أنـواع العذاب بسبب معارضته لهم؟!

ثم تذكرنا الآيات ببعض صفات المؤمـنين ، والـتي من أهمها وأبرزها خضوعهم للحق ، وتسليمهم له في مختلف الظـروف والأحـوال ، خوفا وطمعا ، فـاذا بك تجـدهم يقـاومون سـلبيات النفس البشـرية بـذكر الله ، فهم كما وصفهم الامام علي (ع):

«**عظم الخالق في أنفسـهم فصـغر ما دونه في أعينهم**» [2]

كما أن من صفات المؤمنين أنهم تتجافى جنوبهم عن المضـاجع ، يهجـرون الفـراش ، ويتوجهـون الى ربّهم بالعبـادة والتبتل ، والإنفـاق في سـبيله ، مما يجعلهم أهلا لثوابه ، وهـذا مما يخـالف التمنيـات والآمـال ، ويؤكد أن العاقبة الحسنى لا

---

(1) النجم / (24).

(2) نهج البلاغة / خ (193) / ص (303).

تكون إلا بالسعي والعمل.

بينات من الآيات :

(12) المـؤمن هو الـذي يـري المسـتقبل البعيد رؤية واضحة ، فاذا به يجتنب المهالك لأنه يستضيء بنــور عقله الـذي يتّقد بـالوحي ، فيعلم يقينا بالنتـائج الـتي ينتهي إليها منهج الانحراف عن الرسالة.

أما الكـافر الـذي أطفأ البصـيرة في نفسه ـ لكـثرة مخالفته عقله وضـميره ـ فهو لا يسـتفيد من رسـالة ربّه في معرفة الحقائق ، ويكون عرضة للاخطـاء والمخـاطر ، لأنه بمنطقه المـــادي البحث لا يهتـــدي الى النتـــائج الا بالتجربة ، وماذا ينفع الإنسـان لو اكتشف خطأ في مرحلة لا ينفعه ذلك كالآخرة؟!

(**وَلَـوْ تَـرى إِذِ الْمُجْرِمُـونَ ناكِسُـوا رُؤُسِـهِمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ**)

تعبيرا عن الذلة والحسرة الشديدتين.

(**رَبَّنا أَبْصَرْنا**)

الآن في الآخرة إذ رأينا الحقيقة.

(**وَسَمِعْنا**)

لعلّ معنـاه : رأينا بأعيننا ، وسـمعنا عن ما رآه غيرنا ، أو معناه : رأينا الحقائق ، وسلّمنا لها تسليما.

(**فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ**)

لقد كان بالإمكان أن يصل هـؤلاء الى هـذا اليقين في الدنيا ، لو استفادوا من

عقولهم ، أو اتبعوا رسـالة الله ، ولكنهم لم يفعلـوا ، والله يؤكد على هذه الحقيقة في سورة التكـاثر إذ يقـول : (**كَلَّا سَـوْفَ تَعْلَمُـونَ* ثُمَّ كَلَّا سَـوْفَ تَعْلَمُـونَ* كَلَّا لَـوْ تَعْلَمُـونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَـرَوُنَّ الْجَحِيمَ**) ولأن المتقين استفادوا من عقولهم ووحي ربّهم فإنهم عرفوا بـأن منهج الكفر ينتهي الى النـار ، بينما ينتهي منهج الايمـان الى الجنّة :

«فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمـون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون ، ولو لا الأجل الـذي كتب الله لهم لم تسـتقر أرواحهم في أجسـادهم طرفة عين أبدا ، شوقا الى الثواب ، وخوفا من العقاب» [3]

(13) (**وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها**)

ولكنّ الهداية الـتي تنفع الإنسـان ، وتتفق مع الحكمة من الحيـاة الـدنيا ، هي الـتي يصل إليها الإنسـان بعقله وإرادته ، وبالاستفادة من رسـالة ربّه إليـه. ولو شـاء الله جبر الناس على الهدى ، وكانت تنتهي بهم الى الجنة.

(**وَلكِنْ حَـقَّ الْقَـوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**)

وهذا القسم يـدعونا الى الجـدّ في الحيـاة ، والسـعي لكسب الجنة ، واجتنـاب النـار الـذي لا يمكن من دون العمل الصالح.

(14) ثم يؤكد القـرآن أن حقيقة الآخـرة مسجلة في ذاكـرة الإنسـان الفطرية ، كما يمكن له أن يسـتنتجها بإعمال عقله ، وتصديق رسالة ربّه ، إلا أنه ينساها

---

(3) المصدر.

بســبب حجب الشــهوات ، والأفكــار الباطلة ، ومن ثم لا يستعد لذلك اليـوم بل يتمـادى في الانحـراف والعصـيان ، فيستحق بذلك العذاب.

(**فَــذُوقُوا بِما نَسِــيتُمْ لِقــاءَ يَــوْمِكُمْ هــذا إِنَّا نَسِيناكُمْ**)

فلا ينصــرهم الله ولا يــرحمهم ، وليس النســيان هنا بمعـنى عـدم العلم ، بل عـدم العمل بما يقتضـيه العلم ، خلافا لمعـنى النسـيان عند البشر كسـائر الكلمـات ، مثلا الغضب بالنسبة للإنسان يعني وجود حالة من الثـوران في نفسه ، بينما يعـني بالنسـبة الى الله النتيجة المترتبة على الغضب كالعــذاب ، ذلك أنه تعـالى تصــدق عليه الغايـات دون المبادئ.

ولعل نسيان الله للعبد أشدّ من أيّ عذاب آخر ، قـال تعالى : (**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمـانِهِمْ ثَمَنـاً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَـذابٌ أَلِيمٌ**) [4]

وفي الدعاء :

«**فهبـني يا الهي وسـيدي ومـولاي صـبرت على عذابك؟! فكيف أصبر على فراقك؟! وهبـني صـبرت على حـــرّ نـــارك ، فكيف أصـــبر عن النظر الى كرامتـــك؟! أم كيف أســكن في النـــار ورجـــائي عفوك؟!**» [5]

ومن تضاعيف الآية يتبيّن وجـود نـوعين من العـذاب ، الاول : هو العـــذاب النفسي المتمثل في نســيان الله ، ويشير اليه الشطر الاول منها وهو جزاء لنسـيان الإنسـان ربّه ، والثاني : هو العذاب المادي ، ونجـده في ختـام الآية :

---

(4) آل عمران / (77).

(5) دعاء كميل.

(وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(15) ثم يـأتي الحـديث عن بعض صـفات المؤمـنين المهمة :

الاولى : التسليم والخضوع للحق :

(**إِنَّما يُـــؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَـــرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**)

والمقصـود من السـجود هنا ليس معنـاه الظـاهري وحسب ، بل حالة التسـليم للحق الـتي يرمز لها هـذا السجود ، والمؤمنـون الحقيقيـون لأنهم يبحثـون عن الحق والهدى فإنهم يسلمون له بمجرد أن يذكّروا به ، مهما كان ذلك مخالفا لاهواء النفس والمصلحة.

وتـوحي كلمة (**خَرُّوا**) ـ الـتي جـاءت من أصل خرير المـاء ، وهو صـوته عند نزوله (مثل صـوت الشـلّال) كما يقـول الـراغب ـ إلى أنّ المؤمـنين يتلقـوّن الأرض بمسـاجدهم ، كما يخر الشـلّال ، وهم يولولـون بالتسـبيح لعمق تـأثير الـذكر فيهم ، بلى. كلما زادت معرفة البشر بربه ازداد معرفة بصـغر نفسه ومـدى حاجته ، وانعكس ذلك في صورة وقوعه لربه ساجدا.

وهكذا وجبت السجدة لله في أربع سـور هـذه واحـدة منها ، اقتداء بأولئك الرجال الكـرام الـذين يخـرّون لـربهم ساجدين.

(**وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**)

فلسجودهم مظـاهر خارجية اجتماعية ، بالاضـافة الى الصـفة النفسـية الـتي يخلّفها ، ومن أبـرز هـذه المظـاهر التواضع الاجتماعي ، الذي يمثّل امتدادا للتسليم

للحق.

الثانية : التبتل الى ربهم في الأسحار :

(16) (**تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ**)

انهم يقاومون النـوم ، لعلمهم بـأن الـدنيا دار العمل ، وليس دار الاســترخاء والراحة ، وأنها الفرصة الوحيـــدة التي يحدد الإنسان فيها مسـتقبله الأبـدي ، ولان المضـجع هو حالة التوقف عن السـعي والعمل فـإنهم يرفضـونه ، وكلمة تتجـافى آتية من الجفــاء ، وهو بمعــنى انقطــاع العلاقة بينهم وبين النوم ، وهذه الصفة نابعة من نظـرتهم الجديّة للحياة ، فكيف يصير الإنسـان أسـير الفـراش وهو يعلم بأنّ مستقبله قائم على ما يقدمه في هذه الحياة؟!

(**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً**)

من النـار فلا يقـتربون من المعاصي ، لأنها تنتهي بهم إليها.

(**وَطَمَعاً**)

في الجنـة. فتجـدهم يبحثـون عن كل عمل يوصـلهم إليها. قال أمير المؤمنين (ع) في وصف المؤمن :

«**لا يـــدع للخــــير غاية الا أمّها ، ولا مظنة الا قصدها**» [6]

الثالثة : الإنفاق في سبيل الله :

(**وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ**)

(6) نهج البلاغة خ (78) / ص (119).

الامكانات والنعم الـتي يمنّ الله بها عليهم ، يفكّـرون في تحويلها الى زاد للآخـــرة ، أكــثر من تفكـــيرهم في استهلاكها ، وصرفها على أنفسهم ، وهكذا ينبغي للإنســان أن يفكر في آخرته قبل تفكـيره في دنيـاه : (**وَابْتَـغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ**). [7]

(17) وبعد ذلك يشــجع القــرآن على الاقتــداء بهــذا الفريق من الناس ، حينما يـذكر جـزاءهم الحسن عند الله بإبهام ، والذي هو في موارده أمضى أثرا من التوضيح.

(**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـــــرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

فكلما وصـفت الجنة كـانت دون واقعهـا. أو ليس فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن ســــمعت ، ولا خطر على قلب بشـــر؟! بلى. وإنّ نعم الجنة تقــرّ عين أصـــحابها ، لأنها صافية من الأكدار ، ونفـوس أهلها زاكية ، لا غل فيها ، ولا حقد ، ولا طمع.

وجـاء في الحـديث في تفسـير هـذه الآية عن الإمـام الصادق عليه السلام :

«**ما من حسنة الّا ولها ثواب مبين في القـرآن ، الّا صلاة الليل ، فـإنّ الله عز اسـمه لم يـبيّن ثوابها لعظم خطرها**» [8]

(18) ويـذكّرنا الـرب بحكمته البالغة لنسف تمنيـات البشر الـــتي توهمه بأنه من أهل الجنة ، وأنّه آمن من أن يكون من الفاسقين ، فيفقد الضابط الحق لسلوكه.

(**أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً**)

---

(7) القصص / (77).

(8) نور الثقلين / ج (4) / ص (230).

يعمل الصــالحات ، ويســتجيب لله ولأوليائه ، ويتحلّى بتلك الصفات التي ذكرت آنفا.

(**كَمَنْ كانَ فاسِقاً**)

يقترف السيئات والجرائم.

ويجيب القــرآن أن ذلك محــال ، ويخــالف حكمة الله التي تتجلى في الخليقة أنى بصرنا بها.

(**لا يَسْتَوُونَ**)

وهذه هي الإجابة الفطرية على التمنيات الباطلة التي تغزو فؤاد الإنسان بعيدا عن ضوء العقل وقيم الوحي.

(19) ويفصل القــرآن الحكيم القــول ببيــان الفــروق العظيمة بين الفريقين :

(**أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا**)

برسالة الله ، فاتخذوها منطلقا في حياتهم ..

(**وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ**)

يقينا منهم بأنّ الايمان وحده لا يكفي لخلاص الإنســان ، وضمان مستقبله.

(**فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

مما يؤكد على أن هــذه النتيجة كــانت ثمــرة للايمــان والعمل الصالح ، وليس للتمنيات.

(20) ثم يحدثنا السياق عن الفريق الآخر :

(**وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ**)

والفاسق هو الخـــارج عن الصـــراط المســـتقيم ، الصراط الذي ينتهي الى جنة الله ورضـوانه ، فالفاسـقون إذن يصيرون الى النار ، وفي الآيتين فكـرة هامة هي : أنّ مستقبل الإنسان رهين عمله في الدنيا ، فهو يسـتطيع أن يجعل مأواه الجنة ، كما يستطيع أن يجعله النار.

(**كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها**)

لان الــذي يخــرج الإنســان من النّــار هو ايمانه بالله وعمله الصالح ، وهـؤلاء لا يملكـون شـيئا من ذلك ، ولهـذا فلن يســتطيعوا الخـــروج منها ، ويبـــدو أنّ أهل النـــار لا ييأسون من الخـروج منها ، فـاذا بهم يحـاولون المـرة بعد الأخرى الخلاص ، ولكن دون جدوى. وفي الحديث :

«يقول المؤمنـون ـ لأهل النـار ـ : انظـروا الى هـذه الأبواب ، فينظرون الى أبواب الجنان مفتحة ، يخيّل إليهم أنها الى جهنم التي فيها يعذبون ، ويقـدّرون أنهم ممكنـون أن يتخلصوا إليها ، فيأخذون في السباحة في بحار حميمها ، وعـدوا بين أيـدي زبانيتها ، وهم يلحقـونهم ويضـربونهم بأعمدتهم ومرزباتهم وسياطهم ، فلا يزالون هكذا يسيرون هنـاك ، وهـذه الأصـناف من العـذاب تمسـهم ، حـتى إذا قـدّروا أنهم بلغـوا تلك الأبـواب ، وجـدوها مردومة عنهم ، وتدهدههم الزبانيّة بأعمدتها فتنكسهم الى سـواء الجحيم» [9]

---

(9) بح ج (8) / ص (299).

(**وَقِيــلَ لَهُمْ ذُوقُــوا عَــذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِــهِ تُكَذِّبُونَ**)

(21) كـان بإمكـان هـؤلاء أن يسـتدلوا على عـذاب الآخرة بالعذاب الذي يجدونه في الدنيا ، ومن ثم يقاومون عوامل الغفلة والنســيان ، فــيئوبون الى رشــدهم ، ويرجعــون الى الحقيقة كلما ابتعــدوا عنها ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك.

(**وَلَنُــذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَــذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَــذابِ الْأَكْبَرِ**)

في تفســير نــور الثقلين عن المجمع عن الامــام الصادق (ع):

«**وأما العذاب الأدنى ففي الدنيا**» [10]

والذي من أهم أهدافه هداية الإنسان الى الحقيقة :

(**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)

---

(10) نور الثقلين / ج (4) / ص (232).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيــاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْــرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْــرِمِينَ مُنْتَقِمُــونَ (22) وَلَقَـدْ آتَيْنا مُوسَـى الْكِتـابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَـةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْنـاهُ هُـدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (23) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَـبَرُوا وَكـانُوا بِآياتِنا يُوقِنُـونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُـرُونِ يَمْشُــونَ فِي مَســاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِــكَ لَآيــاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ

---

23 [مرية] : شك.
25 [يفصل] : الفصل هو الحكم.
26 [أو لم يهد لهم] : أو لم يبصّرهم ويبيّن لهم.
[القرون] : الأجيال الماضية.

بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (27) وَيَقُولُـونَ مَـتى هـذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمـانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَـــرُونَ (29) فَـــأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِـــرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30))

---

29 [ينظرون] : يمهلون.

وكانوا بآياتنا يوقنون

هدى من الآيات :

في الــدرس الأخــير من ســورة الســجدة ، يؤكد ربّنا على صــفة اليقين الــتي تجمع ارادة الإنســان ، وعقله ، وقوة تصوره وخياله على محور الحق ، حـتى لا يبقى لديه أدنى أثر من الهــوى وضــعف الارادة ، فالإنســان يعــرف الحقائق بعقله وفطرته ، ولكنه يشكك فيها بهواه وأفكاره الباطلة ، ويحتاج الى اليقين حتى يـزول هـذا الشك ، ذلك ان مراحل العلم عند الإنسان هي التالية :

الاولى : المعرفة ، فالإنسـان يعـرف أن للكـون خالقا مدبرا ولكنه يبقى مشككا.

الثانية : الايمان ، حيث يسـيطر العقل في معركته مع الهوى فتتبعه الارادة ، ولكن دون أن ينتهي الشك والهـوى عنده ، بل يبقى لهما أثر معنوي لا فعلي ، فتجد إنســانا ما يشــكك نفسه فيها ، لكنه يســتمر يؤديها ، ويلــتزم بها ظاهريا بأفعالها وأذكارها ، فهـــذا الرجل مـــؤمن أي أن نفسه سلمت لعقله تسليما عمليّا.

الثالثة : اليقين ، حين يزول الشك عن قلب الإنسان ، ويبقى مســلّما عمليا ونفســيا تســليما محضا للمعرفة ، ولليقين بــدوره درجــات ثلاث هي : اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين ، الـتي إذا وصـلها الإنسـان حق له أن يقـول كما قال الامام (ع):

«**والله لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا**»

أو كقوله (ع):

«**ما رأيت شـــــيئا قط الا ورأيت الله قبله ومعه وبعده**»

أو كقوله (ع):

«**الهي ما عبدتك خوفا من نـارك ، ولا طمعا في جنتك ، وانما وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك**»

أما كيف يحصل الإنسان على اليقين ، فان ذلك يكون بالمزيد من النظر الى آيــات الله والتفكر فيها ، لان هــذه الآيات إشارات ظاهرية الى الحقائق الكـبرى في الحيـاة ، والتفكر السـليم هو الـذي يعـبر بالإنسـان من خلال هـذه الآيات الى الحقائق ، ذلك أن النظـرة الـتي تنقل الإنسـان الى اليقين هي النظرة العبريّة لا الشـيئية ، والـتي يمـتزج فيها بصر الإنسان مع بصيرته وعقله.

في البداية يجعلك التفكر تـؤمن بربك ، وشـيئا فشـيئا يتحـــول هـــذا الايمـــان الى يقين ، ومنه الى أعلى درجاته وفي الحديث :

«**طوبى لمن كان نظره عبرة ، وسكوته فكرة**»

وبالاضــافة الى ما تعطيه هــذه النظــرة من اليقين ، فانها تعطي الصــبر كثمــرة لهــذا اليقين ، ذلك أن الــذي يطمئن للعاقبة الحسنى ، الــتي يوصل إليها طريق الحق ، يصبر على عقبات الطريق ، والمؤمن يصبر على الصـعاب بسـبب يقينه مما يجعله أهلا لامامة الحق الـتي تقابل أبـدا إمامة الباطل.

بينات من الآيات :

(22) الإنســان مــزود بفطــرة الايمــان بالله ، إلّا أنّه ينسى أو يغفل بسبب الشـهوات أو الأفكـار المضـلّة ، وإذ يبعث الله الرسل ومن يتبع نهجهم الى البشر لتــذكيرهم ، وإزالة الحجب المختلفة عن فطــرتهم ، واثــارة عقــولهم الدفينة ، وأمام هذه التذكرة ينقسم الناس الى فريقين :

الاول : المؤمنــون الــذين يســتجيبون للتــذكرة ، لما يجدونه من توافق بينها وبين فطـــرتهم ، وما تهـــدي اليه عقولهم ، والآيات من حولهم.

الثــاني : المعرضــون ، ولا ريب أن لتلك الاســتجابة وهذا الاعراض أثرا على نفس الإنسان وتفكيره وسلوكه ، فبينما يتجلى ذلك التصديق في صورة الشخصية الربانيّة ، التي تسعى نحو الخير والعمل الصالح ، يبرز هذا الاعراض في صورة الشخصـية الشـيطانية الـتي تسـعى نحو الظلم والجريمة.

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها**)

ولكن لمـاذا يصف القـرآن المعرضـين عن آيـات الله بالظلم؟

الجــواب : لان الـذي يحفظ الإنســان عن الجريمة هو الدين ، بما يتضـمنه من قـوة معنوية ، وتشـريعات صـائبة تبعده عن الظلم بصوره المختلفة ، فاذا أعرض عن الدين سـقط فيـه. ثم أن الاعــراض عن الــدين بذاته ظلم ذاتي وعظيم لا يقع على الذات

فقط ، وانما يتجاوز الى الآخرين أيضا ، أرأيت من يشــرب ســما كيف يظلم نفسه بإهلاكها ، ويظلم أقربــاءه الــذين يفجعهم بموته ، كذلك الذين يسكر ثم يسوق سيارته أو لا يحطم نفسه وسيارته ، ويلحق الأذى بالآخرين.

هكــذا المعرضــون عن آيــات الله ، ســوف يعرضــون أنفســهم لنقمــات الله العزيز الجبّــار ، لأنهم يقــترفون ــ باعراضهم عن آيات الله ، وعدم تسـليمهم لأحكـام الـدين وحدود الشرعية ـ يقترفون أعظم الجرائم ، الـتي لا بد ان ينتقم الله منهم بسببها.

(**إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ**)

(23) (**وَلَقَـدْ آتَيْنا مُوسَـى الْكِتـابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ**)

إن أســمى هــدف لرســالات الله هو رفع الشك عن قلب الإنســـان ، والأخذ بقلبه الى مــــدارج اليقين بكل الحقائق الـتي يـذكر بها الله في كتبه ، اليقين بلقـاء الله ، واليقين بـالموت ، واليقين بـالجزاء ، و.. و.. ، وذلك يعـني تصفية العقل والنفس من آثار الأهواء.

ولن يؤدي المصلح هذا الهدف الا إذا كان بنفسه بعيدا عن الشك ليكون قدوة للنـاس ، ولـذلك نهى السـياق من المرية في لقاء الله ، بعد أن انبأنا عن الكتـاب الـذي آتـاه موسى لان كتاب الله يهدف التــذكرة بالله ، وتأكيد حقيقة اللقاء بالله ، وهذا القرآن تـذكرة بآيـات الله فلا يحق لأحد أن يعرض عنها. فيعرض نفسه لانتقام الله الشديد.

واحتمل المفســرون معــاني أخــرى في ضــمير «من لقائه» أيعود الى موسى ويـدل على التقـاء رسـالة محمد برسالة موسى ــ على نبينا وآله وعليه السـلام ــ أم يعـود الى الكتاب ، لأن الرسول يتلقى القـرآن كما تلقى موسى التوراة ، أو الى التوراة. أو

ليس تلقى موسى كتاب ربه.

بيد أن سـياق سـورة السـجدة ــ بمجملها ــ يؤكد ما قلناه ، بـالرغم من انه لا ينفي ما قـالوه. أو ليس للقـرآن تخوم وآفاق عديدة؟

(**وَجَعَلْناهُ**)

أي كتاب التوراة.

(**هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ**)

شروط الامام :

(24) بعد ذلك يبين الذكر صفات الامام (القائد) وهي ثلاث :

الاولى : الهدى الى الله وبـأمره ، وليس الى نفسه أو حزبه أو وطنه ، أو .. أو .. وما أشـــــبه من الــــدعوات الجاهلية.

الثانية : الصـبر ، وتحمل الشـدائد ، فالقائد هو الـذي تتبلـور شخصـيته في ميـادين العمل الجهـادي ، وسـوح القتـال في سـبيل الله ، وليس الـذي يـركب الموجة ، أو يتسـنم صـهوة الانتصـار من دون عمل وخلفية جهادية ، وربما لـذلك كـان الله يختـار الأنبيـاء والرسل والائمة من رحم الشدائد ، وعند اجتياز أصعب العقبات.

الثالثة : اليقين ، وذلك يعني وصوله الى مستوى رفيع من الايمـان بالله ، لا يهن بعـده ، ولا يرتـاب في طريق الحق ، سواء انتصر أو انتكس مرحليا.

(**وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً**)

يعـني من بـني إسـرائيل ولعـلّ كلمة (**فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ**) التي وردت في

الآية السـابقة هي الرابط بين هـاتين الآيـتين ، فكما كـان موسى على درجة من اليقين أهلّه للنبـوة ، فـان أصـحابه الذين اتبعـوا هـداه كـانوا على مسـتوى من اليقين جعلهم الله أئمة.

(**يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ**)

جاء في الحـديث المـأثور عن الأمـام الصـادق ـ عليه السلام ـ :

إنّ الأئمة ـ في كتـاب الله عز وجل ـ إمامـان : قـال الله تبارك وتعالى : «**وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنا**» لا بـأمر النـاس ، يقـدمون أمر الله قبل أمـرهم ، وحكم الله قبل حكمهم.

قـال : «**وَجَعَلْنـاهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنا**» يقـدمون أمـرهم قبل أمر الله ، وحكمهم قبل حكم الله ، ويأخـذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز وجل [1]

(25) ولكن بـــالرغم من وجـــود أئمة صـــالحين في أصـحاب موسى (ع) كـان هنـاك فريق يكفـرون بـالحق ، وهـذا الاختلاف بين أتبـاع الرسل من بعـدهم من الحقـائق الـتي سـجلها التـاريخ بعد كل رسـول ، وبيّنها الـذكر لنميّز بين الخطوط المختلفة ، عبر بصـيرة الايمـان الـتي تـوحي بالمقـــاييس المبدئية ، والـــتي هي عند الله ثابتة لا تتغيّر وسوف تتجلى يوم القيامة.

(**إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ يَفْصِـلُ بَيْنَهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**)

إنّ معرفة الإنســـان بوجـــود محكمة عادلة ستقضي بالحق تزيد من قوة عقله أمام

(1) المصدر ص (167) نقلا عن كتاب الكافي ج (1) / ص (168).

وساوس الشهوة وهمزات الشياطين.

(26) أما عن ســـبب الاختلاف بعد الرسل ، فهو كما صرح القرآن في موضع آخر : الأهواء والمصالح ، إذ قال :

(**كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللـهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنْـذِرِينَ وَأَنْـزَلَ مَعَهُمُ الْكِتـابَ بِـالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُـوا فِيـهِ وَمَا اخْتَلَـفَ فِيـهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**) .... [2]

وفي هذه الآية يحذر الله الامة الاسلامية من الاختلاف ، ويدعونا للنظر في التاريخ ، لنعرف مصير الذين اختلفـوا عن رسالات الله ، وابتعدوا عن نهجها السـليم. مؤكـدا أنه كما يفصل بينهم في الآخـرة ، فقد يفصل بينهم في الـدنيا بهلاك المنحرفين أو بنصر المؤمـنين عليهم كما في الآية (28 ـ 30).

(**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ**)

وينبغي لهم أن يسـتفيدوا من هـذه الآثـار عـبرة في حيـاتهم ، فيجتنبـوا عن الخطأ حـتى لا يصـطدموا بـذات النتيجة ـ وهذه هي الآية المادية الظـاهرة ــ ثم أن القـرآن هو الآيات المعنوية الـتي تكشف عن الواقع ، والـتي يجب الاستماع إليها والعمل بها.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ**)

فتلك يرونها بأعينهم ، وهذه يسمعونها بآذانهم ، ولكن المطلـــوب أن تعقلها ألبـــابهم ، وتنعكس على حيـــاتهم وواقعهم في صورة هداية.

---

(2) البقرة / (213).

(27) وكما أن آيات الله في عالم الإنسان تهـدي الى هيمنته على الحيـاة ، وتـدبيره لشـؤونها ، فـان آياته في الطبيعة تهدي الى ذات الحقيقة.

(**أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّا نَسُـوقُ الْمـاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُـرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعـاً تَأْكُـلُ مِنْـهُ أَنْعـامُهُمْ وَأَنْفُسُـهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ**)

هناك يقول : (**أَفَلا يَسْمَعُونَ**) لان الوسيلة التي تنقل للإنسـان التـاريخ هي حاسة السـمع أكـثر من أي وسـيلة أخـرى ، وهنا يقـول : (**أَفَلا يُبْصِـرُونَ**) حينما يتحـدث عن الطبيعة التي يبصرها الإنسان قبل ان يسمع عنها.

وهذا من أساليب المنهج الالهي للوصول الى اليقين ، أنه يـــدعو الى النظر والتفكر في الآيـــات من حوله ، فخلفيـات الاحـداث التاريخية والاجتماعية ، كما تجليـات الحكمة في آيات الكون ، وكدورة المطر منذ البداية حـتى سقوطه ، كلها تشير الى إله يدبر الحيـاة ، ويقـدر أحـداثها وشؤونها بقدرة مطلقة ، وحكمة بالغة.

(28) فهو تعـــالى لا يســـتجيب لتحـــديات الكفـــار والمعانــدين مـتى شــاؤوا ، انما حيث شــاء ومــتى أراد ، حسبما تقتضيه حكمته سبحانه.

(**وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

تحدّيا للمؤمنين ، وتكذيبا برسالة الله ، أما المؤمنــون فإنهم يثبتون على خطهم ، ولا يرتابون في وعد الله حـتى لو تأخر بعض الوقت ، خلافا للطـرف الآخر الـذي يزيـدهم الامهال ريبا ، ويشكل لهم عقبة فكرية.

(29) وينسى هؤلاء أن الامهال لا يعني الإهمـال ، انما يعني أحد أمرين :

الاول : أن الله يتيح لهم فرصة العودة للحق.

الثــاني : إذا لم يســتفيدوا من هــذه الفرصة ، فــان الامهال سيكون وبالا عليهم ، لأنه حينئذ يستتبع مزيــدا من العـذاب ــ كما ونوعا ــ تبعا لتمـاديهم في العصـيان ــ كما ونوعا أيضا ـ (**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْـرٌ لِأَنْفُسِـهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَـزْدادُوا إِثْمـاً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**). [3]

ويؤكد الله هـذين المعنـيين ، حيث يقـول مخاطبا نبيّه (ص)

(**قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا**)

من قبل ، وتحــدوا الله ورســوله والمؤمــنين ، حينما تقتضي حكمة الله نصر أوليائه.

(**إِيمانُهُمْ**)

لان الايمان الذي ينفع صاحبه ، هو الايمــان النــابع من الوعي بضرورته ، لا من السيف أو العذاب أو المصلحة.

(**وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**)

ان الايمــان النـاتج لا عن وعي بضـرورته ، بل بسـبب عامل مؤقت يذهب أدراج الرياح بمجرد زوال ذلك العامل ، فالــذي يكف عن الســرقة والجريمة لان أنظــار النــاس تراقبه وليس لــــوازع نفسي أو ديــــني ، فانه يعـــود إليها بمجرد علمه أو ربما ظنه بأنه صار بعيدا عن أعين الناس ، وهكذا لا يتقبل الله ذلك الايمان الذي يبادر اليه الكفار عند نزول العذاب.

(30) وفي نهاية السورة يؤكد القرآن على المــؤمن ، أن لا يربط مصيره بمصـير الكفـار ، فـاذا رأى مجموعة لا يؤمنون ، يتركهم ويستمر على خطه الايماني ، وذلك

---

(3) آل عمران / (178).

حينما يوجهه الرسول لهذا الأمر.

(**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**)

اتركهم ولا تتأثر بهم.

(**وَانْتَظِرْ**)

وعد الله ونصره.

(**إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ**)

ومن هاتين الآيتين نستفيد ثلاث أفكار :

الفكـــرة الاولى : أن انتظـــار الفـــرج من الواجبـــات الشـــرعيّة ، ومن الأعمـــال الصـــالحة ، وفي الحـــديث عن رسول الله (ص):

«**أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج**»

لان الانتظـــار الـــذي يعنيه الحـــديث ، هو البقـــاء على الخط السليم ، صـمودا أمـام المشـاكل والمصـاعب ، من دون التشكيك في الحق ، وهو أحد معـاني الصـبر الـذي لا يمكن الا بالانتظـار ، لان الـذي ينتظر المسـتقبل ، ويتـألق قلبه بأمل الانتصـار لا يضـيق صـدره. فيكـون صـابرا ، بل ويســتهين بالمشــاكل ، إذ يعتبرها خــيرا له من حيث أنها تصقل إرادته وفكره وشخصيته.

الفكرية الثانية : من الخطأ أن يقتصر إيمـان الإنسـان على الأشــياء الظــاهرة ، أو يعتقد بأنه مســئول عن ذلك فقط ، فقد منّ الله عليه بنعمة العقل لكي يـــــــرى به المستقبل من خلال الظـواهر والمقـدمات المنطقية ، وإلّا فما هي الحاجة الى العقل؟!

والله يــرفض الايمـــان الـــذي يكـــون وليـــدا للواقع المفـروض كالعـذاب ، ولا يعطي أصـحابه فرصة أخـرى إذ يفترض في الإنسان أن يسـتفيد من عقله ، ويتعـرف على النتـائج من خلاله ، أو بتصــديق رســالة ربّه ، أما الــذي لا يهتدي لا بالعقل ولا بالوحي ويـرفض الاثـنين فـان مصـيره العــذاب ، لأنّه لم ينتفع من موهبة عقله الــذي هو بــدوره جوهر انسانيته.

الفكرة الثالثة : أن الـدنيا فرصة إذا خسـرها الإنسـان فسوف لن تعود له مرة أخرى ، والامام علي (ع) يقول :

«اغتنموا الفرص فانها تمر مرّ السحاب»

اذن فموقف الإنسان من النتـائج ــ بعد السـعي ــ هو الانتظار ، أما موقفه من الفرص والـزمن فهو الاسـتعجال مع التخطيط.

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

روي عن الامام الصادق عليه السلام انه قال :

«**من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب كان يوم القيامة في جوار محمد (ص) وأزواجه**»

(تفسير نور الثقلين / ج 4 / ص 333)

الإطار العام

الاسم :

واتخذ اسم الأحـزاب لهـذه السـورة من قصة حـرب الخنـدق ، حيث تخـربت قـريش واليهـود ضد المسـلمين ، فـردّ الله كيـدهم ، ولعلها كـانت أعظم خطر درأه الله سبحانه عن رسالته.

حقائق شتى تذكرنا بها سورة الأحزاب الا ان محورها ـ فيما يبدو للمتدبر فيها ـ ترسيخ دعـائم القيـادة الرسـالية في الامة ، الـتي هي ذروة الـدين ، وسـنام الشـريعة ، والامانة الكبرى التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ، وحملها الإنسان فظلم نفسه بها.

وتجري آيات السورة عبر هذا الإطار لتذكرنا بشخصية القائد الرسـالي ، الـذي يتعـالى ـ بتوفيق الله وعصـمته ـ على قـوى الضـغط الاجتماعية ، فهو يتقي الله ولا يطيع الكافرين والمنافقين ، ويتبع وحي الله ، ويتوكل عليه.

وينقل لنا السياق قصتين ، إحـداهما شخصـية والثانية عامة :

الف : فمن خلال قصة زيد الذي تبنّـاه الرسـول ينفي الـذكر الحكيم عـادة جاهلية كـانت سـارية حـتى نقضـها الإسلام بالقرآن وعـبر تحـدي شـخص الرسـول لها ، وهي إلحـــاق الولد بمن تبنّـــاه ، دون من كـــان من صـــلبه ، ونستوحي منها أمرين :

أولا : إنّ الرســــــول ليس أبا لزيد ، ولا يحق له ان يدعي القيادة بهذا العنوان.

ثانيا : إنّ النــبي يتحــدى شخصــيا عــادات الجاهلية ، ويتحمل الأذى في ذلك مما يبين صـفة التحـدي عند القائد الرسالي.

ويكمل السياق بيـان شخصـية القائد بـأنّ النـبي أولى بـالمؤمنين من أنفسـهم ، وأن أزواجه أمهـات المؤمـنين ، وأنّ أولي الأرحـام ــ وهم هنا أبنـاء الرسـول من صـلبه ــ بعضـهم أولى ببعض في كتـاب الله ، وهكـذا يرسم الخط القيادي للامة من بعد الرسول.

ويؤكد على الميثـاق الـذي أخـذه الله من النـبي كما أخذه من أولي العزم من الرسل قبل ان يحمّلهم الرسالة ، ولعل أعظم بنـود الميثـاق : عـدم الخضـوع للمنـافقين والكافرين ، وإخلاص الطاعة لله.

باء : ومن خلال قصة الأحزاب ، يبين السـياق صـفات القيـــادة الرســـالية وكيف يجب ان تتبع في الســـاعات الحرجة ، والا تخـــور عزيمة المؤمـــنين في طـــاعتهم لها بمجـــرد تعرضـــهم لابتلاء شـــديد ، وكيف ينبغي أن يتخذ الرسول أسوة حسنة.

بلى. إنّ الطاعة حقّا تتـــبين عند مواجهة الأخطـــار ، وعلى النــاس أن يرفعــوا بطــاعتهم للرســول الى هــذا المســتوى ، ولا يكونــوا كالمنــافقين الــذين يســتأذنون الرسول

قـــائلين : إنّ بيوتنا مكشـــوفة ، ففضـــحهم الله بـــأنهم لا يريدون إلّا فرارا.

ومن خلال كشف القـرآن لصـفات المنـافقين يحـذّرنا من الوقوع في مهلكة النفاق عند مواجهة الخطر.

كما انه يــبين لنا مــدى رســوخ إيمــان المؤمــنين الصادقين ، عند ما قالوا ـ وهم يرون أمواج الأحزاب تترى على المدينة لاقتحامها ـ : (**هذا ما وَعَدَنَا اللـهُ وَرَسُـولُهُ وَصَـــدَقَ اللـــهُ وَرَسُـــولُهُ ، وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيمانـــاً وَتَسْلِيماً**).

وبعد بيــان صــفات المؤمــنين الصــادقين وجــزاءهم الحسن ، يـــبيّن كيف رد الله الكـــافرين على أعقـــابهم ، وكيف أنزل اليهود من قلاعهم وأورث المسـلمين أرضـهم وديارهم.

ويعود السياق لبيان أحكام نساء النبي ، ويخيّرهم بين التشرّف بخدمة الرسـول أو التعلّق بزينة الـدنيا ، وان من يـــرتكب منهن فاحشة يضـــاعف لها العـــذاب ضـــعفين (لمكانتها من رسـول اللـه) كما ان من تقنت منهن وتعمل صالحا تحصل على الأجر مرتين.

ونستلهم من كل ذلك كيف يجب أن يكون بيت القائد الرسالي نظيفا من الطمع ، وبعيدا عن اختراق القانون.

ثم يأمر القرآن نساء النبي بـأوامر مشـددة في عـدم الخضوع بالقول ، ويأمرهن بأن يقـولن قـولا معروفا ، وألا يخرجن من بيوتهن ، ولا يتبرجن تبرّج الجاهلية الاولى.

ويبين السياق فضيلة آل بيت الرسـول ، الـذين أذهب الله عنهم الـــرجس ، وطهـــرهم تطهـــيرا ، ليـــبين الخط الرسالي بعد رحيل النبي الذي لا بد ان يلتّف المسلمون

حوله.
ويعود الى نساء النبي وكيف يجب عليهن أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة.
ويذكر القرآن صفات المؤمنين والمؤمنات ، لتكون مثلا أمامنا ومقياسا لمعرفة الناس ، ويبين ان ابرز صفاتهم جميعا : التسليم لقضاء الله ورسوله ، ولعل التسليم للقضاء أسمى مراتب التسليم للقيادة ، وأعلى درجات الايمان بعد الثبات في الحرب.
ويبين الذكر قصة زواج الرسول من مطلقة زيد ، لينقض الله عادة جاهلية كانت تقضي بان الدعي ابن ، وانه لا يجوز النكاح من مطلقته.
ويبين ان النبي بشر ، وانه لا حرج عليه فيما فرض الله له.
ويصف النبي ومن مضى على نهجه ممن يبلغ رسالات ربه بأنهم يخشونه وحده ، ولا يخشون أحدا غيره.
ويبين ان أعظم علاقة توصل الامة برسولهم هي رسالته إليهم ، وانه ليس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا أحد من رجالهم ، ولكنه الرسول وخاتم النبيين.
ولكي يتقرب الناس الى مقام الرسول فعليهم ان يتقربوا الى ربهم زلفى ، وعليهم ان يذكروا الله كثيرا ويسبحوه بكرة وأصيلا ، فهو الذي يصلي عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات الى النور.
ويعود الى ذكر صفات النبي السامية فهو الرسول الشاهد ، والمبشر النذير ، والداعي الى الله بإذنه ، والسراج المنير ، وان من آمن بالله وبرسوله يحصل على فضل

كبير.

ويكــرّر ما ذكّر به في أوّل الســورة من رفض طاعة الكفار والمنافقين ، وترك أذاهم.

وبعد ذكر حكم شــــرعيّ عــــام في الطلاق يقضي بضرورة إعطاء المهر (لدى الاتفاق عليـه) وإعطـاء شـيء تمتع به المطلقة لدى عدم الاتفـاق على المهر ، فلا بد إذا من ثمن للبضع ، بعدئذ يــبين مــيزة للرســول هي : إنّ المـرأة لو وهبت نفسـها للرسـول كـان له ان يتقبلها من دون مهر ، بعكس سائر المؤمنين ، وانه ـ صـلى الله عليه وآله ـ يرجي من نسائه من يشاء ، ويأوي اليه من يشــاء ، وانه لا يحل له النساء من بعد.

ويؤدب السياق المسلمين ويأمرهم بأن لا يـذهبوا إلى بيت الرسول ينتظرون الطعـام ، ولا يجلسـوا بعد دعـوتهم اليه وإطعامهم مستأنسين لحـديث ، ويـبين أنّ ذلك يـؤذي الرسول ، وان عليهم الا يطلبـوا من نسـاء النـبي حاجة إلا من وراء حجــاب ، ويبــدو أن ذلك أيضا مما يخصّ نســاء النـبي إذ يجـوز لغـيرهن التحـدث مع الرجـال مباشـرة إذا حافظن على سترهن.

وتختّص نســاء النــبي أيضا بحرمة نكــاحهن بعد وفــاة الرسول.

بلى. لا جنــاح عليهن في التعامل مع الأقربــاء ، ومع نسائهن أو أمهاتهن.

وهكذا يسرد السياق خصـائص الرسـول ، مما يكشف عن جــانب من عظمته ، ثم يــأمر بضــرورة التواصل معه عــبر الصــلاة عليه ، أو ليس الله وملائكته يصــلون عليه ، فيجب الصــلاة والســلام عليه ، ولا بد من التســليم له وطاعته.

ويلعن القرآن الذين يـؤذون رسـول الله ، سـواء ببث الشـائعات ضـده أو ضد نسـائه أو بـأذى ذريته ويتوعـدهم بعذاب أليم في الآخرة.

ويبين جانبا من أذية المنـافقين للرسـول ، وذلك حين ينهى نساء النبي وسائر نساء المسلمين من عدم مراعـاة الستر تماما ، مما يجعلهن يعرفن ويؤذين.

وفي ذات الوقت يوجه تهديدا شديدا الى المنـافقين ، ومرضى القلــوب ، والمــرجفين من الاســتمرار في أذى الرســول ، وينــذرهم بطــردهم وقتلهم ، ولكي ينصــحهم يحذرهم من القيامة ويبين ان الناس يسألون عن السـاعة ، فيقــول : لعل الســاعة تكــون قريبا ، ويــبين لعن الله للكفار حيث يخلدون في السعير ، لا يجدون وليا ولا نصيرا ، هنالك حين تقلّب وجوههم في النـار ، ويتمنّـون لو كـانوا يطيعــون الله والرســول ، ويحــاولون إلقــاء اللّــوم على السادات والكبراء الذين أضلّوهم السبيل.

وينـذرهم السـياق ــ مـرة أخـرى ــ بعاقبة الـذين آذوا موسى فلم يحصــلوا على شــيء ، لان الله كـان قد جعل موسى وجيها ، فما قيمة أذاهم؟!

ويأمر الله المؤمنين بالقول السـديد (البعد عن التهمة والســب) ، ويعـدهم بـالمغفرة ، ويـبين أنّ من أطـاع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما.

ويــبين أنّ الطاعة للرســول ، ولأولى الأمر من بعــده هي الأمانة الكــبرى الــتي أشــفقت الســموات والأرض والجبــال من حملها ، بينما حملها الإنســان وكــان ظلوما جهولا ، حيث ان المنافقين والكافرين فشـلوا من احتمـال الامانة ، فعذبهم الله بينما تاب على المؤمنين والمؤمنـات ، وكان الله غفورا رحيما.

سورة الأحزاب

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللــــهَ وَلا تُطِـــعِ الْكـــافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيمـاً حَكِيمـاً (1) وَاتَّبِـعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللــهِ وَكِيلاً (3) ما جَعَـلَ اللهُ لِرَجُـلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِـهِ وَما جَعَـلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَـلَ أَدْعِيـاءَكُمْ أَبْنـاءَكُمْ ذلِكُمْ قَـوْلُكُمْ بِـأَفْواهِكُمْ وَاللـهُ يَقُـولُ الْحَـقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِآبـائِهِمْ هُـوَ أَقْسَـطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ**

---

4 [أدعيائكم] : الأدعياء جمع دعي وهو الذي يتبناه الإنسان.

فِي الـــدِّينِ وَمَـــوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنــــاحٌ فِيما أَخْطَــأْتُمْ بِــهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُــوبُكُمْ وَكــانَ اللــهُ غَفُـــوراً رَحِيمـــاً (5) النَّبِيُّ أَوْلى بِـــالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهـاتُهُمْ وَأُولُـوا الْأَرْحـامِ بَعْضُـهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتــــابِ اللــــهِ مِنَ الْمُـــــؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (6)

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

هدى من الآيات :

تبحث ســــورة الأحـــــزاب في معظم آياتها الثلاث والسـبعين ، موضـوع المنـافقين في المجتمع الاسـلامي ، كما تتناول في جانب منها الإقدام والشـجاعة الإيمانية في الحروب ، والتحديات التي تواجه الامة.

تبــدأ الســورة بحثّ الرســول على تقــوى الله ، ثم تـذكّره ببعض تعـاليم الإسـلام حـول الاسـرة ، والخطـاب بــدوره يعــني كل مســلم يتلو القــرآن ويــؤمن به ، وتؤكد السورة في مطلعها ضرورة التقـوى للرسـول (القيـادة) ، وان لا يطيع الكــافرين والمنــافقين ، لأن القيــادات على نــوعين : الاول : القيــادة الرســالية ، والثــاني : القيــادة السياسية.

القيــادة السياســية هي تجســيد لمجمل الأوضــاع السياســية والاقتصــادية والاجتماعية والنفســية والثقافية التي تعيشها المجموعة التي تظلها هـذه القيـادة وتشـرف عليها ، ونجد اشــارة لهــذه الحقيقة في الحكمة المعروفة «**كما تكونون يولى عليكم**» ، فالقيادة

التي تتحكم في المجتمع صورة أخــرى لما هو عليه تتجلى في شخص أو حزب أو جماعة.

أمّا القيادة الرسالية فهي التي تشـرف على النـاس ، تربية وتعليما ، من دون ان تتأثر بسلبياتهم ، ومثالها قيادة الأنبيـاء والأئمة ومن يتبع خطهم. وهـذه القيـادة تصـطدم بعقبة كـأداء هي سـلبيات المجتمع ، فبينما تريد قيادته أن تفـــرض الرســـالة الالهية باتجـــاه معيّن ، تضـــغط عليها المتغـيرات اليومية في الاقتصــاد والسياسة والمجتمع و.. و.. باتجاه آخر ، وهنا تواجه القيادة إشـكالية كبـيرة ، فهي اما تلتزم بخطها الرسالي فينفض النـاس من حولها ، واما تخضع لاهـــوائهم وضـــغوطهم ، فتحافظ على تأييـــدهم ، ولكنها تنحرف عن مسيرتها الحقة.

والامــام علي (ع) حينما واجه هــذه الإشــكالية أثنــاء حكمه ، كان بإمكانه تفريق الأموال والرشاوى على الناس ، وإخضــائهم رغبا ورهبا ، ولكنها كــانت تفسد ضــميره ــ حاشا لله ـ لذلك لم يفعل وقال :

«**واني لعـــــالم بما يصـــــلحكم ، ويقيم أودكم ، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي**» [1]

فالقيادة إذا أحوج ما تكون الى التقوى حـتى تسـتقيم أمام الضغوط ، وإنّما تؤكد هذه الآيات على التقـوى ، لأنها تبحث موضوع الحرب التي تجسد ذروة الصراع ، وأصعب ما يواجه البشر في حيــاتهم ، ومن ثم أبــرز وأهم قضــية تتعرض فيها القيادة لضـغوط المنـافقين والكفـار ، وحـتى بعض أبنـاء المجتمع المسـلم ، ولكي تتحصن القيـادة ضد هذه الضغوط لا بد من التقوى ، والتوكل على الله.

وبعد ذلك ينعطف السـياق نحو قضــية أســرية ، مما يثير السؤال : ما هو الرابط بين

(1) نهج البلاغة / خ (69) / ص (99).

القضايا الأسرية ، وقضية اجتماعية كتحدي ضغوط الكفـار والمنافقين في الحرب؟!

والجــواب : إنّ الاســرة هي المدرسة الأولى الــتي تصوغ حياة الإنسان في بعديها المـادي والمعنـوي ، ويجب ان يكــون هــدفها في المجتمع الاســلامي بنــاء الإنســان الصــلب الــذي لا يتــأثر بالضــغوط الخارجية ، ولا يخضع للشهوات ، والقادر على خوض الحـروب باسـتقامة ووعي ، دفاعا عن المبـــادئ والمجتمع ، في حـــال تعرضـــهما للخطر. لذلك حينما يحـدثنا القـرآن عن الاسـتقامة ، وعن الإيمــان الكامل والقيــادة الرســالية ، يحــدثنا كــذلك عن الاسرة ، التي ينبغي ان تربي المؤمن المستقيم.

وفي ســـورة «المؤمنـــون» رأينا كيف أنّ ربنا حينما حدثنا عن الطراز المتكامل للإنسان المؤمن ، كان يحــدثنا أيضا عن الأسرة الصالحة ، وهي منبت الإيمــان ، ومزرعة التقوى ، ومدرسة الأخلاق الفاضلة في سورة «النور».

وفي نهاية الدرس يؤكد القرآن على أنّ الاسرة نظام فطـري يزكيه الإسـلام ويؤكـده ، وليست نظاما اعتباريا أو قانونيا فقط ، وبتعبـير آخر لا يمكن طريق القـانون ، أو ما يسمّى في لغة الحقوقيين الاتفــاق أو العقد الاجتماعية أن تلغي الاســـــرة ، لأنها من الحقــــائق الفطرية ، فزوجة الإنسان لا تضحى أمّه أو أخته.

وبــذلك يخــالف الإسـلام العـادة الجاهلية الـتي كـانت تقضي ، بــأن يتعامل الإنســان مع زوجته ، كتعامله مع امه أو أخته ، بمجــرد ان يقــول لها : أنت عليّ كظهر أمي ، أو كظهر أختي ، أو العـادة الاخـرى الـتي تقتضي بـأن يكـون الواحد ولدا للآخر لأنه ربّاه ، حتى لو كان قد عثر عليه في الطريق ، ويبين القرآن انه لا يكـون ولـدا له ، بلى. انه أخ له في الــدين ، وتربطه به علاقة الولاية ، ان لم يعـــرف والده.

ولعل تأكيد القرآن على هذا الأمر يهدف إيجـاد حـدود للاسرة ، وإعطائها

اعتبارها الحقيقي ككيـــان فطـــري ، يتكـــون من أم وأب وأولاد ، يجب الالتزام به ، بعيدا عن التلاعب بالألفاظ بــأن نضع أشياء جديدة ، ونسميها أسرة ، وبعيدا عن الاسـتهانة بالروابط الفطرية ، بأن نوجد روابط خارج هذا الإطار.

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كما سـبق وان ذكرنا ، بـان للبسـملة معـاني عديـدة ودقيقة في كل سورة ، تتصل بموضـوعها ، وما يؤكد ذلك انها تنزل مع كل سورة بصورة مستقلة ، وهي هنا تعني :

باسم الله تبدأ طريقك متـوكلا عليه ، وباسـمه تـدخل الصـراع فلا تخضع للضـغوط ، ولا تسـتجيب للإغـراءات ، وباسم الله تبني الاسرة الصالحة.

(1) (**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللـهَ وَلا تُطِـعِ الْكـافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ**)

وعـادة حينما تـأتي في القـرآن أوامر صـعبة ، وهكـذا في النصـــوص الاســـلامية يســـبقها أو يلحق بها الوصـــية بالتقوى ، والسبب ان تطـبيق الأوامر الصـعبة والاسـتقامة عليها يحتاج الى دافع قوي وإرادة صـلبة ، يجـدها المـؤمن في تقوى الله.

وإذ يســتهل القــرآن الحــديث بهــذه الآية الحــادة ، ويســمي من يحــاولون تثبيط الرســول عن المواجهة مع الكفار ـ في ظـرف أحـوج ما تكـون الأمة إلى الـدفاع عن كيانها ـ بالمنافقين والكفار ، لان الاستجابة لهؤلاء خطـيرة جدا ، ومن شأنها القضاء على الامة والرسالة الاسلامية.

(**إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً**)

وتفيد الخاتمة هذه أمرين :

1 ـ إن الله يعلم أهـداف المنـافقين والكـافرين ، من ضغوطهم على الرسـول ، وما ينتهي اليه الأمر من فسـاد لو يطيعهم ، فهو حكيم إذ ينهى نبيه (ص) عن الخضـــــوع لهم.

2 ـ ان الله حين يـذكر هـاتين الصـفتين بعد ان يـأمر بـالتقوى وينهى عن طاعة المنـافقين والكـافرين ، فلأنّ التقـوى تنبع من إحسـاس الإنسـان بإحاطة الله له علما ، ولأنّ الطاعة تأتي من الاعتقاد بأنّ الـذي يـأمره حكيم في أمره.

(2) ان هـدف هـؤلاء من الضـغط على الرسـول هو صدّه عن رسالة ربه لهـذا حثّ القـرآن بعد ان نهى النـبي عن الطاعة لهم ، على الالتزام بالوحي فقال :

(**وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**)

يتجلّى واقع القيـادة في الظـروف الصـعبة فيعـرف مـــدى توكلها على الله ، ووعيها للأمـــور ، وتصـــديها لمسؤولياتها.

فالقيـادة الرسـالية هي الـتي تتبع أمر الله ورسـالته وتستقيم عليها ، في مختلف الظروف ، دون أن تسـتجيب لما يقوله الآخـرون مما هو مخـالف للرسـالة ، وهنا نؤكّد بان الضغط الذي تواجهه القيادة داخليا ، من قبل المجتمع بقطاعيه العـام أو الخـاص ، أشـدّ وأصـعب من الضـغط الخارجي ، لان انهيار الجبهة الداخلية التي تعتمدها القيادة أخطر من أيّ شيء آخر ، ودور القيـادة وأهميتها تـبرز في تصدّيها لعوامل هـذا الانهيـار وعلاجها له ، وليس الانسـياق معـه. وحينما يعتـبر القـرآن الشـورى ضـرورية ويـأمر بها القيـــادة الرســـالية ، لا يغفل حقيقة هامّة ، إذ يقـــول : (**وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَـزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللـهِ**) فالقيـادة هي الـتي تعـزم وتقـرر ، ولكن ليس وفق أهـواء الآخرين ولا حتى اهوائها ، انما وفق هدى الله ووحيه.

(**إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً**)

وكفى بهذا باعثا للإنسان نحو تقوى الله وخشيته.

ولعل اسم الخبير يـوحي بمعرفة حقيقة العمل صـالح أو فاسد.

(3) (**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ**)

لكي تتمكن من الاستقامة ، وتحدّي ضغوط الآخرين.

(**وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً**)

وقد تكررت هذه الفكرة عشرات المرات في القـرآن ، أن يذكر الرسول بالتوكل وعـدم اتبـاع أهـواء الآخـرين ، فليست مشكلة القائد ان يتبع هواه ، بمقـدار ما هي اتبـاع أهــواء المحيطين به ، لأنه يجسد الــروح الجمعية في من يقــودهم ، فهو عــادة ما يتجــرد عن هــواه ، ولكنه يخضع لاهـواء تلك الــروح الــتي يجســدها بقيادته ، ولــذلك نجد التعــــابير القرآنية تؤكد على هــــذا الخطر : (**وَلا تُطِــــعِ الْكــافِرِينَ وَالْمُنــافِقِينَ**) [2] ، (**وَلا تَتَّبِــعْ أَهْـواءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُـوكَ**) [3] ، (**وَلا تَتَّبِـعْ أَهْـواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِ**) [4] ... إلخ.

(4) ثم يظهر الســياق رفض الإســلام للازدواجية في الشخصية إذ يقول :

(**ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**)

---

(2) الأحزاب / (1).

(3) المائدة / (49).

(4) المائدة / (48).

فاما ان يتلقى توجيه المنـــافقين والكفـــار ، أو يتبع رسالة الله ، أما الالتقاط فهو مرفوض في منطق الإسلام ، فكما ان قلب الإنســان واحد وعواطفه واحــدة ، كـذلك يجب ان تكــون حياته منسـجمة مع بعضـها ، وبتعبـير آخر يجب ان يرعى البشر الفطـرة الـتي خلقها الله فيه ، وهو يضع القوانين لنفسه. ويربط القرآن بين هذه الفكرة وبين قوله تعالى حاكيا عن الاسرة :

(**وَما جَعَـــلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظـــاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ**)

فكما لم يجعل الله لرجل قلـــــــبين في جوفه ، فلا يستطيع أن يحب ويكره رجلا بصـورة شـاملة في آن واحد ، ولا ان يفكر في أمور متعـددة في وقت واحد ، كـذلك لا يمكن ان يجعل زوجته امه امرأة واحدة ، فيجب ان يكـون الأمر حسب الواقع الفطـري الطـبيعي لا حسب ما يقـرر الشخص نفسه.

والظهار الذي تشير اليه الآية هو قـول الرجل لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي ، أو كظهر أخـــتي. وهـــذه من العـــادات الجاهلية ، كما توجد عـــادة أخـــرى وهي جعل الآخـــرين ابنـــاء لمن يتبنـــاهم ، لكن القـــرآن لا يقرها بل يرفضها.

(**وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ**)

فـالابن لا يصـير دعيّا لوالـده ، والـدعي لا يصـير ولـدا لمن يدعيه ، وتـبين الآية ان هـذه العـادة ليست مما يتفق مع تعـــاليم الله ، ولا فطـــرة البشر ، انما هي من بنـــات أفكار الناس أنفسهم :

(**ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ**)

ولو عـــدتم الى قلـــوبكم وفطـــرتكم لرفضـــتم ذلك ، وقلب الإنسان لا يمكن ان يحس

في داخله بـان الـدعي ولـدا له ، ولو قـال ذلك الف مـرة بلســانه ، لان القلب شــيء آخر يمــيز الابن الحقيقي عن غــيره ، ولا يتمكن ان يخــرق القــوانين الفطرية ، ببعض القــــوانين الاعتبارية ، لأنها تفقد قـــــدرة التنفيذ باعتبارها ظاهرية لا قلبية.

(**وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَ**)

والحق هو القـــانون الفطـــري ، والحقيقة الخارجية ، وهذه صفة القرآن فهو كتاب الله الذي ينطبق على كتـاب الطبيعة ، فكما تذكرنا الطبيعة بآيات القـرآن وتهـدينا لها ، فان الله يذكّر عبر آياته بسننها وقوانينها.

(**وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**)

السليم ، والصراط المستقيم ، و (ال) التعريف تحـدد هـذا السـبيل ، انه ليس ايّ سـبيل كـان ، بل هو السـبيل القويم.

(5) ثم يــبين القــرآن حكم اللقيط ، وهو يخــالف ما عليه الجاهلية من نسب اللقيط الى من يربيه ويتبنـــــــاه حيث يقول :

(**ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ**)

الحقيقيين الذين انحدروا من صلبهم.

(**هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ**)

أصحّ لانسجامه مع شريعة الله ، وفطرة البشر ، بينما كان الجـاهليون يخـالفون هـذا الأمر وينسـبون الرجل الى من تبنــاه ، حــتى لو كــان أبــوه شخصا آخر ، وكــان من عادتهم إذا افتقر أحــدهم أن يـدفع أولاده الى من يعـولهم فيصير الآخر والدهم في عرف

الناس ، ولكن هل يغير هذا من الواقع الفطري شــيئا؟ كلا .. فــأبو طــالب حينما اعطى ولــده عليا (ع) للنــبي (ص) بسبب فقره ، لم يصـبح عليا ولد الرسـول ، وكـذلك الأمر بالنسبة لزيد ابن حارثة ، الذي نسبه الناس للنبي ، فـأنزل الله آية في أمره. [5]

(**فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ**)

وتعرفوهم.

(**فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ**)

اخوة سببيون وليس نسبيين ، فهم لا يرثون منكم.

(**وَمَوالِيكُمْ**)

والمــولى هو الشــخص الــذي ينتمي الى عشــيرة أو أسرة ، لأنه لا عشـيرة له ، فيسـمى مـولى لهم ، ويختلف عن العبد بأنه صاحب ولاية ، وله تسميات أخرى كالــدخيل واللحيــق. اذن فعــدم معرفة والــده ، لا يغــير من الواقع شيئا.

(**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ**)

أي ذنب.

(**فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ**)

أيــــام الجاهلية ، لأنّ الإســـــلام يجبّ ما قبله ، أو إذا أخطأتم الآن إذا لم يكن عن عمد.

---

(5) الأحزاب / (37).

(**وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ**)

في نسـبة الأبنـاء الى غـير آبـائهم الحقيقـيين ، فـذلك محاسبون عليه.

(**وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**)

يغفر للعبد اخطاءه ، اما الانحرافات المتعمدة ، والتي يصرّ عليها فانها لا تغفر.

(6) وفي الآية الاخيرة من هـذا الـدرس يركز القـرآن على فكرة حساسة وذات أهمية بالنسبة للمجتمع المسلم ، في أبعــاد حياته المتعــددة ، حيث يــبين بــأنّ القــانون الرسالي يقتضي ان تكـون القيـادة الرسـالية مقدمة على كل شيء ، اما الأسرة فهي تأتي في المرتبة الثانية ، فاذا ما تعارض قرار القيـادة مع قـرار الاسـرة فـالواجب اتبـاع القيادة ، لأنها أقـرب الى كل فـرد فـرد من أبنـاء المجتمع والتجمع ، بل هي أقـــرب للفـــرد من نفسه ، وفي مجمع البيـان ان النـبي (ص) «لما أراد غـزوة تبـوك أمر النـاس بالخروج قال قـوم : نسـتأذن آباءنا وأمهاتنا ، فـنزلت هـذه الآية» [6]

(**النَّبِيُّ أَوْلى بِـالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِــهِمْ وَأَزْواجُـهُ أُمَّهاتُهُمْ**)

وفي المرتبة الثانية تكـــــون العلاقة الاســــــرية هي الأسمى.

(**وَأُولُوا الْأَرْحـامِ بَعْضُـهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتـابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ**)

أما الـــرحم الـــذي لا يتصل معك بعلاقة الـــدين فهو مقطـوع في الإسـلام ، كالارحـام الـتي لم تكن تهـاجر أو الرحم الكافرة ، ولا يعني هذا ان يؤذي المسلم والديه أو

---

(6) نور الثقلين / ج (4) / ص (237) / رقم (13).

عموم رحمه لكفرهم ، بل ان القرآن يحثّ على الإحســان إليهم ، فهم ان انقطعت معه علاقتهم الدينية فإنه تجمعه بهم العلاقة الانسانية التي يقرّها الإسلام.

(**إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً**)

فذلك يقبله الله ، ويشجع عليه القرآن.

(**كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً**)

إنّه قانون مسطور في كتاب الله.

وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (7) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (9) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (10) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (12) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ

فِراراً (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَـةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُـوا بِها إِلاَّ يَسِـيراً (14) وَلَقَـدْ كانُوا عاهَـدُوا اللـهَ مِنْ قَبْـلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبـارَ وَكـانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً (15)

---

14 (**وَما تَلَبَّثُوا**) : ما احتسبوا وما تريثوا عن الإجابة الى الكفر.

وكان عهد الله مسئولا

هدى من الآيات :

الميثــاق الــذي أخــذه الله عز وجل من النبــيين ، وعـبرهم من الصـديقين والأوليـاء ، هو العهد الـذي وافق عليه كل إنسان في عـالم الـذّر ، حيث اسـتنطقه الله بعد ان ألهمه العقل «**وَأَشْــهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِــهِمْ أَلَسْــتُ بِـرَبِّكُمْ؟ قــالُوا بَلى شَـهِدْنا**» وكـان الهـدف من هـذا الميثـاق ـ كما توضحه نفس الآية ـ هو إقامة الحجة على الخلق (**أَنْ تَقُولُــوا يَــوْمَ الْقِيامَــةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هــذا غـافِلِينَ أَوْ تَقُولُـوا إِنَّما أَشْـرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْـلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**). [1]

وكل من لبّى قبل الآخــرين كــان أقــرب الى الله ، فيزوّده بنور العلم والرسـالة ، وكـانوا هم الرسل والأنبيـاء والأوصياء والأولياء ، قال الامام الصادق (ع):

«**لما أراد الله ان يخلق الخلق نــــثرهم بين يديه فقال لهم : من ربكم؟ فأول من**

---

(1) الأعراف / (172).

نطق رســـول الله (ص) وأمـــير المؤمـــنين والائمة عليهم الســـلام فقـــالوا : أنت ربنا ، فحملهم العلم والـــدين ، ثم قـــال للملائكة : هـــؤلاء حملة ديـــني وعلمي ، وامنائي في خلقي ، وهم المسؤولون» [2]

ثم اتخذ الله ميثاقا آخر من رســـــله قبل ان يبعثهم بالرسالة ، وكان هذا الميثاق بقوة الميثاق الاول.

ومن يبعث رســـولا يتخذ منه الميثـــاق ، لكي يتحمل الرسالة بكلّ أمانة ، ولان النبي يتعرض لانـواع الضـغوط ، يجب ان لا يخضع للظروف والوسط الاجتماعي ، فان الله يذكره بين الحين والآخر بذلك الميثاق عـبر آياته ، بـالرغم من ان النبي منصور من عند الله بالوحي وبروح القدس ، ذلك الملك العظيم الـــذي يؤيد الله به أنبيـــاءه والائمة ، ولعل الـــوحي كما روح القـــدس لم يكن أرفع شـــأنا من القـرآن ذاته ، لأنه كلام اللـه. وهل رفعة درجة الـوحي الا بكونه الواسطة التي تحمل القرآن الى النبي؟ وهل منزلة الرسول (ص) الا بتجسيده كتاب الله وحمله له؟

والقرآن أعظم مؤيد للرســول ولمن يتبعه ، لأنه يثبت قلوبهم ، ويزيد في إيمانهم وتـوكلهم على الله ، بما يـذكر به من الآيـات والسـنن الالهية ، والحـوادث السـابقة الـتي تكشف عنها ، والقـــرآن موجـــود بين أيـــدينا ، فيمكننا أن نستوحي منه بصائر الحياة والعمل ، ونسـتمد منه العزيمة والايمان والتوكل ، ونحن نسير في خط الأنبياء. ولما كـان الرسول يواجه ضغوط المنافقين والكفار ، ويستعد لحرب الأحزاب التي تجمعت واتحدت ضده ، جاء القرآن تأييدا له على الاسـتقامة أمـام كل ذلك ، فكـان لا بد من تـذكيره لميثاقه مع ربه ، على العبودية والإخلاص له ، مما يسـتوجب عـدم الانهيـار أمـام هـذه الضـغوط ، باعتبـاره يناقض الميثاق.

---

(2) نور الثقلين / ج (2) / ص (92) / رقم (337).

ثم يـذكّر السـياق بقصة الأحـزاب الـتي تشـتمل على كثير من العبر والحكم التي من بينها :

الحكمة الأولى : تأييد الله للمؤمـــــنين ، فقد أيّد الله رسوله والمسلمين في هذه الحرب بجنود لم يروها ، قيل انها الملائكة ، وقيل هي الريح التي سلطها على الأحــزاب ، وقد تكون الرعب الذي قال عنه الرسول (ص):

«**نصرت بالرعب مسير أربعين يوما**»

أو هذه جميعا.

المهم أنّ الإنسـان مهما يهيء من الوسـائل المادية ، فقد تتـأثر بعوامل لا يسـتطيع ضـبطها ، وهي ما نسـميها بالصدف ، أو هامش الاحتمالات.

والكفار حينما ساروا لحرب المسلمين يومئذ كانوا قد أعدوا العدة للقضـاء عليهم ، ولم يكن في بـالهم ان شـيئا يمنعهم عن المسلمين ، ولكنهم انهزموا وخسروا المعركة ، وكان السبب المادي الظاهر هو الخندق الذي حفر حـول المدينة ، وعموم ما استخدمه وهيّأه الرسول من الوسائل والاساليب للمعركة ، ولكن العامل الامضى والأهم أثرا هو الجنود التي لم يلحظها المسلمون بـأعينهم ، وإنما جـاءت إشارة القرآن الى هذا العامل الحاسم في الانتصار بهدف إعطـاء الثقة للرسـاليين عـبر الأجيـال ، بـأنهم يجب ان يعتمدوا بعد الاسـتعداد وبـذل قصـارى الجهـود ، على نصر الله لا على ذواتهم ووسائلهم المادية.

الحكمة الثانية : كما تؤكد الآيــات على الابتلاء الـــذي يعـرض الله له المؤمـنين ، وانه من أهم اهـداف الحـروب والغــزوات ، فمنهم من يســتفيد من البلاء والابتلاء ، في تثــبيت ايمانه ، ومنهم من يــتزلزل ولكنه يعــود ليصـــلح مسيرته ، ومنهم من ينهار

تماما ، والمؤمن الذي يسقط ثم يعود الى الصواب ثانية ، قد يكـــون أقـــدر على الاســـتمرار ، من الآخر ، الـــذي لم يسقط ولا مرة ، لأنه جرب السـقوط ، فعـرف كيف يجب ان يقـــوم لو ســـقط مـــرة أخـــرى ، كالجسم الـــذي يبتلى بجرثـــــوم معين ، ثم يطيب منه ، فانه يكتسب شـــيئا من المناعة ضـده ، لو عـاوده من جديد ، لكن هـذا الجرثـوم نفسه قد يفتك بـالآخرين الـذين لم يبتلـوا به ، وبالتـالي لا يملكون مناعة ضده.

والذي يصنعه الابتلاء للإنسان المؤمن ، انه يطهر قلبه من أسباب الشك والـتردد ، ويمكننا ان نحـدد أهم أهـداف الابتلاءات والمصاعب الـتي يعانيها الإنسـان في حياته في أمرين

ألف : تمحيص قلوب المؤمنين.

بـــاء : تمحيص المجتمـــع. ففي الظـــروف الصـــعبة كالحروب يفرز المـؤمن عن المنـافق ، مما يكشف الواقع أمـام القيـادة ، وبالتـالي يتسـنى لها إبعـاد المنـافقين من تجمعها (**ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**). [3]

الحكمة الثالثة : تـــبين لنا الآيـــات أنواعا من التـــبرير والاعذار التي يتشبث بها المنافقون من أجل التسـتر على نوايـاهم ، وفـرارهم من المسـؤولية ، ومن بينها قـولهم : «**إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ**» فـرارا من الحـرب ، دون التفكـير في صـــحتها. وعلى القيـــادة الرســـالية ان تشـــخص الأفكـــار التبريرية وتدحضها.

بينات من الآيات :

(7) لا يبعث الله النـــبي رســـولا حـــتى يتعهد بعـــدم الخضوع لسائر الضغوط ، سواء

(3) آل عمران / (179).

النابعة من ذاته أو الآتية من المجتمع.

(**وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ**)

جميعا ، ولكن هــذا العهد كــان أشد وأخص بالنســبة لأولى العزم من الرسل ، وهم الذين ذكــرت بهم الآية في قولها :

(**وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**)

فالأنبياء أفضل من سائر النــاس ، والرسل أفضل من الأنبيــاء ، وأفضل الرسل هم أولــوا العــزم ، وأكــرم أولي العزم محمد (ص).

(**وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً**)

ولعل وجه التخصيص أن أولي العزم أكرم الناس عند الله ، فهم أكثرهم تعرّضا للبلاء والمصاعب.

(8) ثم بعد هذا الميثاق الــذي أخــذه الله على النــاس ومن ضــمنهم الأنبيــاء فــأقروا بالربوبية له [4] وعاهــدوه بالتسليم ، خلق الحياة الــدنيا ليتــبين الصــادق من الكــاذب فيهم.

(**لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ**)

فالإنسان لا يعرف حقيقة ما يدّعيه إلا عند الامتحــان ، فــان كــان صــادقا أدخله الله في جنته ورحمته ، وإن كــان كاذبا عذبه.

(**وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً**)

---

(4) راجع الآية / (172) / الأعراف.

فالله يستأدي الميثاق مرتين ، مرة في الدنيا عبر الرسل ، ومرة في الآخرة بالحساب الدقيق ، والمؤمن الذي يهتدي الى حكمة الحياة هذه هو الذي يصمد عند الشدائد ، لأنه يعتبرها سبيله الى رضوان الله ، والذي يتحقق في الوفاء بميثاقه معه ـ عز وجل ـ يوم الذر وعبر الأنبياء والقيادات الرسالية التي تمثل امتدادهم (ع) وهذا ما تهدي اليه الآيات من (22) الى (24) حيث ترتبط بهما هاتين الآيتين ارتباطا عضويّا ، وتمثل ظلالا لهما.

(9) اما بقية الآيات ، فهي تذكرنا بالحقائق الثلاث التي أشرنا لها في أول الدرس ، والتي يستوحيها السياق من حرب الأحزاب.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**)

يوم الأحزاب.

(**إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً**)

اقتلعت خيام الكفار ، وكانوا يزمعون اللبث فيها وهم يحاصرون المدينة ، التي منعهم الخندق من دخولها ، مما أشاع الفوضى وعدم الاستقرار في نفوس العدو.

(**وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها**)

من الملائكة.

وقد مر في تفسير سورة الأنفال القول : بأن أهم عمل قامت به الملائكة ، كان تثبيت قلوب المؤمنين من جهة ، وتشتيت قلوب الكافرين من جهة أخرى ، وعلى ضوء هذا التفسير نستطيع القول بأن أهم قوة عسكرية تستطيع هزيمة العدو هي التي تتوفر فيها صفتي الوحدة والاستقامة ، اللتان تؤديان الى الثبات في المعركة.

ونصر الله للمؤمــنين لا يــأتي الا إذا بــذلوا قصــارى جهدهم ، وكل ما بوسعهم من اجله ، فلو كان المســلمون يوم الأحزاب ينتظرون عون الله ، من دون تهيئة الظروف المناسبة له ، من استعداد لمواجهة العدو ، وإعمال للعقل في سـبيل ذلك لما نصـروا عليهم ، ولعله لهـذا يشـير الى سعي المؤمنين.

(**وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً**)

فلأنكم بـذلتم ما في وسـعكم ، وحفـرتم الخنـدق في أربعين يوما متواصلة ، وارهقتم أنفسكم في شهر رمضان ، وفي حرارة الصـيف ، وقد رأى الله منكم كل ذلك وعلم بنواياكم الصادقة نصركم على الأحزاب.

(10) (**إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ**)

اي من فوق الـوادي ـ من ناحية الشـام ـ وهم يهـود بني قريظة وبني النضير وغطفان.

(**وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ**)

من ناحية مكة ـ قبل المغــرب ـ وهم قــريش ومن تبعها من العــرب ، وكـان من شــدة الأمر ان الأبصـار في تلك الحالة لم تكد تـرى أو تسـتقر ، وهـذه الحالة تصـيب الإنسان لا إراديا إذا واجه أمرا يهوله ويعظم في نفسه.

(**وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ**)

كما ان القلب يظل ينبض بقـوة وسـرعة في مـواطن الفزع ، بحيث يشعر الإنسان وكأنه صعد الى حنجرته.

(**وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا**)

في ساعة العسرة تأتي البشر مختلف التصورات حول ربّه ، وربما يكون الكثير منها سلبيا ، فاذا به وهو يقف في صف المؤمنين لمحاربة أعداء الرسالة يفقد الثقة بنصر ربه ، ويظن انه لن ينصره.

(11) لكن الله يجعل الاحداث تتصعد وتتأزم ، وقد يؤخر النصر ، ويعرض المجتمع لأنواع الابتلاء ، وذلك تمحيصا للقلوب ، وفرزا للمجتمع ، فاذا به فريقان ، فريق المؤمنين وفريق المنافقين.

(**هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ**)

اما المؤمنون فقد كان الأمر بالنسبة إليهم امتحانا ـ أظهر ما يضمرونه في قلوبهم على ألسنتهم ـ كما تسببت شدته ، في ذهاب الصفات التي لحقت بهم ، والتي ليست من طبيعة الشخصية المؤمنة ، فاذا به يزيدهم ايمانا وصفاء.

(**وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً**)

ويحتمل هذا الشطر أحد تفسيرين : فاما يكون وصفا لطبيعة الامتحان بأنه من الصعوبة يشبه الزلزال الشديد ، وإما يكون حديثا عن نتيجة الامتحان ، فيصير المعنى ان المؤمنين اهتزت مواقفهم وتأثروا ، فيحمل تفسير الآيتين (22 ـ 23) مضافا لهذه الآية : ان المؤمنين صاروا فرقتين ، فرقة تأثرت بالامتحان سلبا في بادئ الأمر ، فاكتشفت ضعفها وجبرته ، وفرقة ما زادهم إلّا ايمانا وتسليما.

(12) اما المنافقون فقد افتضح أمرهم ، وبرزوا على حقيقتهم أمام القيادة الرسالية يومذاك وأمام المجتمع ، ولعل هذا الفرز من أهم أهداف وفوائد الأزمات التي يتعرض لها البشر في حياتهم.

والمنــافق هو الــذي يعيش شخصــيتين : شخصــية الإنســان المــؤمن الصــادق ــ وهــذه يظهرها ليســتر بها شخصــيته الحقيقة الثانية بما فيها من الأنانية والــدجل ــ فاذا اسـتوجبت الظـروف تعـرّض مصـالحه للخطر ، ووجد الالـتزام ولو ظاهريّا بالشخصـية الإيجابية يعرضـها للـزوال ظهر على حقيقته.

(**وَإِذْ يَقُــولُ الْمُنــافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُــوبِهِمْ مَرَضٌ**)

وهم المؤمنــــون الــــذين يحملــــون الحقد والحسد والاســتكبار و.. و.. في قلــوبهم ، فــإن شــأنهم شــأن المنـافقين ، لأن هـذا المـرض سـوف يسـبب لهم الانهيـار والفرار في سـاعة المواجهة ، فهم يلتقـون مع المنـافقين في خور عزيمتهم ، وطبيعة موقفهم من الشدائد ، والـذي يتجسد في فــــرارهم وســــلبيتهم في المجتمع بخلاف المؤمنين الصادقين ــ تماما ــ فبينما يقـول أولئك : صـدق الله ورسـوله ، ويـزدادون ايمانا واسـتقامة على الطريق ، يقول هؤلاء :

(**ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً**)

ويستدلون على ذلك بان النصر لم ينزل عليهم.

(13) وثمة مجموعة من المشــــككين لا يكتفــــون بهــزيمتهم إنما يشــيعون جــوّا من الهزيمة بهــدف زلزلة عقائد الآخرين ، وهذه من طبيعة المنافقين.

(**وَإِذْ قـالَتْ طائِفَـةٌ مِنْهُمْ يا أَهْـلَ يَثْـرِبَ لا مُقـامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا**)

حينما تتعـرض الامة للخطر فهي أحـوج ما تكـون الى الثقة بنفســها وبقيادتها وبربها ، وبالتــالي فــان الألسن والأقلام التي توهن المجتمع ، وتبث فيه روح الهزيمة لهي منافقة ، وعلى المجتمع أن لا يســــتجيب لها ، إنما يلتف حول قيادته الرسالية ،

كما ان من واجب القيـادة فضح هـذه الشـريحة واقصـائها عن موقع المسؤولية والتوجيه.

(**وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَ**)

ويغطـــــون هـــــذه الهزيمة بمجموعة من الأعـــــذار والتبريرات الواهية.

(**يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ**)

قالوا : ان بيوتنا مكشوفة للعدو ، ولا نـأمن على أهلنا منه ، فلا بد أن نبقى معهم نحميهم ، لكن الله فضـحهم إذ قال :

أولا : ان بيوتهم ليست كما يـدّعون ، ولكنهم يريـدون الفرار من الحرب.

(**وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً**)

(14) ثانيا : لو أنهم دعوا الى حـرب فيها مصـالحهم ، غـير هـذه الحـرب المقدسة الـتي فيها مصـلحة الإسـلام ، لخاضـها أكـثرهم ، ولما تخلف عنها أحد منهم ، أو ليسـوا في الجاهلية يحـــاربون بعضـــهم لمـــآت الســـنين ولأتفه الأسباب؟!

(**وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ**)

الحرب.

(**مِنْ أَقْطارِها**)

جهاتها وأهدافها التي يريدون ، لأنها تتفق مع أهـوائهم مثلا.

(**ثُمَّ سُــــئِلُوا الْفِتْنَــــةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُــــوا بِها إِلَّا يَسِيراً**)

(15) وما كانوا يلتزمون ولا حتى يلتفتون لعهـدهم مع رسول الله (ص).

(**وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ**)

على الدفاع عن الإسلام وعن رسوله.

(**لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ**)

دون تراجع أو هزيمة ، وكان هـذا العهد عـبر الرسـول امتــدادا لميثــاقهم مع الله في عــالم الــذر ، وتأكيــدا للمسؤولية.

(**وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً**)

قُـلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِـرارُ إِنْ فَـرَرْتُمْ مِنَ الْمَـوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (16) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِـمُكُمْ مِنَ اللـهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُـوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِـيراً (17) قَـدْ يَعْلَمُ اللـهُ الْمُعَـوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقـائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَـأْتُونَ الْبَـأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُـرُونَ إِلَيْـكَ تَـدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْـهِ مِنَ الْمَـوْتِ فَـإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ

---

17 [يعصمكم من الله] : يدفع ويمنع عنكم قضاء الله.

18 [هلمّ إلينا] : تعالوا وأقبلوا إلينا.

[ولا يأتون البأس] : لا يحضرون القتال.

19 [أشـحة عليكم] : الشـحة هي البخل ، فهم بخلاء عليكم لا يبـذلون مالا ولا نفسا.

[سلقوكم بألسنة حداد] : آذوكم بـالكلام ، وخاصـموكم بألسـنة سـليطة ذربة.

بِأَلْسِـنَةٍ حِـدادٍ أَشِـحَّةً عَلَى الْخَيْـرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُـوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ وَكـانَ ذلِـكَ عَلَى اللـهِ يَسِـيراً (19) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَـأْتِ الْأَحْـزابُ يَـوَدُّوا لَـوْ أَنَّهُمْ بـادُونَ فِي الْأَعْـرابِ يَسْـئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (20)

---

20 [بادون في الاعراب] : يكونون في البادية مع الاعراب.

ولا يأتون البأس الا قليلا

هدى من الآيات :

مرض النفـاق الـذي تظهـره الأزمـات الشـديدة الـتي تعصف بالأمة قضـية ذات أبعـاد متعـددة ، ومعرفة أبعـاد النفـاق الاجتمـاعي ضـرورة للسـيطرة على هـذا التيـار الخطر ، حتى لا يجـرف خـيرات الامة ، أو يسـتلب بركاتها وايجابياتها.

والمجتمع الـذي يـترك المنـافقين أحـرارا ، يسـتغلون طاقـات الأمة وانتصـاراتها ، فيـنزون على السـلطة على غفلة من أبنائها ، ولعدم وعيهم ، فانه لن يدوم طـويلا في مسيرته الصاعدة ، وأبناؤه يعلمون أن أعمـالهم تنتهي الى جيوب المستغلين والمنافقين.

والقــرآن الكــريم يفضح ـــ في أكــثر من ســورة ـــ المنافقين الذين يبحثون عن المكاسب والمغانم ، دون ان يقـــدموا من أنفســهم شـــيئا للحصـــول عليها ، فهم في الأزمــات والحــروب يتهربــون من المســؤولية ، ولكنهم يـــبرزون ويظهـــرون أنفســـهم أبطـــالا حين المغـــانم والانتصارات.

بينات من الآيات :

(16) كانت حرب الأحزاب من الأزمات الصعبة التي مرت بها الأمة الاسلامية ، وكان من ايجابياتها ـ كما سائر الأزمات ـ انها كشفت واقع فريق المنافقين ، والقرآن لا يذكر تفاصيل هذه الحادثة في هذه السورة ، انما يذكّر ببعض النقاط الحساسة منها.

فيؤكد لنا بأن الإنسان لا يستطيع ان يدّعي القدرة على الخلاص من الموت أو القتل بالفرار ، أو أن ذلك ينفعه. كلا .. فهو قد يبعده عن ذلك لحظات وأياما ، ولكنه لن يكون سببا للبقاء والاستمرار ، فما يدفعه المجتمع وحتى الإنسان الفرد عن الهزيمة يفوق ما يدفعه حين الاستقامة والاستمرار أضعافا مضاعفة ، فهو بالفرار من المعركة يعطي العدو زخما من القوة والثقة بالنفس.

(**قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً**)

بينما تهب الشجاعة للإنسان عمرا طويلا ، لأن الشجاع يقاوم الأعداء ومن ثم يضمن استمراره.

(17) وبالاضافة إلى أن الفرار من الموت لا يجدي نفعا ، إذ انه يدركهم انى كانوا ، بالاضافة الى ذلك فانه يغضب الرب ، وهم لا يملكون من دونه وليّا ولا نصيرا ، فاذا أراد بهم سوء فلا عاصم لهم منه يمنعهم من عذابه ، وإذا أراد بهم رحمة فلا أحد قادر على منع رحمته عنهم.

(**قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً**)

ان الهزيمة امـام الأعـداء مظهر من مظـاهر ضـعف الايمــان بالله وتعلق القلب بالشــركاء من دونه ، وهكــذا ينسف القرآن هذه الفكرة بقوله :

(**وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً**)

(18 ـ 19) ثم يـذكرنا القـرآن بجـانب من صــفات المنافقين وهي :

أولا : انهم يبحثون عن أمثالهم ، أولا أقل مثلهم عمليا ، فــاذا بهم يثبطــون أنــاس عن المواجهة مع العــدو عند الحرب ، حتى يكون المجتمع مثلهم فيتخلصون من اللــوم وممن يسمهم بالجبن.

(**قَــدْ يَعْلَمُ اللــهُ الْمُعَــوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقــائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا**)

اي المثبطين الذين يبثـون روح الهزيمة والضـعف في المجتمع ، و «قد» تفيد التأكيد وليس الإمكان والتحقيق.

ثانيا : الجبن وعدم الإقدام ، وقليلا ما يتواجــدون حين المعارك الحاسمة ، وهكذا فان الصعوبات والمشـاكل هي الــتي تكشف المنــافقين على حقيقتهم فــاذا بهم ـــ وقد ادعــوا الشــجاعة ســابقا ـــ تخــور عــزيمتهم في لحظة المواجهة ، وتدور أعينهم من الخــوف ، كما المغشي عليه من المـــوت ، وإذا انجلى الخطر بصــــمود المؤمـــنين واســتقامتهم في ســاحة الصــراع تجـدهم مـرة أخـرى بألسنتهم السليطة يشتمون ويحمّلون الآخرين المسـؤولية ، وحـــدة كلامهم تكـــون بمقـــدار هـــزيمتهم وجبنهم في الأزمات.

(**وَلا يَـأْتُونَ الْبَـأْسَ إِلَّا قَلِيلاً* أَشِـحَّةً عَلَيْكُمْ فَـإِذا جـاءَ الْخَـوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُـرُونَ إِلَيْـكَ تَـدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْـهِ مِنَ الْمَـوْتِ فَـإِذا ذَهَبَ الْخَـوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ**)

ثالثا : السـعي من أجل المغـانم ، والأخذ من المجتمع الاسلامي بحرص شديد يوازي شحهم وبخلهم عن الإنفـاق لصــالح الإســلام والمســلمين ، وأساسا لا ينتمي هــؤلاء للمسلمين إلا سعيا وراء المصلحة.

(**أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَـطَ اللـهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً**)

وانما أحبط الله أعمــالهم لأنها لا تقــوم على أســاس صــحيح واهــداف مبدئية شــريفة ، كما نــزع عنهم اسم المؤمـنين لان انتمــاءهم للمؤمـنين ظـاهري ، وانتمـاؤهم الحقيقي هو للكفار أو لذواتهم وشهواتهم.

(20) رابعا : ومن خــوف المنــافقين انهم حــتى بعد انتهاء المعركة لصالح المسلمين ، وانسحاب الأحــزاب لمّا تطمئن نفوســــهم ، فهم يزعمـــــون أن المعركة لا زالت قائمة ، ويعيشــون حالة الخــوف والــرعب ، وكيف تطمئن نفوسهم وهي خالية من الايمان وذكر الله؟!

(**يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا**)

فهم وجلــون على مصــيرهم ومصــالحهم من قــوى الشرك.

(**وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ**)

يتمنون لو كـانوا بعيـدين عن المسـلمين ، كما سـكان البادية الذين همّهم سماع الاخبـار بعيـدا عن المسـؤولية ، وهــذه من صــفات المنــافقين انهم في ســاعة العســرة والخطر ينهزمون في داخلهم.

(**يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ**)

خارجون الى (البدو) في الصحراء.
(**فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ**)
ليعرفوا مصير المعركة حتى يتكيفوا معه ، فهم لا يصنعون الأحداث بل يتقلبون معها.
(**وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً**)
مما يدل على ان المنافقين ينهزمون نفسيا بتلك التمنيات ، وعمليا بالفرار من بين المسلمين حفاظا على حياتهم ، ولو لم يحالفهم الحظ بالفرار والهزيمة ما كانوا يؤثّرون في المعادلة أبدا ، لأنهم غير مستعدين للتضحية ولا للقتال المستميت.
وتدل هذه الآية : (**ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً**) على أحد معنيين :
الاول : أنهم لو كانوا في المسلمين لم يقاتلوا الأحزاب ـ على افتراض عودتهم ـ لأنهم يبحثون عن المعارك التي يكون فيها العدو ضعيفا وقليلا ، بحثا عن المغانم حيث يكون النصر فيها للمسلمين ، وحتى في هذه الحالة فإنهم لا يؤدون دورا أساسيا ، ولا يدخلون قلب المعركة.
الثاني : انهم لو صادف مجيء الأحزاب للقتال مرة ثانية ، ولم يتمكنوا من الفرار فإنهم لن يؤدوا مهامات خطرة في القتال ، بل سيكتفون بالأدوار الهامشية التي لا تكلفهم شيئا من التضحية ، كما أنها تحافظ على شخصياتهم ومكانتهم في المجتمع المسلم.

قصة غزوة الخندق :

وهذه النفوس المريضة أظهرتها ساعة الازمة في غزوة الخندق ، التي نصر الله فيها

الامة الاسلامية نصرا عزيزا ، وكانت في أيام نشأتها ، والله يذكرنا بهذه الغزوة حتى نستفيد عبرا منها ، ويذكرنا بالنصر تذكيرا للأمة بأن ميلادها كان رهين تلك الحروب وبأولئك الابطال الذين خاضوها ، وعلى سواعدهم جاء النصر ، ومع أن الامة واقع قائم الآن إلا انها لا تستطيع ان تنكر فضل أولئك الرواد الأوائل الذين ساهموا في صناعة الامة وحافظوا على كيانها ، لذلك يجب ان تبقى قصة غزوة الخندق وسائر الحروب التي شهدتها الامة في بداية انطلاقتها وفي أيام مخاضها راسخة في ذاكرة كل فرد من ابنائها ، والإنسان يتأثر بالتاريخ فهو ابن له ، وهو ينعكس عليه بصورة ما ، فاذا عرف تاريخه معرفة حسنة وسليمة ، وعرف محيطه بجميع أبعاده فان اخطاءه سوف تقل ، اما لو كانت رؤيته للتاريخ غامضة أو ناقصة فان حياته ستكون مليئة بالأخطاء ، ولذلك يذكر القرآن بهذه القصص والعبر التي خلفتها لنا أحداث التاريخ ، ونحن ــ بدورنا ــ نثبت هنا بعض ما جاء في السيرة من تاريخ الواقعة.

ذكر محمد بن كعب القرظي وغيره من أصحاب السير قالوا : كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن ابو الحقيق ، وحيي بن اخطب في جماعة من بني النضير الذين اجلاهم رسول الله (ص) خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوهم الى حرب رسول الله (ص) وقالوا : إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم ، فقالت لهم قريش : يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول فديننا خير أم دين محمد ، قالوا : بل دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منه ، فهم الذين انزل الله فيهم : (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً**) إلى قوله : (**وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً**) فسرّ قريشا ما قالوا ، ونشطوا لما دعوهم اليه ، فأجمعوا لذلك واتعدوا له ، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله (ص) واخبروهم انهم سيكونون معهم عليه (ص) وان قريشا قد بايعوهم

على ذلك فأجابوهم فخرجت قـريش وقائـدهم ابو سـفيان بن حرب ، وخرجت غطفـان وقائـدها عيينة بن حصـين بن حذيفة بن بدر في فزارة ، والحرث بن عوف في بني مرة ، ومســعر بن جبلة الأشــجعي فيمن تابعه من أشــجع ، وكتبـوا إلى حلفـائهم من بـني أسد فأقبل طليحة في من اتبعه من بـني أسد ــ وهما حليفا أسد وغطفـان ــ وكتب قريش إلى رجال من بني سليم فأقبل ابو الأعور السلمي فيمن اتبعه من بني سليم مددا لقـريش ، فلما علم بـذلك رسول الله (ص) ضرب الخندق على المدينة وكـان الـذي أشار عليه سلمان الفارسي (ره) وكان أول مشهد شـهده سـلمان مع رسـول الله (ص) وهو يومئذ حـرّ ، قـال : يا رســول الله إنا كنا بفــارس إذا حوصــرنا خنــدقنا علينا ، فعمل فيه رسول الله (ص) والمسـلمون حـتى أحكمـوه ، وفي رواية اخـرى : خط رسـول الله (ص) الخنـدق عـام الأحزاب ، أربعين ذراعا بين عشرة ، فـاختلف المهـاجرون والأنصـار في سـلمان الفارسي ، وكـان رجلا قويّا ، فقـال الأنصـار : سـلمان منا ، وقـال المهـاجرون : سـلمان منا ، فقال رسول الله (ص) : «سلمان منا أهل الـبيت» ، قـال عمرو بن عوف : فكنت انا ، وسلمان ، وحذيفة بن اليمان ، والنعمان بن مقـرن ، وسـتة من الأنصـار ، نقطع أربعين ذراعا. فحفرنا حـتى إذا بلغنا الـثرى ، اخـرج الله من بطن الخندق صخرة بيضـاء مـدورة فكسـرت حديـدنا ، وشـقت علينا ، فقلنا : يا سلمان ارق إلى رسول الله (ص) فأخبره عن الصـخرة ، فإما ان نعـدل عنها فـإن المعـدل قـريب ، وإما ان يأمرنا فيه بــأمره فإنا لا نحب ان نجــاوز خطه ـــ وهذا مما يدل على الانضـباط ــ فـرقى سـلمان حـتى أتى رســـول الله (ص) وهو مضـــروب عليه قبة ، فقـــال : يا رسول الله! خـرجت صـخرة بيضـاء من الخنـدق مـدوّرة ، فكسرت حديدنا ، وشـقّت علينا ، حـتى ما يحك فيها قليل ولا كثير ، فمرنا فيها بـأمرك ، فهبط رسـول الله (ص) مع سلمان في الخندق ، وأخذ المعول [1] وضرب به

---

(1) المعول : الفأس العظيمة التي ينقر بها الصخر.

ضـربة فلمعت منها برقة أضـاءت ما بين لابتيها [2] ــ يعـني لابتي المدنية ـ حتى لكأن مصـباحا في جـوف ليل مظلم ، فكبّر رسول الله (ص) تكبيرة فتح ، فكبّر المسـلمون ، ثم ضــرب ضــربة اخــرى فلمعت برقة أخــرى ، ثم ضــرب به الثالثة فلمعت برقة أخــرى ، فقــال سـلمان : بــأبي أنت وأمي يا رســول الله ما هــذا الــذي أرى؟! فقــال : «أما الاولى فـإن الله عز وجل فتح علي بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغـرب ، وأما الثالثة فـإن الله فتح علي بها المشـرق» فاستبشر المسـلمون بـذلك وقالوا : الحمد لله موعد صادق. قال : وطلعت الأحـزاب ، فقال المؤمنون : «**هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُـولُهُ وَصَـدَقَ اللـهُ وَرَسُـولُهُ**» وقـال المنـافقون : ألا تعجبـون يحـدثكم ويعــدكم الباطل ، ويخــبركم انه يبصر في يــثرب قصــور الحيرة [3] ومدائن كسـرى ، وانها تفتح لكم وأنتم تحفـرون الخندق ، ولا تستطيعون ان تبرزوا؟!

وقــال جــابر بن عبد الله : كنا يــوم الخنــدق نحفر الخنــــــدق فعرضت فيه كدية [4] وهي الجبل ، فقلنا : يا رسول الله إن كدية عرضت فيه. فقال رسول الله (ص) : «رشّـوا عليها مـاء» ثم قـام فأتاها وبطنه معصـوب بحجر من الجـوع ، فأخذ المعـول أو المسـحاة فسـمّى ثلاثا ، ثم ضــرب فعـادت كثيبا أهيل فقلت له : ائـذن لي يا رســول الله الى المـنزل ، ففعل ، فقلت للمـرأة : هل عنـدك من شيء؟ فقال : عنـدي صـاع من شـعير وعنـاق [5] فطحنت الشــعير ، وعجنته وذبحت العنــاق وسـلختها ، وخليت بين المرأة وبين ذلك ، ثم أتيت الى رسول الله (ص) فجلست عنــده سـاعة ثم قلت ائــذن لي يا رســول الله ، ففعل ، فأتيت المرأة فإذا العجين واللحم قد أمكنا ، فرجعت الى

---

(2) اللابة : الحـرة وهي الأرض ذات الحجـارة السـود الـتي قد ألبسـتها لكثرتها ، والمدينة المنورة ما بين حرتين عظيمتين.

(3) قال الحموي : الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف.

(4) الكدية : قطعة غليظة صلبة لا يعمل فيها الفأس.

(5) العناق الأنثى من أولاد المعز قبل استكمال الحول.

رسـول الله (ص) فقلت : أن عنـدنا طعيما لنا ، فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك فقال : «وكم هـو؟» قلت : صاع من شعير ، وعناق ، فقال للمسـلمين جميعا : قوموا إلى جابر ، فقاموا فلقيت من الحيـاء ما لا يعلمه الا الله ، فقلت : جـاء بـالخلق على صـاع شـعير وعنـاق ، فدخلت على المرأة ، وقلت : قد افتضحت ، جاءك رسول الله (ص) بـالخلق أجمعين ، فقـالت : هل كـان سـألك كم طعامـك؟ قلت : نعم ، فقـالت : الله ورسـوله اعلم ، قد أخبرنـاه ما عنـدنا ، فكشـفت عنّي غمّا شـديدا ، فـدخل رسـول الله (ص) فقـال : «خـذي ودعيـني من اللحم» فجعل رسول الله (ص) يـثرد ويفـرّق اللحم ، ثم يحمّ هـذا ويحمّ هـذا ، فما زال يقـرّب الى النـاس حـتى شـبعوا أجمعين ، ويعـود التنـور والقـدر املأ ما كانا ، ثم قـال : رسول الله (ص) : «كلي واهـدي» فلم نـزل نأكل ونهـدي قومنا أجمع. أورده البخاري في الصـحيح ، وعن الـبراء بن عازب قال : كان رسول الله (ص) ينقل معنا الـتراب يـوم الأحزاب وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول :

«اللهم لو لا أنت ما اهتـدينا ، ولا تصـدقنا ولا صـلّينا ، فـانزلن سـكينة علينا ، وثبّت الأقـدام ان لاقينا ، انّ الاولى قد بغـوا علينا ، إذا أرادوا فتنة أبينا»

يرفع بها صـوته ، ولمّا فـرغ رسـول الله (ص) من الخندق أقبلت قريش حتى نـزلت بين الجـرف والغابة في عشـرة آلاف من أحابيشـهم ومن تـابعهم من بـني كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفـان ومن تـابعهم من أهل نجد حـتى نزلـوا الى جـانب أحد ، وخـرج رسـول الله (ص) والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سـلع في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب هناك عسكره والخنـدق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام ، وخرج عـدو الله حـيي بن اخطب النضـيري ، حـتى أتى كعب بن أسد القرظي ـ صاحب بني قريظة ـ وكان قد وادع رسول الله (ص) على قومه ،

وعاهــده على ذلك ، فلما ســمع كعب صــوت ابن اخطب أغلق دونه حصـــنه ، فاســـتأذن عليه فـــأبى ان يفتح له ، فناداه : يا كعب افتح لي ، فقال : ويحك يا حـيي انك رجل مشؤوم ، اني قد عاهـدت محمـدا (ص) ولست بنـاقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا. قـال : ويحك افتح لي اكلّمك! قال : ما انا بفاعل. قــال : ان أغلقت دوني إلا على حشيشة تكــــــره ان آكل منها معك ، فاحفظ الرجل ففتح لــه. فقــال : ويحك يا كعب جئتك بعــزّ الــدهر وببحر طام. جئتك بقريش على قادتها وســادتها ، وبغطفــان على سادتها وقادتها. قد عاهدوني أن لا يبرحوا حـتى يستأصـلوا محمدا ومن معه ، فقال كعب : جئتـني والله بـذلّ الـدهر. بجهـام قد هـراق مـاؤه يرعد ويـبرق ، وليس فيه شـيء ، فدعني ومحمـدا وما انا عليه ، فلم أر من محمد إلا صـدقا ووفـــاء ، فلم يـــزل حـــيي بكعب يفشل منه في الـــذروة والغارب ، حـتى سـمح له على ان أعطـاه عهـدا وميثاقا ، لئن رجعت قريش وغطفـان ولم يصـيبوا محمـدا أن ادخل معك في حصنك ، حـتى يصـيبني ما أصـابك ، فنقض كعب عهـده ، وبـرىء مما كـان عليه فيما بينه وبين رسـول الله (ص) فلما انتهى الخــبر إلى رســول الله (ص) بعث ســعد بن معـــاذ بن النعمـــان بن امــرء القيس ــ أحد بـــني عبد الأشـهل ــ وهو يومئذ سـيد الأوس ، وسـعد بن عبـادة أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج ـ وهو يومئذ سيد الخزرج ــ ومعهما عبد الله بن رواحة ، وخـوّات بن جبـير. فقـال : «**انطلقـــوا حـــتى تنظـــروا أحق ما بلغنا عن هـــؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقا فـالحنوا لنا لحنا نعرفه ، ولا تفتــوا أعضــاد النــاس ، وإن كــانوا على الوفــاء فاجهروا به للناس**» وخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث مما بلغهم عنهم ، قـــــالوا : لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد ، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه ، وقال ســعد بن معاذ : دع عنك مشاتمتهم ، فــإن ما بيننا وبينهم أعظم من المشـاتمة ، ثم أقبلـوا إلى رسـول الله (ص) وقـالوا : عضل والقارة لغدرة عضل ، والقارة بأصحاب رسـول الله خبيب بن عـدي وأصحابه أصحاب الرجيع ، فقـال رسـول الله (ص) : «الله أكـــبر أبشـــروا يا معشر المســـلمين» وعظم عند ذلك البلاء واشتدّ

الخوف ، وأتاهم عدوّهم من فـوقهم ، ومن أسـفل منهم ، حـتى ظنّ المؤمنـون كل ظنّ ، وظهر النفـاق من بعض المنـافقين ، فأقـام رسـول الله (ص) واقـام المشـركون عليه بضـعا وعشـرين ليلة لم يكن بينهم قتـال إلا الـرمي بالنبل ، إلا ان فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود ـ أخو بني عـامر بن لـوي ـ وعكرمة بن أبي جهل ، وضـرار بن الخطاب ، وهبـيرة بن أبي وهب ، ونوفل بن عبد الله ، قد تلبسـوا للقتـال ، وخرجـوا على خيـولهم. حـتى مـروا بمنازل بني كنانة ، فقـالوا : تهيـأوا للـرحب يا بـني كنانة ، فسـتعلمون اليـوم من الفرسـان ، ثم أقبلـوا تعنق بهم خيولهم ، حتى وقفوا على الخندق ، فقالوا : والله ان هذه لمكيدة ، ما كانت العرب تكيـدها ، ثم تيممـوا مكانا ضـيقا من الخندق ، فضربوا خيولهم فاقتحموا ، فجـالت بهم في السـبخة بين الخنـدق وسـلع ، وخـرج علي بن أبي طـالب (ع) في نفر من المسلمين ، حتى أخذ عليهم الثغرة الـتي منها اقتحموا ، وأقبلت الفرسان نحوهم ، وكـان عمـرو بن عبد ود فارس قريش ، وكان قد قاتل يوم بدر حـتى ارتثّ واثبته الجراح ، ولم يشـهد أحـدا ، فلما كـان يـوم الخنـدق خرج معلما ليرى مشهده ، وكـان يعد بـألف فـارس وكـان يسمى فارس يليل ، لأنه اقبل في ركب من قريش ، حتى إذا كانوا بيليل ـ وهو واد قريب من بـدر ـ عرضت لهم بنو بكر في عدد ، فقال لأصحابه : امضوا ، فمضوا ، فقام في وجوه بني بكر حتى منعهم من ان يصلوا اليه فعرف بذلك ، وكان اسم الموضع الذي حفر فيه الخنـدق المـذاد وكـان أول من طفره عمرو وأصحابه فقيل في ذلك :

عمـرو بن عبد كـان أوّل فـارس ... جزع المذاد وكـان فـارس يليل

وكـان ينـادي عمـرو : من يبـارز؟ فقـام علي (ع) وهو مقنع في الحديد ، فقـال : «أنا له يا نـبي اللـه» فقـال : «انه عمـرو اجلس» ونـادى عمرو : ألا رجـل؟! وهو يـؤنبهم ويقـول : اين جنتكم الـتي تزعمون ان من قتل منكم دخلها! فقـام علي (ع) فقـال : «**انا له يا رسول الله**». ثم نادى الثالثة فقال :

ولقد بححت من النّـــــــداء بجمعكم هل من مبـــــــارز
ووقفت إذ جبن المشـــجّع موقف البطل المنـــــــاجز
إنّ الّســـــماحة والّشـــجا عة في الفـتى خـير الغرائز

فقام علي فقـال : «يا رسـول الله انـا» فقـال : «انه عمرو» فقال : «وان كان عمرو» فاسـتأذن رسـول الله ، فأذن له رسول الله ، فألبسه رسول الله (ص) درعه ذات الفضــول ، وأعطـــاه ســيفه ذا الفقـــار ، وعمّمه عمامة السحاب على رأسه تسـعة أكـوار ، ثم قـال له : «تقـدّم» فقـــال لما ولّى : «اللهم احفظه من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ومن فـوق رأسه ، ومن تحت قدميه» فمشى علي (ع) اليه وهو يقول :

لا تعجلنّ فقد أتا ك مجيب صوتك غير عـاجز
ذو نيّة وبصــــــــــيرة والصّـدق منجي كـلّ فـائز
إنّي لأرجـــــــــوا ان أقي م عليك نائحة الجنـــــــائز
من ضـــــــربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

قـال له عمـرو : من أنت؟! قـال : «انا علي» قـال : ابن عبد منـاف؟ فقـال : «انا علي بن أبي طـالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد منـاف» فقـال : غـيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو اســنّ منك ، فـــإني اكـــره ان أهريق دمك؟! فقـال علي (ع) : «لكـني والله ما اكـره ان أهريق دمك» فغضب ونزل وسلّ سيفه ، كأنه شعلة نـار ، ثم اقبل نحو عليّ مغضبا ، فاستقبله علي بدرقته ، فضربه عمرو بالدرقة فقدّها ، واثبت فيها السيف ، وأصـاب رأسه فشجّه ، وضربه عليّ على حبل العاتق ، فسـقط وتسـيّف على رجليه من أسـفل ، فوقع على قفـاه ، وثـارت بينهما عجاجة فسمع عليّ يكبّر. فقـال رسـول الله (ص) : «قتله والذي نفسي بيده»

فكان أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطـاب ، فـإذا عليّ يمسح سيفه بدرع عمرو فكبّر عمر بن الخطـاب ، وقـال : يا رسول الله قتله ، فحـزّ عليّ رأسه ، واقبل نحو رسـول الله ووجهه يتهلل ، فقـال عمر بن الخطـاب : هلّا اسـتلبته درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منها؟! فقال : «ضـربته فاتقاني بسـوأته فاسـتحييت ابن عمي ان اسـتلبه» فقـال النبي (ص) : «أبشر يا علي ، فلو وزن اليـوم عملك بعمل امة محمد لـــــرجح عملك بعملهم ، وذلك انه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا وقد دخله وهن بقتل عمــرو ، ولم يبق بيت من بيـــوت المســـلمين إلا وقد دخله عـــزّ بقتل عمرو» [6]

(6) مجمع البيان / ج (7 ـ 8) / ص (340).

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كـانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللـهَ كَثِـيراً (21) وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُـونَ الْأَحْـزابَ قـالُوا هـذا ما وَعَـدَنَا اللـهُ وَرَسُولُهُ وَصَـدَقَ اللـهُ وَرَسُـولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاَّ إِيمانـاً وَتَسْـلِيماً (22) مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجـالٌ صَـدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23) لِيَجْـزِيَ اللـهُ الصَّـادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (24)

---

23 [قضى نحبـه] : النحب النـذر ، وقضى نحبه أي قتل واستشـهد في سبيل إنجاز عهده.

وما بدلوا تبديلا

هدى من الآيات :

بعد ان تعـرض الـدرس الماضي لصـفات المنـافقين يـبين القـرآن الحكيم في هـذه الآيـات صـفات المؤمـنين الصـادقين عند الصـعوبات والحـروب ، والصـور المتقابلة في القـرآن توضح بما فيه الكفاية الحقـائق وبالخصـوص في الحقل الاجتماعي.

فالمؤمنون ـ على خلاف ما كـان عليه المنـافقون من العصيان ـ يتبعون رسـول الله (ص) ويسـتجيبون لقيادته ، فهو أسوه حسنة لهم في حياتهم بما جسده في حياته من صـفات الخـير ، ولا ريب أن الاقتـداء برسـول الله (ص) ليس عملا بسيطا ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يصـبح تابعا للرسـول ، ومهتـديا بهـداه إلّا إذا تجـرد عن شـهواته وحبه للـدنيا ، وإنما يتجـرد عن حب الـدنيا ذلك الـذي يـذكر الله كثيرا بذكر نعمه وعظمته وأسمائه ، والشكر له دائما.

بينات من الآيات :

(21) يــدعي بعض المنــافقين أنهم قــادة ، وان من صفات القائد في تصورهم أن لا يدخل المعركة ولا يضحي بنفسه ، بل يجلس بعيدا عن الصراع ليصــدّر الأوامر فقط ، لكن القرآن يؤكد بأن القيادة الحقيقية تتمثل في رسـول الله (ص) وأن حياته يجب ان تكون نموذجا لنا نقتـدي به ، والســـبب انه كـــان الأمثل في كل حقل فهو الأشـــجع والمقـدام في الحــروب ، وصــورة مناقضة للمنــافق فهو يعمل أولا ثم يـــأمر النـــاس ، وكـــان الإمـــام علي (ع) المعروف بشجاعته واقدامه يقول عنه :

«كنا إذا أحمر البأس اتقينا برسول الله ــ صـلى الله عليه وآله وسـلم ــ فلم يكن أحد منا أقـرب الى العدو منه» [1]

وإذا قرر الحـرب كـان أول من يلبس لامتها ، فبعد ان وضـعت حـرب الخنـدق أوزارها ، وعـادت قـريش أدراجها منهزمة ، عاد الرسول الى بيته ـ وكان الوقت بعد الظهر ـ فوضع الحرب واستحم لصلاة العصر ، وقبل الــدخول فيها نــزل عليه جبرئيل (ع) وقـال له : يا محمـد! وضـعت لامة الحرب ونحن (اي الملائكة) لم نضعها؟! فعـرف النـبي انه يجب ان يبـادر لحــرب بـني قريظة الـذين سـاعدوا كفـار قــريش في حــرب الخنــدق ، ونقضــوا بــذلك عهـدهم مع الرســـول (ص) فســـرعان ما لبس لامة حربه وقـــال للمسلمين : لا نصـلي العصر الا في بـني قريظة ، فمشى المسلمون الى هناك ، وحاصروا قلاعهم خمسة وعشـرين يوما ، الى ان استسـلموا وعـاد المسـلمون الى المدينة ، وهكذا كان الرسـول هو السـبّاق الى الخـيرات ، كما كـان القمة السامقة في كل فضـيلة ومكرمة ، فهو الـذي يحب التأسي والاقتداء به لا المنافقين.

(**لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**)

---

(1) نهج البلاغة / خ (9) / ص (520).

ولكن هل يتمكن من الاقتداء بالرسول كل أحد. كلا .. بل الذي ارتفع بإرادته وروحه وسلوكه عن حطـام الـدنيا ، وتطلع الى الآخرة.

(**لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**)

اما الـذي يكـون هدفه شـهواته أو زينة الـدنيا ، فانه لا يستطيع الاقتداء بالرسول (ص) الذي أخلص نفسه ووجهه لله ، وزهد في درجـــات هـــذه الـــدنيا الدنية ، وزخرفها وزبرجها.

اما الصــفة الاخــرى لمن يتبع الرســول فهي : تــذكر غايته الأساســية وهي رضــوان الله ، والاســتقامة عليها ، وحين يعــرف الإنســان وجهته يعــرف ـ بوضــوح ـ ســائر أهدافه ، وتتوضح له استراتيجياته ومعالم ســلوكه ، إذ يجد المعيـار السـليم لمعرفة كل ذلـك. وهكـذا يعطي ذكر الله ضمانة للإنسـان حـتى لا ينحـرف عن أهدافه الـتي تجمعها كلمة واحدة هي رضوان الله.

(**وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً**)

(22) وبعد ذلك يثـــنى الســـياق على أهم صـــفات المؤمنين ، والتي تناقض صفات المنافقين وأهمها :

أولا : انهم لا تكسـرهم الأزمـات ، ولا ينهزمـون أمـام الصـعوبات مهما كـانت ، فهم يعرفـون بـأن ذلك كله من طبيعة طـــريقهم (ذي الشـــوكة) فكلما رأوا المصـــاعب تـتزاحم في طـريقهم كلما ازدادوا يقينا بصـحة طـريقهم ، وتسليما لربّهم وقيادتهم.

ولعل المــؤمن يبحث عن ســاعة حرجة يجــرب فيها نفسه (ايمانه وإرادتــــه) وبالتــــالي يظهر فيها كفاءاته الرسالية الحقيقية لوجه الله.

(**وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ**)

لم ينهزمـــوا كما فعل المنـــافقون ، بل ازدادوا يقينا بخطّهم.

(**قالُوا هذا ما وَعَـدَنَا اللـهُ وَرَسُـولُهُ وَصَـدَقَ اللـهُ وَرَسُولُهُ**)

ومن هـذا نسـتفيد ان التربية الرسـالية السـليمة هي الـتي تصـارح الإنسـان بطبيعة المسـيرة ، وانها محفوفة بالمخـاطر على صـعيد الـدنيا ، مما يسـاعد الفـرد على الاسـتقامة حين الأزمـات والمصـاعب ، لأنها حينـذاك لن تكون مفاجئة له ، بل سيعتبرها أمرا طبيعيا وقد استعد لها فهي مما تزيـده تثبّتا على طريقه ، لهـذا كـان المؤمنـون يزدادون إصرارا على مواصلة الدرب برغم الواقع الصعب حيث كان العـدو قد جمع لهم ، وجـاء لحـربهم بكل قوته ، وبرغم الحرب النفسية التي كان يشنها المنافقون ضدهم.

وحين يـــرى المؤمنـــون الصـــعوبات والأزمـــات وقد وعدهم الله ورسـوله بها يـتيقنون بـالفرج لأنهم وعـدوا به أيضا ، وتحقق الوعد الأول يدل على تحقق الآخر.

(**قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ**)

ردا على المنافقين ، وإخمادا لأهواء النفس.

ألم يعـــدهم الـــرب ســبحانه بالمواجهة الــتي تنتهي بالنصر المــؤزر ، ان أعظم عامل للصـمود في الظـروف الصعبة التنبأ بها ، والاستعداد النفسي مســبّقا لمواجهتها ، وها هم المؤمنـون في هـذا المسـتوى ، وكما النـار تفتتن الــذهب ، وكما المــبرد يلمع زبر الحديد ، كــذلك مواجهة المشاكل تستخرج معدن المؤمن الصـافي ، وتجلي نفسه من أدرانها ، هكــذا زادت الحــرب مع الأحــزاب ايمــانهم وتسليمهم.

(**وَما زادَهُمْ**)

تجمع الأحزاب ، وتخذيل المنافقين وتوهينهم.

(**إِلَّا إِيماناً**)

بالله ، ورسالاته ، والصراط المستقيم الذي هم عليه.

(**وَتَسْلِيماً**)

لربهم وقيادتهم ، وحينما ندرس حياة الشعوب نجــدها نوعين : فبعضها حينما يتعرض للضغوط والتحديات ينهار ، والبعض الآخر ــ على العكس تماما ــ يـزداد قــوة وثباتا ، وتحديا ، ويعود هذا الاختلاف لنوعية الثقافة التي يؤمن بها ويمارسـها كلا النـوعين. فبينما يمـارس النـوع الاول ثقافة الانهزام ، يمارس النوع الثاني ثقافة التحدي ، والمؤمنــون الحقيقيون هم الذين يتمسكون بثقافة التحـدي ، فـاذا بهم كلما تـراكمت العقبـات والمشـاكل أمـامهم كلما فجّـروا طاقـاتهم ، وسـدوا ثغـراتهم ، واسـتعدوا لمواجهتها ، كما انهم عند المصاعب يكتشفون أنفسـهم ، والطاقـات الـتي أودعها الله فيهم ، ويســـــتثمرون كل ذلك في ســــبيل الانتصار على الأزمات والتحديات.

(23) ثانيا : انهم لا يفكرون في أنفسهم كأفراد ، انما كقيم وتجمع وأمة ، فلا يفكر أحـــدهم في ذاته ، وانه ربما يقتل في المعركة ، انما يقــول : إذا قتلت فســوف يــأتي الآخرون ويتابعون مسيرتي (فالمهم عنـده ان تنتصر القيم ، لا ان ينتصر هو نفسه) وإذا بقيت فسـوف أرث الشـهداء الــذين أريقت دمــاهم في هــذا الطريق ، وأتــابع دربهم ، وأفي بحقوقهم ، فأنا مسئول أمام الله عما أرثه من دماء الشهداء. فشعور المؤمن اذن شعور اجتماعي لا فردي.

(**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ**

(قَضى نَحْبَهُ)

وصار شهيدا في سبيل الله.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ)

لقاء الله ويستعد له ، فالمؤمنون متماسكون كالبنيان المرصـــوص ، بعضـــهم يمضي ويبقى البعض الآخر ليكمل مســـيرته ، دون ان يفكر أحـــدهم في نفسه وشـــهواته ، ويقول لمـاذا انا الـذي اقتل وليس فلان؟ ولمـاذا انا الـذي اقتل ويبقى فلان يتنعم بالنصر والمكاســـــــــــب؟ كلا .. فالقضية قضية صـراع مسـتمر كل واحد يـؤدي دورا معينا فيه ، والمجموع الكلي هو المهم عندهم جميعا ، وهذا نابع من اعتقـاد المؤمـنين بـأنهم بـاعوا أنفسـهم لله ، فهم لا يملكونها ، ولا يحق لهم ان يفكـــروا في مصـــالحها ، انما يتصرف فيها ربهم وقائدهم حسبما تقتضـيه القيم الالهية ، فهم مسلّمون الأمر لله ولقيادتهم ، وهذا الايمان هو الـذي يبعث فيهم الاستقامة والصمود في الطريق.

(وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(24) وبعد هذا العرض الصريح والمختصر لجـانب من صـفات المنـافقين وبعـدهم المؤمـنين ، يشـير السـياق القرآني اشارة الى جزاء كل من المؤمنين والمنـافقين إذ يقول :

(لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ)

ولكن ليس بانتمـــائهم الاجتمـــاعي الظـــاهر لحـــزب المؤمـــنين ، بل بعملهم الـــذي يتجـــانس مع تســـميتهم وانتمائهم الحقيقي.

(بِصِدْقِهِمْ)

وتعالى الله ان تختلط عليه الأوراق ، بلى. نحن البشر قد تغرنا المظاهر ، فنسمي أنفسنا أو الآخرين بالصـادقين ، لمجرد حضورهم في تجمع مؤمن ، ولكنّ الله وهو عـالم الغيب ورب العالمين لا يعزب عنه مثل ذلك.

(**وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ**)

بنفاقهم في كلامهم وعملهم.

(**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**)

إذا صــححوا مســيرتهم ، وعــادوا عن النفــاق الى الايمان.

(**إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً**)

فهو يقبل التوبة الصــــادقة ، لأنه لم يخلق النــــاس ليعذبهم ، بل ليرحمهم كما في الآيات والأحاديث.

وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُـؤْمِنِينَ الْقِتـالَ وَكـانَ اللـهُ قَوِيًّا عَزِيـزاً (25) وَأَنْـــزَلَ الَّذِينَ ظـــاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْـــلِ الْكِتَـــابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُـونَ وَتَأْسِـرُونَ فَرِيقـاً (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَـهُمْ وَدِيـارَهُمْ وَأَمْـوالَهُمْ وَأَرْضـاً لَمْ تَطَؤُها وَكـانَ اللـهُ عَلى كُـلِّ شَــيْءٍ قَـدِيراً (27) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُـلْ لِأَزْواجِـكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُـرِدْنَ الْحَيـاةَ الـدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعـالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَـراحاً جَمِيلاً (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُـرِدْنَ اللـهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ

---

26 [ظاهروهم] : المظاهرة المعاونة.
[صياصيهم] : حصونهم.
28 [أمتعكن] : أعطيكن متعة الطلاق.
[أسرحكن] : السراح الطلاق من غير خصومة.

الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (29) يا نِسـاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَـأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَـةٍ مُبَيِّنَـةٍ يُضـاعَفْ لَهَا الْعَـذابُ ضِـعْفَيْنِ وَكـانَ ذلِـكَ عَلَى اللـهِ يَسِـيراً (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُـولِهِ وَتَعْمَـلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيمـاً (31) يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَـعْنَ بِـالْقَوْلِ فَيَطْمَـعَ الَّذِي فِي قَلْبِـهِ مَـرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32)

---

31 [يقنت] : القنوت الطاعة وقيل معناه المواظبة.
32 [فلا تخضـعن] : فلا تـرفعنّ القـول ، ولا تلّن الكلام للرجـال ، ولا تخاطبن الأجانب مخاطبة تؤدي الى طمعهم فيكنّ.

موقف القيادة الرسالية

من الأحداث والأشخاص

هدى من الآيات :

نجد في هذا الدرس فكرتين هامتين هما :

الأولى : تتمة لما مر في الدروس السابقة حول قصة الأحـزاب ، وكيف أن ربنا نصر المؤمـنين ، ورد الكـافرين يجرون أذيـال الهزيمة والفشل إلى بلادهم مكـرهين ، وقد خسروا بطلهم عمرو بن ود.

الثانية : حديث حول نساء النبي (ص).

وهنا يطـــرح الســـؤال التـــالي : ما هي العلاقة بين الفكــرتين في الســياق القــرآني؟ أي ما هي العلاقة بين انتصـار المسـلمين بـإذن الله في الحـرب ، وبين الوصـايا والتعاليم الإلهية لنساء النبي في هذه السورة؟

والجواب : يبدو أن محور سورة الأحـزاب هو القيـادة الرسالية في علاقاتها مع

الأشخاص والاحداث التي تـدور حولها ، والآيـات تؤكد بأنها مستقيمة على رسالة ربها ، لا تلويها الأحداث المتطورة ــ بما تحمله من ضغوط واغـراءات ــ ولا يـؤثر في مسـيرتها الأشــخاص الــذين يحوطونها لأنها تتبع هــدى الله فتحــدد موقفها من الأحداث ، وتستجيب لما يتفق مع هـذا الهـدى إذا اقترحه الآخرون ، وترفض ما سواه مهما كـان صـاحب هذا الرأي قريبا أو معتمدا عندها ، ومهما كانت الظروف.

ومن أبــرز وأهم الحــوادث في حيــاة القيــادات هي الحـرب ، والقيـادة الرسـالية الـتي تجسـدت يومها ــ في حرب الأحـزاب ــ في أفضل وأكمل صـورها في الرسـول الأعظم محمد (ص) كالجبل الأشم ، لا تزلزلها العواصف ، بل تتحـدى متغـيرات الزمـان والحـرب وفـرار المنـافقين وتعويقهم ، وبالذات هزيمتهم في حرب الأحزاب التي هي أقسى وأشد الحــروب خطــورة على رســول الله وعلى الأمة الاسلامية آنذاك ، من الناحية العسـكرية ، فالرسـالة في أول انطلاقتها ، والقيــادة كما الأمة في بداية نشــأتها وتكونها ، وقد جمع الكفار فلو لهم من كل حدب وصوب.

صــحيح ان غــزوة أحد كـانت أعمق أثــرا من الناحية النفسية على رسول الله (ص) حيث ترك عمه حمزة سيد الشهداء مجندلا ، تلوك كبده هند ، كما أن ثلة من أصحابه الخلّص لقوا مصرعهم فيها ، إلا أن حـرب الأحـزاب كـانت الأشد والأقوى عسـكريا ، وكـان نصر الله للمسـلمين في هذه الحرب دليلا واضحا على نصرة الله لعبـاده المؤمـنين ، كما أن استقامة القيادة الرسالية المتجسدة في شـخص الرســول (ص) يومــذاك واســتقامة من يحيطــون به من صـحبه الخلص ، دليل على النمـوذج الأرقى للقيـادة الـتي يجب ان تقاوم الحـوادث المتغـيرة ، والظـروف الصـعبة ، وعموم ضغوط الحياة ، فعظمة القيادة ومسئوليتها تتجلى في اسـتقامتها ومقاومتها للنكسـات والظـروف السـلبية التي تعصف بالامة وبالتجمع الذي تقوده.

ثم ان أقرب النـاس إلى الإنسـان وأمضـاهم أثـرا في شخصـيته وقراراته ــ إذا كـان مائعا ضـعيف الارادة ــ هي زوجه ، ذلك أن زوجه حينئذ هي الــتي تصــنع شخصــيته ، وبالذات إذا تعلق بها قلبه ، وبالزواج ترسم خريطة الحيـاة المسـتقبلية للـزوجين ، فالزوجة من الناحية النفسـية في غالب الأحيان صورة أخرى للـزوج بعد فـترة من الـزواج ، كما أن الزوج في أكثر الأحيان نسخة أخرى لزوجته ولهـذا قيل : وراء كل عظيم امــرأة ، فالصــورة الاخــرى الغــير مرسومة ظاهرا لاكثر الرجال ، والسطر الغير مقـروء في حياتهم هي زوجاتهم.

ولكن رسول الله (ص) كما القيـادة الرسـالية لا يتـأثر أبـدا بزوجاته ، بل يضـحي بهن في لحظة واحـدة لو أمـره الله بـذلك ، أو تعـارض بقـاؤه معهن مع أهـداف رسـالته ، والآية (27) ربما جاءت حينما كـان الرسـول (ص) متزوجا بتسع زوجــات ، فــأمره حينئذ بتخيــيرهن بين البقــاء معه وتحمل الأذى والهجـــرة والفقر ، أو الطلاق بـــالمعروف والإحسان ، وبالفعل خيّرهن (ص) لان بعضهن كانت تقول : لو يطلقنا رســـول الله لوجـــدنا من يتزوجنا من أهلنا ، ويخرجنا من هذا العيش المشين ، فقبلت إحداهن الطلاق ، فطلقها الرســـول ، ولكنها أصـــبحت ذليلة في قومها ، فقيرة إلى أن مـاتت ، مريضة على أسـوء حـال ، دون ان يتزوجها أحد.

وكان هذا التصرف من الرسول (ص) معقولا ، فـالتي تختار الرسول زوجا لها ــ وهو الـذي جـاء مغـيرا للعـالم ، وصانعا لأمة حسب وحي الله ، ومؤسسا لتأريخ حضارتها ـ لا بد أن تتحمل الصـــــعوبات وتســـــتوعب طموحاته وممارساته ، وتكيف حياتها بما يتناسب مع كل ذلك.

اذن تتلخص العلاقة بين الفكرتين في محورية رسـول الله كقائد رسـالي للأمة ، لا يتـأثر بالأحـداث والظـروف الصعبة كالحروب مثل حرب الأحزاب وهي أشدها ، ولا

بالاشخاص كالمنافقين أو زوجاته ، وهنا نذكر بقوله تعـالى : (**لَقَـدْ كـانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللـهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ**) فالرسـول هو القيـادة الـتي يجب علينا الاقتـداء بها إذا كنا في موقع القيـادة ، أو البحث عمن يكـون امتـدادا لها ثم التسليم له.

بينات من الآيات :

(25) اجتمع الأحزاب وجاؤوا بخيرة فرسـانهم ، وكـان ذلك لهدفين :

1 ـ التشفي من الإسلام والرسـول والمسـلمين ، من الإسـلام باعتبـاره ينـاقض أفكـارهم ومعتقـداتهم ، ومن الرسول لأنه زعيم الإسلام ، والقيادة المضـادة لهم ، ومن المسلمين لخروج أكـثرهم عن طـاعتهم ، ولما لحقـوا بهم من هزائم في غزوات سابقة كغزوة بدر.

2 ـ الانتصـار وجمع الغنـائم من المسـلمين ، سـواء كـانت الغنـائم أمـوالا أو أناسا يسـترقونهم ، وعموما فـإن المشـركين كـانوا يشـعرون بـأن المدينة ــ بعد هجـرة الرسول إليها ـ خرجت من تحت سيطرتهم ، فلعلهم كانوا يرجون التمكّن منها وإعادتها من جديد لنفوذهم.

ولكن الله أنعم على المســـلمين حينما أفشل خطط العـدو ، فلم يصل الى اهدافه من جهة ، ومن جهة أخـرى حينما نصر المؤمنين دون قتال أو خسائر وتضحيات.

(**وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**)

دون ان يحققوا أهدافهم منهزمين.

(**بِغَيْظِهِمْ**)

وحقدهم الذي لم يشفوه ، ومن دون غنائم.

(**لَمْ يَنـالُوا خَيْـراً وَكَفَى اللـهُ الْمُـؤْمِنِينَ الْقِتـالَ وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً**)

قويا إذ رد الكفـار منهـزمين مع كـثرتهم ، وعزيـزا إذ نصر المؤمـنين ، فلو لم ينصـرهم في حـرب الأحـزاب لصاروا أذلة امام الكفار ، ولزالت هيبتهم.

(26) ومن فوائد حـرب الأحـزاب أنها كشـفت أعـداء الرسـالة الحقيقـتين ، وجـرّت المسـلمين الى حـرب كـان الانتصار حليفا لهم فيها مع بني قريضة.

(**وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ**)

أي أعانوا الكفار على المسلمين.

(**مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ**)

وهم يهود بني قريضة.

(**مِنْ صَياصِيهِمْ**)

حصونهم وقلاعهم.

(**وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**)

وكان الرعب من الآيات الـتي نصر بها الرسـول (ص) في حروبه ضد الأعـــــداء ، ولا ريب ان الهزيمة المعنوية والنفسية تنتهي الى الهزيمة العسكرية ، فالرسـول يصـبح الحـــاكم المطلق للجزيـــرة ، يهابه الجميع ، ويخـــافون سطوته لأنه يعبئ جيشا لمحاربة

الروم ـ الدولة العظمى في ذلك العصر ـ وفي غـزوة أحد حينما ينهزم المسلمون عسكريا ، ينزل الوحي على النبي (ص) بـان يجمع المجـروحين من جيشه ، ويلاحق العـدو ، فـــاذا بهم يحســـبونه جمع جيشه من جديد لحـــربهم ، فينهزمون بعد الانتصار بسبب الرعب.

وهكـذا كـان مصـير بـني قريظة الـذين زعمـوا بـأن الرسول ضعيف لأنه لم يحـارب قـريش وأحزابها ، ولكنهم ســرعان ما وجــدوا المســلمين يحاصــرون حصــونهم ، فانهزموا وكانت هزيمتهم بعامل الرعب لا بالسلاح.

(**فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً**)

وذلك في قصة مفصـلة سـنتعرض لـذكرها في عقب الآية القادمة.

(27) (**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ**)

أرض اليهود.

(**وَدِيارَهُمْ**)

الحصون والبيوت.

(**وَأَمْوالَهُمْ**)

اشارة الى الممتلكات المادية التي غنمها المســلمون منهم.

(**وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها**)

بالرجـال والخيل ـ تعبـيرا عن الحـرب ـ انما أخـذها المسلمون بالحصار.

(**وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً**)

وهذا مما يعـزز ثقة المؤمـنين بـربهم ، وهو شـعورهم بأنه صاحب الإرادة المطلقة ، ولا ريب ان الذي يحس بأنه مــدعوم من قــوة لا متناهية ســوف يــزداد تســليما لها ، واطمئنانا لوعدها ، واستقامة على هداها.

غزوة بني قريظة :

روى الزهـري عن عبد الـرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه ، قــال : لما انصــرف النــبي (ص) مع المســـلمين عن الخنـــدق ، ووضع عنه اللاّمة ، واغتسل ، واســتحم ، تبــدّى له جبرائيل (ع) فقــال : «عــذيرك من محارب ، ألا أراك قد وضعت عنـدك اللاّمة ، وما وضـعناها بعد!» فوثب رسـول الله (ص) فزعا ، فعـزم على النـاس ان لا يصلّوا صلاة العصر حتى يأتوا قريظة ، فلبس النـاس السـلاح ، فلم يـأتوا بـني قريظة حـتى غـربت الشـمس ، واختصم الناس ، فقال بعضهم : ان رسول الله (ص) عزم علينا ان لا نصلي حتى نأتي قريظة ، فانما نحن في عزمة رسـول الله ، فليس علينا إثم ، وصـلى طائفة من النـاس احتسابا ، وتركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس ، فصــلوها حين جــاءوا بــني قريظة احتســابا ، فلم يعنف رسول الله (ص) واحدا من الفريقين ، وبعث علي بن أبي طــالب (ع) على المقــدم ، ودفع اليه اللــواء ، وأمــره ان ينطلق حــتى يقف بهم على حصن بــني قريظة ، ففعل ، وخرج رسول الله (ص) على آثاره ، فمر على مجلس من الأنصار في بني غنم ينتظـرون رسـول الله (ص) فزعمـوا انه قال : مر بكم الفارس آنفا ، فقالوا مر بنا دحية الكلبي على بغلة شـهباء تحته قطيفة ديبـاج ، فقـال رسـول الله (ص) : «ليس ذلك بدحية ولكنه جبرائيل (ع) أرسل الى بني قريظة ليزلزلهم ويقـذف في قلـوبهم الـرعب» قـالوا وسار علي (ع) حتى إذا دنا من الحصن ســمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله (ص)

فرجع حـتى لقي رسـول الله (ص) بـالطريق ، فقـال : يا رسول الله لا عليك ان لا تدنو من هؤلاء الأخـابث ، قـال : «أظنك سمعت لي منهم أذى» فقال : نعم يا رســول الله فقـال : «لو قد رأوني لم يقولـوا من ذلك شـيئا» فلما دنا رسول الله (ص) من حصـونهم ، قـال : «يا اخـوة القـردة والخنازير ، هل أخزاكم الله وانزل بكم نقمته؟!» فقـالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولا ، وحاصرهم رسـول الله (ص) خمسا وعشرين ليلة حتى أجهـدهم الحصـار ، وقـذف الله في قلوبهم الرعب ، وكـان حـيي بن أخطب دخل مع بـني قريظة في حصـنهم حين رجعت قـريش وغطفـان ، فلما أيقنــوا ان رســول الله (ص) غــير منصــرف عنهم حــتى ينـاجزهم ، قـال كعب بن أسد : يا معشر يهـود! قد نـزل بكم من الأمر ما تـــرون واني عـــارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم ، قالوا : ما هن؟ قال : نبـايع هـذا الرجل ونصـــدقه ، فو الله لقد تــبين لكم انه نــبي مرسل ، وانه الذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنوا على دمـائكم وأمـوالكم ونســائكم ، فقــالوا : لا نفــارق حكم التــوراة أبــدا ، ولا نسـتبدل به غـيره ، قـال : فـاذا أبيتم عليّ هـذا فهلمـوا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج الى محمد رجالا مصلتين بالسـيوف ، ولم نـترك وراءنا ثقلا يهمّنا ، حـتى يحكم الله بيننا وبين محمد فــان نهلك نهلك ، ولم نــترك وراءنا نسلا يهمّنا ، وان نظهر لنجـدن النسـاء والأبنـاء ، فقـالوا : نقتل هـؤلاء المسـاكين ، فما خـير في العيش بعـدهم؟! قـال : فـاذا أبيتم علي هـذه فـان الليلة ليلة السـبت ، وعسى ان يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فـانزلوا فعلنا نصـيب منهم غرة ، فقالوا : نفسد سبتنا ، ونحـدث فيها ما أحـدث من كان قبلنا ، فأصابهم ما قد علمت من المسخ ، فقال : ما بـات رجل منكم منذ ولدته امه ليلة واحـدة من الـدهر حازما ، قال الزهري : وقال رسول الله (ص) حين سألوه ان يحكّم فيهم رجلا : «اختـاروا من شـئتم من أصـحابي» فاختـاروا سـعد بن معـاذ فرضي بـذلك رسـول الله (ص) فنزلوا على حكم سعد بن معـاذ ، فـامر رسـول الله (ص) بســلاحهم فجعل في قبته ، وأمر بهم فكتفــوا وأوثقــوا ، وجعلوا في دار

اســامة ، وبعث رســول الله (ص) الى ســعد بن معــاذ ، فجيء به ، فحكم فيهم بــأن يقتل مقــاتليهم ، وتســبى ذراريهم ونســاؤهم ، وتغنم أمــوالهم ، وان عقــارهم للمهـاجرين دون الأنصـار ، وقـال للأنصـار أنكم ذو وعقـار وليس للمهاجرين عقار ، فكبر رسـول الله وقـال لسـعد : «**لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل**» فقتل رسـول الله (ص) مقـاتليهم وكـانوا فيما زعمـوا سـتمائة مقاتل ، وقيل قتل منهم اربعمائة وخمسين رجلا ، وسبى سـبعمائة وخمسـين ، وروي : انهم قـالوا لكعب بن أسد وهو يـذهب بهم الى رسول الله (ص) : إرسـالا يا كعب ما تـرى يصـنع بنا؟! فقال : كعب أفي كل موطن تقولـون؟! الا تـرون أن الــداعي لا يــنزع ، ومن يــذهب منكم لا يرجــع؟ هو والله القتل ، وأتى بحــيي بن اخطب ــ عــدو الله ــ عليه حلة فاختيّة ، قد شقها عليه من كل ناحية كموضع الانملة ، لئلا يســلبها ، مجموعة يــداه الى عنقه بحبل ، فلما بصر برسـول الله (ص) فقــال : أما والله ما لمت نفسي على عــداوتك ، ولكنه من يخــذل الله يخــذل ، ثم قــال : ايها الناس! انه لا بأس بـأمر الله ، كتـاب الله ، وقـدره ملحمة كتبت على بــني إســرائيل ، ثم جلس فضــرب عنقه ، ثم قسم رسول الله (ص) نسـاءهم وأبنـاءهم وأمـوالهم على المسلمين ، وبعث بسـبايا منهم الى نجد مع سـعد بن زيد الانصاري فابتاع بهم خيلا وسلاحا ، فلما انقضى شأن بــني قريظة ، انفجر جرح سـعد بن معـاذ ، فرجعه رسـول الله (ص) الى خيمته الــتي ضــربت عليه في المســجد ، وعن جابر بن عبد الله قـال : جـاء جبرئيل (ع) الى رسـول الله (ص) فقال : «من هذا العبد الصـالح الـذي مـات؟! فتحت له أبواب السماء ، وتحرك له العرش» فخرج رسـول الله (ص) فاذا سعد بن معاذ قد قبض. [1]

تعليق :

لقد قتل بسـبب حكم سـعد بن معـاذ ما بين (450 و 600) مقاتل من بني

---

(1) مجمع البيان / ج (8) / ص (351).

قريظة ، مع ان الإسلام حسّاس في موضوع القتل ، فهو يعتبر من يقتل نفسا واحدة كأنما يقتل الناس جميعا (**كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**) [2] مما يجعل هذا الحكم في ظاهره حكما جائرا في حقهم ، أما حينما نعود الى الواقع فاننا نكتشف صواب هذا الحكم حتى بالقياس الى عادات المجتمع آنذاك ، فالخيانة التي ارتكبها بنو قريظة بنقضهم العهد مع النبي (ص)، في ساعة الشدة ، عند ما أعانوا الكفار والمشركين عليه وعلى الامة تستحق ذلك في حكم الشرع ، وفي منطق المجتمع الذي يرفض الخيانة بشتى صورها ، وفي كل الظروف.

فمع ان الحروب والغارات كانت سمة للعرب إلا أن الوفاء بالعهد ، والالتزام بالمعاهدات ، بل والدفاع عن الحلفاء أمر مقدس عندهم ، ولان بني قريظة لم يدافعوا عن رسول الله ، بل وحاربوه مع سائر الأحزاب فإنهم استحقوا ذلك ، وهذا أمر طبيعي تحكم به حتى التوراة.

ثم ان سعد بن معاذ الذي جرح بسهم في جبهته ، في معركة الأحزاب واستشهد بعد حادثة بني قريظة كان صورة للإنسان الذي تأسّى برسول الله (ص)، فهو ممن استجاب لقوله تعالى : (**لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) الآية ، وهو أيضا من المعنيين بقوله تعالى : (**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ**) الآية.

(28) ومن هذه الآية ينتهي السياق الى الفكرة الثانية التي تدور حول علاقة النبي (ص) بأزواجه.

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها**)

فانَّ هذا لا يتفق مع اهداف النبي في الدنيا ، ولا تطلعاته في الحياة ولعلنا

---

(2) المائدة / (32).

نســتلهم من هــذه الآية أن المــؤمن المجاهد الــذي يريد التأسي برســول الله في كل شــؤونه ، ويســعى لتطــبيق قوله سبحانه : (**لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كـانَ يَرْجُـوا اللـهَ وَالْيَـوْمَ الْآخِـرَ**) إن عليه هو الآخر ان يتحرر من ضغط زوجته ولا يخضع لها إذا تحولت الى عقبة في طريق الجهــاد وحــتى لو بلغ الأمر به الى تهديــدها بالطلاق يفعل ذلك ابتغاء مرضاة ربه.

(**فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَ**)

من المستحب للمؤمن حينما يفارق زوجته أو صـديقه ان تكـون خاتمة المطـاف طيبة حسـنة ، فيعطي للطـرف الآخر هدية أو ما أشبه ، وقد يسـتفاد من المتـاع هنا نصف المهر إذا لم يدخل بالزوجة ، وكله إذا دخل بها.

(**وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً**)

اي طلاقا حسنا ، بتفـاهم من دون شـجار ، لأن هنـاك من الأزواج من يفترقون بعد العراك والشتم.

(29) اما الخيــار الآخر فهو بقــاء العلاقة مع النــبي بشرط ان تكون أهداف هذه العلاقة هي :

1 ـ مرضــاة الله وإن كــانت مخالفة لما تميل له النفس.

(**وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ**)

2 ـ التسليم للرسول.

(**وَرَسُولَهُ**)

والذي يريد الرسول هو الـذي يسـلم لقيادته ، وينتمي لتجمعه ، ويحبه بقلبه انتماء سياسـيا واجتماعيا وقلبيا ، ولا يتحقق هـذا الانتمـاء الشـامل من دون التسـليم الى من يمثل الرسول في المجتمع بقيادته وسلوكه.

3 ـ حب الآخرة.

(**وَالدَّارَ الْآخِرَةَ**)

من طبيعة الإنسان انه يعيش ضـغثا من الـدنيا وضـغثا من الآخـرة ، وعلى هـذا الأسـاس يجب ان تكـون الاولوية في حياة الإنسان للـدار الآخـرة (**وَابْتَـغِ فِيما آتـاكَ اللـهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا**) [3]

وعموما فان من يريد الله والرسول واليــوم الآخر هو الــذي يعمل من أجل ذلك ، وهــذه الحقيقة تؤكــدها الآية الكريمة : (**وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَـعى لَها سَـعْيَها وَهُـوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً**) [4] وفي هذه الآية يؤكده قوله تعالى :

(**فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً**)

اذن فالانتساب للرسـول بمجـرد لقلقة اللسـان وقبله الايمان بالله واليوم الآخر وحـده من دون السـعي والعمل بما يتفق مع ذلك لا يكفي ، انما العمل هو الــذي يقــرب الإنســـان أو يبعـــده من ربه ، والله يقـــول : (**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِـــإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُـــوهُ**) [5] واولى النـــاس بالرســول ، الــذي يتأســون به ، وليس قرابته بالنسب أو الســـبب ، وما نجـــده في الروايـــات من تعظيم لمنزلة فاطمة الزهراء (ع) ليس لقرابتها من الرسول انما

---

(3) القصص / (77)

(4) الإسراء / (19).

(5) آل عمران / (68).

لاقتدائها به ، وكونها نسـخة اخـرى من حياته (ص). ولـذلك أصبحت سيدة نساء العالمين.

(30) ثم يتوجه النداء من الله مباشرة لنساء النبي :

(**يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**)

واضــحة ، مورست بــإرادة تامة ، ومن دون أســباب قاهرة ، ولم تعقبها توبة.

(**يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ**)

وذلك لأنها سوف تصبح قدوة سيئة للأخريــات ، ولأنها ترتبط بالرسول فقد يمس انحرافها بسـمعته في المجتمع ، كما يفترض في من يعيش بين يـدي الرسـول ان يكـون مطيعا لا عاصيا أو منحرفا ، فقد يرتكب الإنسان المعصـية وهو يعيش في محيط من الانحـــراف ، ولكن ما هو عـــذر العاصي في محيط كله يدعو للصلاح والطاعة؟

ثم يؤكد القرآن ان لا نتصور بان انتسابنا للأوليـاء بـأي شــكل ــ غــير العمل الصــالح والتأسي بهم ــ يمكنه ان يخلصنا من النار ، فاذا عملنا المعصية ثقل على الله أوعز عليه ــ تعـالى عما يشـركون ــ ان يعـذبنا. كلا .. فـالجميع عنده سواء ، لا يميز بينهم سوى العمل الصالح.

(**وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً**)

(31) ثم من الجــــانب الآخر يضـــــاعف الله العمل الصالح لنساء النبي.

(**وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَ**)

تسلم وتخضع.

(**لِلَّهِ وَرَسُولِهِ**)
ولا تخرج عن طاعتهما.
(**وَتَعْمَلْ صالِحاً**)
ترجمة خارجية لـذلك التسـليم ، إذ لا يكفي خضـوع القلب ، بل لا بد من تسـليم جـوارح الإنسـان جميعها ، والتي تعمل من نساء النبي ذلك.
(**نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ**)
ولهذه الآية تفسيران :
الاول : ان المقصود من المرتين هو مضاعفة الجـزاء ، وهو أمر طبيعي ، لان السلوك الحسن لزوجات الرسول يصـيرهن قـدوات حسـنة للآخـرين وفي الحـديث عن أبي جعفر (ع) قال :
«**أيما عبد من عباد الله سن سـنة هـدى كـان له أجر مثل أجر من عمل بـذلك من غـير ان ينقص من أجـورهم شـيء ، وأيما عبد من عبـاد الله سن سـنة ضلالة كـان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غـير ان ينقص من أوزارهم شيء**» [6]
الثاني : اضافة الى ذلك يقصد بالمرتين الدنيا والآخرة ، فأما في الـدنيا فـالجزاء برفع الله شـأنهم بين النـاس ، وأما في الآخرة فما تؤكده عجز الآية :
(**وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً**)
(32) (**يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسـاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ**)

(6) بح بح / (71) ص (258).

لان الله سيضاعف لكن الجزاء حسـنا كـان أو سـيئا ، والسياق يشير الى ان هذه المفارقة ليست نتيجة للتفـوق العنصـري الـذاتي ، انما لارتبـاطهن المباشر برسـول الله (ص) ولهذا حـرص الإسـلام على نقـاء سـمعتهن وطهـارة سلوكهن الاجتماعي ، ومن هذا المنطلق حدد الله أسلوب الكلام الــذي ينبغي ان تتعاطــاه نســاء النــبي مع أبنــاء المجتمع إذ قال :

(**فَلا تَخْضَـعْنَ بِـالْقَوْلِ فَيَطْمَـعَ الَّذِي فِي قَلْبِـهِ مَرَضٌ**)

يجب ان يكـون حـديث المـرأة المسـلمة مع الجنس الآخر وبالـذات نسـاء الرسـول جـادا ، وخاليا من الـدلال والتملق ، حـتى لا يجر هـذا الأسـلوب الى علاقـات غـير مشــروعة مع الآخــرين ، حفاظا على عفتها ، وســلامة للأسرة والمجتمع المسلم ــ هـذا من الناحية الاجتماعية ــ وللموضــوع وجهة سياســية إذا تحــدّد في زوجة القيــادة الرســالية أو غيرها مما يشــكل خطــرا على أمن الامة ومسيرتها ، لان الآخرين من المنافقين ـ وعموم الأعداء ــ أصـحاب الأطمـاع السياسـية ، يبحثـون عن ثغـرة ينفـذون منها للقيــادة ليحتووها ، أو يــؤثروا على قراراتها ، وقد تكون هـذه الثغـرة هي زوج القيـادة لو ضـعفت وخضـعت امام الآخرين.

أما عن محتـوى التعامل من قبل نسـاء النـبي فيجب ان يكـون متناسـبا مع مـوقعهن ، ومرضـيّا (معروفـا) عند الرسول ، وليس مخالفا له.

(**وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً**)

وهكذا يجب ان يكون كلام زوجة الرســول (ص) ومن ينتسب الى القيــادة متوافقا مع مواقفها وأســلوبها ، إذ يجب ان يعرفـوا بـأنهم لا يمثلـون أنفسـهم انما يمثلـون القيادة بانتمـائهم إليها ، ولأنها يجب ان تكـون جدية فلا بد أن يكون كلام المنتمين

جديا أيضا.

ولا تعـني الجدية من قـريب أو بعيد ان يشـتم هـؤلاء الآخـرين. كلا .. وهـذا درس يهم القيـادة ، وكل من يـدور حول القيادة ، ذلك أن من مشاكل القيادة انها تكون جيدة في غـالب الأحيـان (القائد ــ الامـام ــ الفقيه ــ المرجع ــ الرئيس) لكن الحاشية (البطانة) تكـون خلافا لـذلك ، فاما الحواشي فعليهم ان يتقوا الله لأن خطأهم يكـون بعشـرة كما صـوابهم ، واما القيـادات فيجب ان تكـون حـذرة من التأثر السـلبي بالبطانة ، ولهـذا الشـطر من الآية الكريمة تفسير اجتمـاعي يهم المـرأة وهو : انه يجب على المـرأة ان تقتصر في حديثها مع الرجال عند الضـرورات ، بما هو متعــارف اجتماعيا وعقليا بكفايته ، وهــذا ما تؤكد عليه رواياتنا ، وما يستفيده معظم الفقهاء منها.

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَـرَّجْنَ تَبَـرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ الصَّـلاةَ وَآتِينَ الزَّكـاةَ وَأَطِعْنَ اللـهَ وَرَسُـولَهُ إِنَّما يُرِيـدُ اللـهُ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ الـرِّجْسَ أَهْـلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (33) وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللـهَ كـانَ لَطِيفـاً خَبِـيراً (34) إِنَّ الْمُسْـــلِمِينَ وَالْمُسْـــلِماتِ وَالْمُـــؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ

---

33 [وقرن] : أقررن واستقررن.

[تبرّصن] : التبرج إظهار الزينة الواجب سترها ، والتبرج التبختر والتكبر في المشي.

[الرجس] : عمل الشيطان ، وما ليس لله فيه رضى.

34 [لطيفا] : ذا فضل ، ويعبر بـاللّطف عن الحركة الخفية من تعـاطي الأمور الدقيقة.

وَالْقـــانِتِينَ وَالْقانِتـــاتِ وَالصَّـــادِقِينَ وَالصَّـــادِقاتِ وَالصَّـــابِرِينَ وَالصَّـــابِراتِ وَالْخاشِـــعِينَ وَالْخاشِـــعاتِ وَالْمُتَصَـدِّقِينَ وَالْمُتَصَـدِّقاتِ وَالصَّـائِمِينَ وَالصَّـائِماتِ وَالْحـافِظِينَ فُـرُوجَهُمْ وَالْحافِظـاتِ وَالـذَّاكِرِينَ اللـهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيمــاً (35)

إِنَّما يُرِيدُ اللهُ

لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

بينات من الآيات :

(33) لا يعارض الإسلام خروج المرأة من حدود البيت وتعلمها ، أو دخولها المعـــترك الاجتمـــاعي والسياسي ، وحــتى العســكري بعض الأحيــان ، انما يــرفض خروجها بهدف الفساد والإفساد.

(**وَقَـرْنَ فِي بُيُـوتِكُنَّ وَلا تَبَـرَّجْنَ تَبَـرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى**)

لما في ذلك من فسـاد النفـوس ، وانحطـاط الأخلاق بالنسبة للمجتمع.

(**وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ**)

توثيقا للعلاقة مع الله.

(**وَآتِينَ الزَّكاةَ**)

تطهيرا للمال والنفس ، وبناء لاقتصاد المجتمع.

ثم ينعطف السياق ليحدثنا عن ضرورة طاعة الله والرسول ، كما يشير الى طهارة أهل بيته ، وهذه الانعطافات والالتفافات عادة ما يكون التدبر فيها مفتاحا لفهم الآيات ، والعلاقة بينها ، وتحول الخطاب من الغائب الى المخاطب ، أو من الخاص الى العام ، أو العكس هو من قبيل هذه الالتفاتات في السياق القرآني ، والمثل الظاهر للالتفات في القرآن هو ما نكرره عند كل صلاة في سورة الحمد ، فبعد ان نقول : (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) كل ذلك بضمير الغائب ، نقول : (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) بصيغة المخاطب ، وذلك لاسباب منها :

1 ـ لان الإنسان في أول علاقته مع ربه يكون بعيدا عنه بعد الذكر وليس المسافة ، لكنه حينما يستمر في ذكره والعبادة له يتقرب اليه ، ولعل السورة تحدثنا عن هاتين المرحلتين ، ففي البداية يخاطب الإنسان ربه بضمير الغائب ، اما حينما يتقرب اليه فانه يتحدث معه بضمير المخاطب القريب.

2 ـ لو قلنا نعبدك ونستعينك ، لظنّ اننا نعبد غيره أيضا ، أما وقد تقدمت كاف الخطاب التي تخص بالخطاب فقد حصرت العبادة والاستعانة في الله وحده ، وهنا في هذه الآيات من سورة الأحزاب نرى تغيّرا في لحن القرآن ، فبينما كان الخطاب بصيغة جمع المؤنث ، موجها لنساء النبي «(**يا نِساءَ النَّبِيِّ**) ...» فاذا به يتغيّر الى صيغة المفرد المؤنث «**وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَ**» «**لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَ**» ومنه الى الصيغة العامة وجمع المذكر ، والتحول الى الصيغة الاخيرة (المذكر العام) يذكرنا بانعطاف آخر مر في الدرس السابق ، حيث تحول السياق من المخاطب الجمع ، للمؤنث الى المفرد «**لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً**» ولعل الحكمة في ذلك : ان

السياق أراد التأكيد على ان القيم العامة والواضحة كقيمة التقوى قائمة ، وتشمل الجميع حتى نساء النــبي (ص)، فلا تصبح المـرأة من أهل الجنة بمجـرد انتمائها للنـبي ، بل لا بد ان تكون هي نفسها محسنة وصالحة أيضا.

فالله سبحانه يذهب الرجس عن أهل البيت إذا كــانوا ممن انتمى الى الرسالة قلبا وقالبا ، اما من انتمى ظاهرا بنسـبه أو بسب دون العمل فهو غـير طـاهر لأن ما يطهر الإنسان هو الرسالة والعمل الصالح بما يغيرانه من سجايا الإنســان الباطنة والظـاهرة فـدخولك في هـذا الـبيت أو خروجك منه لا يـؤثر الا بقـدر ما تسـتوعب من قيم هـذا الـبيت ورسـالته وسـلوكه أو بـالعكس ، من هنا جـاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام :

«ولايتي لمحمد أحبّ اليّ من ولادتي منه»

(**وَأَطِعْنَ اللـهَ وَرَسُـولَهُ إِنَّما يُرِيـدُ اللـهُ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**)

ولهـــذه الآية علاقتـــان وثيقتـــان بما قبلها : الاولى : علاقتها الخاصة بقوله تعالى : (**لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللـهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ**) فالسـورة كلها تـدور حـول قضـية القيـادة الرسـالية ، المتجسـدة أيـام الرسـول (ص) في شخصه ، ومن بعـــده فيمن يمثل امتـــدادا حقيقيّا لقيمه وقيادته ، لاقتدائه به وهم أهل بيته الذين طهـرهم الله عن الرجس ، قال الامام علي (ع):

«انا وضـعت في الصـغر بكلا كل العـرب ، وكسـرت نــواجم قـــرون ربيعة ومضر ، وقد علمتم موضـــعي من رسـول الله ــ صـلى الله عليه وآله ــ بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا ولد ، يضمني الى صدره ، ويكنفني في فراشه ،

ويمسني جسده ، ويشمني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قـول ، ولا خطلة في فعل ، ولقد قرن الله به ــ صـلى الله عليه وآله ــ من لـدن ان كـــان فطيما أعظم ملك من ملائكته يســـلك به طريق المكــارم ، ومحاسن أخلاق العــالم ، ليله ونهــاره ، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثرامه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما ، ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كـان يجـاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ــ وخديجة وانا ثالثهما ، ارى نـور الـوحي والرسـالة ، وأشم ريح النبوة» [1]

ولم يكن هذا الحديث كلاما كتبه الامام (ع) في كتـاب وأبقـاه لتقـرأه الأجيـال ، انما هي خطبة ألقاها أمـام عامة المسلمين ، وصدقوه جميعا ، ولم يرد في التاريخ ان أحدا قد كذبه في ذلك.

والعلاقة بين آية التأسي وهــــذه الآية : انه كما تجب طاعة الله والرسول على نساء النـبي والمسـلمين ، تجب كـذلك طاعة أهل بيته الـذين تعـنيهم الآية وهم الأئمة (ع) الذين اذهب الله عنهم الرجس ، وطهرهم بالعلم والتقوى والعصمة.

الثانية : علاقتها العامة بالآيـات السـابقة حـول نسـاء النبي ـ ومنهن المرأة المسلمة ــ فهـذا الاهتمـام والتركـيز الــذي يوليه الإســلام للمــرأة في صــورة تعــاليم تربوية واجتماعية وسياســية نـــابع من نظـــرة الـــدين لموقعها الحســاس في المجتمع المســلم والأســرة المســلمة ، ودورها الخطير في مسـتقبلها ، فتحقيق هـدف الإسـلام ــ وهو بنــاء المجتمع النمــوذجي الــذي ينطلق من الاســرة النموذجية ـ يبدأ من خلق المرأة الفاضلة.

ولعله لهـذا السـبب جـاء الحـديث عن الـبيت الفاضل الطاهر بعد مجموعة التعاليم

(1) نهج البلاغة / خ (134) / ص (200).

في شأن المرأة ، اشارة الى هدف هذه التعاليم القرآنية.

وقبل ان نمضي قـدما في التـدبر في بقية آيـات هـذا الـدرس ، نـورد بعض النصـوص الـتي تفسر بشـكل أوضح الآية الكريمة والمروية عن الكتب المعتمـدة لـدى الفـرق الاسلامية جميعا.

يقول صاحب تفسير الميزان (رض) وبهذا الذي تقـدم اشارة للشرح بتأييد ما ورد في أسـباب الـنزول : ان الآية نــزلت في النــبي (ص) وعلي وفاطمة والحسـنين عليهم السلام خاصة ، لا يشاركهم فيها غيرهم.

وهي روايـات جمة تزيد على سـبعين حـديثا ، يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة. فقد روتها أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سـلمة ، وعائشة ، وأبي سـعيد الخـدري ، وسـعد ، ووائلة بن الأسقع ، وأبي الحمراء ، وابن عباس ، وثوبان مولى النبي ، وعبد الله بن جعفر ، وعلي ، والحسن بن علي ـ عليهما السلام ـ في قريب من أربعين طريقا.

وروتها الشـيعة عن علي ، والسـجاد ، والبـاقر ، والصادق ، والرضا ـ عليهم السلام ـ وأم سـلمة ، وأبي ذر ، وأبي ليلي ، وأبي الأسـود الـدؤلي ، وعمر بن ميمـون الأودي ، وسعد بن أبي وقاص في بضع وثلاثين طريقا.

في الدر المنثور اخـرج الطـبراني عن أم سـلمة : ان رسول الله (ص) قال لفاطمة :

«ائتيـني بزوجك وابنيه فجـاءت بهم فـألقى رسـول الله (ص) عليهم كسـاء فد كيّا ثم وضع يـده عليهم ثم قـال : اللهم إن هـؤلاء أهل محمد ـ وفي لفظ آل محمد ـ فاجعل صـلواتك وبركاتك على آل محمّد كما جعلتها على آل إبراهيم انك حميد مجيد»

قالت أم سلمة : فرفعت الكساء لا دخل معهم ، فجذبه من يدي وقال : «إنك على خير».

ورواه في غاية المرام ، عن عبد الله بن احمد بن حنبل ، عن أبيه باسناده ، عن أم سلمة.

وفيه اخرج ابن مردويه ، عن أم سلمة ، قالت : نزلت هذه الآية في بيتي (**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**) وفي البيت سبعة : جبرئيل ، وميكائيل ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، وانا على باب البيت ، قلت : يا رسول الله ألست من أهل البيت؟ قال : «إنك على خير انك من أزواج النبي».

وفي الكتاب ذاته اخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن أم سلمة زوج النبي : ان رسول الله (ص) كان ببيتها على منامة له ، عليه كساء خيبري ، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة ، فقال رسول الله (ص): «ادعي زوجك وابنيك حسنا وحسينا» فدعتهم ، فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله (ص): (**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**).

فأخذ النبي بفضلة إزاره فغشاهم إياها ، ثم اخرج يده من الكساء وأومأ بها الى السماء ثم قال : «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا» قالها ثلاث مرات.

قالت أم سلمة : فأدخلت رأسي في الستر ، فقلت : يا رسول الله وانا معكم؟ فقال : «انك الى خير» مرتين.

وروي الحـــديث في غاية المـــرام ، عن عبد الله بن حنبل بثلاث طــرق ــ عن أم ســلمة ، وكــذا عن تفســير الثعلبي.

وفيه اخـــرج ابن مردويه ، والخطيب ، عن أبي ســعد الخـدري قـال : كـان يـوم أم سلمة أم المؤمـنين ، فـنزل جبرئيل الى رسول الله (ص) بهذه الآية : (**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِـيراً**) قـال : فـدعا رسـول الله (ص) بحسن وحسـين وفاطمة وعلي فضمهم اليه ، ونشر عليهم الثوب ، والحجـاب على أم سلمة مضروب ثم قال : «اللهم هؤلاء أهل بيـتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» قـالت أم سـلمة : فانا معهم يا نبي الله؟ قال : «أنت على مكانك وانك على خير.

» وفيه أيضا عن مسـلم في صـحيحة باسـناده ، عن يزيد بن حيان ، عن زيد بن أرقم ، قال : قـال رسـول الله (ص):

«**اني تارك فيكم الثقلين أحـدهما كتـاب الله هو حبل الله من اتّبعه كان على الهـدى ومن تركه كـان على ضلالة**»

فقلنا : من أهل بيته نساؤه؟ قال :

«**لا ايم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ، ثم يطلقها فـترجع الى أهلها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده**» [2]

كما ان الآيـــات منقولة في كتب أخـــرى من جملتها الصحاح ، بما لا يمكن إنكـاره لبلوغه حد التـواتر ، وهكـذا تؤكد الأحاديث ما فسرناه بخصوص هذه الآية الكريمة.

---

(2) راجع تفسير الميزان / ج (16) / تفسير الاية.

بالاضافة الى هـذه الروايـات ، فانا من خلال دراسـتنا للتاريخ نجد ان وضـعا خاصا كـان يتمتع به أهل الـبيت (ع) وبالــذات فاطمة الزهــراء والأئمة المعصــومين ــ عليهم السلام ـ ولا يمكن لمؤرخ منصف ان ينكر تميزهم بـالرغم مما لقوه من الضغوط والمصـاعب ، فقد كـانوا يجسـدون روح الإسلام وقيمه في سلوكياتهم الشخصـية ، ودعـوتهم للنـــاس ، وقيـــادتهم للحركة الرســالية عـــبر التـــاريخ ، ومواجهتهم للطغاة و.. و.. إلخ.

بلى. كـانت في أيـام حيـاتهم بعض الأقلام والالسـنة التي باعت نفسها للطغاة ، تحاول النيل منهم لقـاء المـال والجاه ، اما الآن فبامكان الجميع ان ينظروا للتاريخ نظرة واضـحة مجـردة ليكتشـفوا دور أهل الـبيت في التـاريخ الإسـلامي ، وإذ أنـزل الله هـذه الآية فيهم فلعلمه بـأنهم سـوف يجسـدون الحق في حيـاتهم ، من خلال اقتـدائهم بالرسـول ، وتربيته لهم ، وهو الـذي ربّي البشـرية ودفعها دفوعات حضارية ، لا زالت تتقدم بسببها الى اليـوم وغد ، ونتســاءل : أو ليس الرســول قــادرا على ان ينقل تلك الروح الى أولاده؟

ان علماء النفس والتربية والاجتماع يجمعـون على أن الأب يــؤثر في أولاده مــرتين : مــرة من خلال التربية ، ومــرة من خلال الوراثة ـــ هــذا بغض النظر عن العامل الغيبي الذي يختص به أهل بيت النبوة ـــ ونحن من مجمل دراســتنا للتــاريخ ، ومعرفتنا بهـذه العلـوم ، وواقع حيـاة الرسول وسيرته ، وحياة أهل البيت وسيرتهم نستطيع ان نكتشف بـان تلك الرسـالة امتـدت بعد الرسـول في أهل بيته وخاصة الأئمة (ع).

وهو لم يـأل جهـدا في بيـان هـذه الحقيقة ، فلم يـدع مناسبة إلا وأكد فيها منزلة أهل البيت عند الله وعنده.

قال رسول الله (ص):

«**اني تـارك فيكم الثقلين خليفـتين : كتـاب الله حبل ممـدود من السـماء إلى الأرض ، وعـترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**» [3]

وقال (ص): «**من دان بـديني ، وسـلك منهـاجي ، واتبع سنتي ، فليـدن بتفضـيل الأئمة من أهل بيـتي على جميع أمـتي ، فـان مثلهم في هـذه الأمة مثل باب حطّة في بني إسرائيل**» [4]

وقال (ص):

«**انما مثل أهل بيـتي فيكم كمثل سـفينة نـوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلّف عنها غــرق ، ومثل بــاب حطّة من دخله نجا ومن لم يدخله هلك**» [5]

وفي الأثر انه (ص) كان يطرق باب دار علي وفاطمة (ع) ويقول :

«**الصلاة الصلاة أهل البيت**»

ثم يقرأ الآية (**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ**) ... الآية ، بصـوت عـال عند الفجر ، استمر لي ذلك سـتة أشـهر ، وكـان هدفه ان يسمع جميع الناس بـذلك الأمر ، ولم يكن هـذا التأكيد من رسـول الله (ص) بـدافع العاطفة والشـفقة على أولاده ، انما كان أمرا الهيا مباشـرا ، كما أن سـنة الله في الحيـاة تقتضي ان يبقى خط رساليّ صالح العمل ،

---

(3) بح ج / (23) / ص (107).

(4) المصدر / ص (119).

(5) المصدر / ص (120).

وطـاهر النفس ، تمتد الرسـالة من خلاله للأجيـال ، ولعل حفظ الله للرسالة في قوله : (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الـذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**) يتم بوسائل عديدة من أهمها وجــود الخط الأصيل الذي يحفظ الرسالة من التحريف.

كما أنه لا بد للنـاس من قـدوة وامـام ، وخط أصـيل يستوعب أفراده روح الرسالة ، ويجسدونها في سلوكهم ، ويتوارثونها عبر الأجيال ليكرسـوها في الأمة جيلا بعد جيل ، ومـدة بعد مـدة ، وفي دعـاء الندبة اشـارة واضـحة الى هذه الفكرة ، فقد ورد فيه :

(اين أبنـاء الحسـين ، صـالح بعد صـالح ، وصـادق بعد صادق ، اين السبيل بعد السبيل ، اين الخيرة بعد الخيرة ، اين الشموس الطالعة ، اين الأقمـار المنـيرة ، اين الأنجم الزاهـرة ، اين أعلام الـدين ، وقواعد العلم ، اين بقية الله التي لا تخلو من العترة الهادية) [6]

وفي أصول الكافي (ج 1) : قال الامام الباقر (ع):

«واللـه ما تـرك الله أرضا منذ قبض آدم (ع) الا وفيها أمـــام يهتـــدى به الى الله ، وهو حجته على عبـاده ، ولا تبقى الأرض بغـير إمـام حجة لله على عباده» [7]

فليس غريبا اذن ان نجد الحـديث عن أهل الـبيت في سورة الأحزاب التي جاءت لبيان الرسالة وموضـوع القائد الرسالي ، وسوف نجد الآيات المناسبة لهذا الموضوع في ضمن السورة ـ وهو أمر طبيعي ـ إذ لا بد للقائد الرسـالي من امتداد في المجتمع.

---

(6) ضياء الصالحين / ص (602) / الطبعة القديمة.
(7) أصول الكافي / ج (1) / ص (252) / الطبقة الفارسية.

(34) ثم يذكرنا الله بواحدة من الواجبات الـتي ينبغي على زوجــــات الرســـول مراعاتها وهو ضـــرورة ان يكنّ داعيات للرسالة ، ملتزمات بها.

(**وَاذْكُــرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُــوتِكُنَّ مِنْ آيــاتِ اللــهِ وَالْحِكْمَةِ**)

لأنها السـبيل لتقـويم السـلوك والطهـارة ، وليس من شك ان التلاوة التي لا يعقبها العمل لا تنفع صاحبها ، وانما يؤكد الله على نسـاء النـبي بـذكر الآيـات لكي لا يتصـورن الرسـالة ما دامت تنطلق من بيـوتهن الى النـاس فهي لا تخصهن ، بل إن مسئوليتهن تبليغ الرسـالة ، فـالقرآن كما جاء ليصنع قدوة للرجال تتمثل في الرسول الأعظم (ص) فكذلك جاء أيضا ليصنع قدوة للنساء ونساؤه أولى بالعمل بها.

(**إِنَّ اللهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً**)

فهو يحيط بكن ، ويعلم هل اســـتوعبتن الرســـالة ، وعملتن بها أم لا.

(35) ثم نجد اشـــارة الى حقيقة هامة وهي : ان ما جـاء في القـرآن من الآيـات بصـيغة المـذكر لا يـدل على اختصاصها بالذكور دون الإناث ، انما يشمل الجنسين.

(**إِنَّ الْمُسْـــلِمِينَ وَالْمُسْـــلِماتِ وَالْمُـــؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنـــاتِ وَالْقـــانِتِينَ وَالْقانِتـــاتِ وَالصَّـــادِقِينَ وَالصَّـادِقاتِ وَالصَّـابِرِينَ وَالصَّـابِراتِ وَالْخاشِـعِينَ وَالْخاشِعاتِ**)

كل ذلك قولا وعملا.

(**وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ**)

الـذي يكـون الاحسـاس سـمة علاقتهم مع الآخـرين ، فهم كما يسعون لإصلاح

أنفسهم وبنائها يسعون لبناء المجتمع وسد حاجته.

(**وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ**)

تزكية للنفس.

(**وَالْحـافِظِينَ فُـرُوجَهُمْ وَالْحافِظـاتِ وَالـذّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذّاكِراتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً**)

ان اخطأوا لأن مسيرتهم العامة هي الصلاح.

(**وَأَجْراً عَظِيماً**)

على أعمـالهم الصـالحة ، وعموما فـان ما تقـدم من الصـفات هو صـورة نظرية لسـمات المجتمع الاسـلامي ، والاسـرة المسـلمة ، في ظل الالـتزام بـالقرآن الكـريم ، ومسئوليتنا السعي والاجتهاد لايجادها في واقعنا بتجسيدها عمليا.

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذا قَضَـى اللـهُ وَرَسُـولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (36) وَإِذْ تَقُـولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللـهُ عَلَيْـهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْـهِ أَمْسِـكْ عَلَيْـكَ زَوْجَـكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَـى النَّاسَ وَاللـهُ أَحَـقُّ أَنْ تَخْشـاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْـدٌ مِنْها وَطَـراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُـونَ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ حَـرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (37) ما كـانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَـرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي

---

36 [الخيرة] : التخيير والاختيار.

37 [وطـرا] : الـوطر كل حاجة يكـون لك فيها همة ، فـاذا بلغها البـالغ قيل : قد قضى وطره وإربه.

الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللـهِ قَـدَراً مَقْـدُوراً (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُــونَ رِســالاتِ اللــهِ وَيَخْشَــوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً (39)

---

38 [قدرا مقدورا] : قضاء مقضـيا ، وقيل : معنـاه جاريا على مقـدار لا يكون فيه التفاوت من جهة الحكمة.

39 [حسيبا] : أي حافظا لأعمال خلقه ، ومحاسبا ومجازيا عليها.

محورية القيادة الرسالية في المجتمع

هدى من الآيات :

حينما نرجع الى الشــريعة الاســلامية ـــ كما ســائر الانظمة ـــ نجد فيها ثلاث قــوى أساســية هي القضــائية ، والتشريعية ، والتنفيذية ، أما الاولى فــان وظيفتها تشــريع القــوانين والأحكــام العامة ، وأما الثانية فشــأنها تطــبيق القـــوانين على الوقـــائع المختلفة ، بينما مهمة القـــوة التنفيذية هي تطبيق القــانون الــذي تقضي به كلا القــوتين على الواقع.

وفي الشريعة الاسلامية تتركز جميع هــذه القــوي في القيـــــــادة الرســــــالية العليا وهو النـــــبي (ص) أو من يمثل امتـــــــدادا حقيقيا له ، فهي المرجع التشــريعي والقضــائي الأعلى ، وإذا قضى النــبي أو من يكون خليفة حقيقيا له لا يحق لأحد الاعتراض عليه.

ويضرب لنا القرآن مثلا من واقع الأمة الاسلامية على هذه الحقيقة ، حيث

عـارض الإسـلام العـادات الجاهلية الغاصـبة حرمة الـزواج من مطلقة الابن بــالتبني ، ووضــحت الآيــات بــأن ابن الإنسان هو الذي ينسل من صلبه ، أما الآخر الذي يلتقطه ويتبنــاه فلن يصـبح أبنا له أبــدا ، لان الأبــوّة كما النبــوة وعمــوم العلاقــات الاجتماعية المشــابهة قضــية طبيعية واقعية وليست اعتبارية تشريعية.

وكان هذا القضاء الجديد يومذاك يحتاج الى من يملك الجرأة والإقدام ، وهنا تـبرز وبصـورة واضـحة القـدوة في الأمة ، فــاذا بالرســول (ص) يــتزوج من مطلقة زيد ابن حارثة وهو ابنه بـالتبني ، وكـان النـبي قد خـرق عـادتين جـاهليتين في هـذه الحادثة ، الاولى ما تقـدمت الاشـارة إليها ، والثانية انه زوّج زينب بنت جحش ــــ ذات الحسب والنسب الشـريف ــ من رجل أقل نسـبا ، تأكيـدا لقيمة التقوى ، ونسفا للقيم الجاهلية المادية.

ورفعا للحرج في مثل هذه الحوادث عن المسـلمين ، ولأنّ خـرق العـرف الاجتمـاعي سـوف يسـبب شـيئا من الإحراج للرسـول ، وربما ألوانا من الضـغط عليه من قبل الســاذجين والمنــافقين ، فقد حــذّره الله من الخضــوع للناس على حساب الحق ، مؤكدا بـأنّ أهم صـفات المبلغ للرسالة هي الخشية من الله وحده ، والتوكل عليه.

بينات من الآيات :

(36) المؤمن حقّا هو الذي يسلم لقضاء الله ورسوله تسـليما مطلقا في جميع جــوانب الحيــاة ، ذلك أنّ كلمة الله ، والرسول ، والقيادة التي تمثل امتـدادا صـحيحا له ، يجب أن تكون هي الحاسمة في المجتمع الاسلامي.

(**وَما كـانَ لِمُــؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَــةٍ إِذا قَضَــى اللــهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**)

والقـرآن حينما يوجّه الخطـاب بصـيغة المـذكر فإنه يشـمل النصف الآخر للمجتمع بصـورة طبيعية ، ولكنه هنا يخصّ النساء أيضا «ولا مؤمنة» لأنّ الكثـير من الأحكـام ــ وبالـذات في بـاب القضـاء ـــ ترتبط بالنسـاء ، ولا بد ان يخضعن كما الرجال لقضاء الله والرسول خضوعا حقيقيا.

والخضوع الحقيقي هو الـذي تشـير اليه الآية الكريمة (**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**) [1] فحتى في المجال الفكـري والنفسي لا يجـوز للمـؤمن أن يتضـايق من قضـاء الرسـول ، بل يجب أن يسلّم له راضيا به دون أدنى شكّ أو تردد.

(**وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً**)

ولعـلّ أهم ما قضى به الله والرسـول ان اختـار أهل الـــبيت ، وقضى بطـــاعتهم ، إذ أذهب عنهم الـــرجس وطهرهم تطهيرا ، فلا يجوز للمـؤمن الاعـتراض على هـذا القضـاء أو الفسـوق عمليا عنه ، وهـذا مما يعـزّز تفسـير الآية الكريمة (33) في الدرس الماضي.

جاء في أصول الكافي عن عبد العزيز بن مسلم قـال : كنّا مع الرضا (ع) بمـرو فاجتمعنا في الجـامع في بـدوّ قدومنا ، فأداروا أمر الإمامة ، وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها ، فدخلت على سيدي (ع) فأعلمته خـوض النـاس فيه ، فتبسم (ع) ثم قال :

يا عبد العزيز! جهل القـوم وخـدعوا عن أديـانهم ، إنّ عزّ وجـلّ لم يقبض نبيه (ص) حـتى أكمل له الـدّين ــ الى قوله (ع) ـ : ولقد راموا صعبا ، وقالوا إفكا ، وضلّوا ضـلالا بعيـدا ، ووقعـوا في حـيرة إذ تركـوا الإمـام عن بصـيرة ، وزين

---

(1) النساء / (65).

لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، وكانوا مستبصرين ، ورغبوا عن اختيار الله واختيار رسوله (ص) الى اختيارهم ، والقرآن يناديهم : (**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**) وقال عز وجل : (**وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**) [2]

(37) وكمثال على قضاء الله في الحقل الاجتماعي ، يستعرض السياق بشيء من التفصيل قصة زيد ابن حارثة ابن شرحبيل ، فهي من المسائل التي كان قضاء الله فيها مخالفا للعرف آنذاك ، وزيد ابن شيخ لقبيلة اسمه حارثة ، أغارت عليها قبيلة أخرى ، فأخذ وبيع في مكة ، فاشتراه الرسول (ص)، والذي كان يسعى حتى قبل بعثته لتصفية آثار الجاهلية قدر ما يستطيع ، وهكذا ينبغي للإنسان المؤمن السعي بما يستطيع وكيفما يقدر لازالة آثار الجاهلية (**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**) فالرسول (ص) لم يكن قادرا على شراء كلّ العبيد وعتقهم أو تربيتهم ، ولكنه اشترى بعضهم.

وفي قصة طويلة جاء والد زيد زائرا لمكة ، وطلب من الرسول ان يشتري ولده ، فجعل الرسول الخيار لزيد في البقاء معه أو الرحيل مع والده ـــ بعد أن أعتقه ـــ فاختار البقاء مع المسلمين وفي كنف النبي (ص).

فعاش كأبرز صحابة الرسول ، وقد أبلى في الإسلام بلاء حسنا ، وكذلك ابنه اسامة (رضي الله عنهما).

(**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ**)

---

(2) نور الثقلين / ج (4) / ص (279).

إذ جعله يعيش تحت ظل رسول الله (ص).

(**وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ**)

وكـــان انعـــام الرســـول يتمثل في عتقه لزيد من العبودية ، وقد حـــدث ان أراد زيد طلاق زوجته زينب بنت جحش فنهره الرسول وقال :

(**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**)

لا تطلقها.

(**وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ**)

اي ان الله كتب زينب زوجة لك ، ومهما أخفيت ذلك فإنه سيظهره يوما من الأيام.

(**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ**)

هكـذا يحكي الله عن رسـوله ، بـالرغم من أنّ آية لا حقة تصف المبلغ للرســالة بأنّه لا يخشى إلّا الله ، فكيف نوفّق بين الآيتين؟

الجـواب : إنّ الرسـول (ص) لم يكن يخشى أحـدا إلّا الله ، ولكنّه كان يخشى الناس أن يكفـروا برسـالة ربه لو تزوج بزينب ، بسبب شـكهم في أنّ الرسـول ضـغط على زيد

(ابنه بــالتبني) ليطلق زوجته ثم يتزوجها بعــدة ، وهكــذا كانت سيرة الأنبياء انّهم يكلمون الناس على قدر عقـولهم ، وفي رواية «ما كلم رسول الله النـاس بكنه عقله قـط» وهذه الآية تشـبه قوله تعـالى : (**يا أَيُّهَا الرَّسُـولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَـلْ فَما بَلَّغْتَ رِسـالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**) [3]

---

(3) المائدة / (67).

فخشية الرسول من تبليغ بعض بنود الرسالة لم تكن على نفسه ، إنّما على الناس ان يكفروا به وبها.

(**فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها**)

اي لما تمتع بها زيد فترة من الوقت ثم طلقها زوجها الله رسوله. وكانت زينب تفتخر على سائر زوجات الرسول بأنّ الله هو الذي زوجه منها وبنص القرآن ، أمّا الهدف من وراء ذلك فهو كسر العادة الجاهلية ، ورفع الحرج عن المؤمنين في الزواج من مطلقات أبنائهم بالتبني.

(**لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً**)

ولأنّ البعض ربما يتصور بأنّ هذا القضاء سوف يفشل بسبب تعارضه مع العرف الاجتماعي ، أكّد ربنا بأنّ أمور الحياة بيده وليست بيد الناس ، وأنّه قادر على إجراء ما يريد.

(**وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً**)

فمع ان بعضا من أمور الحياة خوّلها الله للإنسان ، إلّا أنّ مسيرتها العامة بيده ، يفعل ما يشاء ، ولهذا قال الامام علي (ع):

«**عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم ، وحلّ العقود ، ونقض الهمم**» [4]

(38) ثم يؤكد القرآن بان القيادة الرسالية ليست هي التي تنسى الدنيا من

(4) نهج البلاغة / ص (511) / ج (250).

أجل الآخرة ، أو تنسى ضرورات الحيـاة ، فالرسل ــ وهم قادة النـاس ــ بشر فـرض الله عليهم أن يعيشـوا كسـائر البشر حيـــــــاة تجمع العقل والحاجة ، ولا يمكن لأحد أن يتجاوز هذا الفـرض لكونه قائـدا ، ثم يـدّعي بـأنّ ذلك من ضرورات الرسالة ، لأنّ :

«من لا معاش له لا معاد له»

وأئمة المتقين هم الــذين يطلبــون من الله أن يهبهم أفضل الأزواج والبــنين ، في الــوقت الــذين يطلبــون أن يجعلهم أئمة للمتقين (**رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً**) [5]

وهـذا هو السـلوك المتكامل للقيـادة ، والـذي يجعلها أسوة للآخرين ، وهو سلوك القادة الرساليين من الأنبياء ، والأوصـياء ، والأوليـاء عـبر التـاريخ ، وهو دليل على نـوع الرسالة التي يدعون الناس إليها.

إنّ الحياة الفاضلة هي التي تدعو إليها الآية الكريمة : (**وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الـدَّارَ الْآخِـرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِـيبَكَ مِنَ الدُّنْيا**) [6] ولا يمكن للقائد أن يتضخّم فيه جـانب على حسـاب الجـانب الآخر ، لأنّ النـاس آنئذ لن يتبعـوا هـذه القيادة ، لأنّ التمتع بالدنيا كما التطلع للآخرة قضـية يقرّها العقل البشري.

إذن لا داعي للحرج ، وذلك لأسباب هي :

أوّلا : إنّ زواجه من زينب واجب مفــــروض عليه من قبل الله ، كما أنّه من نفع الرسول لـذلك جـاء التعبـير ب «له» وليس عليه.

---

(5) الفرقان / (74).

(6) القصص / (77).

(**مَا كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ**)

ثانيا : إنّ التمتع بالدنيا الى جانب السعي للآخرة ليس جديـدا على الأنبيـاء والقيـادات الرسـالية ، إنما هو سـنة جرت بها الحياة.

(**سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ**)

ثالثا : لا بدّ أن نعتقد ـ نحن المؤمنين ـ بـأنّ أوامر الله حكيمة ودقيقة ، وهذا يبعثنا نحو التسليم لقضـائه ، وهكـذا كـان واجبا على الرسـول الخضـوع لفـرض الله عليـه. ونهايـات الآيـات الـتي هي مفـاتيح لمعرفة إطارها العـام ، تهدينا إلى حكمة الله وانه جعل كل شيء بقدر وحسـاب ، ولو أنّ الرسـول تـرك متع الـدنيا الـتي فرضـها الله له ، باعتقاد أنّ الآخرة هي الأهم ، لخرجت حياته من التوازن ، فلا بد أن يستجيب لأوامر الله ، فالدّين ليس شـيئا يصـنعه الإنسـان بفكـره البسـيط ، إنّما يجب ان يتبعه كما هو ، وفي الحديث :

«**إنّ الله يحبّ أن يؤخذ برخصة (المباحـات) كما يحبّ أن يؤخذ بعزائمه (الواجبات)**» [7]

وحينما أقسم عثمـان بن مظعـون أن يصـوم الـدهر نهره الرسول ، وقال له :

«**ولكن صم يوما وأفطر يوما**»

(**وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً**)

(39) ثم إنّ صـاحب الرسـالة والـذي يريد ان يكـون مبلّغا لها بين النـاس ، يجب أن يضع في حسـابه معارضة الناس له ولرسالته ، وبالتالي عليه أن يتجاوزهم ولا

(7) مستدرك وسائل الشيعة / ج (1) / ص (18).

يخشـــاهم ، فيـــدع ما فـــرض الله له ، أو يـــترك واجبا من واجباته خوفا منهم ، كما يجب عليه أن يتوقع الضغط عليه من قبل الآخرين ، ومن ثم يستعد لمواجهة هذه الضـغوط التي أهونها الدعايات السـيئة والعزلة من قبل المجتمع أو السجن والتعذيب أو التهجير من قبل السلطات الفاسدة ، لأن الاسـتقامة أمـام ذلك سـوف تنتهي به في الـدنيا الى أهدافه وهي الهداية والتغيـير ، وفي الآخـرة إلى روضـات الجنّات.

(**الَّذِينَ يُبَلِّغُــونَ رِســالاتِ اللـــهِ وَيَخْشَــوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ**)

أمّا من أين يستمد الإنسان الرسالي روح الاستقامة؟ انما من خشـــية الله الـــتي يقـــاوم بها إرهـــاب النـــاس وضغوطهم ، وأيضا من التوكل عليه الذي يجبر به ضعفه ، وأهم معـاني التوكل على الله ـــ والـذي هو من جـوانب العظمة في الإنسـان الرسـالي ـــ العمل لله وتحمل كل شيء في سبيله ، ثم احتسابه عنده ، فهذا يزيده استقامة ومضيا على طريق الرسـالة ، والإمـام الحسـين (ع) حينما ذبح سهم حرملة ولده علي الأصـغر تقـوّى على المصـاب عند ما أعتبره طريقه لرضى الله قال :

«هون علي ما نزل بي انه بعين الله»

(**وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً**)

فـالمؤمن الحقيقي لا يبحث عن مصـالحه ولذاته من الرسالة ، بل يبحث عن طـرق تحقيقها حـتى لو كلفه ذلك الكثير ، بلى. مسـتعد لتبليغها ، ولو خسر سـمعته ومكانته الاجتماعية والسياسيّة وغيرها.

ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (40) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (44) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً (47) وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً (48)

وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً

هدى من الآيات :

ينقسم السياق في هذا الدرس إلى شطرين ، يدعونا شـطره الأول الى ذكر الله وتسـبيحه وبالتـالي الى المزيد من المعرفة بربنا عز وجل ، ويبين لنا شطره الثـاني عـبر كلمات بسيطة في ظاهرها ، وعظيمة ومركزة في معناها جانبا من صفات الرسـول القائد ، لو تـدبرنا فيها لانفتحت لنا أبـواب المعرفة بشخصـيته العظيمة ، وما أحوجنا نحن المسلمين الى هذه المعرفة.

والعلاقة بين الموضــوعين تبينها الآية الكريمة (**لَقَـدْ كـانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللـهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ لِمَنْ كـانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَذَكَـرَ اللـهَ كَثِـيراً**) فمعرفة الرســول ، والاقتــداء به لا يمكن إلّا للإنســان المــؤمن والعــارف بالله ، لان الرســول جــاء من عند الله ، وكلما ازداد الإنسان معرفة بربه ازداد معرفة بنبيه ، وفي الدعاء «اللهم عرفـــني نفسك فانك إن لم تعرّفـــني نفسك لم أعرف نبيك ، اللهم عرفني نبيك فانك ان لم

تعرفني نبيك لم أعرف حجتك ، اللهم عرفني حجتك فانك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني»

اذن معرفة الله مفتاح لكل المعـارف الأخـرى ، ولعله لذلك جاء في الحديث «أول الدين معرفته» [1]

ولان هذا الدرس يعرفنا بصفات الرسول الأكرم (ص) كان لا بد أن يـذكرنا بالله أولا ، لـذلك وجـدنا أول السـياق دعـوة إلى ذكر الله وتسـبيحه ، بينما يخـوض نهايته حـديثا عن صـفات النـبي ، وقد نعته القـرآن بأنه شـاهد ، فما هو الشاهد؟

كما يتحرك لسان الميزان ليحدد الـوزن فـان الشـاهد هو مـيزان المجتمع ، والرسـول برسـالته وبحياته مقيـاس يتعرف به الإنسان على ما إذا كـان هو على الحق أو على الباطل.

ولكن الرســول ليس شــاهدا بســلوكه وحسب ، انما يبشر من يعمل الخـير بـالجزاء الحسن ، كما يحـذر الـذي يعمل السـيئات من عاقبة السـوء ، كما انه يـدعو النـاس إلى ربهم وما يقـــربهم إليه ، وأكـــثر من ذلك يوضح لهم الطريق ، ويبرمج لهم الحياة فهو شاهد ، ومبشر ، ونذير ، وداع إلى الله ، وسراج منير.

والذي يجمع هذه الصفات كلها هي استقامة الرسـول ، والاسـتقامة هي عـدم الخضـوع لأيّ ضـغط أو شـهوة ، الأمر الذي يصـعب على الإنسـان بما فيه من جهل وغرائز وشهوات إحرازه لو لا تنزيه الله وعصمته ، ولهذا نقرأ في نهاية الدرس خطاب الله لرسوله : «**وَلا تُطِعِ الْكـافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ**».

---
(1) نهج البلاغة / ج 1 / ص 39

بينات من الآيات :

(40) من طبيعة الرســـالة الالهية انها لا تفـــرق بين إنسان وآخر إلّا بمقياس التقوى ، ورسول الله يجسد هذه الرسـالة ، فهو لا يجعل بينه وبين الآخـرين علاقة أرفع من الرسـالة ، ومع أن للرسـول أولادا هم (قاسم ــ طيّب ــ طـاهر ــ إبـراهيم) إلّا ان الله ينفي أبوته لاي رجل منهم ، لمـاذا؟ هل لأنهم (كما ذكر البعض) مـاتوا قبل أن يبلغـوا مبلغ الرجال ، ولم يكن الحسن والحسين (عليهما السلام) حين نزول الآية ببالغين أيضا ، فلم ينف الذكر سـوى أبوته لزيد الذي دعي لوقت أنه ابن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أم لما هو أشمل من هـذا وهو نفي العلاقة المادية بين الرسـول وبين أمته كـالتي زعمها اليهـود في علاقتهم بموسى ، وحسـبوا أنها وحـدها كافية لشـرفهم وكـرامتهم عند ربهم ، بل ونجــاتهم من جــزاء أعمــالهم المنكــرة ، فجـاءت الآية تحصـينا للأمة الاسـلامية من تسـرب هـذه الفكرة الشيطانية إلى صفوفهم.

ويبـــدو ان الاجابة الأولى ظـــاهر الآية وتفســـيرها ، والثانية باطنها وتأويلها ، وكلاهما صحيح ، بلى ان الرسول سـمى نفسه أبا لهـذه الأمة حين قـال : «**أنا وعلي أبـوا هـــذه الأمة**» [2] ولكن الواضح ان مـــراده ليس الأبـــوة المادية بل المعنوية التي تفوق تلك بدرجات ، ولذلك كـان الشطر الثـاني من الآية هـذه يكـرس العلاقة المعنوية بين الرسول وأمته.

وهذا يعني أنّ الصفة الأساسية للرســول ليست أبوته انما رســالته ، فلا يمكن لأحد أن يـــدّعي بنوّته للرســـول وبالتــالي تمــيزه عن النـــاس بها ، انما يتمــيز الإنســان بخضوعه للنبي واتباعه لرسالته.

وإذ ننسب فاطمة وأبناءها (عليهم السلام) بأنهم أبناء الرسول وأهل بيته فليس

---

(2) بحار الأنوار / ج 69 / ص 243

ذلك فقط لقرابتهم الاجتماعية منه ، انما لتجسـيدهم قيمه ورسـالته في الحيـاة مما جعلهم أبنـاءه قلبا وقالبا ، روحيّا وجسديّا.

(**ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ**)

وهــذا نفي للعلاقة المادية المجــردة ، بينما الشــطر الثاني من الآية إثبات للرسالة والعلاقات المنبثقة منها.

(**وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ**)

وفي تفسير الرسـول لهـذه الآية : قـال جـابر بن عبد الله الانصاري ، قال النـبي (ص) : «انما مثلي في الأنبيـاء كمثل رجل بـــنى دارا فأكملها وحســـنها إلّا موضع لبنة ، فكـان من دخلها فنظر إليها قــال : ما أحســنها إلّا موضع هـــذه اللبنـــة!! قـــال (ص) : فأنا موضع اللبنة ، ختم بي الأنبياء». [3] وهذا يعني ان الكيان الرسالي غير مكتمل من دون الرسول.

وفي نهاية الآية الكريمة يؤكد الله على احاطته علما بالأشياء ، فما هو معنى ذلك ، وما علاقته بما قبله؟

حينما نراجع آيات القرآن حول الطبيعة نجـدها تحـدثنا عن النمو والتكامل ، فالسماوات والأرض وعموم الطبيعة انما وصلت لهذه الصـورة من الكمـال عـبر مراحل ، قـال تعــالى : (**اللــهُ الَّذِي خَلَــقَ السَّــماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِــتَّةِ أَيَّامٍ**) [4] وهــذه الآية تكشف لنا طبيعة النمو البشـــري ، وان البشـــرية منذ خلق الله آدم عليه السلام ، إلى أن بعث النبي الأكرم (ص) كـانت في مسـار تكاملي ، وان

(3) نور الثقلين / ج 4 / ص 285

(4) السجدة / 4

الرسـالات كـانت تنسخ بعضـها بعضا ، وتهيمن على الـتي قبلها لأسـباب من أهمها التكامل ، حـتى جـاءت الرسـالة المحمدية خاتمة لكل الرسالات ، لأنها في آخر المراحل ــ وهــذا من معــاني الإحاطة ـــ فلم يكن بــدعا ، ولا خلافا للحكمة أن يبعث الله رسوله الأكمل في آخر مرحلة.

(**وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**)

ولعل خاتمة الآية تشــــير أيضا إلى أن الله ضــــمّن رســالته الخاتمة كل ما احتاجته وتحتاجه حيــاة البشــرية حتى قيـام السـاعة ، وذلك لإحاطته علما بكل ما قد يقع ، وكيف يقع ، وما هي حاجة الناس عند ما تتطور حياتهم. أو ليست البشرية تتطور في اطـار سـنن الله الـتي لا تتبـدل ولا تتغير ، أو ليس الله عليما بتلك السنن الـتي أجراهـا؟! بلى. ولـــــذلك جعل رســــالته الخاتمة مهيمنة على تلك السنن.

(41) وحـتى يعرفنا الله بهـذا الرسـول العظيم يعرفنا بنفسه أولا ، وذلك حين يدعونا لذكره.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً**)

لان أجل الإنسان مستور عنه ، ولا يعلم أي خاطرة أو كلمة أو حركة تكــــون هي خاتمة حياته ، فلعل خــــاطرة الانحـراف ، أو كلمة الخبث ، أو حركة السـوء تكـون نهاية المطاف ، فتهوي به سـبعين خريفا في النـار ــ كما يقـول الرسول (ص) ـ وهكـذا يجب عليه أن يسـتقيم على الحق بقلبه ولســانه وجوارحه وذلك بــذكر الله ، الــذي يعــني اتصال قلب الإنسان بربه عز وجل ، قـال الامـام الصـادق (ع) : «ما ابتلي المؤمن بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يحرمها ، قيل وما هي؟ قـال : المواسـاة في ذات يــده ، والإنصاف من نفسه ، وذكر الله كثيرا ، أما اني لا أقــول : سبحان الله

والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكـبر ، ولكن ذكر الله عند ما أحل له ، وذكر الله عند ما حرم عليه» [5]

وما يـدري البشر ان فكـرة شـيطانية واحـدة تسـبّب دماره. أو ليس إبليس بدأ الكفر بفكرة جالت في خـاطره حينما قـال : لو انصـفني الله لكنت أنا شـيخ الملائكة وسيدهم ، فأخرج الله كـبره عند ما امتحنه بالسـجود لآدم (ع)؟!

وفي خطبة للإمـام علي (ع) في المبـادرة إلى صـالح الأعمال أكّد على هذه الفكرة إذ قال : «فـاتقوا الله عبـاد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يـزول عنكم ، وترحّلـوا فقد جـدّ بكم ، واسـتعدوا للمـوت فقد أظلّكم ، وكونوا قوما صيح بهم فـانتبهوا ، وعلمـوا ان الـدنيا ليست لهم بـدار فاسـتبدلوا ، فـان الله سـبحانه لم يخلقكم عبثا ، ولم يـترككم سـدى ، وما بين أحـدكم وبين الجنة أو النار إلّا الموت أن ينزل به» [6]

(42) ثمّ تؤكد الآيـات على ضـرورة اسـتمرار الصـلة بين العبد وربه.

(**وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**)

ففي كل يـــوم ينبغي للإنســان أن يفتتح حركته وانطلاقته بذكر ربه ، ويختتمها بذلك أيضا ، ولعل في الآية تأكيد على صلاة الصـبح وفرضي المغـرب والعشـاء ، وان أبرز أهـدافها ربط الإنسـان في أول اليـوم وآخـره بخالقه عبر التسبيح.

وإذا كان ظاهر التسبيح هو قول : «سبحان الله» فان باطنه ومحتـواه هو ما تهـدف إليه هـذه الكلمـات من رفع الإنسان عن حضيض الشرك إلى سماء التوحيد

---

(5) نور الثقلين / ج 4 / ص 287

(6) نهج البلاغة / خ 64 / ص 95

والقيم ، فليس صادقا في تسبيحه من يلفظ هذه الكلمات ولكنه يقدّم شهواته على القيم ، أو يطيع الآخرين بمعصية الله ، أو يحاول الخلط بين الحق والباطل ، ضغثا من هــذا وضغثا من ذاك.

(43) ولا شك ان ذكر الله وتسبيحه سوف يستتبع جـــزاء من عند الله (**فَـاذْكُرُونِي أَذْكُـرْكُمْ وَاشْـكُرُوا لِي وَلا تَكْفُـرُونِ**) [7]

وهـذا الجـزاء يتمثل في أعظم صـورة في الهداية الإلهية للإنسان من الظلمـات إلى النـور ، مما يؤكد بـأن الهـدف من الــذكر هو الهداية ، وأنها ـــ أي الهداية ـــ تحصل من مجمـوع أمـرين هما : سـعي الإنسـان (ذكـره وتسـبيحه) وصلة الله له بالتوفيق والرحمة.

(**هُوَ الَّذِي يُصَـلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُـهُ لِيُخْـرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**)

والظلمات هي الجهل والعجز وسائر الصفات السلبية ، بينما النور ما يخالفها ، وهذا من رحمة الله بالمؤمنين.

ما هي صلاة الرب؟

ما هي الصلاة؟

قال علماء اللغة : ان لها معنـيين : أحـدهما النـار وما أشبهها من الحمّى ، والآخر جنس من العبادة. [8]

ولكن يبـدو ان هنـاك علاقة بين الصـلاة والصـلة في الاشتقاق الكبير ، فيكون الاصطلاء بالنار هو الاقتراب منها أو الاتصال بها ، ومنها قولهم : حليت العود

---

(7) البقرة / 152

(8) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة / ج 3 / ص 300

بالنار ، وهكذا يشترك المعنيان ، لان معـنى الصـلاة يكـون التعطف وهو نوع من الصلة بين العبد وربه.

وجاء في تفسير البصائر :

الخـــامس : قيل : أريد بالصــــلاة هنا العناية بحـــال المؤمــنين ، وذلك لأن الصــلاة في الأصل : التعطف ، لأن المصـــلي يتعطف في ركوعه وســجوده ، فاســتعير لمن يتعطف على غيره حنوّا وترؤفا.

ولذلك قيل : إن الصلاة من الله تعالى الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، ومن الناس الدعاء.

ثم أضاف قائلا : وعلى الخـامس (وهو ما ذكرنا آنفـا) جمهور المفسرين وهو المروي. [9]

وجاء في الحـديث المـأثور عن الامـام الصـادق (عليه السلام) انه قال : «الصلاة من الله عز وجل رحمة ، ومن الملائكة تزكية ، ومن الناس دعاء» [10]

وهكـذا نسـتوحي من كـلّ ذلك ان لكلمة «الصـلاة» معنى واحدا هو الترؤف ، والتعطف ، والمزيد من العناية ، والتوجّه.

وهذا المعنى مشـترك بين العبد وربه ، فالله سـبحانه يتعطف على المؤمنين بالمزيد من الرحمة ، وعلى العبـاد أن يتعطفـــوا على رســـولهم بطلب التعطف من الله له (وهو الـدعاء) أما الملائكة فهم من جهة يسـتغفرون ربهم للمؤمنين ، ومن جهة ثانية يقومون

---

(9) تفسير البصائر / ج 32 / ص 228

(10) نور الثقلين / ج 4 / ص 303

بدور مباشر في نشر رحمة الله لهم.

وهكذا نجد ان خاتمة الآية تدل على معنى الصلاة من الله على المؤمنين.

(**لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ**)

من شحّ الذات ، والجهل ، والعجز ، والسلبيّة ، والحقد ، والبغضاء إلى رحاب الحق ، والمعرفة ، والإرادة ، والأمل ، والمحبّة ، والسلام.

(**وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**)

(44) هذا عن رحمة الله بالمؤمنين في الدنيا ، أما في الآخرة فان أبرز تجليات رحمة الله بهم تكون في أمرين :

الأول : السلامة ، تحيّة من الله لهم ، (**وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**) [11]. وقال تعالى : (**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ**) [12] وهذه التحية بالاضافة إلى معناها الظاهر وهو قول : (السلام عليكم) فانها تعني السلامة الجسدية من النقص العضوي والصحي ، والسلامة الروحية من الرذيلة والصفات السلبية ، والسلامة الاجتماعية ، والاقتصادية وهكذا ، وبالتالي الكمال في سائر جوانب الحياة ، ذلك ان التحية هي طلب الحياة ، ويتبادل المؤمنون التحية بالسلام ، اشارة إلى طهارة القلوب وصفائها.

(**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ**)

الثاني : الجزاء الكريم.

---

(11) الرعد / 23 ـ 24

(12) الحجر / 45 ـ 46

(**وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً**)

لماذا يقول الله : (**وَأَعَدَّ لَهُمْ**)؟

لعل حكمة ذلك تكمن في أن الإعـــداد يـــدل على التدرج ، مرحلة بعد مرحلة ، وشيئا بعد شيء ، مما يوحي على أن هذا الأجر نتيجة لأعمال المؤمـنين الصـالحة الـتي هي الأخرى صـارت بالتـدريج ، فكلما عمل الإنسـان خـيرا أضـاف إلى رصـيده وزنا بقـدره ونوعيته ، ويصف الـرب الأجر بأنه كريم والكريم يعني أمرين :

الأول / ان الأجر جزيل جـــدّا ، لأن المعطي كـــريم ، ومن صفات الكريم انه يعطي الأجر أكثر مما هو مسـتحق ، فكيف إذا كان المعطي هو الله وهو أكرم الأكرمين؟

الثاني / ان هـذا الأجر يكـون خالصا من الإذلال الـذي يمسّ بكرامة الإنسان.

(45) ثمّ يؤكد القرآن للرسول دوره في الحيـاة ، وما دام القرآن وفي هذه السـورة بالـذات أكّد كـون الرسـول أسوة حسـنة للمؤمـنين فإننا نسـتوحي من هـذه الآية دور المؤمنين أيضا.

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً**)

والشاهد : هو الـدليل عليه ، فشـاهد القـول : الـدليل عليه ، وشـاهد القضـاء : هو الـدليل على الحادثة ، وحينما يسمي القرآن الرسول شاهدا فـذلك يعـني أنه (ص) دليل وميزان بسلوكه الحسن ، يهدي الإنسان إلى معرفة نفسه وموقعه من الحق.

(**وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً**)

مبشرا للمؤمنين بالجنة ، ومنذرا للعاصين بالنار.

(46) ولكن الرســول لا يكتفي بــذلك وحسب ، انما يسعى وبشتّى الوسائل الشرعية الممكنة لدعوتهم للحق.

(**وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ**)

ولا يمكن لأحد أن يســمي نفسه داعيا إلى الله إلّا إذا أكمل نفسه ، وصيرها من حـزب الله ، ثمّ اذن الله له في ذلك إذنا مباشرا عبر الـوحي كالأنبيـاء والأوصـياء ، أو غـير مباشر من خلال القيم الإلهية ، فربما يتصـور الإنسـان انه يــدعو النــاس إلى الله ، ولكنه في الواقع يــدعوهم إلى الشيطان.

وعن رســول الله (ص) لما ســئل عن ســبب بعض تسـمياته قـال : «أما الـداعي فـاني ادعو النـاس إلى دين ربي عز وجل ، وأما النذير فاني أنذر بالناس من عصاني ، وأما البشير فاني أبشر بالجنة من أطاعني» [13]

والرســول كما الشــمس في المنظومة ، يمثل مركز الإشـعاع المعنـوي عـبر الأجيـال. أو ليس ينبعث منه نـور الوحي إلى الحياة؟!

(**وَسِراجاً مُنِيراً**)

كما ينبعث إلى كــلّ أفق ، كــذلك تشــمل معــارف القرآن ، وأحكـام الشـرع ، وتعـاليم الرسـول كـلّ نـواحي الحيـاة ، ومن هنا نسـتوحي من كلمـتي (**سِراجاً مُنِـيراً**) المناهج المفصلة في رسالة النبي وسيرته.

فالرسول ليس يدعو إلى الله ، ويبشر وينــذر فحسب ، انما يضع أمامنا المناهج

---

(13) علل الشرائع / ج 1 / ص 127

التفصـــيلية الـــتي تقربنا إلى الله ، وتنتهي بنا إلى الجنة ، وتبعدنا عن النار.

والسؤال : لماذا لم يكتف السـياق بكلمة سـراج ، بل قال : (**سِراجاً مُنِيراً**)؟

انما قــال ذلك ليؤكد صــفة الإشــعاع المســتمر في شخصية الرسول ، فقد يكون السراج متقدا ، وقد ينطفئ ، بينما النبي يبقى منيرا يضـيء أبـدا حـتى بعد وفاته ، لأن إشــعاعه إنما هو برســالته وســيرته وهما باقيتــان عــبر الدهور.

(47) وتجاه هذه الرسالة الـتي يحملها الرسـول ومن يتبعه إلى الناس هناك موقفان :

الأول : الايمـان والتسـليم والـذي ينتهي بأصـحابه إلى الفلاح في الـدنيا والآخـرة ، ولا بـدّ للرسـالي أن يبشر من حوله بهذه النتيجة.

(**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً**)

(48) الثاني : العصيان بالكفر والنفاق ، وتجـاه هـؤلاء يجب على الرسول الاسـتقامة أمـام ضـغوطهم ، بل يجب عليه أن لا يغضب عليهم ، أو يحمل في نفسه الحقد ضدهم ، ذلك أنه ينبغي للرسالي أن يكون قلبه قطعة من الرحمة والنور حتى مع أعدائه.

وهــــذا نــــبي الرحمة (ص) وقد طـــــرده الكفــــار والمشـــركون من بكّة ، وبعـــدها من الطـــائف يقف وقد أدمت الأحجــار قدميه ، فيجــول ببصــره إلى الســماء ثمّ يقول : «اللهم اهد قـومي فـإنهم لا يعلمـون» ثمّ لما عـاد إلى مكة منتصــرا لم يفكر في الانتقــام ، بل قــال كلمته المشهورة : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» وهذه هي الاســتقامة الحقيقية ، أن يستقيم الإنسان حتى في عاطفته.

(**وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ**)

أما من أين يستمد الرسـالي روح الاسـتقامة؟ فـذلك من توكله على الله ، أما لو اعتمد على نفسه أو على الآخرين فانه لن يستطيع ذلك.

ومن الملاحظ : ان القرآن يـأمر بالتوكل عند ما يـأمر بالسلم مع الأعـداء ، أو الصـبر عليهم ، أو تـرك أذاهم ، أو ما أشبه ، كقوله تعالى : (**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ**).

ولعل السبب هو ان المبادرة بالاعتـداء على الآخـرين تأتي ـ عادة ـ من الخـوف منهم ، ومن يتوكل على الله لا يخاف ، ولذلك لا يعتدي على أحد ، بل لا ينتقم منهم حـتى لا يشكلوا خطرا حقيقيّا عليه.

(**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً**)

وعند ما يدعو القرآن الرسول إلى التوكل على الله لا يكتفي بالقول : «**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللـهِ**» إنما يتبع ذلك بقوله : «**وَكَفى بِاللــهِ وَكِيلاً**» وذلك حـتى لا نعتقد بامكانية الخلط في التوكل بين الله والآخرين ، ففي الـوقت الـذي نرفع فيه شعار الإسلام نعتمد على الغرب أو الشرق ، كلا .. ففي الله الكفاية.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــــــــوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنـــــــــاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُـوهُنَّ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَمَسُّـوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِـدَّةٍ تَعْتَـدُّونَها فَمَتِّعُـوهُنَّ وَسَـرِّحُوهُنَّ سَـراحاً جَمِيلاً (49) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَـــكَ أَزْواجَـــكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللـهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِـكَ وَبَنـاتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْـرَأَةً مُؤْمِنَـةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَـكَ مِنْ دُونِ الْمُـؤْمِنِينَ قَـدْ عَلِمْنا ما فَرَضْـنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُـونَ عَلَيْـكَ حَـرَجٌ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (50) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ

---

50 [أفاء الله عليك] : أعطاك من الغنيمة والأنفال.

مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْـزَنَّ وَيَرْضَـيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللـهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً (51) لا يَحِلُّ لَـكَ النِّسـاءُ مِنْ بَعْـدُ وَلا أَنْ تَبَـدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَـوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُـكَ وَكـانَ اللـهُ عَلى كُلِّ شَـيْءٍ رَقِيبـاً (52) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَـدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِـرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِـينَ لِحَـدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كـانَ يُـؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْـتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللـهُ لا يَسْـتَحْيِي مِنَ الْحَـقِّ وَإِذا سَـأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعـاً فَسْـئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجـابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ

---

51 [ترجي] : الإرجاء هو التأخير والمراد منه تبعد عن نفسك من تشـاء من أزواجك.

[وتؤوي] : الإيواء ضم القادر غيره ، والمراد منه بأن تقربها إلى نفسك.

53 [غير ناظرين إناه] : أنى الطعـام يـأني إذا بلغ درجة النضج أي غـير منتظرين نضجه وطبخه.

لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُـوا أَزْواجَـهُ مِنْ بَعْـدِهِ أَبَـداً إِنَّ ذلِكُمْ كـانَ عِنْـدَ اللـهِ عَظِيمـاً (53) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمـاً (54)

وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً

هدى من الآيات :

تتناول آيات هذا الدرس الحــديث عن العلاقة الزوجية عند الرســول (ص) وبعض محــدداتها ، وقبل الــدخول في تفاصيل الآيات هناك ملاحظتان :

الأولى : ان وجــود آيــات في القــرآن الحكيم تنهى الرسول عن بعض الأمـور دون الآخـرين ، أو تفـرض عليه واجبــــات من دونهم ، أو تزجــــره على بعض أفعاله ، وتكشف بعض ما أخفـــاه ، كما في زواجه بــــزينب بنت جحش ، كل ذلك يـــدل على ان القـــرآن ليس من عند الرسول نفسه ، وانما هو وحي من الله له ، فلحن القرآن ، يهدينا إلى أن المتكلم غيره ، إذ لو كان هو المتحدث لما تكلم على نفسه بزجر أو نهي.

الثانية : توجد في القـــرآن كما في الأحـــاديث بعض الأحكام الخاصة بالرسول ذاته ، كوجوب صـلاة الليل عليه ، وجــواز زواجه بــأكثر من أربع ، وبمن تهب نفســها له ، وخصائص أخرى رفعها بعض العلمـاء الى أكـثر من سـبعة عشر خصيصة ، ومع

ان هذه الأمور لا تنسحب إلى غير الرسول (ص) حــتى إذا كـان من القيـادات الاسـلامية ، الا ان ذلك يـدل على أن بعض الأمـور تخص القائد بصـورة مجملة ، وينبغي للجميع معرفتها ومراعاتها ، ومن أهم هذه الأمور هو الوقت الهام عند القيادة.

فبـــالرغم من أن جميع الأفـــراد يعتقـــدون بضـــرورة القرب من القيـادة باعتبارها نقطة الحـزم ، وقطب الرحا الاجتماعية ، ألا انهم يجب أن يعرفوا بأن للآخرين من أبناء المجتمع والأقربـاء كما القائد نفسه حقا في وقته ، فيجب أن لا يطيلوا الجلـوس عنـده بعنـوان الاسـتفادة من علمه وتجاربه الا بمقـدار الحاجة والضـرورة ، وذلك ليتسـنى له التفـرغ لسـائر الأعمـال الـتي تعـود على الجميع بـالنفع والفائدة.

وتنبع أهمية هـــذا الأمر من أن القائد الـــذي يصـــرف أوقاته في قضايا لا طائل منها سوف لن يجد وقتا يصـرفه في الأمـــــور القيادية الهامّة ، كالمطالعة ، والتفكـــــير ، والمبـادرة ، ووضع الخطط ، مما يضـعف قيادته (قراراته وخططه) الأمر الذي يعود على الجميع بالضرر ، ومن هـذا المنطلق نهى الله المؤمـنين ان يـدخلوا على الرسـول الا بـإذن مسـبق ، ثم إذا جلسـوا اليه فـواجبهم ان لا يطيلـوا استئناسا للحـديث معه ، أو انتظـارا للطعـام ، ومع ذلك لا بد من التأكيد على أهمية الجانب الجماهيري في القيادة ، وانه من الخطأ ان تنفصل عن الناس.

بينات من الآيات :

(49) إذا عقد المـــؤمن على امـــرأة ، ثم طلقها من قبل ان يمســها ، فلا تجب عليها العـدة ، بل يجـوز لها ان تـتزوج بعد الطلاق مباشـرة ، وإذا كـان فـرض لها مهـرا محـــــددا وجب عليه دفع النصف لها ، وعند كـــــون المهر محـدد ، فـان لها عليه ان يمتعها بـان يـدفع لها شـيئا من المتــاع ذهبا أو مــالا أو لباسا مما يجـبر كسر شـأنها عند قريناتها.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً**)

من دون نزاع أو جدل ، أو تهمة يلقيها كل طرف على الآخر ، تبريرا للفرقة ، أو تشفيا من صاحبه ، وهذا الأمر ينبغي أن ينسحب على جميع العقود والمعاملات الاجتماعية والمالية وغيرهما.

(50) ثم ينتقل السياق لبيان بعض احكام الزواج بالنسبة للرسول (ص) فالزواج من الشؤون البشرية التي ينبغي للأنبياء الاهتمام بها ، باعتبارهم الأسوة للناس في سائر الجوانب حتى الاجتماعية منها ، فليس من الصحيح ان يجد الرسول غضاضة ولا حرجا في الزواج لكونه نبيّا أو قائدا ، وهذا ما أكدته الآية الكريمة : (**ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ**) والزواج الذي يحل للرسول (ص) على أنواع ثلاث :

الأول : ما يلتقي فيه مع الناس من جهة ، ويختلف معهم من جهة أخرى ، وهو الزواج العام فتحل المرأة للرسول كما لسائر المؤمنين بعد العقد والمهر ، بينما يختلف الرسول عن غيره في جواز زواجه بأي عدد شاء من دونهم ، إذ لا يحل لهم الزواج الدائم بأكثر من اربع نساء.

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ**)

وعن أبي عبد الله (ع) عن حمادة الحلبي : سألته عن قول الله عز وجل : (**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ**) قلت : كم أحل له من النساء؟ قال : «ما شاء من شيء». [1]

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (291).

الثاني : ما يتفق فيه مع سائر المؤمنين ، وهو الـزواج من الإماء والأقرباء.

(**وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ**)

والأمة : هي المـــرأة الـــتي يتملكها الرجل بالأسر أو الشـــــــــــــراء ، ولا يكتفي الله بـــــــــــــالتعبير (**وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ**) انما يضيف (**مِمَّا أَفـاءَ اللـهُ عَلَيْـكَ**) وذلك ليقول للرسول ولنا أيضا : بان الزواج لا يتم من غير ثمن ، فهو ان لم يكن بـــالأجر (المهـــر) فبالأسر ، وكلاهما فيه تعب وصعوبة.

ومما يجــوز للرســول الـزواج منهن القريبــات اللاتي تربطه بهن العلاقة العائلية.

(**وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَنـاتِ خالِـكَ وَبَنـاتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ**)

أما التي لا تهاجر مع الرســول (ص) ، وتبقى في مكة فلم يكن جائزا له الزواج منها.

الثالث : ما ينفرد به النـبي عن سـائر المؤمـنين وهي المرأة التي تهب نفسها له ، فانه يجــوز له الـزواج بها من دون أجر.

(**وَامْـرَأَةً مُؤْمِنَـةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَـها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**)

وفي تضـــاعيف الكلام يلاحظ انســـجام التعـــابير مع تخصــيص المــورد للرســول وحـــده ، فقد تكــررت كلمة «النبي» مرتين في موقع يمكن الاسـتغناء عن الثانية لو لا هـذا الأمر ، ثم أكد ربنا : (**خالِصَةً لَـكَ**) تحديـدا للخطـاب بأنه يعــني الرســول (ص) وحـــده ، ولم يكتف بـــذلك انما صرح بانفراده بها ، إذ قال (**مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**).

قال الحلبي : سألت أبا عبد الله (ع) عن المـرأة تهب نفسها للرجل ينكحها من غير مهر؟ فقال :

«انما كان هذا للنبي (ص) فاما لغـيره فلا يصـلح هذا حتى يعوضها شيئا يقدم إليها قبل ان يدخل بها ، قل أو كــثر ، ولو ثــوب أو درهم وقــال : يجــزي الدرهم» [2]

وعن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قـال :

«جــاءت امــرأة من الأنصــار الى رســول الله (ص) فــدخلت عليه وهو في مــنزل حفصة ، والمــرأة متلبسة متمشــطة ، فـدخلت على رســول الله (ص) فقــالت : يا رسول الله! ان المرأة لا تخطب الزوج وانا امرأة أيّم [3] لا زوج لي منذ دهر ، ولا ولد ، فهل لك من حاجة ، فــان تك فقد وهبت نفسي لك ان قبلتـني ، فقـال لها رســول الله (ص) خيرا ودعا لها ، ثم قال : يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيرا ، فقد نصـرني رجـالكم ، ورغبت فيّ نســاؤكم ، فقــالت لها حفصة : ما أقل حيــاؤك واجــرأك وانهمك للرجــال! فقــال رســول الله (ص) : كفّي عنها يا حفصة فانها خـــير منك ، رغبت في رســـول الله فلمتيها وعبتيها ، ثم قال للمرأة : انصـرفي رحمك الله فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك فيّ ، وتعرضك لمحبـتي وسـروري ، وســيأتيك أمــري ان شــاء الله ، فــانزل الله عز وجل : (**وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَـةً لَـكَ مِنْ دُونِ الْمُـؤْمِنِينَ**) قـال : فأحل الله عز وجل هبة المــرأة نفســها لرســول الله ولا يحل ذلك لغيره» [4]

---

(2) المصدر / ص (291).
(3) الأيم : التي لا زوج لها ، بكرا كانت أو ثيّبا.
(4) المصدر / ص (292).

وتأكيد رابع يضــيفه القــرآن بــان هــذا الحكم يخص الرسول وحـده حين يقـول : بـان للمؤمـنين احكاما خاصة تختلف عن أحكام النبي في الزواج.

(**قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ**)

من وجوب المهر ، فلا يمكن لأحد غير النبي ان يتزوج امرأة من دون مهر أبدا ، والسبب أن المهر فرض للمرأة ، ضمانا لها ضد شهوة بعض الرجـال ، والرسـول معصـوم أن يحيف زوجته أو يظلمها ، وإذ ينتهي الحـــديث لهـــذه الفكـرة فمن أجل رفع الحـرج عن النـبي (ص) حيث خصّ دون غيره ببعض الأمور ، تبين ذلك الآية الكريمة :

(**لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**)

(51) وهكــذا ينســاب الســياق مبينا جانبا من حــدود العلاقة الزوجية عند الرسول حيث يقول :

(**تُرْجِي مَنْ تَشـاءُ مِنْهُنَّ وَتُـؤْوِي إِلَيْـكَ مَنْ تَشـاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَـزَلْتَ فَلا جُنـاحَ عَلَيْـكَ ذلِـكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَـيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً**)

وقد انقسم المفسرون في هذه الى فريقين :

الاول : ربطها بما قبلها ، وقـال ان الآية (**تُـرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ**) يخاطب الرسـول : بأنك حرّ ترفض من تهب نفســها إليك ، أو تقبلها وتتزوجها ، واسـتندوا في رأيهم هـذا الى خـبر عن الحلـبي عن أبي عبد الله (ع) ، قــال : قلت : أرأيت قوله : «**تُــرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ**» قال :

«من أوى فقد نكح ، ومن أرجى فلم ينكح» [5]

الثاني : فسرها بحرية الرسول (ص) في تقسيم وقته على زوجاته كيفما يشـــاء ، وليس كما تـــرى زوجاته ، أو على أساس قانون معيّن له.

وانسـجاما مع هـذا الـرأي يكـون تفسـير الآية : انك يا رسول الله تسـتطيع ان تنـام عند من تشـاء من زوجاتك ، وتترك الآخريات «**تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُـؤْوِي إِلَيْـكَ مَنْ تَشاءُ**» بل أنت حر لو عينت ليلة ما لزوجة ما ثم بــدا لك ان تغير الوقت ان تفعل بما تراه «**وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ**» وهـذا الأمر يرفع احتمـال الـنزاع بين زوجات الرسـول لعلمهن بـأن الأمر بيـده لا بأيـديهن ، «(**ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ**) .. إلخ».

(52) وكما كانت الآيـات السـابقة قد أحلت للرسـول بعض الأمور ، جاءت هذه الآية لتحرم عليه أمورا أخرى.

(**لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَـدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُـكَ وَكـانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً**)

وفي هذه الآية أقوال عديدة :

1 ـ ان الآية جارية على ظـاهر لفظها ، ومعـنى ذلك : لا يجوز للرسول بعد نزول هذه الآية ان يتزوج غير زوجاته التسع ، ولا ان يطلق إحــداهن ليــتزوج غيرها ، باســتثناء الإماء.

---

(5) نور الثقلين / ج (4) / ص (293).

2 ـ وهناك روايات تخالف هـذا الـرأي ، حيث تسـتنكر ان يجـوز للإنسـان العـادي اسـتبدال زوجاته ، بينما يحـرم ذلك على الرســول (ص) وتفسر الآية بأنها تحــرم عليه الزواج من غير النساء اللاتي حددتهن الآية الســابقة : (**إِنَّا أَحْلَلْنا لَـكَ أَزْواجَـكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُـورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُـكَ**) .. الآية وبنـاء على المعـنى الأول فقد أوقف الله حرية الرسـول (ص) في الـزواج ، وذلك ليعرفنا ان تـزوج النـبي لم يكن بهـدف الشـهوة انما لأهـداف نبيلة أخـرى ، فمـرة يـتزوج امـرأة بعد ان جـربت الحيـاة الزوجية الـتي انتهت بــالطّلاق عــدة مــرات من أجل أن يســتر عليها ، ويتزوج بثانية لكي يستميل عشـيرتها ، وبثالثة من أجل ان ينقض عـــــــادة جاهلية قائمة في المجتمع تقضي بحرمة الزواج من مطلّقات الأدعياء.

(53) ثم يبين الله بعد ذلك العلاقة بين الرسـول ومن يحضر الى منزله محددا بعض الأحكام والآداب الـتي تمس هذه العلاقة.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُـوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ**)

1 ـ الـدخول الى بيت النـبي يجب أن يكـون مسـبقا بإذن.

2 ـ وعند الدعوة الى الطعام يجب ان لا يدخل مسبقا ، وينتظر أو ان الطعـــام ، لأن من آداب الأكل في بيـــوت الآخرين أن يأتي في الوقت المناسب ، وذلك لأن المجيء أول النهار وانتظار الغذاء يسبب الإزعاج لصـاحب الـبيت ، وقد جـاء في الســيرة : ان رسـول الله (ص) أو لم على زينب بتمر وسـويق ، وذبح شـاة ، فـأمر أنسا ان يـدعو أصحابه ، فترادفوا أفواجا ، فوج يدخل فيخـرج ، ثم يـدخل فوج ، الى ان قال : يا نـبي اللـه! قد دعـوت حـتى ما أجد أحـدا أدعـوه ، فقـال : ارفعـوا طعـامكم ، وتفـرق النـاس وبقي ثلاثة نفر يتحـدثون فأطـالوا ، فقـام رسـول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ

ليخرجوا ، فطـاف بـالحجرات ، فرجع فـاذا الثلاثة جلـوس مكـانهم ، وكـان ــ صـلى الله عليه وآله ــ شـديد الحيـاء ، فتولى ، فلما رأوه متوليا خرجوا ونزلت الآية. [6]

3 ـ ولكن إذا دعيتم فـادخلوا ، ولا يمنعكم الحيـاء من الاستجابة للرسول.

(**فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا**)

ولا تطلبوا الجلوس عند النبي حتى لو كان بهدف نبيل ، كالاستفادة من حديثه ، أو حديث بعضكم مع بعض.

(**وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ**)

ثم يبين القرآن خلفيّة هذا النهي : بـأن الجلـوس ربما يؤدي إلى احـراج الرسـول وأذاه ، بما ينتهي اليه من آثـار سلبية على برنامج حياته العائلية أو السياسية ... إلخ.

(**إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ**)

4 ـ وعلى الضيف ان يـراعي حرمة الـبيت الـذي يحل فيه ، فلو اضـــطرته الحاجة للتعامل مع أهله من النســـاء يجب ان يتعامل معهن بأدب ، وبمقـدار حاجته ، ومن وراء حجاب ، فبعد نزول هـذه الآية صـار حراما على المؤمـنين التحدث مع نساء الرسول الا بهذه الكيفية.

(**وَإِذا سَـــأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعــاً فَسْـــئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ**)

أما عن حكمة هذا التشـريع فهي الوقاية من الـذنب ، والتي لا تتم الا بطهارة

(6) جوامع الجامع للعلامة الطبري / ج (2) / ص (333).

القلب ، وهـذه الطهـارة لا تتـأتي الا بابتعـاد الإنسـان عن أسباب المعصية ، والتي من بينها حديث المرأة مع الرجل وبالـذات إذا لم يكن ثمة حجـاب بين الطـرفين ، ذلك أن من طبيعة المـرأة كما من طبيعة الرجل ان يميل أحـدهما للآخر بالغريزة ، ولعل الحـديث بينهما بغـير الصـورة الـتي تهدي لها الآية ينتهي الى المعصية.

(**ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَ**)

ولأن الرسول كان يدرك هـذه الحقيقة لم يكن ليتقبل هذه الحالة ، بل كانت تلحق به الأذى النفسي.

(**وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ**)

ولكي يقطع الله الطريق على القلـــــوب المريضة ، وبالتالي ينهي هذه المشكلة الـتي تـؤذي الرسـول ، حـرّم الزواج من نسائه بعده.

(**وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ**)

ومع ملاحظة ظروف نزول الآية نعرف أن هـذا الحكم يختص بنساء النـبي اللّاتي تعرضن لأذى المنـافقين ، حيث طمع بعضهم في الزواج منهن بعد الرسول ، وصرح بـذلك بوقاحة ، فحرم الله ذلك عليهم.

ان احترام بيت الرسالة كان يقتضي عدم ظهور نساء الرسول في المواقع العامة ، وعدم تحدثهن مع الرجال الا من وراء سـتر ، بينما يحـلّ مثل ذلك لغـيرهن إذا حـافظن على حدود الستر والعفاف.

قال علي بن إبـراهيم : لما انـزل الله : (**النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ**) وحرم الله نساء النبي على المسـلمين ، غضب طلحة فقـال : يحـرم محمد علينا

نســاءه ، ويــتزوج هو نســاءنا؟! لئن أمــات الله عز وجل محمــــدا لنركضن بين خلاخيل نســـــائه كما ركض هو بين خلاخيل نسائنا ، فانزل الله عز وجل : (**وَما كـانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ**) ... الآية [7]

وربما كان هدف هؤلاء المنافقين هو إيذاء الرسول الا انهم يخفون هذه النوايا ببعض التـبريرات كقـولهم : لمـاذا يتزوج هو بنسائنا ، ولا يصح لنا العكس ، فهـددهم الله من طرف خفي إذ قال :

(**إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً**)

وهناك حكمة أخرى لهذا التشـريع الالهي يـذكره بعض المفسرين : ان مركز نسـاء النـبي العظيم كـان يسـتهوي الطـامعين في السـلطة أو الشـهرة ، وكـان أمثـال هـؤلاء يمنّون أنفسهم بنكاح أزواج النبي من بعده للحصــول على مكانة اجتماعية تسـتغل لأطمـاع سياسـية ، ولعل بعضـهم كـان ينـوي نشر أفكـاره من خلال ذلك بادعـاء أنّه أضـحى من أهل البيت وهم أدرى بما في البيت.

ولعل الآية تشير ـ من طرف خفيّ ـ الى عـدم جـواز استغلال مكانة أزواج النـبي للوصـول الى مراكز سياسـية أو اجتماعية كما حصل فعلا ـ ومع الأسف ـ بين المسلمين من بعد رحيل الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ.

(54) ثم كشف هذا الواقع ، وأكد للمنـافقين أنه يعلم به.

(**إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً**)

بالتصريح به.

---

(7) نور الثقلين / ج (4) / ص (298).

(**أَوْ تُخْفُوهُ**)

بمختلف المظاهر والتبريرات التي تخدعون بها الناس الذين لا يعلمون إلا الظاهر.

(**فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**)

وأخيرا :

فـان هـذه الآية الكريمة ـ وكما أشـرنا في بـدايات الدرس ـ تصلح أن تكون نبراسا للمسلمين في كل مكـان في علاقتهم مع قيـادتهم ، فيحترمونها ، ويفرضـون على أنفسهم حقوقا لها ، لكي يستطيع القائد تقـديم أكـبر قـدر من الخدمة للأمة ، ولمبادئها واهدافها.

لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنـائِهِنَّ وَلا إِخْـوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسـائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ شَـهِيداً (55) إِنَّ اللـهَ وَمَلائِكَتَـهُ يُصَـلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْـلِيماً (56) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُـولَهُ لَعَنَهُمُ اللـهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِـرَةِ وَأَعَـدَّ لَهُمْ عَـذاباً مُهِينـاً (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنـاتِ بِغَيْـرِ مَا اكْتَسَـبُوا فَقَـدِ احْتَمَلُـوا بُهْتانـاً وَإِثْمـاً مُبِينـاً (58) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُـلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُـؤْمِنِينَ يُـدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكـانَ اللـهُ غَفُوراً رَحِيماً (59) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ

---

55 [جناح] : ذنب.

59 [يدنين عليهن] : يقربن ويغطين.

[جلابيبهن] : الجلباب خمار المرأة الذي يغطي رأسها ووجهها.

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَـةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجاوِرُونَــكَ فِيها إِلاّ قَلِيلاً (60) مَلْعُــونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (61) سُنَّةَ اللــهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً (62)

---

60 [والمرجفون] : الإرجاف إشاعة الباطل والأخبار الكاذبة.
[لنغرينك بهم] : الإغــراء الــدعاء الى تنــاول الشــيء بــالتحريض عليه ، والمراد تسلطك يا رسول الله عليهم.

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

هدى من الآيات :

يتابع السياق في هذا الدرس حديثه عن نساء النـبي ، وضرورة احتجابهن عن الأجانب من الرجال والنساء الا ما استثني ، وإذ يفرض عليهن الحجاب تجـاه غـير المؤمنـات من النساء ، فلأنّهن قد يصبحن نافذة للأجانب من الرجـال على المــرأة المؤمنة ، ويصــفن جمــال المؤمنــات لهم ، حيث لا يملكن رادعا دينيا عن القيام بهذا العمل.

ثم ينتقل السياق الى الحديث عن الرســول (ص) بعد الحديث عن نسـائه ، وقد سـبق القـول : بـان العلاقة بين أسرة الرسول والرسول نفسه ، اي النـواحي القيادية فيه لهي علاقة وثيقة ، لأنها العلاقة بين مركز الإنســان الــذي منه ينطلق ويتقـــدم ، وبين اهدافه ووســـائل تحركه في الحياة ، فلا ريب أن البيت الصـالح والـذي يكـون أهله في مسـتوى المسـؤولية سـوف يسـاعد الإنسـان على القيـام بمهامه ، وإذا كـان المثل الشـائع يقــول : (وراء كل رجل عظيم امرأة) فانا نقول : (وراء كل رجل عظيم بيت

مبارك) ولهذا كان من أهم تطلعات عباد الرحمن الذين تحدّثنا عنهم سورة الفرقان هو البيت الصالح ، وإمامة المتقين. لأنهم يدركون أهمية هذا الأمر في تحقيق طموحهم الأسمى وهو قيادة المجتمع (**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً**) [1] ومن أجل أن يطمئن قلب الإنسان ، وينطلق لقيادة المجتمع ، لا يكفي ان تكون زوجته وحدها صالحة لأن للأولاد وعموم أفراد الأسرة أثرا بالغا على شخصية القائد ، وهنا يجب أن نؤكّد على ضرورة التفات المرأة الى موقعها في حياة زوجها ، فان طبيعة سلوكها معه سوف تؤثر في حياته ، فعليها إذن أن تسعى لتنظيم حياتها وأسرتها معه.

من هنا نجد الامتزاج والاختلاط بين شطري السياق واضحا في تمام السورة ، يلتقيان تارة وينفصلان أخرى ليلتقيا من جديد وهكذا ، وهذان الشطران هما بعد القيادة في البيت ، وبعدها في المجتمع.

ثم يدعونا القرآن للصلاة على النبي (ص) الذي يصلي عليه الله وملائكته وينتهي السياق بالاشارة الى أذى المنافقين للرسول (ص) في حياته وبعد وفاته ، المتمثل في عدم تطبيق مناهجه ، وعدم القيام بمسؤولياتهم تجاهه كقائد ، وأعظم من ذلك محاولتهم الحط من شأنه ، والذي يناقض صلاة المؤمنين عليه وتسليمهم له ، وينذرهم القرآن بالطرد من المدينة ، واجتثاث جذورهم منها إذا ما استمروا في عملهم هذا ، كما نجد في ـ البين ـ توصية للمؤمنات بضرورة الحجاب ، وقاية لهم من أذى المنافقين ، وأصحاب القلوب المريضة ، والمرجفين.

بينات من الآيات :

(55) تحدثنا هذه الآية عن بعض حدود الحجاب الاجتماعية ، وبيان من

(1) الفرقان / (74).

يســتثني من هــذا الحكم ممن يمكن لنســاء النــبي عــدم التحجب معهم.

(**لا جُناحَ عَلَيْهِنَ**)

اي لا عتب ولا ذنب على نسـاء النـبي ، لو لم يتحجبن عمن تشير إليهم الآية وهم :

(**فِي آبـائِهِنَّ وَلا أَبْنـائِهِنَّ وَلا إِخْـوانِهِنَّ وَلا أَبْنـاءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَ**)

ان يتحدثن معهم من دون حجاب ، ثم تضيف الآية :

(**وَلا نِسائِهِنَ**)

اي النســـاء اللـــواتي يتحـــدث معهن في الـــدين ، ثم يســتثني القــرآن الاخريــات من النســاء في وضع خــاص ، وذلك إذا كنّ إماء تحت أيديهن.

(**وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ**)

من غــير نســائهن (المؤمنــات) فعمــوم النســاء غــير المؤمنـــات يجب التحجب عنهن الّا الإمــاء ، وذلك للحـــرج والوقوع فيما لا يطـاق ، ولأنّ الأمة مقطوعة عن مجتمعها الكافر فهي لا تكون نافـذة عليه ، وفي الآية التفاتة لطيفة يتعـرض لها المفســرون وهي سـكوتها عن الخـال والعم ، ويرجعون ذلك لحرمة جلـوس نسـاء النـبي لهـذين الاثـنين من غير حجاب ، والسبب ان أبناء العم والخـال يجـوز لهم الــزواج من أبنــاء العمة والخالة ، فمن الممكن ان يحكي العم والخـــال لأولادهم حـــال بنت أخوهما أو أختهما ، مما يمكنهما تشـجيعهم على الــزواج منها بعد طلاقها أو وفــاة زوجها ، بينما يحـــرم ذلك بقاعـــدة خاصة على المؤمـــنين جميعا من نساء النبي (ص) فوجب عليهن

التحجب عن أخوالهن واعمامهن من دون سائر المؤمنات.[2]

والـذي يؤيد هـذا الـرأي ان ما تعرضت لهم الآية من الـذكور لا يجـوز لهم الـزواج من نسـاء النـبي وان نزلـوا ، وهناك رأي آخر يقـول : ان تـرك الخـال والعم كـان لدلالة السـياق عليهما ذلك ان الآية ذكـرت أبنـاء الاخـوان وأبنـاء الأخوات ، وهم الذين تصبح المـرأة بالنسـبة إليهم عمّة أو خالة ، فــدل على حرمة العم والخــال لأنها ذات العلاقة ، ولا فرق بين العم والعمة والخال والخالة. [3]

ولم تــــذكر الآية أيضا والد الــــزوج أو ابنه لأنهما ـــــ بالنسبة الى نساء النبي ـ لم يكونا موجودين عملا.

وبعد هــــذه المجموعة من الأحكــــام المتقدمة يحث القرآن نساء النبي على التقوى قائلا :

(**وَاتَّقِينَ اللهَ**)

وهذا التأكيد على التقوى لسببين :

الاول : حــتى لا تــزعم اي زوجة للرســول ان مجــرد انتمائها اليه يعفيها عن المســــؤوليات الدينية ، أو يجعلها أرفع درجة من غيرهـــــا. كلا .. بل الأهم من الانتمــــــاء الظاهري انتماؤها الواقعي للنبي بالتقوى.

الثــاني : لان التقــوى أفضل وازع نفسي عن تعــدي حــدود الشــريعة ، وما لم يسع المــؤمن نحو إيجــاد روح التقــوى في نفسه فانه لن يســتطيع الالــتزام بكثــير من الأحكام ،

---

(2) تفسير مجمع البيان / ج (8) / ص (368) / عن الشعبي وعكرمة.
(3) تفسير نمونه / ج (17) / ص (412).

ذلك أن من طبيعة البشر أنه يريد ان يكـــــون مطلقا كما يهوى ، وليس من شيء يواجه هـذه الطبيعة كـالتقوى لما توجده من إحساس بالرقابة الالهية الدائمة وجـاء في أحد التفاسير : «**وَاتَّقِينَ اللهَ**» في نقل الكلام من الغيبة الى الخطـــاب دلالة على فضل تشـــديد فيما أمـــرن به من الاحتجـاب والاسـتتار ، أي واسـلكن طريق التقـوى فيما امرتن به ، واحتطن فيه. [4]

(**إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً**)

الصلاة على النبي :

(56) في ســياق الحـــديث عن عظمة الرســـول والأحكام التي يتميز بها يـدعوا الله المؤمـنين الى الصـلاة عليه ، والتســـــــليم لقيادته ، فلا يكتمل علاج المحيط الاجتمـــاعي الا من خلال الصـــلاة على الرســـول (ص) والتسلم له ، فما هو معنى الصلاة على النبي؟

لعل أصل معـنى الصـلاة هو التعطف والـترؤف ـ كما ذكرنا آنفا ـ أما الصـلاة على النـبي فهي الـدعاء الى الله بأن يرحمه ، ويرفع درجته ، ويبلغه المقام المحمـود الـذي وعـده ، أما صـلاة الله على نبيه ، فبالنسـبة الى الله تأخذ الكلمـات غاياتها وتـترك مبادئها ، فحينما نقـول بـان الله يحب ، ويبغض ، وينتقم ، فليس المعـــنى انه تطـــرأ عليه هذه الحـالات ـ سـبحانه ـ فتغـير فيه شـيئا كما تغـير في نفوسـنا وأجسـامنا ، انما تصـدق على الله الغايـات منها ، فعطفه على الإنســــــان هو هدايته له ، وانعامه عليه ، وصلاته على نبيّه ، انه يستجيب الدعاء في حقه ، وبسببه.

وصـلاة الملائكة على الرسـول (ص) تعـني الـدعاء له عند ربهم ، وتأييد تابعية ،

(4) تفسير جوامع الجامع / ص (377).

أما صلاة المؤمـنين الـتي وجبها الـرب علينا في صـلواتنا ، وندب إليها في كل وقت ، وبالذات عند ذكره ـ صــلى الله عليه وآله ــ فهي تعـني الـدعاء له ، والتقـرب الى مقامه الكريم ، ومن أبرز الحكم فيها :

أولا : تصـحيح عقيـدة المسـلم ، ففي الـوقت الـذي يجب ان يعظم المســلم نبيه (ص) لا يجـــوز ان يغلو فيه فيمرق من الـدين ، بلى. يكرمه من خلال الـدعاء الى الله سبحانه لتبقى صـلته الاولى بربه ، ومن خلال توحيد الله ، وحبه الشـديد يكـرم المسـلم الرسـول ويحبه ، وفي ذات الوقت تبقى علاقته بالرسـول وسـيلته للتقـرب الى الله ، ومن دون التســليم له ولمن أمر الرســول باتباعه ، ومن دون حب الرســــــول وحب من أمر بحبهم لا يمكن ان يتقرب المسلم الى ربه. هكذا تحمل كلمـات الصـلاة على الرسول وآله إطار العقيدة الاسـلامية ، وتعـني المزيد من التقــــرب الى الله ولكن بالرســـــول ، والمزيد من حب الرسول ، ولكن في الله.

ثانيا : ان ذلك حق علينا تجــاه الرســول الــذي أجهد نفسه من أجل البشرية ، وتحمل الأذى في سبيل هــدايتها ، حتى قال (ص):

«ما أوذي نبيّ قط بمثل ما أوذيت»

وأبــرز شـكر نقدمه للنـبي (ص) على ما نملك اليـوم من الهداية والخـير ، اللـذان كانا بسـببه ، يكـون بالصـلاة عليه (الدعاء له).

ثالثا : ان صلاتنا عليه يعـود علينا بـالنفع والخـير ، كما جاء في الدعاء للمؤمن ، ففي الحديث قال الامام الصادق (ع):

«دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب يسوق الــرزق ، ويصرف عنه البلاء ، ويقول له الملك : لك مثلاه» [5]

(5) بح ج / (93) / ص (388).

وحينما ندعوا الله للرسول ان يرفع درجته من الناحية المعنوية والمادية فانا أيضا ترتفع درجاتنا كتابعين له.

جاء في الحديث المأثور عن الرسول (ص):

«من صلى عليّ صـلى الله عليه وملائكته ، فمن شاء فليقل ومن شاء فليكثر» [6]

ان الرسـول هو قائـدنا في الـدنيا والآخـرة ، فكلما ارتفعت درجته ، وعلا مقامه ، فـان درجـات المؤمـنين به ترتفع وتعلوا ، جـاء في حـديث مـأثور عن الامـام الصـادق (ع):

«ان رجلا أتى النبي فقال : يا رسول الله أجعل لك تلك صـلاتي ، لا بل اجعل لك نصف صـلاتي ، لا بل أجعلها كلها لك ، فقـال رسـول الله إذا تكفى مؤنة الدنيا والآخرة» [7]

وفي رواية :

«ان رسول الله جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه ، فقـال النـبي : انه جـاءني جبرئيل ، فقـال : اما ترضى يا محمد ان لا يصـلي عليك أحد من أمّتك صلاة واحـدة إلا صـليت عليه عشـرا ، ولا يسـلم أحد من أمتك الا سلمت عليه عشرا» [8]

وحـتى في الـدنيا فانه كلما ارتفعت درجته (ص) كلما ارتفع شأن المسلمين جميعا.

---

(6) تفسير البصائر / ج (32) / ص (628).
(7) المصدر.
(8) المصدر.

رابعا : ان الصـــلاة على النـــبي (ص) من وســـائل اســـتجابة الـــدعاء ، وقد يـــدعو العبد ربه الف مـــرة فلا يستجيب له حتى يصلي على محمد (ص) يبدأ بها ويختم.

قال الرسول (ص):

«صلاتكم عليّ اجابة لدعائكم ، وزكاة لأعمالكم» [9]

وقال الامام علي (ع):

«لا يزال الدعاء محجوبا حـتى يصـلّى على محمد وآل محمد» [10]

وقال الامام الصادق (ع):

«من كـــانت له الى الله عز وجل حاجة فليبـــدأ بالصلاة على محمد وآله ، ثم يسأل حاجته ، ثم يختم بالصلاة على محمد وآله محمد ، فـان الله أكـرم من ان يقبل الطـرفين ويـدع الوسط ، إذ كـانت الصـلاة على محمد وآل محمد لا تحجب عنه» [11]

اما عن الهـدف المباشر لهـذه الصـلاة فهو التسـليم للرســـول ، واتخـــاذ أســـوة وإماما ، وقد أفـــرد العلامة المجلس في كتابه بحـار الأنـوار بابا خصصه لتفسـير هـذه الآية الكريمة. [12]

(**إِنَّ اللـــهَ وَمَلائِكَتَـــهُ يُصَـــلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**)

---

(9) بح ج / (94) / ص (54).
(10) بح ج / (93) / ص (311).
(11) المصدر / ص (316).
(12) راجع بح ج / (2) / باب (26) / ص (199) وما بعدها.

وكم هو عظيم ان يستجيب العبد المؤمن الى ربه بالصلاة على النبي (ص) لينتمي الى حزب الله الذي يضم الملائكة المقربين ، ولكن ليس كل صلاة تحقق له هذا الانتماء ، انما التي يتلفظها بلسانه ، عارفا بحدودها في عقله ، مسلمة لها نفسه ، خاضعة لها جوارحه ، فإذا سمع الخطيب يقول : قال رسول الله (ص) يجب ان يصلي عليه بلسانه ، ويستوعب الصلاة بمعرفته ، ويستعد لتطبيقها بنفسه ، ثم ينطلق من عنده للعمل وفقها وبما تقتضيه ، ومن الناحية النفسية الذي يدعو لآخر في غيابه فانه سيحبه حتى لو كانت بينهما عداوة ، ذلك ان الدعاء يلين جانب الداعي للطرف الآخر من جهة ، ومن جهة أخرى يشعر المدعو له بالميل ومن ثم المحبة ، حتى ولو لم يفعل شيئا غير الدعاء ، لأن للقلوب عليها شواهد ، ولأن النفوس جنود مجندة ، تتألف غيبيا كما تتألف شهوديا.

ونحن عند ما نصلي على رسول الله فان حبه واحترامه يسمو في قلوبنا إلى ان نصير محبين له ، مما يسهل علينا طاعته ، والتأسي به ، وقد قرأت في علم النفس : انه وبعد التجارب العديدة ثبت ان الحب أقوى عامل للطاعة ، وان الطفل ـ على سبيل المثال ـ أكثر ما يطيع أمه حبا لها ، لا خوفا منها ، وفي المقابل تقدّم الام لطفلها الحنان والعطف والتضحيات لأنها تحبّه.

(57) ان الذي يبتعد عن رسول الله (ص) يبتعد عن رحمة الله وهؤلاء هم الذين يؤذون رسول الله ، سواء بالنيل من شخصيته أو بأذى ذريته أو بمخالفته أو ما أشبه.

وفي أكثر من مناسبة قرنت طاعة الله بطاعة رسوله ، وهنا نجد ان السياق يذكر أذى الله قبل أذى الرسول للتأكيد بأن الموقف من الرسول يحدد الموقف من رب العالمين ، فمن آذى الرسول فقد أذى الله.

(**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ**

وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً)
وهـؤلاء بـدل الصلاة على النـبي وآله المفروضة وآله المفروضة عليهم تـراهم يـؤذون النـبي في نفسه أو في أهل بيته أو في التابعين له ، فتلحقهم لعنة الله في الـدنيا بالابتعـاد عن بركاته ، وفي الآخـرة بالحرمـان من شـفاعة الرسول (ص).
ونستوحي من الآية فكـرة هامة وهي : ان الأمة الـتي تؤذي القيـادة الرسـالية بمخالفتها ، والاسـتهانة بها تعـذب في الدنيا والآخرة ، بينما الأمم التي تعودت على الخضـوع لقيادة الحق تكون أعز وأعظم شأنا في الـدنيا والآخـرة .. وواضح من واقع الامة الاسـلامية انها حين الـتزمت بالطاعة للقيـادة الرسـالية في مطلع فجرها صـارت أعز الأمم وأفضـلها ، أما حين نبـذت أئمة الحق انحـرفت مسيرتها نحو الدمار والتخلف.
(58) ولان ثمة أناس لا يستطيعون النيل من الرسول ، فـإنهم يحـاولون المس بكرامة المؤمـنين ، وقد تعـرض السـياق لأذى المؤمـنين ، مؤكـدا بأنه ينتهي الى العـذاب أيضا ، ولا ريب ان من يؤذي اتباع الرسول ـ نساء أو رجالا ـ فانه يؤذي نفس النبي ، وبالتالي يؤذي الله.
ولقد ثبت في التـاريخ : ان أبا طـالب ـ والد الامـام علي (ع) ـ كـان من أرفع المؤمـنين درجة ، وأقـربهم الى النبي (ص) وقد سمّى الرسول العام الـذي تـوفي فيه أبو طـالب (رض) بعـام الأحـزان ، وكيف لا وكـان له بمنزلة الأب الحنـون؟! ولكن أقحمت بعض الروايـات الملفقة حوله في كتب التاريخ بهدف إسقاط شخصيته.
وحينما ندرس خلفيـات هـذه الروايـات نجد أن هـدفها النيل من بطل الإسلام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع) ذلك ان مروّجيها لم يجدوا نقصا في شخصية

الامـام فانتقصـوا والـده ، والملاحظ ان هـذه المرويـات انتشـرت أيـام بـني امية الـذين بنـوا سـلطتهم على الحقد الدفين للإمام علي وأهل بيته عليهم السلام.

(**وَالَّذِينَ يُـؤْذُونَ الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنـاتِ بِغَيْـرِ مَا اكْتَسَبُوا**)

انما بالافتراء المحض ، والتهم الكاذبة.

(**فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً**)

والبهتـــان هو التهمة الـــتي لا واقع لها ، وإذ يصف القرآن أذاهم بذلك فلكي يرفع التهمة أولا عن المؤمنين ، اما الإثم المبين فهو الذنب التام الذي يمارسه صاحبه عن وعي وعمد ، وجاء في الأثر عن الامام الرضا عليه السلام انه قال :

«**من بهت مؤمنا أو مؤمنة ، أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعـالى يـوم القيامة على تل من نـار حتى يخرج مما قاله فيه**» [13]

وروي عن الامام الصادق (ع) انه قال :

«**إذا كان يـوم القيامة نـادى منـاد : اين الصـدود لاوليـائي ، فيقـوم قـوم ليس على وجـوههم لحم ، فيقال : هؤلاء الذين آذوا المؤمـنين ، ونصـبوا لهم ، وعاندوهم وعنفـوهم في دينهم ، ثم يـؤمر بهم الى جهنم**» [14]

(59) (**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِـكَ وَنِسـاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَ**)

(13) تفسير نمونه / ج (17) / ص (424).
(14) نور الثقلين / ج (4) / ص (306).

والجلباب هو العباءة ، وانما أمر الله المؤمنات بتثبيت العباءة لأنهن وهن يلبسنها قد لا يراعين الألبسة التي تليها ، فقد تكون مما لا يليق ظهوره للآخرين ، ويبين القرآن ان الهدف الأهم من وراء هذا الفرض :

(**ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**)

والمعرفة هنا تحتمل أحد تفسيرين :

1 ـ ان يعرفن من بين النساء ، انهن ينتسبن الى رسول الله أو الى فلان من المؤمنين ، فيؤذين إمعانا في الأذى لذلك الطرف ، سواء بالكلام البذيء أو غيره.

2 ـ ان تعرف مفاتنهن وزينتهن مما يسبب الأذى لهن ، والملاحظ أن قسما من المؤمنات لا يراعين كيفية الحجاب تماما ، ولكن ليس بهدف الإفساد ، انما لعوامل تربوية وثقافية سلبية ، أو لقلة الوعي الديني ، فيؤدّي ذلك الى اثارة بعض أبناء المجتمع ، الذين قد تنتهي اثارتهم الى الاعتداء.

وعن هذه الآية جاء في تفسير القمّي : انه كان سبب نزولها : ان النساء كن يخرجن الى المسجد ويصلين خلف رسول الله (ص) فاذا كان بالليل وخرجن الى صلاة المغرب والعشاء الآخرة ، يقعد الشباب لهن في طريقهن فيؤذنهن ، ويتعرضون لهن.[15]

وقد عبر القرآن بكلمة «نساء» في عطفه الحديث عن المؤمنين على أمره رسول الله (ص) دون التعبير ب (زوجات المؤمنين وبناتهم) لما في كلمة نساء من ظلال خاص يشمل من جهة الزوجات والبنات ، ويشير الى الحد الشرعي للحجاب ، فوجوبه على الأنثى لا يكون الا إذا بلغت مبلغ النساء عرفا وشرعا.

(15) نور الثقلين / ج (4) / ص (307).

(60) ولان مشـكلة الحجـاب ذات طـرفين ، فانا نجد السياق في الوقت الذي يفرضه على النساء يزجر الرجال عن إيـذائهن ، لأنه كما يجب على المـرأة الحجـاب يجب على الرجل غض البصر ، وهنا نجد السـياق حـادّا مع المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض ، والمرجفـون (وهم الذين يذيعون في البلد الاشاعات الكاذبة).

يقول تعالى :

(**لَئِنْ لَمْ يَنْتَـهِ الْمُنَـافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ**)

وكل هـؤلاء تجمعهم السـلبية الاجتماعية ، والذاتية ، فالمنافق يعيش بشخصيتين الاولى مع المجتمع والرسـالة وهي الظاهرة ، والثانية ضدهما وهي الباطنة ، أما مـريض القلب فهو يعيش العقد ، ومختلف الأمـراض النفسـية ، الـتي يبحث عن متنفس لها ، ودائما ما يكـون تنفيسه هو التشـفي من أبنـاء المجتمع ، اما المرجف فـان طبيعته تضـعيف النفـوس ، وبث الـوهن والخـوف في صـفوف المجتمع ، عـبر اشـاعة الفـواحش والأخبـار السـلبية فيه ، ويبدو أن هذه الآية تـأول معـنى الأذى في الآية السـابقة ، فهؤلاء هم الذين يؤذون المؤمنين.

ولا بد للمجتمع والقيـادة الرسـالية من مواجهة هـذا القطـاع من النـاس حـتى تسـتمر مسـيرته التصـاعدية ، ونهاية هذا الدرس يحدد الموقف السليم من هـؤلاء ان لم يرتدعوا بالإنذار.

(**لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ**)

نحرضك عليهم لإخـراجهم من المدينة ، وتطهـير المجتمع من رجسهم.

(**ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها**)
في المدينة.
(**إِلَّا قَلِيلاً**)
ان أبعاد هؤلاء عن المجتمع ، وبالتالي عن التـأثير فيه أمر مهم ، لأن من طـبيعتهم الإفسـاد ، فلا حـلّ معهم الا الاجتثاث الجذري ، حتى لا ينفثـوا سـمومهم ، أو يتوسـعوا ليكوّنـوا لهم خطّا انهزاميّا سـلبيّا في المجتمع ، ويبـدو أن نزول هذه الآية ـ وعموما سورة الأحزاب ـ بعد استئصـال الخطر الآتي من مشـركي قـريش ، ويهـود المدينة يـدل على ان اهتمام المسلمين انعطف نحو تصـفية الحسـابات الداخلية ، خصوصا مع المنـافقين الـذين كـانوا يقومـون بأدوار خبيثة ضد المجتمع الاسلامي.
ونستوحي من ذلك أمرين :
أولا : حينما تعجز القـوى المعادية عن كسر شـوكة المسـلمين تحـاول التـأثير عليهم داخليّا بإثـارة المنـافقين وضعاف النفوس.
ولعل الأعـداء فعلـوا مثل ذلك بعد انهـزامهم في الأحـزاب ، مما دفع بالمسـلمين لمواجهة الوضع بقـوة وحزم.
ثانيا : حينما ينتصر المسـلمون في جبهة خارجية عليهم أن يستثمروا انتصارهم في تقوية جبهتهم الداخلية ، وتطهير صـفوفهم من المنـافقين ، ولكن بعد الإنـذار وفتح المجال للتوبة أمامهم.
(61) وحينما يبعد هـؤلاء الى مدينة أخـرى يفقـدون حماية المسلمين ، فيحيط بهم الخطر.

(**مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً**)

وهنا حكمـــان حكم بالابعـــاد ، وآخر بالقتل ، واختلف المفسـرون فيها ، ولعل الإبعـاد هو مقدمة قتلهم ، وقـال البعض ان القتل يشمل من لم يخرج منهم.

(62) وهـذا القضـاء قـانون الهي لا بد من تطبيقه في كل مكـان وزمـان ، لأنه يرتبط بثـوابت الحيـاة وقوانينها العامة ، وهـذا الفريق من النـاس ــ هو الآخر ــ لا يختص بعهد رســـول الله (ص) وحسب ، انما وجد في العهـــود السابقة وسيبقى سنة جارية في اللّاحقة أيضا.

(**سُـنَّةَ اللـهِ فِي الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْـلُ وَلَنْ تَجِـدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً**)

وفي الحـديث عن علي ابن إبـراهيم : انها نـزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة يرجفون برسول الله (ص) إذا خـــرج في بعض غزواته يقولـــون : قتل وأسر ، فيغتم المسلمون لذلك ، ويشكون الى رسـول الله (ص) فـانزل الله عز وجل في ذلك : (**لَئِنْ لَمْ يَنْتَـــهِ الْمُنـــافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**) اي شك (**وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَـكَ فِيها إِلَّا قَلِيلاً**) اي نأمرك بإخراجهم من المدينة الا قليلا. [16]

(16) نور الثقلين / ج (4) / ص (307).

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (63) إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (64) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (65) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (66) وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (67) رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (68) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً (69) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (71) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا

---

72 [وأشفقن] : خفن أن يحملوها خوف الخيانة فيها.

الْإِنْسـانُ إِنَّهُ كـانَ ظَلُومـاً جَهُـولاً (72) لِيُعَـذِّبَ اللـهُ الْمُنـافِقِينَ وَالْمُنافِقـاتِ وَالْمُشْـرِكِينَ وَالْمُشْـرِكاتِ وَيَتُوبَ اللـهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنـاتِ وَكـانَ اللـهُ غَفُوراً رَحِيماً (73))

إنّا عرضنا الأمانة

على السموات والأرض

هدى من الآيات :

في نهاية هــذه الســورة وبعد بيــان ضــرورة الطاعة للقيادة الرسالية ، وأنها فرص الهي ، يبين لنا القرآن الآثار الســلبية لرفضــها ، فقد توعد الله المنــافقين بــالنفي ، وإعلان الحــرب ضــدهم ، كما حــذر الكفــار بــأن كفــرهم سيؤدي بهم الى الخلود في السعير ، أما متى يحين ميعـاد هذا الجزاء؟ فقد تجــاوز الســياق الاجابة عن ذلك ، مكتفيا بالتأكيد على حتمية وقوعه ، وان تــــــبرير الكفر بطاعة الكبراء لن يغني عن العذاب شيئا.

ثم يوضح ربنا وجاهة النــــبي (ص) عنـــــده ، ناهيا المؤمنين عن التشبه ببني إسرائيل الذين آذوا موسى (ع) حيث اتهمــوه بقتل هــارون ، وبــالبرص ، كما ادعى عليه قارون ـ بالتعاون مع فـاجرة من بـني إسـرائيل ـ انه زنى بها ، لكن الله برأه من كل ذلك ، وفي هذا اشـارة الى ان أراجيف المنافقين سوف تـذهب سـدى بقـدرة الله ، وفي الأثنــاء يــدعو الله المؤمــنين للتقــوى ، ذلك انها أســاس المنطق السليم ، فهي تبعد

الإنسان عن الكذب والتهمة ، وتدعوه للتثبت في منطقه ، كما تصلح سعيه في الحياة ، وتمحو اخطاءه ، ولان التقوى لا تتم الا بطاعة الله والقيادة الرسالية ، وجدنا الآية تصفها بالفوز العظيم.

وتختم السورة آياتها بالحديث عن امانة عرضها الرب على السموات والأرض والجبال ، فرفضتها خوفا من عدم تحملها ، وبالتالي من العذاب والغضب الإلهي المترتب على ذلك ، بينما تحملها الإنسان ، فخانها المنافقون والكفار بظلمهم وجهلهم ، فما هي هذه الامانة؟

من ناحية السياق ، جاءت الكلمة بعد الحديث عن الطاعة ، مما يوحي بأنها تعني الطاعة لله وللرسول ، وبالذات لرسول الله ، لما في طاعته من خروج من سجن الذات ، الأمر الذي يستصعبه البشر ، فقد يكون سهلا عليه الاستجابة للقيادة في الأمور العادية كالصلاة ، والزكاة ، والحج ، ولكن من الصعب عليه الخضوع لإنسان مثله في الظاهر لو نصبه الرسول قائدا له.

وهناك أقوال أخرى حول الامانة تبناها بعض المفسرين ، فقال بعضهم انها الامانة المتعارفة ، كما لو أعطاك شخص ما ماله لتحفظه له فان ذلك مما يصعب على الإنسان رعايته وأداؤه ، وقال آخرون : انها العقل والعلم والارادة والحرية ، ومثلوا على ذلك بان الله وهب العقل للإنسان من دون المخلوقات الاخرى كالحيوانات ، ووهبه الارادة والاختيار دون الملائكة الذين جردهم عن الشهوة الدافعة لهم باتجاه الشر والفساد ، وقد وصفهم عز وجل بقوله : (**بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**) [1] وكل هذا صحيح ولكن التجربة الحقيقية للإنسان بعقله وعلمه واختياره انما تكون في طاعة الرسول بتمام المعنى ، التي تعتبر أصعب

---

(1) الأنبياء / (26 ـ 27).

تجليـات الاختيـار في حيـاة البشر ، فلا معارضة اذن بين القـول بـأن الامانة هي العقل ، وبين القـول بأنها الطاعة للرسول بدلالة السياق القرآني.

بينات من الآيات :

]63[(**يَسْئلُكَ الناسَ عَنِ السَاعَةِ**)

تقف وراء هذا السؤال فكرتان :

الأولى : استبعاد الإنسـان بطبعه للجـزاء ، بالتسـويف تارة ، وبطول الأمل أخرى ، فاذا بالشباب يتصـور المـوت بعيدا عنه ، والشـيخ يطـول أمله بالبقـاء أضـعاف عمـره ، وربما مـات الواحد بعد هـذه التصـورات بلحظة ، فقـامت قيامته [2] وما دام الأمر كـــذلك ، والإنســـان يجهل لحظة موته ، فعليه ان لا يغتر بنفسه ، وبماله ، وعشيرته ، لأنهم لا يغنون عنه شـيئا يـوم القيامة ، ولا يـدفعون عنه المـوت في الدنيا ، يقول أمير المؤمنين (ع):

«فـاتقى عبد ربه ، نصح نفسه ، وقـدم توبته ، وغلب شـــهوته ، فـــإنّ أجله مســـتور عنه ، وأمله خـــادع له ، والشـيطان موكّل به ، يـزين له المعصـية ليركبها ، ويمنّيه التوبة ليســـوفها ، إذا هجمت منيّته عليه أغفل ما يكـــون عنها ، فيا لها حسرة على كل ذي غفلة ، ان يكـون عمـره عليه حجّة ، وان تؤديه أيّامه الى الشقوة» [3]

وأسباب الموت كثيرة جدّا ، ومهما أبعدت أسبابا منها عنك فان غيرها يلزمك ولأنه سنة جارية على الخلق.

الثانية : الزعم الخـاطئ بـان على القيـادة ان تعـرف كل شيء ، وكأنها المسؤول

---

(2) اشارة للحديث الشريف :

إذا مات أبن آدم قامت قيامته.

(3) نهج البلاغة / خ (64) / ص (95).

المباشر عن كل جـــزء من الـــدعوة ، والواقع أنها تنتهي مسئوليتها بإبلاغ الرسالة لتبدأ مسئولية النـاس ، أما مـتى تكـون السـاعة ، فليست الإجابة على ذلك من ضـروريات القيــادة ، ولا من مســئولياتها ، ذلك انه يكفي للإنســان العلم بحصــولها لكي تبــدأ مســئوليته تجاهها ، كما يكفي الرسـول والقائد مسـئولية بيـان ذلك للنـاس ، ثم إن علم الساعة مما يختص به الله عز وجل.

(**قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً**)

ولعل : تفيد الـترجي ، مما يـدل على كفاية الاحتمـال بقرب الساعة موعظة للإنسـان ، حـتى يعمل بما يقتضـيه هذا العلم ، ايمانا وعملا وتسليما للقيادة.

(64) ولكن الكــافرين يبحثــون عن مــبرر لكفــرهم بالساعة ، مهما كان سخيفا وخارجا عن حدود الموضوعية ، ولكن هل يـدفع ذلك العـذاب عنهم؟ كلا .. فقد أبعـدهم الله عن رحمته ، وأعدّ لهم سعيرا.

(**إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً**)

ولنستمع شيئا عن هذا السعير ، فقد جـاء في تفسـير علي بن إبــراهيم عن أبي بصــير (رض) قــال : قلت لابي عبد الله (ع) : يا ابن رســول الله خوفــني فــان قلــبي قد قسى ، قال

«يا محمد! استعد للحيـاة الطويلة ، فـان جبرئيل جـاء الى النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وهو قـاطب ، وقد كـان قبل ذلك يجيء وهو مبتسم ، فقـال رسـول الله (ص) : يا جبرئيل! جئتني اليوم قاطبا؟! فقال : يا محمد! قد وضعت منافخ النار ، فقال وما منافخ النـار يا جبرئيـل؟ فقـال : يا محمـد! إن الله عز وجل أمر بالنـار فنفخ عليها الف عـام حتى ابيضت ، ثم نفخ عليها الف عام حتى احمرت ،

ثم نفخ عليها الف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة ، لو أنّ قطرة من الضريع قطـرت في شـراب أهل الـدنيا لمـات أهلها من نتنها ، ولو ان حلقة واحـدة من السلسـلة التي طولها سـبعون ذراعا وضـعت على الـدنيا لـذابت من حرها ، ولو ان سـربالا من سـرابيل أهل النـار علق بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من ريحه»

الى ان يقول الامام (ع):

«**فما رأى رسول الله (ص) جبرئيل مبتسـما بعد ذلك**» [4]

(65) وأعظم ما في العـذاب الـذي ينـال الكـافرين ، خلودهم الأبـدي فيه ، بين المـوت والحيـاة (**كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ**) [5]

ثم ان علاقـاتهم السـلبية بالقيـادات المنحرفة من الطـواغيت وأصـحاب المـال والوجاهة لن تنفعهم ، لأن الذي ينفع هنالك علاقة الإنسان بربه ، وبالقيـادة الرسـالية التي يرتضيها.

(**خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً**)

(66) ومن صـور العـذاب الظـاهر لهـؤلاء في جهنم تقليب وجوههم فيها.

(**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ**)

ولهذه معنيـان : الأول : ان تقليب الوجه هو تبدله من حال الى حال ، ومن صورة الى أخرى ، والثـاني : هو أنها تقلب في النـار على كل جـانب لكي تنالها من جميع الجهات ، كما يقلب اللحم في الافـران لتنضـجه من جميع نواحيه.

---

(4) تسلية الفؤاد / ص (240).
(5) النساء / (56).

وعند مشاهدة هذه الألوان من العذاب يتمـنى الكفـار والمنافقون لو انهم استجابوا لله وأطاعوا الرسول ، واني ينفع الكلام في دار الجــزاء ، وقد أضــاعوا على أنفســهم فرصة العمل في الحياة الدنيا؟!

(**يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا**)

بينما كانوا يعتـذرون عن الاسـتجابة للحق ، والتسـليم لقيـادة الرسـول في الـدنيا ، وهـذا مما يـدل على ارتفـاع الحجب والتـبريرات يـوم القيامة ، وأن تـبريرهم لكفـرهم بـأنهم لا يعلمــون بميعــاد السـاعة إنما كـان للتملص من مسئولية الإيمان والطاعة لا أكثر.

(67) ومما يقدمه أهل النـار لتـبرير كفـرهم بالقيـادة الرسالية أنهم انخـدعوا بالقيـادات الضـالة ، ووقعـوا تحت تأثيرهـــا. وكل ذلك مرفـــوض عند الله ، لأن الإنســـان متصـرف وعاقل ، وليس آلة جامـدة تحركها الأيـدي كيف تشاء ، فهو اذن مسئول عن قراراته وأعماله وسـلوكياته ، وقد حمله الله هـــذه المســؤولية الــتي رفض حملها كل الخلائق ، وإذا ضــيعها فانما بجهله وظلمه ، ومن يقــول : ان الأوامر تأتي من فوق ، أو أنـني جنـدي مـأمور لا ترتفع عنه المسؤولية.

(**وَقـالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سـادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَـلُّونَا السَّبِيلَا**)

السادة : فهم كالحاكم والقائد السياسي ، والعسكري ، أو النظام الاقتصادي ، وسائر الجهات التي يعود عصيانها بـالأذى على النـاس ، اما الكـبراء فهم أصـحاب الوجاهة الاجتماعية ، أو الاقتصـادية ، وعمـوم الجهـات الـتي يتبعها الإنسـان لمصـلحة معيّنة بإرادته المجـردة وليس للخـوف منها ، وكـان من الحـريّ بهم الطاعة لله ولرسـوله ، خوفا من عذاب الله ، ورغبة في ثوابه ورضاه.

ونستوحي من هذه الآية بالاضافة الى سابقتها : ان السبيل يعني القيادة الرسالية ، ذلك ان القيادات المنحرفة ليس تضل الإنسان عن المنهج السليم وحسب ، بل وتضله عن القيادة الصالحة.

قال أمير المؤمنين (ع) في خطبة له يوم الغدير :

وتقربوا الى الله بتوحيده ، وطاعة من أمركم أن تطيعوه ، ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، ولا يخلج بكم الغي فتضلوا عن سبيل الرشاد باتباع أولئك الذين ضلوا وأضلوا ، قال ـ عزّ من قائل ـ في طائفة ذكرهم بالذم في كتابه : «**إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**» [6]

وقال علي بن إبراهيم في تفسيره : «**فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**» اي طريق الجنة ، والسبيل أمير المؤمنين صلوات الله عليه. [7]

(68) وعادة ما يبحث المضلّلون عن أعذار ترفع عنهم مسئولية الانحراف ، وتلقيها على كاهل السادة والكبراء منهم ، وقد يستطيعون خداع الناس في الدنيا بسببها ، ولكن انى لهم خداع الله؟!

(**رَبَّنا آتِهِمْ**)

السادة والكبراء.

(**ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً**)

والله سوف يعذب هؤلاء ضعف الآخرين وأكثر ، الا ان ذلك لن يرفع عن

---

(6) نور الثقلين / ج (4) / ص (308).

(7) المصدر والصفحة.

أولئك العذاب ، انما سيمكثون في السعير (**خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً**)

(69) ثم يحـذر الله المؤمـنين مباشـرة بعد تحـذيرهم الضـمني بـالتعرض الي حـال المضـلّلين في الآخـرة من الصبر الذي انتهى اليه أولئك باتباعهم القيـادات المضـلة ، فهي دوما تسـعى لإشـاعة الأفكـار الخاطئة ، والأراجيف والـدعايات الباطلة حـول قيـادة الحق لفض النـاس من حولها ، وجرهم نحوهم عن طريق الاعلام.

يقولـون : لا تنصـاعوا لهـذه القيـادة فانها تـورطكم ، وتعرضكم للسجن والقتل والتشريد.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا**)

ما تثيره القيادات المضلة من شـائعات حـول القيـادة الرسالية سـوف تنفضح ، لأن حكمة الله وبالتـالي قـوانين الحياة وسننها قائمة على نصرة الحق وأهله.

(**وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً**)

(70) ولان الشـائعات الباطلة قد تتلاقفها الألسن دعا الله المؤمنين الى الكلمة الصالحة ، والى تحمل مسـئولية الكلام ، ولا يتم ذلك الا بـالتفكير والاسـتقراء المنطقي ، وقبل ذلك كله بتقـوى الله ، ذلك ان التقـوى تصـنع في النفس نوعا من الرقابة الذاتية والمحاسـبة ، فـالمتقي يخشى من اتهام الآخرين ، ومن المشي بالغيبة والنميمة ، وهذه الأمور من مقومات الاعلام المنحرف ، والشائعات.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللـهَ وَقُولُـوا قَـوْلاً سَدِيداً**)

ولا يكون القول سديدا حتى يكون سـليما ، وفي وقته المناسب ، ولا يكون كذلك الا بـالتفكير والنظر الى الواقع والمستقبل. والذي يميز المؤمن عن المنـافق ان المـؤمن يتحمل مسئولية كلامه ، فهو يفكر كثيرا قبل الكلام ، بينما المنــافق يبــادر بالحــديث دون رؤية فيبتلى بكلام ، وفي الحديث :

«**وان لســان المــؤمن من وراء قلبه ، وان قلب المنافق من وراء لسانه**» [8]

ولو تكلم المــــؤمن بكلام ثم اكتشف أنه كـــان خطأ اعـترف بالخطإ ، وتراجع عن موقفه وكلامه ، اما المنـافق فتأخذه العزة بالإثم.

قال ابو عبد الله (ع) لعباد بن كثير البصري الصوفي :

«ويحك يا عباد! غرك ان عف بطنك وفرجك! إن الله ـ عز وجل ـ يقول في كتابه : (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُـوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ**) اعلم انه لا يقبل الله عز وجل منك شيئا حتى تقول قولا سديدا» [9]

وقــال رســول الله (ص) وقد ســأله أحــدهم : وهل يحاسبنا ربنا على ما نقول؟! قال :

«**وهل يكب النــــاس في النــــار الا حصــــائد ألسنتهم**؟!» [10]

(71) ولكي يكــون كلامنا ســديدا يجب ان نبتعد عن التبرير ، والكذب والنميمة ، والغيبة ، والتهمة ، وكل آفات اللسـان ، وهـذا ينعكس مباشـرة على سـلوكنا ، وسـلامة تحركنا في الحياة.

---

(8) نهج البلاغة / خ (176) / ص (253).
(9) نور الثقلين / ج (4) / ص (309).
(10) بحار الأنوار / ج (77) / ص (90).

(**يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**)

وفي الحديث عن الامام الصادق (ع):

«**ان الله جعل للشر أقفـالا ، وجعل مفـاتيح تلك الأقفال الشراب ، وشر من الشراب الكذب**» [11]

(**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً**)

والسؤال : ما هي العلاقة بين صلاح الأعمال والطاعة لله وللرسول؟

من خلال السياق القـرآني نكتشف ان الكلام السـديد هو الكلم الحق الطيب والذي يدعم التسليم لله ولرسوله.

(72) والتسـليم للقيـادة هو الامانة ، وهو من أبـرز تجليات الإرادة البشرية.

(**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها**)

ولكن الإنسـان تحملها ، وبظلمه وجهله الـذين ارتكز فيهما يخون هذه الامانة.

(**وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً**)

الظلـوم صـيغة المبالغة من الظلم ، والجهولة صـيغة المبالغة من الجهل ، وهـذا يشـير الى انهما صـفتان مغروزتـان في الإنسـان ، وهما من طبيعته العدمية الضعيفة ، وهو يستطيع التغلب على هاتين الطبيعـتين عن طريق العمل الصادق ، والوعي الدائم ،

(11) وسائل الشيعة / ج (17) / ص (263).

وبالتــالي عن طريق اتصــاله برســالة الله وتســليمه له ولأوليائه ، من الرسل والأئمة والقيادات الصالحة.

(73) وهــذا هو أبــرز مصــاديق تحمل الأمانة ، الــتي يتحدد مصــير الإنســان حسب موقفه منها ، فمن يخونها ــ وهم المنـافقون والكفـار ــ يصـير الى الجحـود والعـذاب ، ومن يرعاها ويحفظها يصير الى التوبة والثواب.

(**لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ**)

على خيانتهم ورغبتهم عن التسليم.

(**وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ**)

لان المــؤمن الحقيقي حينما يقع في الــذنب بســبب الغفلة أو الجهل ســـرعان ما ينتبه لخطئه ، فيعـــود الى مسيرته المستقيمة ، فيتوب الله عليه.

(**وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**)

والطريف هنا ان تنتهي هذه السورة ـ الـتي اشـتملت على آيـات العـذاب والعقـاب ــ بالإشـارة الى غفـران الله ورحمته ، مما يعمق فينا ـ نحن البشر ـ الملفوفين بالظلم والجهل الأمل بربنا عز وجل.

الامانة في الأحاديث :

وختاما لتفسير هذه السورة نـذكر جانبا من الأحـاديث الــتي ركــزت على تفســير الأمانة بأنها التســليم للقيــادة الرسالية :

1 ـ قال الامام الرضا (ع) وقد سأله الحسين بن خالد عن قوله عز وجل :

(**إِنَّا**

عَرَضْنَا الْأَمانَةَ) ... الآية .. فقال :

«**الامانة الولاية من ادعاها بغير حق كفر**» [12]

وقال ابو بصير : سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل : (**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ**) .. الآية قال :

«الامانة الولاية» [13]

وعنه (ع) قال :

«**هي ولاية أمير المؤمنين** (ع)» [14]

وقال ابو جعفر (ع) : في قول الله تبارك وتعالى : (**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها**) قال :

«**الولاية ، أبين أن يحملنها كفرا ، وحملها الإنسان**» [15]

وفي كتاب الاحتجاج للطبرسي رحمه الله ، عن أمير المؤمنين (ع) في حديث طويل يقول فيه (ع) لبعض الزنادقة ، وقد قال :

وأجده يقول : «**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً**» فما هذه الامانة ومن هذا الإنسان؟ وليس من صفة العزيز الحكيم التلبيس على عباده؟ واما الامانة

(12) نور الثقلين / ج (4) / ص (309).
(13) المصدر / ص (311).
(14) المصدر / ص (312).
(15) المصدر / ص (313).

التي ذكرتها فهي الامانة الـتي لا تجب ولا تجـوز ان تكـون الا في الأنبيـاء وأوصـيائهم ، لان الله ــ تبـارك وتعـالى ــ ائتمنهم على خلقه ، وجعلهم حججا في أرضه ، والسامري ومن اجتمع معه وأعانه من الكفّار على عبـادة العجل عند غيبة موسى (ع) ما تم انتحـال محل موسى من الطغـام ، والاحتمـــال لتلك الامانة الـــتي لا ينبغي الا لطـــاهر من الـــرجس فاحتمل وزرها ووزر من ســـلك ســـبيله من الظالمين وأعوانهم ، ولذلك قال النـبي (ص) : من اسـتن ســـنة حق كـــان له أجرها وأجر من عمل بها الى يـــوم القيامة ، ومن استن سنة باطل كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة [16]

---

(16) الاحتجاج / ص (251).

سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

1 ـ روي عن الرسول الأعظم (ص) انه قال :

«من قرأ سورة سـبأ لم يبق نـبيّ ولا رسـول الا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا»

(نور الثقلين / ج (4) / ص (314))

الإطار العام

الاسم :

أقتبس أسم السورة من قصة مشهورة عند العـرب ، وقد بين القرآن عبرتها الأساسية وهي قصة حضارة سبأ ، التي دمرت بسيل العرم لانحرافها وفسادها.

تتشـابه آيـات الـذكر في بيـان مسـئولية الإنسـان عن أفعاله ، وتفنيد الأعذار التي يتشبث بها البشر للفـرار عنها بزعمه.

ومن غرر السـور الـتي تـزرع الأحسـاس بالمسـؤولية الذي لو ترسخ في قلب الإنسـان زكّـاه ، وأصـلح أعماله ، هي سورة «سبأ» التي تـذكرنا أيضا بـالوحي المـنزل على النـــــــــــــــــــــــــــــــــــبي (ص).

وواقع الجـــزاء (المســـؤولية) تجل لاســـمي الحكيم الخبـــير اللـــذين نحمد الله بهما ، فهو العـــالم بما يلج في الأرض وما يخرج منها (1).

وعند قيام الساعة يتجلى الجزاء بـأبرز صـوره ، حيث لا ينفع تشـكيك الكفـار بها ، وحيث يحيط الـرب علما بكل شـيء ، لا يعـزب عنه مثقـال ذرة ، وحيث الجـزاء الـوافر للصـالحين ، والعـذاب الأليم لمن يسـعون في آيـات الله معاجزين (معاندين ومتحدين) (3)

وينقسم الناس فريقين تجاه الوحي : فبينما يراه أهل العلم هو الحق ، يســـتهزأ به الكفـــار ، ويقولـــون : هل الرســول مفــتر أم به جنــة؟! كلا .. بل أنهم لا يؤمنــون بالآخرة فهم في العذاب والضلال البعيد.

وينذرهم الذكر بأن كفرهم برسالات الله قد يعرضـهم لعذابه ، الذي ان شاء خسف بهم الأرض أو أسـقط عليهم من السماء كسفا (7).

ويعـرض السـياق صـورتين للحضـارة : أولهما صـالحة حيث اســتمرت ، بينما الثانية دمـــرت لفســـادها ، وهما بالتالي صورتان بارزتان لواقع الجزاء والمسؤولية.

فلقد آتى الــرب داود فضلا ، وألان له الحديد ، وعلّمه صنعة الدروع السابغة ، وسخر لسليمان الريح ، وسخّر له الجن ، وأمر داود وســـليمان بالشـــكر له ، فاســـتمرت حضـارتهما الى ما بعد مـوت سـليمان ، الـذي ما دل على موته إلا الأرضة الـــتي أكلت عصـــاته ، فعلمت الجن أنهم بقوا في العذاب لجهلهم بالغيب (وبالتالي لا يجوز الاعتماد عليهم للهروب من الجزاء كما زعم الجاهليون).

أما الصورة الثانية فتتمثل في قصة سبأ ، الذين أتاهم الله جنــتين عن يمين وشــمال ، وأمــرهم أيضا بالشــكر ، فأعرضوا ، فأرسل عليهم سيل العرم.

ومثلهم مثل القـــرى الآمنة الـــتي بـــارك الله فيها ، فكفرت ، فجعلهم الله أحاديث يعتبر بها كل صبار شكور (10).

وينسف القــرآن الكــريم أسس التــبرير الــتي يعتمد عليها الكفـار ، والـتي هي في ذات الـوقت حجب للقلب ، وغشاوة للبصر.

الف : إلقاء اللوم على إبليس الذي صدّق عليهم ظنّه ، ويؤكد الذكر انه لا سلطان له عليهم ، وإنما يبتلي الله به النـاس ، ليعلم من هو المـؤمن حقّا بـالآخرة ممن هو منها في شك.

باء : الأنداد الذين يزعمـون أنهم يغنـون عنهم شـيئا ، ويجرمون اعتمادا عليهم ، إنهم لا يملكـون مثقـال ذرّة في السموات والأرض ، ولا شـرك لهم في السـلطة ، ولا لهم أعـوان وأعضـاد ، ولا تنفع شـفاعتهم إلا لمن أذن الله له ، كما أنهم لا يملكون للناس رزقا ، ولا يتحمّلون عنهم وزرا.

جيم : إنّ النـاس إمّا على هـدى أو في ضـلال مـبين ، وإنّ أهل الصلاح لا يزرون من مسئولية المجرمين شــيئا (20).

ويذكّر السياق بأنّ الرسول بشير ونـذير لكافة النـاس ، وأنّ وعد الله آت ، لا يستأخر ساعة ولا يستقدم ساعة ، ويصوّر لهم مسئوليتهم عن إيمانهم بالرسـالة ، وأنّ جـزاء كفرهم اليوم يتجلّى عند قيام الساعة ، حيث يتلاوم الكفار ، ويلقي بعضهم المسؤولية على عاتق البعض الآخر.

دال : يلقي المستضـعفون اللـوم على المسـتكبرين ، ولكنهم لا يتحملــون عنهم وزرا ، بل يقولــون لهم : انكم كنتم مجرمين. وحين يشــترك الجميع في الأغلال يعلمـون أنهم كانوا جميعا مسئولون عن أعمالهم (بشهادة أنّهم في العذاب مشتركون).

هــاء : كـثرة الأمــوال والأولاد لا ترفع عن أصــحابهما الجزاء والمسؤولية ، ويزعم

المــترفون الــذين كفــروا بالرســالات الالهية : أنهم غــير معذّبين ، ويفند الذكر هذه الفكرة بما يلي :

أولا : إنّ الــرزق من الله ، فكيف يقف حـــاجزا دون جزاء الله؟

ثانيا : إنّ الأمــوال والأولاد لا يقربــونهم عند الله زلفى الا بقــدر الاســتفادة منهما في العمل الصــالح والإنفــاق ، ويعود القرآن ليــذكرنا : أن الإنســان مســئول عن رفضه ، وأنّ الــذين يســعون في آيــات الله معــاجزين يحضــرون للجزاء غدا عند ربهم.

واو : إنّ بعضهم كانوا يعبــدون الجن ، ويزعمــون أنهم يعبدون الملائكة (كل ذلك ليستمروا في جرائمهم اعتمــادا على شفاعة الملائكة) ويرفضهم الملائكة.

ويبين الــرب أنهم لا يملكــون لبعضــهم نفعا ولا ضــرّا ، وأن الظـــــــالمين مجزيّـــــــــون بالنـــــــــار (ولا ينقــذهم ادعــاؤهم الانتمــاء الى الملائكة من جــزاء ظلمهم) (28).

ويكشف القرآن الحجب الــتي يتلبس بها قلب الكــافر الواحد بعد الآخر :

أولا : حجــاب التقليــد. حيث تــراهم يتهمــون رســولهم بــالافتراء أو بالســحر لأنه يريد ان يصــدهم عما كــان يعبد آباؤهم.

ويقــول الــذكر : إن آبــاءهم لم يــنزل عليهم كتــاب يدرســــــــــونه ، ولا بعث فيهم نـــــــــــذير (حــتى يفتخــروا بآبــائهم الــذين لم يكن لهم رســالة ولا معرفة).

ثانيا : حجب الغــرور. حيث تجــدهم يكــذبون بالرســالة اعتمادا على قوتهم ، في حين أنّ قوة الأمم الغابرة الــتي كانت أكــثر من هــؤلاء عشــرات المــرات لم تــدفع الجــزاء المتمثل في العذاب النكير.

ثالثا : حجاب الغفلة. حيث يـدعوهم الـرب للقيـام من أجل الله ، والتفكر في رســولهم ليعرفــوا دلائل الصــدق فيه. فهو ليس بمجنون ولكنه يرى عـذابا شـديدا فينـذر به (وهذا هو دليل حماسه الكبير الذي فسّره الكفار بالجنون) وهو لا يطلب أجرا إلا ما يعود بالتـالي إليهم ، وهـذا شـاهد صدق على أنّه حق.

ثم إنّ الرب يشـهد له بالصـدق ، وهو على كل شـيء شهيد ، فهو يقذف بالحق فيهـدم أركـان الباطل فلا يتجـدد ولا يعود.

ويؤكّد ربنا أنّ خســارة الضــلالة تعــود على صــاحبها (فالإنسان مجزيّ بضلالته شاء أم أبى) (41).

ويحـذّر الـرب من مغبّة الضـلالة ، حيث لا يفـوت أحد منهم من قبضة العدالة ، بل يؤخـذون من مكـان قـريب ، فيقولـون : آمنـا! ولكن هيهـات لقد فـات الآوان ، وهنالك حيل بينهم وبين ما يشـتهون كما فعل بأتبـاعهم من قبـل. كل ذلك بسبب أنهم كانوا في شك مريب (51).

سورة سبأ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

)الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي لَـهُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (1) يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّـماءِ وَما يَعْـرُجُ فِيها وَهُـوَ الـرَّحِيمُ الْغَفُـورُ (2) وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لا تَأْتِينَا السَّـاعَةُ قُـلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عـالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْـزُبُ عَنْـهُ مِثْقـالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (3) لِيَجْـزِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

---

2 [يلج] : يدخل.
[يعرج] : يصعد.
3 [لا يعزب] : لا يفوته ولا يخفى عليه.

كَـرِيمٌ (4) وَالَّذِينَ سَـعَوْا فِي آياتِنا مُعـاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (5) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (6)

---

5 [معاجزين] : المعاجز الذي يحاول إبطال حجة الطــرف الآخر ، وقيل مثبطين.
[رجز أليم] : العذاب السيء.

وله الحمد وهو الحكيم الخبير

هدى من الآيات :

تبدأ هذه السـورة المباركة بالحمد ، وبـذكر اثـنين من أسماء الله ، وهما الحكيم الخبير ، ومن خصـائص القـرآن انه يـبين آياته وعـبره ، بعد التمهيد لها ببراعة الاسـتهلال ، وهو بـــدء المتكلم بالاشـــارة الى حديثه ، وفي القـــرآن الحكيم نجد بيانا للموضوعات التي يفصـلها السـياق بعدئذ عبر ألفاظ مجملة ، مما يـدل على نـزول الـوحي من عند الله ، إذ لا يقدر أحد على التحدث بهذا الإجمال والتعبـير ، وبهذه الاحاطة غير الله.

وعند البحث عميقا في هذه السورة التي تبـدأ بالحمد ، نجد إشارات وتجليات لاسـمي الحكيم والخبـير ، وحـديثا عن جـوانب من انعكاسـاتهما في الحيـاة ، وهكـذا نبـدأ المعـارف الالهية والقرآنية كما الـدين بـذكر الله ، وتنتهي اليه ، وفي الحديث :

«**أوّل الدين معرفته**» [1]

---

(1) نهج البلاغة / خ (1) / ص (39).

وهكـذا تـتركز المعرفة ثم تتسع وتعـود بعـدها لتـتركز مـرة أخـرى. في البـدء نتعـرف على أن ربنا حميد وحكيم وخبــير ، ثم نفتش في الحيــاة وإذا بها تــدلنا بما فيها من سنن وأنظمة على ذلك ، والنظرة الكلية للحياة (الفلسفة العامة) يجب أن توفر للإنسان الإجابة على السؤال التالي : ما هي الســنن والأنظمة العامة الــتي تســير الحيــاة؟ وبتعبــير آخر : ان الحكمة (الفلســفة) هي الــتي تبصــرنا بحقيقة أنفســنا ، وما يحيط بنا من الخلائق ، وبما تحكمها من سنن ثابتة ، وبالتالي تجعلنا قادرين على معرفة أفضل وعمل أصلح. وهذه الحكمة نجـدها مفصـلة في كتـاب ربنا الحكيم ، وأكثر آيات الذكر تبصّرنا بتعابير ظريفة يســتطيع أن يسـتوعب مضـامينها حـتى الطفل الصـغير ، وبشـكل متكامل ، فقوله الحمد لله الحكيم الخبــير يشــتمل على حقائق كثـيرة في الحكمة العامة ، لأنه يحـدّد بداية الكـون ونهايته وهدفه ، وانه قـائم على علم ونظـام يتجليـان في كل جــــزء وجــــزء منه ، لأنّ خالقه هو الله الــــذي يملك الســموات والأرض حاضــرا ومســتقبلا مما يــوجب علينا الحمد له في كل مكان وزمان.

والخبــير هو المحيط بــدقائق الأمــور نظريا وعمليا ، ومن مصاديق خبره انه يحيط علما بكل ما يلج في الأرض وما يخرج منها حتى الغازات التي تمتصـها الأرض أو الـتي تلفضـــــها ، يعلم الله وزنها وحجمها وطبيعتها ، كما يحيط علما بكل ما ينزل من السماء وما يعـرج إليها ، وألطف ما يعــرج هو النية الحســنة والعمل الصــالح اللــذان يرفعهما الله.

ثم يشــير الســياق الى أحد تجليــات الحكمة الالهية ، حينما يــذكرنا بــأنّ الله عــادل في جزائه للنــاس ، فالــذي يعمل الصالحات يجازيه بــالمغفرة والــرزق الكــريم ، بينما يعذب الذين يعملون السوء برجز أليم.

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(1) (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**)

قال بعض المفسـرين ان معـنى الآية : يا أيها القـارئ للقـرآن قل الحمد لله ، والحـال أننا لا نحتـاج الى تقـدير كلمة «قـل» لان جملة «الحمد للـه» مفيـدة للمعـنى المطلوب ، فالحمد التام الـدائم لله تعـالى شـئنا أم أبينا ، قلنا أم سـكتنا ، عرفنا أم جهلنا ، ومن هو أحـقّ بالحمد ممن خلق فرزق ، وقدّر فألهم ، وصوّر فأحسن.

(**الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

وما في الـدنيا صـورة مصـغرة ومحـدودة مما في الآخرة ، وحين نتذكر بالآيات الـتي تـدلّ على أن ربنا حميد في الدنيا نعرف انه حميد في الآخرة.

(**وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ**)

ومن آيات حمده حكمته وخبره.

(**وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**)

(2) ولكن ما هي تجليات هاتين الصفتين الالهيتين؟

يحـدثنا القـرآن عن علم الله (خـبره) أوّلا ، وذلك عند ما يعرّفنا بإحاطته علما بكل شـيء ، وعن حكمته ثانيا ، وذلك عند ما يذكرنا بجزائه العادل للخلق.

(**يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْـرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ**

(**وَما يَعْرُجُ فِيها**)

فالله محيط بكل شيء خبرا ، وجـاء في تفسـير الآية عن علي بن إبـــــراهيم : «**يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ**» ما يـدخل فيها «**وَما يَخْـرُجُ مِنْها**» قـال : من النبـات «**وَما يَعْرُجُ فِيها**» قال : من أعمال العبـاد [2] ولكن الله لا يتخذ علمه وسيلة ليضـار بها البشر ، بل هو رحيم بهم ، وبعلمه يرحمهم ، وإذا علم منهم ذنبا فإنّه يغفره لهم.

(**وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ**)

روى أبو بصـير عن الإمـام الصـادق عليه السـلام انه قال :

«**لما رأى إبـراهيم ملكـوت السـموات والأرض التفت فرأى رجلا يزني ، فدعا عليه فمات ، ثم رأى آخر فـدعا عليه فمـات ، ثم رأى ثلاثة فـدعا عليهم فمـاتوا ، فـأوحى الله اليه يا إبـراهيم إنّ دعوتك مسـتجابة فلا تـدع على عبـادي فـإني لو شـئت لم أخلقهم**» [3]

(3) وإذ يـذكرنا القـرآن بأسـماء ربنا الحسـنى ـ وانه حكيم خبـــير وعليم ـــ فلكي ينعكس ذلك على وعينا وسلوكنا. أو ليس ربّنا حكيما ، إذا لا بـدّ من يـوم الجـزاء ، وإنّما يكفر البعض بالساعة تهرّبا من حقيقة الجزاء.

(**وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ**)

وهكـــذا بهـــذه البســـاطة أرادوا التملّص من ثقل المسـؤولية ، بيد أنّ ربنا الجبـار قـال لهم كلمته الـتي لا تبديل لها :

---

(2) نور الثقلين / ج (4) / ص (314).

(3) المصدر / ج (1) / ص (732).

(**بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ**)

وحين تعرضون أمام ربكم تعرفون أنّ كتـاب ربكم قد احتوى كل صغيرة وكبيرة من أعمالكم.

(**عــالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْــزُبُ عَنْــهُ مِثْقــالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ**)

(4) ويــبين القــرآن الهــدف من الســاعة ، وبالتــالي الهـدف من التـذكرة بالرقابة الالهية على العبـاد ، الا وهو إثبــات تحقيق العــدل الشــامل ، الأمر الــذي يســتوجب الحسـاب الحق .. الـذي لا يغفل عن أيّ شـيء يصـدر من البشر مهما كان صغيرا.

(**لِيَجْـزِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**)

فما دامت مسيرة المـؤمن العامة هي الصـلاح ، فـإنّ ما يشوبها من ذنوب بسبب غفلته ، يفتـديها الله بغفرانه ، كما يثيبه على إيمانه وعمله الصالح بألوان الرزق الكريم ، الذي يصـفه الحـديث بما لا عين رأيت ولا اذن سـمعت ولا خطر على بال بشر.

(5) موقف المـؤمن من آيـات ربه هو التسـليم الـذي يســـمو به الى درجة رؤية الحق مباشـــرة ، بينما موقف الكافر الرفض ، ولكن كيف يـرفض البشر المـزوّد بالعقل الحقيقة التي تترى عليها شواهد لا تحصى؟ أو تقـدر العين أن تنزوي عن أشعة الشمس بسهولة؟!

كلا .. كــذلك ليس من الســهل أن يــرفض الإنســان الحقائق الكبرى التي يذكر

بها الوحي ، كحقيقة المسؤولية إلّا بصعوبات بالغة ، لـذلك فهم :

أوّلا : يسـعون سـعيا حثيثا ــ وببـالغ الجهد ــ من أجل إثبات كفرهم الباطل ، وإقامة الأدلة على ضلالتهم.

ثانيا : هــدفهم من هـــذا الســـعي ليس إقنـــاع أحد بالحقيقة ، وإنّما إســكات المؤمــنين وإعجــازهم بإثــارة الشبهات حول الحقائق ، كلّما ردّت لهم شبهة منها أعـدّوا شــبهة جديـدة مكانها ، فهم لا يهـدفون الاقتنـاع بحـديث الطـــــــــرف الآخر ، ولا إقناعه لأنهم على باطل ، وإنّما يهــدفون أن يخصــموه موقتا ، لكي لا تقتحم أدلة الحــقّ رحاب قلوبهم.

(**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ**)

وآيــات الله هي شــواهد صــدق رســالاته ، والتعبــير بمعــاجزين بــالغ الدقة حيث ان الطــرف الثــاني (وهم المؤمنــون) يحــاولون اقنــاعهم أيضا ، وبالتــالي محاولة إعجــــازهم (إيصــــالهم الى حد العجز عن الأدلاء بحجة جديدة) فكل طرف يحاول إعجاز الطـرف الثـاني ، وهـذه الكلمة توضّح استراتيجية الاعلام عند الكفـار القائمة فقط على أساس إسكات الخصم ، وطمس معـالم الحق أمـام عينيه.

(**أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ**)

الرجز ـ كما قالوا ـ أشدّ العذاب ، ولعله يشـير إلى ما يقابل الكريم في الآية السـابقة ، وعلى هـذا يكـون معنـاه عذابا أليما فيه الذلّ والهوان ، أو ليســوا قد تكـبروا ، فهم يستحقون الصغار والرجز.

(6) ومن الناس من يعرج به اليقين درجة يرى الحــقّ واضحا لا ريب فيه ،

أولئك هم أولوا العلم.

(**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**)

والعلم ــ هنا ــ ليس مجـرد المعلومـات الـتي يختزنها الذهن البشري ، ولا الألفاظ المتشـابهة الـتي تـتزاحم في ذاكـرة المعـاجزين من أدعيـاء العلم ، وإنّما هو ذلك النـور الإلهي الـذي يشـرق على القلب فيجد الحقـائق وجـدانا ، ويعيها وعي دراية لا وعي رواية ، حتى

يقول أمثلهم هدى أمير المؤمنين علي بن أبي طـالب عليه السلام :

«**والله لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا**»

(**الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَ**)

فهم يعلمـون الحق ، ويـرون ما أنـزل الى الرسـول ، فيعرفـون أنّ ذلك الحق التـام الـذي لا يشـوبه هـوى ، ولا يخالطه باطل أو جهل هو هذا الوحي المنزل.

(**وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**)

والذي يؤتي العلم هو الذي يحيط به ، فيسـتطيع فهم القـرآن ، والتميـيز بين الحق والباطل ، بين الدسـاتير والمنـاهج الحديثة المضـلة وبين الآيـات القرآنية ، كما ميّز سحرة فرعون بين حبالهم وعصيهم التي يخيّل للناس أنّها تسعى وبين الآية الحقيقية الـتي جـاء بها نـبي الله موسى (ع).

ولعل اختيـار اسـمي العزيز الحميد ، من بين أسـماء الله الحسنى ، جاء انسجاما مع الجو العام للسورة ، الـتي هي تجليـات اسم الحمد ، ولأنّ الإنسـان يتطلع الى العـزة وحميد الخصال ، فلما رأى أولـوا العلم الـوحي عرفـوا أنّه يحقّق ذلك الطموح.

ويبدو أنّ الآيات الثلاث تـبيّن ثلاثة نمـاذج من النـاس : المسلمون أولا ثم الكفار ثم الصديقون.

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَـلْ نَـدُلُّكُمْ عَلى رَجُـلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَـزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْـقٍ جَدِيـدٍ (7) أَفْتَـرى عَلَى اللــهِ كَــذِباً أَمْ بِــهِ جِنَّةٌ بَــلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُــونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَـذابِ وَالضَّـلالِ الْبَعِيـدِ (8) أَفَلَمْ يَـرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْـقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَـفاً مِنَ السَّــماءِ إِنَّ فِي ذلِــكَ لَآيَـةً لِكُـلِّ عَبْـدٍ مُنِيبٍ (9) وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَـهُ وَالطَّيْـرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ

---

9 [كسفا] : أي قطعا.

10 [أوّبي] التأويب الترجيع بالتسبيح ، وأوبي معه أي سبحي معه.

سـابِغاتٍ وَقَـدِّرْ فِي السَّـرْدِ وَاعْمَلُـوا صـالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ (11) وَلِسُـلَيْمانَ الـرِّيحَ غُـدُوُّها شَـهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْـرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَـلُ بَيْنَ يَدَيْـهِ بِـإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَـزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (12)

---

11 [سابغات] : السابغ التام من اللباس.
[السـرد] : سـرد الحديد نظمه ، والسـرد هو نسج الـدرع ، مـأخوذ من سرد في الكلام إذا تـابع بعض جمله بعضا ، وقـدّر في السـرد أي أحكم صنعتك في نسج الدروع ، فلا تكـون حلقة في الـدرع وسـيعة والأخـرى ضيقة بل متشابهة ومتساوية.
12 [غدوّها] : حركة الريح في الغدوة وهي الصباح الى نصف النهار.
[رواحها] : جريها مساء من العصر حتى الليل.
[عين القطر] : عين النحـاس ، والمـراد بـالعين معدنه حـتى يتمكن من استعماله في الظروف والأواني ويصنع به كيف يشاء.
[يزغ] : ينحرف ويميل.

يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (13)

---

13 [محاريب] : جمع محراب ، والمحراب هو محل العبادة والصلاة ، ولعل المراد بها المساجد ، وانما سمّي محرابا لأنه محل المحاربة مع الشيطان والنفس.

[تماثيل] : جمع تمثال ، وهو الشيء المصنوع من معدن أو طين أو حجر أو خشب ، كتماثيل القصور والأشجار والأنهار وغيرها ، وقال صاحب المجمع أنها تماثيل الحيوانات لأنها لم تكن محظورة في ذلك الوقت.

[جفان كالجواب] : الجفان هي القصاع وظروف الأكل ، والجواب جمع جابية وهي الحوض العظيم يجبى فيه الماء.

[قدور راسيات] : جمع قدر وهو ما يطبخ فيه الطعام ، وراسيات جمع راسية بمعنى الثابتة في الأرض ، الكبير الذي يراد دوام الطبخ فيه يبنى في الأرض حتى لا يزول ولا يتحرك.

اعملوا آل داود شكرا

هدى من الآيات :

اســتلهاما من اســمي الحميد العزيز لربنا عز وجل ، وانطلاقا من الحــديث عن البعث والنشــور ، وبيانا لبعض الشبهات التي يبثّها المشركون إنكـارا للمعـاد يحـدثنا هـذا الــدرس ــ من بدايته ــ عن اســتنكارهم الظـاهر لحقيقة النشور بعد الموت والتمزّق.

إنّ الكثـير من الـذين ينكـرون الحقـائق إنّما ينكرونها لأنّها أكــبر من أفقهم وتفكــيرهم الضــيقين ، وهــذه من مشـاكل البشر المعقّـدة ، إنّهم يكفـرون بكل ما لم يصل اليه علمهم وعقلهم ، ولكنّ الله يضــرب لهــؤلاء فكــرة البعث فيقول : صحيح ان ذلك من المسـتحيلات بالقيـاس الى القـدرة البشـرية ، ولكنه ممكن عند الله الـذي يجمع الزمان والأعضاء ليعيد الخلق من جديد. وحتى يكـون هـذا الحديث مقبولا من الناحية المنطقية والفطرية ، يدعو ربنا هؤلاء الى التفكّر في الآيات من حولهم ، لأنها من مظـاهر القدرة لربنا الحميد.

ولعل لهـذا التأكيد المتكـرّر في القـرآن على ضـرورة التفكّر في آيات الله فائدة مهمة هي : إرساء قاعدة صلبة للبحث العلميّ الرصـين عند الإنسـان الـذي اعتـاد ــ ومن أول يوم عملت حواسه ــ على هـذه الآيـات ، وألفها حـتى أصـبحت لا تثـير انتباهه ، لكنّه لو نظر إليها وكأنّها جديـدة وبقلب متفتّح ، وعقل منـــير ، لازداد علما ، وتوسع أفقه ، مما يجعله أقدر على استيعاب الحقائق وتفهمها.

ثم يضرب القرآن لنا مثلا من حياة داود وابنه سليمان على نبيّنا وآله وعليهما السلام حيث ان قصصـهما تجليـات لاسمي العزيز الحميد.

فقد بلغ داود من الملك والســـــيطرة مبلغا عظيما ، حتى شملت هيمنته الطبيعة فكانت الجبال والطيور تسـبّح معه ، والحديد طوع يده يصوغه كيف يشـاء ، اما سـليمان فقد ورث ملك والـــــده ، وزاده الله عليه ملكا ، وهـــــذه القصص والأمثـال تفتح أمـام البشر آفاقا ، وتـدعوهم الى الســـير فيها والوصـــول الى أبعادها ، فقصة داود تـــوحي بإمكانية تسخير الطير والحديد لخدمة الحضارة الإنسانية ، وقصة سليمان تشير الى إمكانية الاستفادة من الريح.

بينات من الآيات :

(7) (**وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**)

وهم يسـتهزءون ، ويحـاولون الانتقـاص من الرسـول والرسالة.

(**هَـلْ نَـدُلُّكُمْ عَلى رَجُـلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُـزِّقْتُمْ كُـلَّ مُمَزَّقٍ**)

أي تفرقت أعضاؤكم ، وتمزّقت بددا.

(**إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**)

(8) ثم يتساءلون بحيرتهم.

(**أَفْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً**)

هل ما يدعيه افـــتراء على اللـــه؟! ثم عـــادوا الى وجدانهم فعرفوا أنّ الرسـول لا يمكن ان يفـتري على ربه الكـذب ، وهو الصـادق الأمين ، وقد بيّن بوضـوح العقـاب الذي ينتظر الـذين يفـترون على الله الكـذب ، ثم إنّه أوّل المصدقين بالبعث ، والعاملين بما يستوجبه هذا التصـديق. ألا يرون كيف يكاد يشقي نفسه بالعبادة حـتى نـزلت عليه الآية : (**طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْـكَ الْقُـرْآنَ لِتَشْـقى**)؟! لـذلك تـراهم عـادوا وأكّـدوا انه ليس مفتريا ، ثم إنّهم بكفـرهم قـالوا فيه قـولا كبـيرا ، لأنّهم كـانوا من المعـاجزين الـذين يعملون بجهدهم على مقاومة القرآن ، قالوا :

(**أَمْ بِهِ جِنَّةٌ**)

وهي الجنـون ، ويجيب القـرآن على هـذه التسـاؤلات بأن المشكلة ليست في الحقائق التي يبينها الرسول ، ولا في أسلوبه ، حتى يتهم بالكذب تـارة ، وبـالجنون أخـرى ، إنّما المشكلة في الكفّار أنفسـهم ، ومشـكلتهم هي ضـيق الأفق فلا يستوعبون النشور بعد الموت ، والسبب كفرهم وعدم اتباعهم المنهج السليم الذي يقودهم إلى الحقائق.

(**بَــلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُــونَ بِــالْآخِرَةِ فِي الْعَــذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ**)

قالوا : إنّ العذاب هنا يقابل افـتراءهم على رسـولهم بالكذب ، بينما الضلال يقابل نسبة الجنون عليه. [1]

---

(1) الرازي ـ التفسير الكبير.

ويبـدو لي أنّ السـياق يؤكد على أنّ السـبب في كفر هؤلاء بالرسـول يكمن في كفـرهم بـالآخرة الـذي يجعلهم يواجهـون الحقـائق دائما فيعيشـون العـذاب. أرأيت كيف يعاني من يعارض حكومة قاهرة ، كيف يحيط به العذاب ، كذلك الذين لا يؤمنون بـالآخرة يضـطرون مخالفة حقـائق الخليقة.

ومن جهة ثانية أنهم يعيشـــون في حالة من الضـــلال البعيد جدا عن الهدى ، وآية ذلك أنّهم ينسبون من يهـديهم إلى الحقــائق والى ســبيل ســعادتهم إلى الجنــون ، فهل تترقب لمثل هؤلاء هدى؟

ونســتوحي من الآية انه لا يضل الإنســان عن أهدافه وعن الحقــائق ، إلّا عند ما يكــون الطريق الــذي يختــاره خاطئا ، وهـؤلاء حين كفـروا بـالبعث وقعـوا في الانحـراف الكبير.

(9) وحتى يتسع أفقهم ، ويهتدوا لصحة الحقائق ، وما يقوله الرسول ، يـدعوهم القـرآن للنظر في آيـات الكـون العظيمة والتفكر فيها ، لأنها علامات وشـواهد على قـدرة اللــه. كما أنه ينـذرهم بـأنّ استرســالهم في الضـلالة قد يعرضهم لعذاب شامل من نـوع عـذاب القـرون الغـابرة ، كان يخسف الله بهم الأرض أو يسقط عليهم من الســماء شهبا.

(**أَفَلَمْ يَــرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْــدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّــــماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَــأْ نَخْسِــــفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ**)

ويبين لنا ربنا حقيقة هامة هي : إنّ الكون المحيط بنا قـائم بالله ، وتهيمن عليه وتـدبر شـؤونه قدرته القـاهرة ، كما تشير الآية الى بعض الحقـائق العلمية ، فقد جعل الله الأرض في موقع معيّن ، وضمن نظام دقيق بحيث تحافظ على اتزانها ، وتمكّن

الخلق من العيش عليها ، وأنشأ حجابا واقيا بين الأرض والسماء ، هو الغلاف الجـوي الـذي يمنع سـقوط النيـازك والشهب من السماء على الأرض.

ولكن من الذي يكشف هذا النظام المحكم وما وراءه من عظمة الرب؟

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**)

إنّ الآيات وحدها لا تهدي الإنسـان الى الحقيقة كلها ، فقد يؤمن بها ويتبعها الفرد فتأخذ بيـده الى الهـدف ، وقد يراها ولكنه يكفر بخلفياتها وما تشـــــــير اليه فلا تنفعه ، والقرآن يقول بـأنّ الآيـات المبثوثة في الكـون تهـدي الى الحقيقة ، ولكن على شـرط ان يكـون المتفكر فيها عبـدا مسلّما لله ، فالعبودية والإنابة اذن شرطان للاستفادة من الآيات.

إنّ من مشـاكل الإنسـان انه حينما يسـير في ركـاب العلم ، وتنكشف له الحقـــائق ، وتتضح أمامه الألغـــاز المهمة في الحيـــاة ، فإنّه لا ينظر الى خلفياتها إنّما ينظر إليها بذاتها ، فهو حينما يكتشف مكوّنات الذرة وهي النواة والإلكـــترون والـــبروتون ، ثم يجد أنّ كل عناصر الحيـــاة المادية ومكوّناتها ، تعتمد نفس النظـــام وهو الـــذرة ، مع اختلاف الـــتركيب ، لا يهتـــدي من خلال ذلك الى حقيقة التوحيد ، وان اليد الـــتي خلقت الـــذرة هي الـــتي خلقت المجرة.

وفكـرة أخـيرة نسـتوحيها من الآية الكريمة هي : إنّنا عند ما نتعمّق في فهمنا للآية نجد أنّ القـــرآن يربط بين فهم الحياة وتزكية النفس ، فكأن الذين لا يتصفون بالإنابة الى ربهم لا يفهمون الحياة فهما حقيقيا.

(10) وكما أن لأسماء الله تجليات في الطبيعة ، فـإنّ لها تجليات أخرى في تـاريخ البشر ، ولعل هـذه هي علاقة السياق بين الحديث عن الطبيعة وبيان جانب

من قصة داود وسليمان عليهما السلام.

وهناك صلة أخرى بين الموضوعين في السـياق هي : إنّ الآية الســـابقة تنـــذر الكفّـــار بينما تبشر هـــذه الآية المؤمــنين من خلال قصة داود الــذي آتـاه ربنا فضلا حين أناب إليه.

(**وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً**)

وهـــذا الفضل مظهر لاسم الحمد الإلهي ، حيث خص الله نبيّه داود بأمور من دون الآخرين ، وكانت هذه الأمـور من أركان وخصائص الحضارة التي بناها (ع).

قال تعالى :

(**يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ**)

فكلاهما كان خاضعا لداود ، وسخّر له.

(**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**)

وكان لتسخير الحديد هدف يشـير له القـرآن في الآية اللاحقة :

(11) (**أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ**)

لقد أمر الله داود (ع) بصــناعة الــدروع الســابغة (أي الواسعة) حـتى يلبسـها المقاتل من غـير تعب ، كما أمـره بالإتقـــان في حياكتها ، حـــتى تكـــون حلقاتها منتظمة ومتسـاوية تـؤدي كـلّ واحـدة دورها المحـدّد ، ولعل الآية تشــير إلى ضــرورة الإتقــان في العمل ، ولا ســيما في الصناعة ، ولكن الصناعة المتقنة كـأيّ تقـدّم حضـاري آخر يجب أن تكون بهدف حكيم هو العمل الصالح.

(**وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

ونستوحي من الآية أنّ الله الذي سخّر لداود كلّ هذه الأمور ، لم يرتض منه أن تكون بـديلا عن السـعي والعمل الشخصي ، لأنّ قيمة الإنسان تكمن في سعيه وعمله.

وفي الحديث أن أمير المؤمنين (ع) قال :

«**أوحى الله عـــزّ وجـــلّ الى داود (ع) انك نعم العبد ، لو لا انك تأكل من بيت المـــــال ، ولا تعمل بيدك شـيئا ، قـال : فبكى داود (ع) أربعين صـباحا ، فأوحى الله عز وجل إلى الحديد أن لن لعبدي داود ، فـألان الله عز وجل له الحديد ، فكـان يعمل في كل يـــــوم درعا فيبيعها بـــألف درهم ، فعمل ثلاثمائة وســـــتين درعا ، فباعها بثلاثمائة وســـــتين الف واستغنى عن بيت المال**» [2]

كما نسـتوحي أنّ شـكر نعم الله وحمـده عليها يكـون بالاستفادة منها في سبيل الخير والصلاح.

(12) ثم يضــــرب الله لنا مثلا آخر من حيـــــاة نبيّه سليمان (ع) فيقول :

(**وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ**)

قال علي بن إبراهيم : «**كانت الـريح تحمل كرسي ســليمان فتســير به في الغــداة مســيرة شـــهر وبالعشي مسيرة شهر**» [3]

وإذا عرفنا ان مسيرة الشهر تضاهي (720) كيلومــتر نعرف ان السرعة تقترب

---

(2) نور الثقلين / ج (4) / ص (318).

(3) المصدر / ص (318).

من سرعة الطائرة اليوم خلال الساعة الواحدة.

(**وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ**)

يعني الرصاص والنحاس.

(**وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَـلُ بَيْنَ يَدَيْـهِ بِـإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ**)

وتدلّنا هذه الآية على أمرين :

الأول : إنّ الجن ليسوا كما تزعم الأساطير أقوى من البشر ، بل الإنسان قادر على تسخيرهم بإذن الله.

الثـــاني : إنّه يمكن للإنســـان أن يبلغ من التطـــوّر والتكامل الصـناعي والمعنـوي الى درجة يسـخّر الأرواح ـ كالجن ـ في صالحه.

(13) ويـبين لنا الله جانبا من أدوار الجن في حضـارة سليمان (ع) إذ يقول :

(**يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ**)

وهي أماكن الصلاة التي تتقدم بيت العبادة.

(**وَتَماثِيلَ**)

أي المجسّـــمات الـــتي تماثل الخلق الطـــبيعي في ظاهرها.

(**وَجِفانٍ كَالْجَوابِ**)

والجفان الأواني التي يقدم فيها الطعام ، وقد وصـفها الله لعظمتها وسعتها بالحفر أو الأحواض ، لأنّ سليمان ما كان يقدر على إطعام جيشه في أوان صغيرة لكثرتهم. [4]

(**وَقُدُورٍ راسِياتٍ**)

والراسـيـة هي الثابتة ، مما يــدل على ان لســليمان قــدورا ثابتة ، وأخـــرى متحركة كــان يحتاجها عند حركته وتنقله.

(**اعْمَلُــوا آلَ داوُدَ شُــكْراً وَقَلِيــلٌ مِنْ عِبــادِيَ الشَّكُورُ**)

إنّ أهمّ عـبرة في هــذه الآيـات الكريمة هي ضـرورة الشـــكر العملي ، فقبل أن يكـــون بيد الإنســـان الفضل والخير الالهي ربما يكون مقبولا منه الشكر القولي وحــده ، أمّا بعده فيجب ان يتحول هذا الشكر الى برنـامج عملي ونعني بذلك ثلاثة أمور :

الاول : العمل الصــــالح ، كما قـــال ربنا لنبيّه داود : (**وَاعْمَلُـوا صـالِحاً**) فعلى سـبيل المثـال يكـون الشـكر العملي للمــال الإنفــاق في ســبيل الله ، والتصــدّق على الفقراء ، وإقامة المشاريع الاسلامية ، وبالتـالي اسـتخدام هذه النعمة في أهدافها المحدّدة.

الثاني : الإبقاء والمحافظة على العوامل التي ســببت الفضل والنعمة ، فالعالم إنّما أصبح عالما بسـبب الدراسة والقــراءة والتفكـير والعمل ، فشــكر العلم هو المحافظة على هذه العوامل ، لأنها تحفظ العلم وتزيده.

الثالث : الوصول بالنعمة الى غايتها وهـدفها ، وهـدف كل شيء في الحياة

---

(4) راجع المجمع في تفسير الآية.

وسيلة لهدف أكبر حتى يتصل الإنسـان بهدفه الأعظم وهو الطاعة والتسليم لله ، فالمجاهد يقرأ حتى يتكلّم ، ويتكلم مع النـاس لكي يهـديهم ، ويهـديهم حـتى نتكـون مجموعة رســـالية ، وتتكـــون هــــذه المجموعة من أجل العمل السياسي والعسـكري والثقـافي الشـامل ، وذلك يهـدف إسقاط النظـام الطـاغوتي الفاسد ، لكي يقـوم بدله حكم الله ، الـــذي يـــدافع عن المستضــعفين ، ومن ثم يقيم حضارة إسلامية متكاملة ، وهكـذا .. فالشـكر العملي إذن أن ترقى من هدف لآخر أسمى منه.

فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (14) لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ

---

14 [دابة الأرض] : الدابة عموم ما يدب على الأرض ، والمقصود بها هنا هي الأرضة.
[منسأته] : والمنسأة العصا الكبيرة التي يسوق بها الراعي غنمه ، ولعل المقصود بها هنا الصولجان باعتبار سليمان ملكا.
16 [سيل العرم] : السيل العظيم الشديد ، وقيل العرم اسم للجرذ الذي ثقب السكر ، كما قيل أنه المطر الشديد.
[خمط] : كل شجر له شوك ، والمراد مرّ بشع.
[أثل] : الأثل الشجر الذي لا ثمر يؤكل له كالسمر.

(16) ذلِــكَ جَزَيْنــاهُمْ بِما كَفَــرُوا وَهَــلْ نُجــازِي إِلاَّ الْكَفُـورَ (17) وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُـرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظـاهِرَةً وَقَـدَّرْنا فِيهَا السَّـيْرَ سِـيرُوا فِيها لَيــالِيَ وَأَيَّامــاً آمِنِينَ (18) فَقــالُوا رَبَّنا باعِــدْ بَيْنَ أَسْــفارِنا وَظَلَمُــوا أَنْفُسَــهُمْ فَجَعَلْنــاهُمْ أَحــادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيـاتٍ لِكُـلِّ صَـبَّارٍ شَكُورٍ (19)

صورتان لحضارتين

هدى من الآيات :

يبــدو أنّ ســورة ســبأ تتمحــور حــول علاقة الإنســان بالحضارة ، حيث تعرض آياتها نموذجين منها ، يتمثل الأوّل في قصة آل داود الــذين اتخــذوا الملك وســيلة لعمــارة الأرض ، وإصلاح النــاس ، وشــكر الله ، ويتمثل الثــاني في قصة ســـبأ وقـــرى أخـــرى ، حيث لم تنفعهم الحضـــارة الزراعية التي أنعم الله بها عليهم ، انما ازدادوا كفرا بــدل الشكر ، وتوغلا في الجاهلية.

ومن اختلاف هــاتين القصــتين نعــرف : أنّ الســلطة ــ كما القــوة ــ ليست شــيئا مكروها أو ممــدوحا بــذاتها عند الإسلام ، أو في نظر العقل ، انما موقف الإنسان منها هو الــذي يضــفي عليها صــفة الخــير أو الشر ، فــاذا اتخــذها طريقا للخير كانت خيرا والا فشر.

كما نستفيد من واقع القصتين أن هنــاك أجلين لحيــاة الإنسان ولما يعطيه ربه من

النعم :

الاول : هو الأجل المســمى المحــدد عند الله ، وهو العمر الطبيعي للإنسان.

الثاني : الأجل المعلق والذي يستنزله الإنســان بعمله ، فيطــول إذا كــان العمل خــيرا كالصــدقة والإحســان ، ويقصر إذا كان شرّا كقطيعة الرحم.

فبالنسبة للحضارات لا تبقى للأبد لأن هناك سنة الهية عليا تقضي بفنــاء الإنســان ، وبــوار ملكه بعد ان ينقضي أجله المسمى ، قال ربنا سبحانه : (**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُـداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ**) وقــال : (**هُــوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ**).

وهكـذا نجد ان الحضـارات تسـير ضـمن دورة معينة ، فعــادة ما يعقب نموها وازدهارها التــدهور والانحطــاط ، والذي يمكننا ان نسميه بالأجل الطبيعي للحضارة.

ولكن الناس كثيرا ما يستعجلون هذه السنة بعصيانهم وكفرهم ، الأمر الذي يسبب موت كثير من الحضارات في ريعان شبابها ، فقد كـان من المتوقع لألمانيا قبل الحــرب العالمية ان تصـير سـيدة أوروبا صـناعيا وحضـاريا ، ولكنها ماتت في أيام شبابها بسبب طيش هتلر ، ومبادئ الحـزب النــازي ، وبســبب الثقافة العنصــرية الــتي انتشــرت عند الشـعب الألمـاني فاسـتجاب لتلك القيـادة الرعنـاء. فعمر الحضارات اذن طويل لو لا أخطاء أصحابها.

ان قصة سـليمان ووالـده (ع) صـورة للحضـارة الـتي امتدت فترة من الـزمن ، ثم انتهت بصـورة طبيعية ، بينما قصة سـبأ الـذي انتهت حضـارتهم بسـيل العــرم صــورة مناقضة تجسد النهاية غير الطبيعية. فـداود وسـليمان (ع) ضـربا مثـالا للحضـارة البشـرية النموذجية ، ولما تم المثل انتهت حضــارتهم ، فهي بــدأت من نشـأتها حـتى صـارت شــبابا ثم هــرمت ومــاتت ، لكن حضــارة ســبأ مــاتت في شبابها.

بينات من الآيات :

(14) أبقى الله نبيه سليمان (ع) منتصبا عل عصاته بعد الموت ، وذلك بهدف فضيحة الجن الذين كانوا يدّعون بأنهم يعلمون الغيب ، ولإبطال الاعتقاد السائد لدى قسم من الناس بأنهم كذلك ، والذي تحول الى نمط من الثقافة الجاهلية بل عبادة ، ولعل لهذه الحادثة أثرها الكبير في القضاء على الجانب الأكبر من عبادة الجن الشائعة في التاريخ.

(**فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ**)

ولعل القضاء هنا هو اجراء القدر الأول.

(**ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ**)

وهي الأرضة.

(**تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ**)

اي العصا التي يتوكأ عليها ، والاعتماد على العصا ليس دليلا على العاهة أو المرض ، لان موسى (ع) المعروف ببطشه وقوته كان يتوكأ عليها أيضا : (**قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى**) [1]

وحينما أكلت الأرضة العصا التي يعتمد عليها سليمان خر إلى الأرض.

(**فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ**)

---

(1) طه / (18).

ولهذه الآية تفسيران :

الأول : أن معناها بعد ان خر جسد سـليمان (ع) الى الأرض عـرفت الجن بموته الـذي مضى عليه عـام واحد ، فتمنوا علم الغيب ، إذ لو أوتوا ذلك لما بقوا يعملـون هـذه المـدة ، ويشـير هـذا الأمر الى ان الجن كـانوا مسـخرين بالقوة ، وما كـانوا يقـدرون على التمـرد ضد سـليمان في حياته.

الثاني : انه لما خر جسد سـليمان إلى الأرض ، وكـان الجن قد عملـوا له سـنة كاملة ، دون علم بموته ، افتضح أمـرهم عند النـاس ، وانكشف للجميع أنهم لا يعلمـون الغيب ، إذ لو كانوا كذلك لما بقوا يعملون شـيئا لا يريدونه ، ولعلنا نسـتفيد من آخر الآية : (**مَا لَبِثُـوا فِي الْعَـذابِ الْمُهِينِ**) ان خضوع الإنسـان الى حـاكم لا يرتضـيه سـواء كـان الحـاكم صـالحا كسـليمان ، أو طالحا كفرعـون ، أو حـتى قيـام الإنسـان بعمل لا يقتنع به ، من أشد الأمـور ايلاما وعـذابا له ، أو ربما كـان هـؤلاء الجن من العصـاة فأراد سليمان عذابهم بالأعمال الشاقة.

قال الامام الباقر عليه السلام :

«ان سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ قال ذات يوم لأصـحابه : ان الله تعـالى وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعـدي ، سـخر لي الـريح ، والانس ، والجن ، والطـير ، والوحوش ، وعلمني منطق الطير ، وأتاني من كـلّ شـيء ، ومع جميع ما أوتيت من الملك ما تمّ لي سرور يـوم الى الليل ، وقد أحببت أن أدخل قصري في غد ، فأصعد أعلاه وأنظر الى ممـالكي ، ولا تـأذنوا لأحد على ما ينغّص عليّ يومي ، قالوا : نعم ، فلما كان من الغد أخذ عصـاه بيـده ، وصـعد إلى أعلى موضع من قصـره ، ووقف متكئا على عصـاه ينظر الى ممالكه سـرورا بما أعطي ، إذ نظر الى شابّ حسن الوجه واللبـاس قد خـرج عليه من بعض زوايا قصره ، فلما بصر به

سـليمان (ع) قـال له : من أدخلك الى هـذا القصر ، وقد أردت أن أخلو فيه اليوم فبإذن من دخلت؟! قال الشاب : ادخلني هذا القصر ربه ، وبإذنه دخلت ، قال : ربه أحق به مـني فمن أنت؟ قـال : انا ملك المـوت ، قـال : وفيما جئت؟ قال : جئت لا قبض روحك ، قال : امض لما أمـرت به ، فهذا يـوم سـروري ، وأبى الله عز وجل ان يكـون لي سـرور دون لقائه ، فقبض ملك المـوت روحه وهو متكئ على عصاه ، فبقي سليمان متكئا على عصاه وهو ميت ما شـاء الله ، والنـاس ينظـرون اليه وهم يقـدرون انه حي ، فافتتنوا فيه ، واختلفوا ، فمنهم من قال : ان سـليمان قد بقي متكئا على عصاه هـذه الأيـام الكثـيرة ولم يتعب ولم ينم ، ولم يأكل ، ولم يشـرب ، انّه لربّنا الـذي يجب علينا ان نعبده ، وقال قوم : ان سـليمان سـاحر ، وانه يرينا انه وقف متكئ على عصـاه ، يسـحر أعيننا وليس كـذلك ، فقال المؤمنون : ان سليمان هو عبد الله ونبيه ، يدبر الله أمـره بما يشـاء ، فلما اختلفـوا بعث الله عز وجل دابة الأرض ، فـدبت في عصـاه ، فلما أكلت جوفها انكسـرت العصا ، وخر سـليمان من قصـره على وجهه ، فشـكرت الجن للأرضة صـنيعها ، فلأجل ذلك لا توجد الارضة في مكـان الا وعنـدها مـاء وطين ، وذلك قـول الله عز وجل : (**فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ**)» [2]

(15) ثم يضـرب القـرآن مثلا آخر وذلك من تـاريخ اليمن ، كشـاهد على الحضـارة الـتي تمـوت فجـأة وقبل أجلها الطبيعي ، وسبأ التي تذكّرنا بها القرآن قبيلة عاشت على الطـرف الجنـوبي لشـبه الجزيـرة العربية ، وكـانت تتقلب في نعماء الله حتى بطرت معيشتها ، فتكـبرت عن الشكر له ، ولم ترع العوامل المسـببة للخـير ، فـدمر الله سدّها الذي تقوم عليه حضارتها الزراعية ، فانهارت وبادت ، وتبـددت القبيلة حـتى انقـرض كيانها ، فضـرب بها المثل العربي : (تفرقوا أيادي سبأ).

---

(2) نور الثقلين / ج (4) / ص (324).

(**لَقَـدْ كـانَ لِسَـبَإٍ فِي مَسْـكَنِهِمْ آيَـةٌ جَنَّتـانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ**)

وكـــان ينبغي لهـــؤلاء ان لا يقفـــوا عند الآية ، انما يستدلوا بها على الحقيقة التي تهدي إليها ، وهي كما تبين آخر الآية معرفة رب النعم وهو الله ، ومن ثم شـــــكره لتزداد النعمة وتـدوم ، والملاحظ ان الله اسـتخدم للتعبـير عما فيه سبأ من النعيم كلمة «مساكن» ولم يقل بيـوت ، ولعل المسكن هو البيت الذي يـأوي اليه الإنسـان مطمئنا مرتاحا سـاكنا ، بينما الـبيت هو محل المـبيت ، وربما أتـاه الإنسان قلقا حزينا.

وقوله عز وجل : (**جَنَّتـــانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِـــمالٍ**) يكشف عن الطبيعة الجغرافية ، ذلك لأنه يفهم من هــذا التعبـير وجـود نهر يقسم البلاد الى شـطرين ، ولعل هـذا النهر يتصل بالسد حيث تفـــرغ الميـــاه فيه ليحملها الى الجنان التي على جانبيه.

وكان من المفروض ان تستفيد سبأ مما تنتجه الأرض ، عارفين بأنه من عند الله ، ثم يشكرونه.

(**كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ**)

وقد أمر الله آل داود بذلك ، فلما اسـتجابوا وشـكروا اسـتمرت حضـارتهم ، حـتى وافاها أجلها الطـبيعي بمـوت سـليمان ، أما هـؤلاء فلم يشـكروه ، مما أدى الى انـدحار حضارتهم.

والمجتمع حينما تكـون مسـيرته العامة الشـكر لله مباشـرة ، أو الشـكر للعبـاد قربة له ، فانه يصـبح مجتمعا فاضلا خيّرا ، أو كما يعبر القرآن :

(**بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ**)

لأنه يســير في ركــاب الحق ، اما بالنســبة للــذنوب والأخطاء الجانبية فانها لا تقضي

على الحضــارات ، بالــذات إذا لم يكن مصــدرها التحــدي والعناد ، انما يصلحها الله ويغفرها.

(**وَرَبٌّ غَفُورٌ**)

(16) كــانت هــذه دعــوة الله لهم ولا تــزال تشــمل البشرية جيلا بعد جيل ، لكنهم رفضوها.

(**فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**)

والفــــاء تفيد العطف والتعقيب بلا فاصل ، فالآية اذن تشير الى سرعة التكذيب ، كما تشير الى سرعة الجزاء ، وهــذا يــدل على ان حضــارتهم لم تبق كثــيرا ، وربما دلّت على ان حضارتهم مهما طالت فــإن الله يختصر المســافة بين التكــذيب والجــزاء ، فمهما عاشــوا فهو قليل عند الله حقير.

يقـــول علي بن إبـــراهيم : «وكــــانت لهم عن يمين وشــــمال ، عن مســـيرة عشـــرة أيـــام فيها لا يقع عليه الشمس من التفافها ، فلما عملــوا المعاصي ، وعتــوا عن أمر ربهم ، ونهاهم الصالحون فلم ينتهــوا ، بعث الله ـ عز وجل ـ على ذلك السد الجــرذ ، وهي الفــأرة الكبــيرة ، وكانت تقلع الصخرة التي لا يستقلها الرجــال ، وتــرمي بها ، فلما رأى ذلك قــوم منهم هربــوا وتركــوا البلاد ، فما زال الجــرذ تقلع الحجر حــتى خــرب ذلك السد ، فلم يشــعروا حتى غشيهم السيل ، وخرب بلادهم ، وقلع أشجارهم» [3]

(**وَبَــدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُــلٍ خَمْــطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ**)

---

(3) المصدر / ج (4) / ص (327).

وقد اختلف المفسـرون في معـنى الخمط والأثل ، الا أنهما كما يبـدو شـجرتان بريّتـان شـوكيّتان ، قد تكـون إحـداهما الأراك والأخـرى السـمر ، وكـذلك السـدر من الأشجار التي تقاوم الجفاف.

(17) ويـبين الله السـبب الرئيسي الـذي يقف خلف هذه النهاية المدمرة الا وهو الكفران بالنعمة.

(**ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا**)

بالله وبأنعمه.

(**وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ**)

ومن هذا المقطع نستفيد فكرتين : فمن جانب هنـاك إشـارة الى أن الجـزاء يشـمل كل كفـور ، دون ان يختص بهذه الجماعة التي يذكرها القرآن ، ومن جانب آخر يوضح تعبير «كفور» بأن الرب يعطي فرصة للعبـاد عند الخطيئة ، المـرة بعد الأخـرى رحمة بهم ، فهو لا يأخـذهم بالعـذاب في بـادئ الأمر ، انما بعد الإصـرار على الـذنب ، وصـيغة المبالغة «كفور» تدل على تكرار الكفر بالنعمة.

هكذا بـادت الحضـارة الزراعية الـتي انتشـرت ربوعها على أطراف شـبه الجزيـرة ، الـتي لم يكن الرجل يحتـاج وهو يمشي بين أغصـــانها المتدلية بأصـــناف الثمر لكي يقطف منها ما يشاء ، الا للقليل من الجهد ، وحلت محلها حياة متخلفة.

(18) ثم ينتقل بنا السـياق الى تجربة حضـارية ثالثة ، من واقع القرى التي امتدت من اليمن حتى مكة والمدينة ، والتي تميزت بالظهور وهو الارتفاع أو القـوة أو الشـهرة ، وبالنظام والامتداد ، وأخيرا بالأمن الذي يعتبر من أعظم نعم الله على

الإنسان.

(**وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ**)

اي بين أهل سبأ الذين مـرّ الحـديث عنهم في الآيـات السابقة.

(**وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها**)

وهي مكة وما حولها.

(**قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ**)

ولعل هذه اشارة الى النظام ، حيث جعل الله السـير فيها مقدورا ، ويعتبر ذلك ميزة لحضارة هذه القرى ، لأنها كانت تعيش في منطقة جبلية يصـعب السـير فيها ، وربما كانت جبالها ووديانها تبتلع القوافل الضائعة.

(**سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ**)

وهـذه العبـارة تـوحي لنا بمعنـيين : أحـدهما : سـعة الحضارة ، إذ يسـير فيها الإنسـان أيّاما وليـالي ، فهي إذن ممتـدة شاسـعة المسـاحة ، وثانيهما : الأمن الـذي كـانت تتمتع به هـذه القـرى ، والجـدير بالـذكر أن الأمن في ذلك الزمان وفي هذه المنطقة التي يحدثنا عنها القرآن بالذات كان أمرا نادرا بسبب عصابات قطّاع الطرق ، والوحوش.

(19) لكن هؤلاء رفضوا هـذه الخـيرات والمعطيـات ، التي تمخضت عنها الحضارة الجديدة ، وبـدأوا يحنـون الى الماضي ، حيث القبلية والتفرقة الحاكمة ، وحيث الـــروح الفردية المستبدة.

(**فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا**)

ولعلهم في هـذا الجـانب وبهـذه الـروح يشـبهون بـني إسـرائيل ، حيث تقـدمت بهم الحضـارة حـتى صـار أكلهم يتـنزّل عليهم من السـماء منّا وسـلوى ، لكنهم رفضـوه ، وأخذهم الحنين الى القـديم من البقل والعـدس والفـوم ، فذمهم الله على هـذه النفسـية السـلبية المتخلفة وقـال : (**أَتَسْـتَبْدِلُونَ الَّذِي هُـوَ أَدْنى بِالَّذِي هُـوَ خَيْـرٌ اهْبِطُـوا مِصْـراً فَـإِنَّ لَكُمْ ما سَـأَلْتُمْ وَضُـرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبـاؤُ بِغَضَـبٍ مِنَ اللـهِ**) [4] ويصف الله هـذه الروحية بأنها صورة للظلم الذي يعود على صاحبه بالضرر والفساد.

(**وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ**)

ومضـربا للمثل في خاتمة السـوء ، وتهـدينا الآية الى نهاية هؤلاء ، حيث تحولوا من الواقع المتحضر القائم على الأرض ، الى مجرد احدوثة على ألسـنة النـاس ، والقـرآن الكريم يشير الى ان حضارتهم انما تبـددت بسـبب الـروح الفردية التي نخرت كيانها فيقول :

(**وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ**)

حيث تحـولت النزعة الانانية الى واقعها المـرّ ، ولا ريب ان الحضـارة تولد بـالجهود الجماعية المنظمة ، حيث تـتركز الجهـود ، وحين تنعـدم الـروح الجماعية ، والتفكـير المشترك ، والسعي الموحد ، تؤول الى الدمار.

وفي تفسير الآية عن الامام الصادق (ع) قال :

«هؤلاء قـوم كـانت لهم قـرى متّصـلة ، ينظر بعضـهم الى بعض ، وأنهار جارية ، وأمـوال ظـاهرة ، فكفـروا بنعم الله عز وجل ، وغيّـروا ما بأنفسـهم ، ففـرق قـراهم ، وخرّب ديارهم ، واذهب بأموالهم» [5]

---

(4) البقرة / (61).

(5) نور الثقلين / ج (4) / ص (329).

وقصص هذه الحضارات الأربع تنطـوي على كثـير من الدروس والعبر التي تنفع البشرية في مسيرتها الحضـارية الصاعدة ، والبشرية أحوج ما تكون وهي تنشد الــرقي ان تدرس تجارب الحضارات الأخرى ، وبالذات الماضــية منها ، لأنها مرّت بدورة حضاريّة كاملة.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**)

انها ليست قصصا للتســــــــــلية واللهو ، بل تحمل مشاهدها الدروس والعبر ، وحتى يستوعب الإنسان الفرد أو الامة ذلك عقليا وأهم منه عمليا لا بد ان تتــــــوفر فيه صفات معينة : أبرزها الصبر الدائم ، والشكر الكثـير ، لأن الصبر آية سـكينة النفس ، وحصـافة العقل ، وبعد النظر ، ومعرفة عواقب الأمور ، وكل تلك الصفات ضرورية لوعي الحقائق ، ومعرفة غيب الاحـداث ، وما ورائيـات الظـواهر التاريخية.

أما الشـكر فانه دليل العلم ، فالجاهل لا يـرى أسـبابا للنعم ، ولا يفهم ان لكل ظــاهرة حادثة عوامل ، أوجــدت بها ، وتسـتمر معها ، وبالتـالي لا يبلغ الى معرفة من أنعم عليه فلا يشكره ، هكذا تتصل صفة الشكر والصـبر بعـالم المعرفة ، وهكذا تزيد المعرفة بالشكر والصبر.

هــذا من جهة ، ومن جهة أخــرى : ان عــبرة هــذه القصص هي الشكر والصبر.

فالقصص الأربع من حضـــــارتي داود وســــليمان ، وحضــارتي ســبأ والقــرى الــتي امتــدت منها الى مكة المكرمة ، تلهمنا درس الصـبر والشـكر ، فسـليمان وداود (ع) انما تقــــدمت حضــــارتهما ، واســــتقامت الى أجلها الطـبيعي حينما صـبرا وجـدّا في تأسيسـها ، وشـكرا الله حفاظا لها من الـزوال ، اما الحضـارتان الأخريـان فـدمرتا بنهاية غير طبيعية ، لانعدام صـفتي الصـبر الـذي يعـبر عن الجد والاستقامة ، والشكر الذي يجسد

الاتصـــال الحقيقي بحبل الله ، والمحافظة على أســباب الرقي ، واللذان يعتبران روحا لأية حضارة.

وكلمة أخيرة : هل ان شبه الجزيرة الـتي استضـافت الحضارات ، والتي انبعثت فيها آبار النفط بالخير والبركة ، سوف يسـتفيد أهلها وحكامها من قصص آبـائهم ، فتكـون حضـــارتا داود وســـليمان (ع) مثلا لهم ، أم لن يعتـــبروا بتـــاريخهم ، ولا يصـــبروا على دين الله ولا يشـــكروا له ، فتكون الحضارتان الأخيرتان أمثولة لهم؟!

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ
الْمُـؤْمِنِينَ (20) وَما كـانَ لَـهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُـلْطانٍ إِلاَّ
لِنَعْلَمَ مَنْ يُـؤْمِنُ بِـالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُـوَ مِنْها فِي شَـكٍّ
وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيـظٌ (21) قُـلِ ادْعُـوا الَّذِينَ
زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللــهِ لا يَمْلِكُــونَ مِثْقــالَ ذَرَّةٍ فِي
السَّـماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِـرْكٍ
وَما لَــهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِــيرٍ (22) وَلا تَنْفَـعُ الشَّــفاعَةُ
عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا
ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْكَبِـيرُ (23)
قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا
أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (24) قُـلْ لا
تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ

يَجْمَــعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِــالْحَقِّ وَهُــوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُــرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

---

26 [يفتح] : يحكم حكما حقا ، وكــان الأمر مســـدودا بين الخصـــمين والحـــاكم يفتح بينهما حين يعطي لكل حصـــته ، لئلا يبقى الأمر بينهما مختلطا متصلا.

بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

هدى من الآيات :

كثـــيرة هي الآيـــات القرآنية الـــتي تنسف الأفكـــار التبريرية وغيرها ، مما يحـــول بين الإنســـان والســـعي ، فـالحق وبالـذات في كلياته العامة واضح كالشـمس إلا أن الهـــوى يحجبه عن عقل الإنســـان ، ولكي تـــبرر النفس البشرية تثاقلها عن تطـبيق الحق وانحرافها عنه فانها تلجأ الى الأفكار الباطلة ، ولا بد لمن يريد العـودة الى الرشـاد من نسف هـــذه الأفكـــار ، ورفع تلك الحجب ، لكي يتصل عقله اتصالا مباشرا بالحق ، وهذا من أهم أهـداف الآيـات القرآنية ، إذ نجـــدها تبطل الأفكـــار التبريرية الواحـــدة تلو الأخرى ، فاذا بها تجابه فكرة شفاعة الأنـداد ببيـان حقيقة التوحيد ، وتنسف فكـرة الاطمئنـان الى الـدنيا بـان الـدنيا مرحلة بسيطة في حياة البشر ، وتبطل الجبر بتأكيد ارادة الإنسان ومسئوليته.

وأول ما يعالجه هذا الدرس ـ الـذي جـاء لينقض جانبا من الثقافة الســلبية ـــ هو فكــرة الحتمية ، فــالكثير من الناس يسعون لتبرير واقعهم المنحرف (السياسي)

كخضـــوعهم للســـلطات الجـــائرة ومؤسســـاتها ، أو (الاجتمـاعي) كاســتجابتهم لضــغوط الابــاء والمجتمع أو (الاقتصادي) كاسـتجابتهم للنظم الاقتصـادية الفاسـدة وما أشبه بفكرة الجبر والإكراه ، وإذا أراد البشر تحـدي حتمية اتبـاع إبليس ، ومن يجسـده في الـدنيا ، فعليه ان يتسـلح بالإيمان بالآخرة ، لأنه يعلو به على الحتميـات ، فلو هـدده الطاغوت بالقتل إذا لم يتحول الى عميل له ، وعبد يسعى في خدمته وأهدافه ، ولقــال : (**إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُــونَ**) وإذا توعــده بالســجن قــال : (**السِّــجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ**) وهـذا المنطق هو الـذي جعل السـحرة يستقيمون أمام جبروت فرعون وظلمه.

بينات من الآيات :

(20) حينما أمر الله الملائكة بالســـــــجود لآدم أبى إبليس ـ الذي جمع معهم لعبادته ـ السجود تكبرا ، فطرده الله بعد ان حــذر البشر منه ، فقــال : (**إِنَّهُ لَكُمْ عَــدُوٌّ مُبِينٌ**) لكن إبليس اكتشف نقاط الضعف في الإنسان من حبّ للمــال والســلطان ، فظن في نفسه أنه قــادر على اغوائه (**وَقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبـادِكَ نَصِـيباً مَفْرُوضـاً**) [1] والله يؤكد ان إبليس وجد لظنونه مصداقا بين الناس.

(**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ**)

ولعلنا نســتفيد من هــذا التعبــير أن إبليس ظن أنه سوف يتخذ من أبناء آدم نصـيبا مفروضا ، ثم سـعى حـتى جعل ذلك الظن الذي ظنه صادقا وذلك بإغواء الناس.

بلى. ان إبليس عــدوّ خطــير لأنه قد خطط ســلفا للإيقاع بالبشر ، وسعى جاهدا لتنفيذ تلك الخطط.

---

(1) النساء / (118).

وهكذا اتبعه الناس أجمعون ، الا مجموعة من النـاس هم الفريق المؤمن بالله واليوم الآخر.

(**فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

ولا يـدل هـذا الاسـتثناء ، على ان الفريق الآخر من المؤمـنين اتبعـوا إبليس ، إذ معـنى «من» هنا التفسـير والبيان ، أي اتّبعه الا فريقا وهم المؤمنون.

ومن أهم مصـاديق صـرف الشـيطان للإنسـان عن الحق هو إضـلاله عن اتبـاع القيـادة الصـادقة ، وهـذا ما يفسر الروايات التي جاءت مؤوّلة الآية الكريمة بأنها تعني القيادة الرسالية.[2]

(21) ولكن هل جـبر الانصـياع الى أمر إبليس ، حـتى يـبرر الإنسـان انحرافه بـأن لا حـول له ولا طـول تجـاه ضغوطه واساليبه الماكرة؟ بـالطبع كلا .. والله ينفي هـذه الحتمية بعد الاشارة الى عدمها ، من خلال تقسيم النـاس الى مطيعين لإبليس ومخـالفين له ، إذ لو كـانت حتمية تقضي بالخضـوع له لما تمـرد عليه فريق المؤمـنين ، فالنـاس إذن هم الـذين يقـررون طاعة الـرب أو اتبـاع إبليس.

(**وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ**)

يقهرهم به ، بلى. ان وسائل الشيطان والطغاة كثيرة ومـاكرة ، ولكن الإنسـان قـادر على مواجهتها ببصـيرة الإيمـان ، وسـلاح التوكل ، ولو تسـلح بهما لما أضـعفت نفسـيته ولما ضـللته وسـائل الاعلام والتوجيه المنحرفة وغيرها.

والله يؤكد ان الهـدف في خلق إبليس ليس إضـلال الناس ، فحاشا لله ان يريد

---

(2) راجع نور الثقلين / ج (4) / ص (333 ـ 334).

إضــلال عبــاده وقد خلقهم لــيرحمهم ، وان أراد ذلك لما بقي أحد مؤمنا ، وانما خلقه ليمتحن الناس من خلاله.

(**إِلَّا لِنَعْلَمَ**)

علما واقعيّا.

(**مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ**)

والا فان الله بكل شــيء عليم ، يعلم بمعرفته وخبرته المطلقة المــؤمن من الكــافر. والآية تؤكد على الايمــان بــالآخرة هو حجر الزاوية في مســيرة الإنســان وتحديد مصـيره ، بل وفي ايمانه ، وبالتـالي فـان شـكّه فيها يبعثه على الشك العام في سائر الحقائق.

(**وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**)

يسـجل للإنسـان أو عليه كل عمل وحركة ، ويحفظها في كتابه الذي يلقاه يوم القيامة منشورا.

ونسـتوحي من الآية ان ثمة سـلطانا محـدودا لإبليس على بــني آدم ، لا يبلغ درجة الحتم بل يقف عند حــدود الضـغط ، وان الحكمة من إعطـاء إبليس هـذا السـلطان المحدود ابتلاء البشر ليعرف مدى ايمـانهم بـالآخرة ، فمن كـان ايمانه بها ثابتا فانه يثبت امــام إرهــاب إبليس ومن يتبعه ويمثله من اولي القوة والـثروة والتضـليل ، الا تـرى كيف صمد السحرة بعد ايمانهم برب موسى وهــارون (ع) امـام تهديد فرعـون لأنهم كـانوا واثقين من اليـوم الأخر ، فلم يفلح إبليس وخليفته فرعــون من النيل من صــلابتهم شيئا. تعال نقرأ القرآن :

(**قــالَ آمَنْتُمْ لَــهُ قَبْــلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِــيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ**

تَعْلَمُـــــونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْـــــدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَـــلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قـــالُوا لا ضَـــيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُـونَ إِنَّا نَطْمَـعُ أَنْ يَغْفِـرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) (3)

وهكذا كل من تعرض لضغط أولياء الشيطان عليه ان يتذكر الآخرة ليصمد امامهم.

(22) والفكـرة التبريرية الاخـرى الـتي يعالجها هـذا الدرس ، هي فكرة الشـفاعة ، الـتي تعـني الاعتمـاد على قـوى أخـرى تنقذ الإنسـان من نـار جهنم كالأصـنام ، وقد أقحمت هذه الأفكار في المسيحية تحت عنوان الفداء ، إذ كانوا في القرون الوسطى والى اليـوم يـذهبون للكنـائس من أجل الحصول على صك الغفران.

ولا شك ان الاعتقاد بوجود منقذ غير الله يفرض على الله شفاعته صورة أخرى للشرك.

(**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ**)

من الشــركاء ، وخضــعتهم لهم ، وهم كما يبــدو ثلاثة أصناف من الشركاء :

الأول : أصــحاب الــثروة ، الــذين يظن النــاس أنهم يرزقـــــونهم ، وأنهم لما يظهر لهم من ثـــــروتهم وملكهم يشـاركون الله في ملكه للحيـاة ، والقـرآن ينفي ملكيتهم ولو بمقدار الذرة المتناهية في الصغر.

(**لا يَمْلِكُـونَ مِثْقـالَ ذَرَّةٍ فِي السَّـماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ**)

الثـاني : أصـحاب السـلطة ، والـزعم بـأن شخصا أو نظاما يشارك الرب في إدارة

(3) الشعراء / (49 ـ 51).

الخليقة ، وتـــدبير شـــؤون الســـموات والأرض ، وينفي السياق ذلك بقوة.

(**وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ**)

الثالث : وسائط القوة والـثروة ، من الجنـود والخـدم والوزراء ، والقرآن ينفي ان يكون للأنداد شرك حتى بهـذا القدر.

(**وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ**)

(23) وانما كـــانت تعبد هـــذه الأصـــنام طمعا في شفاعتها ، وينقض القرآن هذا الاعتقاد فيقول :

(**وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**)

الشــفاعة هي الــدعاء وما يــترتب عليه ، والله ليس مجبورا ان يستجيب لأحد دعاءه في حق نفسه أو في حق الآخرين مهما كان هذا مقربا عند الله ، ويبيّن القـرآن هـذا المعـــــنى في قـــــول الله الى حبيبه محمد (ص) : (**إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**) [4]

اذن لا مجال لفكرة الفداء في الرسـالة الالهية ، بلى. ان الله شفيع للإنسان ، ويقبل شفاعة الآخــرين فيه حينما تكـون عنـده مؤهلاتها ، حيث يقـول ربنا سـبحانه : (**وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ جـاؤُكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللـهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللـهَ تَوَّابـاً رَحِيمـاً**) [5] فمعنى الشفاعة الحقيقي اذن هو ما تقدمت الاشـارة اليه وهو ما تؤكده هذه الآية الكريمة. بان يشعر الإنسان نفسه بالذنب ، وبضرورة التوبة

---

(4) التوبة / (80).
(5) النساء / (64).

لله منه ، وما يســـتلزم ذلك من انكســـار القلب ، وعقد العزم على عدم العود اليه ، ثم المجيء للقيادة الرسـالية أو من يجسدها والاستغفار عنده.

وبكلمة : هناك فكرة للشفاعة يتخذها الإنسـان غطـاء لجرائمه ، وتهر به عن مســـــئولياته ، وهي الشـــــفاعة الشركية المرفوضة التي يزعم صاحبها أن أصنام السلطة والـثروة وجنودهما قـادرين على إنقـاذه من غضب الـرب لأنهم يشاركون الله في سلطانه تعالى الله عما يشركون.

وهناك شفاعة مسئولة تبعث الإنسـان نحو المزيد من المسؤولية والطاعة وهي التي يبيّنها القـرآن في أكـثر من مناسبة ، والـتي تعـني دعـاء الرسـول والأئمة والصـالحين بـــالمغفرة لمن اذن الله له بــــذلك ، وهم المســـلمون المطيعون لله وللرسول والأئمة بصفة عامة.

وانما تبعث هــذه الفكــرة نحو المزيد من العمل لأنها تقاوم اليأس ، وتزيد من طاعة القيادة الالهية.

يـدخل على الامـام البـاقر (ع) أبو أيمن ــ وهو مـولى لامــرأة علي بن الحســين (ع) ــ فيقــول له : يا أبا جعفر تغرون الناس وتقولون : شـفاعة محمد ، شـفاعة محمد ، فغضب أبو جعفر حتى تربّد وجهه [6] ثم قال :

«ويحك يا أبا أيمن ، اغـــــــرّك ان عف بطنك وفرجك؟! اما لو قد رأيت افزاع القيامة لقد احتجت الى شـفاعة رسـول الله ــ صـلى الله عليه وآله ــ ويلك وهل يشفع الا لمن وجبت له»

---

(6) تغيير لونه.

ثم قال :

«ما من أحد من الأولين والآخـــــــرين الّا وهو محتاج الى شفاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ يوم القيامة» ثم قال :

«ان لرســـــول الله الشــــفاعة في أمته ، ولنا الشـــفاعة في شـــيعتنا ، ولشـــيعتنا شـــفاعة في أهاليهم»

ثم قال :

«وان المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر» [7]

وعند ما تغشاهم افـزاع القيامة تطـير ألبـابهم ، وتزيغ أبصارهم ، ولا يعـودون الى رشـدهم الا بعد ان يفـرّغ الله قلوبهم من الفزع ، وهنالك يتساءلون : مـاذا قـال الـرب؟ ويجاوبون : لقد قال الحق.

(**حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**)

وحرف «حتى» يدل على أن الفزع يسـتمر معهم الى ان يفرجه الله عنهم ، مما يدل على ان الشركاء لا يغنـون عنهم شيئا.

وكلمة «**فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**» تشبه قول العـرب (قـرّد البعـير) إذا أخذ منه القـراد ، ويسـمونه السـلب ، ومعنـاه سلب عنهم الفزع.

(**قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَ**)

---

(7) المصدر / ص (335).

لعل السـائل والمجيب هم نفس الفريق ، فسـأل البعض وأجـاب الآخـرون ، ويحتمل ان يكـون السـائل الملائكة وأهل الشفاعة ، والمجيب هم المشـفوع لهم من المذنبين ، والكلام يكون خاصا بالذين يؤذن لهم بالشفاعة ، حيث ينزع عنهم الفزع حينما يؤذن لهم بالشـفاعة ، بينما يبقى الآخرون في فزع عظيم.

(**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**)

فلا شـفاعة الا باذنه ولا أمنة إلا منه ، ولا نجـاة إلّا به سبحانه.

وفي الآية تفسـيرات عديـدة ، بيد أن ما ذكرنا أنسب الى السياق من غيره فيما يبدو لي.

(24) ثم يمضي السـياق قـدما في تفنيد الأفكـار التبريرية ومنها الزعم بأن غـير الله يـرزق شـيئا ، وسـواء كـان السـلطان أو المـترف أو غيرهما فـان ربنا ينفي ان يكون الرازق حقا غير الله.

(**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

من يرسل السحاب ، ويبعث بأشعة الشمس ، ويهدي الإنسان الى طرائق الزراعة والصناعة ، ويرزقه القوة؟

(**قُلِ اللهُ**)

ثم يسـتفيد من أسـلوب التشـكيك المنهجي لإيصـال الإنسان الى الحقيقة.

(**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

وهذا الأسلوب يجعل الكـافر يشـكك في طريقه شـكّا منهجيّا ، كما يشك ـ على

الأقل ـ في صدق الرسالة ، مما يجـره للبحث والتعـرف ، وهـذا بـالطبع سـيقوده الى الحق ، مرحلة فمرحلة ، وانما يبقى في الضـلال الـذي لا يشـكك نفسه ، بل يعتقد جازما انه على الصواب.

وكما ان جزم الإنسان بـأن طريقه هو الأصح من دون بحث وتـدقيق خطأ ، فـان اعتقـاده بصـحة كل اعتقـاد كما يدعي ذلك البعض هو الآخر خطأ.

(25) والفكرة التبريرية الرابعة التي ينسفها القرآن : هي الاعتقاد بأن عمل الإنسـان يمكن ان يلقى على عـاتق غـــيره ، وإذا كـــان هـــذا ممكنا في الـــدنيا ، حيث يلقي بالمسؤولية على الآخرين ، فانه مستحيل في الآخرة.

(**قُـــلْ لا تُسْـــئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْـــئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)

فكل إنسان يلزم طائره في عنقه.

(26) ولكي نتخلص من هــذه الفكــرة التبريرية يجب ان نتطلع الى الآخـرة ، حيث نقف جميعا امـام الله ليحكم بيننا وهناك يتحدد المصير الأبدي.

(**قُـلْ يَجْمَـعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِـالْحَقِّ وَهُـوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ**)

فلا بد ان نعتقد بيــوم يتمــيز به الحق عن الباطل وان أهلهما بحكم الله ، وضرورة هذا الاعتقاد ان الإنسـان ربما يعتمد على نفسه في التميـــيز بينهما ، فـــاذا بالضـــغوط والإغراءات تؤثر فيه وتضيع منه المقاييس.

وعلى سبيل المثـال : لو لم تكن في العـالم مقـاييس وموازين محدودة للباعة لاجتهد كل واحد في تحديد مكيال خاص به ، وهـذا أمر خطـير ينهي الى التلاعب بالاقتصـاد ، لكن إيجـــاد مقيـــاس محـــدد يفـــرض على الجميع (البـــائع والمشتري) تكييف

أنفسـهم مع هـذا المقيـاس ، فيكـون حاكما بينهم ، كـذلك العلم بوجــود مقيــاس ثــابت عند الله لا بد ان ننتهي اليه جميعا يقف دون العمل بالأهواء.

(27) وفي نهاية هــذا الــدرس يــذكرنا القــرآن بــأن الشــركاء ليس فقط لا يملكــون شــيئا ، بل هم أنفســهم ليسوا بشيء إذا فكر الإنسان فيهم.

(**قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ**)

وادّعيتم انهم يتصـرفون في الحيـاة معه ، أو يـؤثرون عليه ، أو يعينونه.

(**كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ**)

الذي لا يحتاج الى معين لأنه قوي وقادر بذاته.

(**الْحَكِيمُ**)

الـذي يحيط بـالأمور علما ، ويتصـرف فيها بدقة ، فلا يخطأ حــتى يحتــاج الى من يســدده أو يصــحح حكمه عز وجل.

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (28) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (30) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ

لَمَّا رَأَوُا الْعَـــذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْنـــاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (33)

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ

هدى من الآيات :

بعد ان نسف السـياق التـبريرات الـتي يحتمي بها المجرمون هربا من المسؤولية ، أبلغهم ان الرسول (ص) جاء مبشرا ومنذرا لهم جميعا ، فالناس أمـام مسـئولياتهم شـرع سـواء ، وان وعد الله بـالجزاءات ، وان لكل أمة أجلاهم بالغوه ، ولن يؤخر عنهم إذا جاءهم لحظة واحدة ، كما لا يتقدم أجلهم باستعجالهم.

وحين تحدى الكفـار الرسـالة ، وقـالوا : لن نـؤمن بها ولا بالـذي سـبقها من الكتب ، انـذرهم الـرب أنهم سـوف يندمون يوم الجـزاء الأكـبر ، حين يـرون العـذاب ، وتوضع الأغلال في أعناق الذين كفـروا جـزاء بما كـانوا يعملـون ، وهنالك لا ينفعهم التـبرير الـذي يتوسـلون به اليـوم حين يلقي المستضـعفون (التـابعون) المسـؤولية على المستكبرين (المتبوعين).

ويبين السياق فساد هذا التبرير عند ما يصـور الحـوار الساخن بينهما ، حين يرجع

بعضهم الى بعض القول فيقول المستضعفون : أنتم كنتم السبب في ضلالتنا ، فيتبرأ من ذلك المستكبرون ، ويقولون : انكم كنتم مجرمين بأنفسكم ، ولا يسع المستضعفون آنئذ إلا إلقاء اللوم على الزمن فيقولون : بل مكر الليل والنهار ، إذ يأمروننا بالكفر.

بينات من الآيات :

(28) ان ما يميز الرسول (ص) عن سائر الأنبياء انه بعث لعامة الناس ، إذ لم تختص دعوته بجماعة دون أخرى ، ولا بقوم دون آخر ، وهذا بذاته دليل على صدق رسالته ، ذلك أن الإنسان مهما حاول التجرد فانه يبقى ابن بيئته التي تعكس عليه آثاره في واقع الثقافة ، كما تعكس عليه الآثار الطبيعية. من هنا حين يأتي الرسول برسالة تتجاوز القومية ، والعنصرية ، والاقليمية ، نظريّا وعمليّا ، فان ذلك يكون دليلا على ان رسالته الهية.

(**وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**)

ويلاحظ هنا تقديم البشارة على الإنذار ، بينما نجد العكس في بعض الآيات ، ولعل الحكمة أنه إذا كان الحديث عن هداية الإنسان استلزم تقديم الإنذار لأنه الأقوى أثرا في البشر ، بينما إذا جرى الحديث عن شخص الرسول تقدمت البشارة للدلالة على انه بعث رحمة للعالمين.

والسؤال : من الذي تسوقه البشارة الى العمل الصالح ، ويمنعه الإنذار عن الذنب؟

انه العالم. أو ليس العلم يجعل الإنسان يؤمن بالحقائق؟! لهذا جاءت آيات كثيرة تؤكد على علاقة العلم بالايمان ، وتكميل أحدهما للآخر ، ومن أبرزها قوله

تعالى : (**إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ**) [1] وانما لا يستجيب غالبية الناس للرسل ببشارتهم وإنذارهم لجهلهم ، فـاذا رأيت أغلب النـاس كفّـارا فلا تسـتوحش من ذلك ، ولا تظنّ بـان ذلك دليل على ضـعف أدلة الرسـالة ، بل على ان الايمـان ـ كما العلم ـ درجة رفيعة لا يبلغها إلّا الصفوة من الناس.

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)

فهم لا يؤمنون.

(29) (**وَيَقُولُـونَ مَـتى هـذَا الْوَعْـدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

ويتشبث الإنسان بتبرير فاسد آخر حين يتساءل : إذن أين الجـزاء؟! لمـاذا يتـأخر عن المجـرمين؟! إذا كنتم صـادقين في ان لكل عمل صـالح جـزاء حسـنا يبشر به الرسول ، ولكل جريمة عقابا ينذر به.

(30) ويبطل السياق هذا التبرير أيضا بان الجزاءات ، وان تأخيره لأجل محدود ، وانه حين يحين ميعاده لا يتـأخر ساعة ولا يتقدم.

(**قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ**)

وقد أخفى الله أجل الإنسـان ، فهو لا يـدري مـتى يوافيه الموت والجزاء ، ولعل اي لحظة يمر بها تحمل في طياتها أجله ، مما يـدعوه الى التسـارع والمبـادرة لعمل الخـير ، والاسـتقامة عليـه. يقـول الرسـول (ص) لابي ذر (رض):

«**يا أبا ذر! اغتنم خمسا قبل خمس : شـبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل**

---

(1) فاطر / (28).

سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك» [2]

ذلك ان الحكمة من إخفـــــــــاء الأجل هي بعث روح المبادرة في الإنسان ، هكذا يقول الامام الصادق (ع):

«ثم [لـو] عـرف ذلك ــ يعـني أجله ــ وثق بالبقـاء ، وانهمك في اللّـــذات والمعاصي ، وعمل على انه يبلغ من ذلك شـهوته ، ثم يتـوب في آخر عمـره ، وهـذا مـذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله ، الى ان يقول (ع) : فكان خير الأشياء للإنسان ان يستر عنه مبلغ عمـره ، فيكـون ــ طـول عمـره ــ يـترقب المـوت فيـترك المعاصي ، ويـؤثر العمل الصالح» [3]

والســـاعة الـــتي تعنيها الآية الكريمة ليست كما هي عنــدنا ، انما هي في عــرف القــرآن اللحظة وأقل منها ، وفي الخبر يسأل الامام الصـادق (ع) عن النـاس يموتـون بين فــاتح لعينه وآخر مغمضــها؟ يجيب : ان ملك المــوت حينما يــأتي على الرجل ليقبض روحه وهو مغمض العين ، يستأذنه ويقول : ائذن لي افتحها ، والآخر على خلافه ، فلا يــأذن لهما اذن لمــاذا نســتهين بــالزمن! ولمــاذا نقتل المسافة التي تفصلنا عن أجلنا باللهو واللعب والمعصـية ، ونحن لا نعرف متى ينتهي هذا الزمان!

(31) ان من عقبـات الايمـان بالرسـالة حالة العنـاد التي يعالجها الذكر ببيان نتائجها السيئة ، فيحـدثنا السـياق عن كلمة الكفّار : بـأنهم لا يؤمنـون بـالقرآن ، ولا بـالكتب التي سبقته ، وكأنهم قد عقـدوا العـزم على هـذا الـرفض القاطع لرسالات ربهم.

---

(2) بح ج / (77) / ص (75).
(3) بح ج / (2) / ص (84).

(**وَقالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَنْ نُـؤْمِنَ بِهـذَا الْقُـرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**)

والله يعـالج مشـكلة العنـاد هـذه عن طريق تصـوير مشاهد رهيبة من يوم الآخرة.

ومن بين تلك المشـاهد الـتي تتعـرض لها آيـات هـذا الدرس وقوف الظالمين أمام ربهم ، يلوم بعضـهم بعضا ، ولعل هـذه المعالجة القرآنية تـدل على أن الإنسـان يعتمد أولا على قـوة ارضـية يـزعم انها تمنعه من ربه ، وتخلصه من جزاء كفره ، ثم يستكبر على ربه ، ويتحدى رسـالاته ، لذلك يبين السياق بطلان ذلك ، ويصـور لنا مشـهد الحـوار بين الكفـار ومن كـانوا يعتمـدون عليهم في الـدنيا في كفرهم بالرسالة ، فيقول :

(**وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ**)

يلقي بعضـهم المسـؤولية على البعض الآخر ، طمعا في النجاة من الذل والعذاب.

(**يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ**)

متصورين انهم يقدرون على ذلك ، كما هو الحـال في الـدنيا ، ويتشـبث بعضـهم وهم المستضـعفون بحجة اتبـاع المستكبرين.

(**يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْـعِفُوا لِلَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا لَـوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ**)

ولكن هل خلق الله الناس مستكبرا ومستضعفا حـتى يكون لبعضهم على بعض سلطان مبين؟! كلا .. بل خلقهم أحـــرارا ، ولكن خضع بعضـــهم للبعض الآخر بحريته ، فشجعه على الاستعلاء في الأرض.

ولو عـرف الإنسـان مـدى ضـلالة الاعتمـاد على اولي القوة والثروة وادعياء العلم

والـــدين ممن ينصـــبون أنفســـهم ســـادة على النـــاس ، ويـــأمرونهم باتبـــاعهم ، لما تـــورط كثـــير من النـــاس في الجـــرائم ، اتّباعا للســـلاطين والمـــترفين ومؤيـــديهم من ادعياء العلم والدين.

ولكن الإنسـان يـزعم ان هـؤلاء المسـتكبرين ينقذونه من عـذاب ربه يـوم القيامة ، كما انهم يـوفرون له بعض الحماية في الدنيا ، ولا يعلم انهم مجرد ابتلاء له في الدنيا ، وانهم لا يغنون عنه من عذاب ربه شيئا.

(32) اما المستكبرون فإنهم من جانبهم يـدفعون عن أنفسـهم التهمة بـأن الإنسـان حـرّ ومختـار ، لا يمكن لأحد إجبـــاره على نمط معيّن من الحيـــاة ، وإذا تـــرك الحق للباطل فبما ينطوي عليه قلبه من النزوع الى الجريمة.

(**قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا**)

وهم يحاولون إلقاء المسؤولية عن كاهلهم.

(**أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ**)

بلى. قد يتوسل المســـتكبرون بـــالمكر والاســـاليب المضلة ، ولكن يبقى الإنسان صاحب القرار ، وإذا انحرف فلا يعدو إضلال المستكبرين له دور التشجيع.

(**بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ**)

وهذا ضـرب من الشـماتة على الإنسـان من قبل من كـان يـزعم انه يخلّصه وينجّيه ، ولعل ذلك من أشد أنـواع العذاب الذي يلقاه أصحاب النار.

ولو عقل النـاس هـذه الحقيقة لانهـارت أسس الظلم في المجتمعات ، حين يعلون

المســــــتكبرون فيها ، ويعيشـــــون فســـــادا ، ويتبعهم المستضــــعفون زاعمين أن ذلك يلقي المســــؤولية عن كاهلهم ، ويجعلهم مبرئين من الجرائم التي يرتكبونها بحق بعضهم ، ويقولـون : المـأمور معـذور ، وكـأن الله أمـرهم باتبـــــاعهم ، أو انه خلقهم مستضـــــعفين وجعل أولئك مستعلين عليهم.

(33) ومن صور الفكر التبريري الذي يعتمده الإنسان : اعتقـاده بـأن الزمـان هو الـذي يفـرض عليه نوعا من السلوك ، فيلقي عليه اللوم!

(**وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُـرَ بِاللـهِ وَنَجْعَـلَ لَـهُ أَنْداداً**)

والكفر بالله ليس بالضرورة نفي وجـوده بقـدر ما هو تحدي رسالاته ، واتباع الأهواء ، أو الأشخاص ، أو القوانين الوضــعية ، وهــذا ما يبعث على الإنســان بالندامة يــوم الحســاب ، حيث يتـبرأ منه الأنــداد المزيفـون ، ويكتشف أنهم لا ينفعونه بل يضرونه ، وان الكلمة الفصل هنـاك لله الحق.

(**وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ**)

ولات حين مندم.

(**وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا**)

وحـتى يقـاوم الإنسـان فكـرة إلقـاء المسـؤولية على الآخرين ، يؤكد القرآن مرة أخـرى بـان ما يلاقيه الإنسـان في الآخرة من ألوان العذاب وصنوفه هو جزاء أعماله في الدنيا ، وأساسا ـ في الرسـالة الإلهية ـ الجـزاء من جنس العمل ، فالصـلاة الـتي يقيمها المـؤمن في الـدنيا تتحـول حورية في الآخرة ، وعلى العكس فان الغيبة تصبح

زقوما يـؤذي صـاحبه ، وربما تحـولت الى حيـات وعقـارب والـــتي ورد في الحـــديث ان حجمها بحجم البغل ، ولعل الأغلال التي يجعلها الله في أعناق الكفار هي ذات القيـود التي يغل بها النـاس أنفسـهم باتبـاعهم في الـدنيا للأهـواء والأشـخاص والقـوانين ، ولعل خاتمة الآية تشـير الى ذلك حين تقول :

(**هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

ولم يؤكد القرآن الكلام بحرف البـاء فيقل : بما كـانوا يعملون ، للاشـارة إلى أن الأغلال هي ذات الأعمـال الـتي عملوها في الدنيا والله العالم.

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (34) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (36) وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (37) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (38) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39)

---

37 [زلفى] : مصدر زلف بمعنى قرب وهو منصوب على المصدرية أي تقربكم تقرّبا.

وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ جَمِيعـاً ثُمَّ يَقُـولُ لِلْمَلائِكَـةِ أَهـؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كـانُوا يَعْبُـدُونَ (40) قـالُوا سُـبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَـلْ كـانُوا يَعْبُـدُونَ الْجِنَّ أَكْثَـرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41) فَـالْيَوْمَ لا يَمْلِـكُ بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعـاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (42)

وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ

هدى من الآيات :

في سياق تفنيد التـبريرات الـتي يتشـبث بها الإنسـان للتهرب من مسـئولياته تـبين الآيـات ضـلالة الاعتمـاد على المال والـثروة ، فما من قرية أرسل الله فيها منـذرين الّا وادّعى مترفوها بـــأنهم الأولى بالقيـــادة ، لأنهم يملكـــون الثروة ، فهم في زعمهم مرضيون عند ربهم ، ولا يمسـهم العذاب.

وينسف القرآن هذه الفكرة مرتين :

مرّة حينما يذكرنا بأن ثروة هؤلاء ليست من أنفسـهم ، بل هي من عند الله ، ومـرّة أخـرى عند ما يـبين لنا بـان مقياس رضى الرب عن الإنسان ليس ما يملك من الثروة ، فـربّ غـنيّ بغيض عند ربه ، وربّ فقـير مرضي عنـده ، انما الـــثروة كما الســـلطة والقـــوة وســـائر النعم الالهية وسائل لابتلاء الإنسان واختباره في الدنيا.

ثم يوجهنا السياق لاتخاذ الثروة سبيلا لمرضاة الخالق باستخدامها الصحيح ، وإنفاقها في سـبيله ، كما يؤكد ذلك بـأن ما يعطيه الإنسـان في سـبيل الله يخلف له بزيـادة الخير في الدنيا ، وبالجنـان في الآخـرة ، ثم بـأن ما يملكه الناس انما هو من الله وليس من عند أنفسهم.

ثم تعـالج الآيـات فكـرة عبـادة الأوليـاء ــ كالملائكة ، والجن ، والصالحين ـ من دون الله ، وذلك عـبر حـوار بين الله وملائكته ، إذ يسـألهم : هل كـان هـؤلاء يعبـدونكم؟ فتنفي الملائكة ذلك ، وتسـتغفر الله خوفا ورهبة مما يدعيه الناس عنهم اما عن هدف هذه العبادة فهو التهـرب من المسؤولية ، والزعم بان الملائكة سوف ينقذونهم من نار جهنم ان هم عبدوهم.

بينات من الآيات :

(34) يبدو أن أغلب المترفين ـ وهم الذين نعّمهم الله فأسرفوا ـ معاندون ، ويكفرون بالرسالات ، بل ويحملـون لواء الحرب ضدها.

(**وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قـالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ**)

ولعل القـرآن عبّر في هـذه الآية بكلمة «قريـة» عن المدينة ، بل عن الحضارة بأجمعها ، استصـغارا لها ، ولأن من لا يعبـدون الله ، ولا يتبعـون رسـالاته في حيـاتهم وحضـارتهم أقليه وان كـثرت أعـدادهم ، ذلك أن القيمة الحقيقيّة للإنسـان كما المجتمع بقربه من الحق أو بعـده عنه ، لا بما يملك من تقدم ماديّ بحت.

(35) اما لمـاذا يكفر هـذا الفريق فـذلك ـــ كما يصرحون أنفسهم ـ للأسباب التالية

الاول : كـــثرة الأمـــوال والأولاد ، ولعل التعبـــير كما الأمـــوال لا يختص بظـــاهر الكلمـــتين انما تشـــمل كلمة الأموال كـلّ أنـواع الـثروة ، كما تنطـوي كلمة الأولاد أيضا على الأتباع والمطيعين.

(**وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً**)

إذ أن أول أهـداف الرسل هو تغيـير القـوة السياسـية الحاكمة على النـــاس ، ولكن المـــترفين يعارضـــون ذلك مـبررين رفضـهم بـأن السـلطة لا تكـون لصـاحب الحق والعلم ، انما للمترف بما يملك من المال والاتباع.

الثـاني : الاعتقـاد بـأن من يملك المـال والرجـال لا يلحقه الأذى ، ولا يشـمله العـذاب الالهي ، حـتى ولو فعل الفواحش.

(**وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**)

ولعل هذه الفكرة تكون سببا لتـوغلهم في الجـرائم ، لأن اعتمـاد الإنسـان على ما يملك من مـال ومؤيـدين ، بعيدا عن هـدى الله والعقل يقحمه في المهالك ، وهـذا ما دفع امريكا للـدخول في حـرب فيتنـام ، فتمـرغ أنفهما ، وسـقطت هيبتها المزيفة ، كما سـقطت روسـيا باحتلالها افغانستان الاسلامية غرورا واسـتكبارا ، فتعرضت لهـزائم منكرة على يد ابطال الإسلام هنالك.

وما يـدريك لعل الغـرور يكـون سـببا لانتهـاء الجاهلية الحديثة؟ فقد قال الامام علي (ع) يصف بعض الأقوام :

«**زرعـوا الفجـور وسـقوه الغـرور ، وحصـدوا الثبور**» [1]

(1) نهج / خ (2) / ص (47).

وقال (ع):

«**طوبى لمن لم تقتله قاتلات الغرور**» [2]

(36) ويعالج ربنا هـذا الانحـراف النفسي حينما يـذكّر بـأن ما في أيـدي النـاس من مـال انما هو من عند الله لا من عند أنفسهم حتى يغتروا بها.

(**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ**)

فتارة يزيد الله الرزق للعبد حتى يكفيه وأكثر ، وتـارة يضيّق عليه فيه ، فالغنى والفقر اذن بيده عزّ وجل ، ولعل غني اليوم يكون فقيرا غـدا أو العكس ، الا أن الغالبية من الناس لا يعقلـون هـذه الحقيقة لأنهم لا يعلمـون الا ظـاهر الحياة الدنيا ، فيعتقدون مثلا أن سعيهم فقط يدرّ الرزق ، ولو تعمقـوا في الحيـاة قليلا لعرفـوا أن ذلك وسـيلة فقط أما السبب الحقيقي فهو رحمة الله.

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)

ولعل من مشـــاكل البشر العقلية والنفســـية انهم لا يتدرجون في تعليل ظـواهر الحيـاة لمعرفة العلة الأسـمى والأرفع ، انما يقتصرون على الأسباب الظاهرة المباشرة.

(37) ثم لنفــترض بــأن المــترفين يملكــون الأمــوال والأولاد ، فهل ذلك يقربهم الى ربهم. كلا ..

(**وَما أَمْـوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِـالَّتِي تُقَـرِّبُكُمْ عِنْـدَنا زُلْفى**)

بلى. من الممكن ان يكــون المــال والاتبــاع وســيلة لرضى الرب ، وذلك إذا بعث

---

(2) غرر الحكم.

الايمان في القلب ، وتحـول الى أعمـال الخـير والصـلاح ، فعمر بالمال الحرث والنسل ، واستخدمت القوى البشرية للـدفاع عن المستضـعفين واحقـاق الحق ، ومـتى صـار أصحاب المـال والاتبـاع بهـذا المسـتوى عظم شـأنهم عند ربهم بزيـادة الخـير لهم في الـدنيا ، وأعطـاهم الجنـان والأمن في الآخرة.

(**إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِـلَ صـالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَـزاءُ الضِّعْفِ**)

لايمانهم من جهة ، ولعلمهم من جهة أخرى ، وهذا ما يشير اليه الحديث الشريف

«**شكر الغني خير من صبر الفقير**»

وفي تفسير القمي قـال : ذكر رجل عند أبي عبد الله (ع) الأغنياء ووقع فيهم ، فقال ابو عبد الله (ع):

«**اسكت! فان الغني إذا كان وصولا لرحمه ، بارّا بإخوانه ، أضـعف الله له الأجر ضـعفين لان الله يقول : وذكر الآية**» [3]

أما جزاء الآخرة فهو الأمن من فزع يومئذ.

(**وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ**)

(38) كـان هـذا جـزاء الغـنيّ حينما يسـتخدم قدراته المادية والبشـرية في سـبيل إعلاء كلمة ربه ، اما إذا كـان الغنى طريقا للجحود ، ولحـرب الرسـالات الإلهية ، فليس جزاؤه سوى العذاب الشديد.

---

(3) تفسير القمي / ج (2) أص (203).

(**وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا**)

وهي القــــرآن ، وما يتصل به من الحقــــائق المعنوية والمادية كالقيادات وآيات الطبيعة.

(**مُعاجِزِينَ**)

اي يجعلونها عــاجزة عن بيــان الحقيقة ، عــبر إثــارة الشبهات الزائفة حولها ، أو تفسيرها على غير وجهها.

(**أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ**)

أرادوا ذلك أو رفضوه.

وتتضمن الآية الكريمة معنيين :

المعــنى الاول : ان المعاند الــذي قــرر الكفر بالله ، والســــعي من أجل تحريف آياته ذاتها ، أو تأويل دلالاتها ، فانه حــتى لو قــرأ القــرآن أو بحث عن الحقــائق فليس للايمان بها وانما للبحث عن وسيلة لردها ومعارضتها.

المعنى الثاني : أن المنحرف يستخدم كل قوة يملكها في غــير أهــدافها المشــروعة ، فــاذا بالمــال الــذي هدفه تقويم النظـام الاجتمـاعي ، وتحريك الفاعلية الاقتصـادية ، يصــبح وســيلة لــدمار المجتمع ، وإفســاد الإقتصــاد ، وإذا بالسلطة التي هدفها إقامة العدل ، وبناء الحياة الفاضلة ، تصــير أداة لفســاد الأرض ، وهلاك الحــرث والنسل (**وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِـدَ فِيها وَيُهْلِـكَ الْحَـرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ**) [4]

---

(4) البقرة / (205).

وإذا بالآيات الـتي هي وسـيلة الهداية تضـحى عنـدهم محورا للمعاجزة وللجدال العقيم ، فتزيدهم كفرا وطغيانا.
وحينما نقرأ اليوم عن اقتصاد العالم نرى كيف صارت الثروة أداة لهـدم الحضـارة ، فميزانيـات التسـلح في هـذا العصر تبتلع انتاج الحضارة البشرية ، وكل التقــدم العلمي والتكنلوجي لديها ، فاذا بالمترفين وحفاظا على مصالحهم ، يلقــــون بالقنابل المـــــدمرة على مدينة بنتها القــــوى والفاعليات البشرية خلال عشرات السنين ، فتـدمرها في بضع دقـــائق ، كما فعلت القنبلة الذرية في هيروشـــيما ونكــــزاكي ، أو كما فعلت قنابل الحلفـــاء في المـــدن الالمانية.
(39) اذن فما هو الموقف السليم من الآيات والأفكار السليمة ، ومن الثروة والقوة وهما من آيات الله؟
الجواب أولا : معرفة المنعم مقدمة لشـكره النظـري والعملي.
(**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبـادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ**)
فالذي يـرى ان ربه هو الـذي أعطـاه ما يملك لا يكفر به ، ولا يحـارب رسـالاته ، وعبـاده الصـالحين ، ولا يخشى من الإنفــاق في سـبيله ، بل يســعى لــذلك إحساسا منه بالمســؤولية. أو ليس القـــدرات والإمكانــات كما النفس امانة من عند اللـــه؟! فلما ذا لا يردها حين يطلبها منـــه. بلى. سوف يعطيها راضيا مطمئنا لرزق ربه.
(**وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**)
وذلك من ناحيتين :
الناحية الغيبية :
قال رسول الله (ص) :

«ومن يبسط يده بالمعروف إذا وجده يخلف الله له ما أنفق في دنياه ، ويضاعف له في آخرته» [5]

وقال ابو عبد الله (ع):

«أن الرب ـ تبارك وتعالى ـ ينزل أمره كل ليلة جمعة الى السماء الدنيا من أول الليل ، وفي كل ليلة في الثلث الأخير ، وأمامه ملك ينادي : هل من تائب يتاب عليه؟ هل من مستغفر يغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ اللهم أعط كلّ منفق خلفا ، وكلّ ممسك تلفا ، الى أن يطلع الفجر ، فإذا طلع الفجر عاد أمر الرب ـ تبارك وتعالى ـ الى عرشه ، فيقسم أرزاق العباد» [6]

ولعل الناحية الغيبية في خلف الرزق ومضاعفة تكمن في البركة الإلهية التي يسبغها على عبده ، وفي التوفيق الى القرارات الصائبة ، والتصرفات المالية النافعة.

الناحية الطبيعية : ان ما يدفع الإنسان للبحث عن حوائجه ومن بينها المال هو الشعور بالحاجة ، ولا شك أن المنفق سوف يسعى بقواه العقلية والمادية من أجل التعويض عما أنفقه ، عبر تحريك المال من خلال المشاريع والأعمال المختلفة.

وحتى ينفق الإنسان في سبيل الله ، لا بد ان يتعرف على كرم ربه عز وجل ، لهذا لم يكتف القرآن بذكر ما تقدم ـ من أن الله يخلف على من أنفق ـ انما أضاف.

(**وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**)

---

(5) نور الثقلين / ج (4) / ص (340).

(6) المصدر / ص (339).

والأحاديث تؤكد هذه الحقيقة ، قال رسول الله (ص):

«**من صدق بالخلف ، جاد بالعطية**» [7]

وقال (ص):

«**من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة**» [8]

وهل يصـدق بـالخلف ويـوقن به الا إذا عـرف أن ربه خير الرازقين.

ثم لماذا لا ينفق الإنسان ماله في سـبيل الله وهو ان بقي لم ينتفع به ، وان أنفقه كـان في سـبيل الحق ، قـال الامام الباقر (ع) للحسين ابن أيمن :

«**يا حسين! أنفق وأيقن بـالخلف من الله ، فانه لم يبخل عبد ولا أمة بنفقة فيما يرضي الله عز وجل الا أنفق أضعافها فيما يسخط الله**» [9]

(40) هروبا من ثقل المسـؤولية يتشـبث البشر بـأي تـــبرير ، ولا بد من إبطـــال كل تبريراته ، ليتحمل أمانته بصـــدق ، وما عبـــادتهم للأصـــنام أو الملائكة أو الجن إلا صورة لهذه الحقيقة ، ويفند السياق هذه العبادة عــبر ذكر الحوار الذي يجـري بين الـرب وبين عبـاده المكـرمين من الملائكة ، حيث يجمعهم هم والذين زعمـوا أنهم يعبـدونهم من المشــركين ، ثم يخــاطب الملائكة بما يــوحي : كيف رضيتم بعبادة المشركين لكم؟!

فيجيبون : أولا : نحن لا نتخذ من دونك وليّا ، وبالتـالي لا نرضى بعبادة أحد

---

(7) المصدر / ص (239).

(8) المصدر / ص (340).

(9) المصدر / ص (240).

لنا ، ثانيا : إذا كانت العبـادة حقّا هي الطاعة فـإنهم كـانوا مطيعين للجن وليس لنا نحن الملائكة.

(**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً**)

المشركون ومن عبدوهم.

(**ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ**)

ولعل تقديم المفعـول الـذي يـدل على الحصر يـوحي بـأن طبيعة العبـادة لا تتجـزأ ، فلو كـانوا يعبـدون الملائكة حقا فلا بد انهم كانوا يخلصون العبادة لهم.

(41) هنالك انكشف زيف ادعـاء المشـركين عبـادتهم للملائكة إذ ...

(**قالُوا سُبْحانَكَ**)

لا يمكن أن نرضى بشريك لك ، فأنت الرب القـدوس ، الذي لا شريك له.

(**أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ**)

ويبدو ان معنى «الـولي» هو القـريب ، فيكـون مـراد الملائكة : أنت الـذي نتقـرب إليك ، ولسـنا نرضى بقـرب هـؤلاء الـذين لا يسـوى ولاؤهم لنا شـيئا ، فما قيمة عبـادة همج رعاع ، لا يضرون ولا ينفعون؟!

ونســـــتوحي من هـــــذه الإجابة : ان علينا ألّا نرضى بطاعة الناس لنا إذا كانت تسخط الرب ، فان طــاعتهم لا تغــني شــيئا عن عــذاب الــرب ، وما قيمة طــاعتهم إذا أسـخطت ربنا الـذي بيـده نفعنا وضـرنا وهو بكل شـيء قدير؟!

ثم أشــارت الملائكة إلى أن عبــادة المشــركين هي للجن في الواقع.

(**بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَ**)

فالعبـــادة هي الطاعة ، وبالطاعة تنعكس توجهـــات المعبـود على سـلوك العابد ، وبما ان سـلوك المشـركين المنحـرف يعكس توجهـات الجن فـإنهم كـانوا في الواقع يعبدون الجن التي هي الموجـودات الغيبية الـتي يمكن ان تكون منحرفة ، ولـذلك أمرنا الله ان نسـتعيذ به منهم في سـورة النـاس فقـال : (**قُـلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ النَّاسِ* مَلِـكِ النَّاسِ* إِلــهِ النَّاسِ* مِنْ شَــرِّ الْوَسْــواسِ الْخَنَّاسِ* الَّذِي يُوَسْـــــوِسُ فِي صُـــــدُورِ النَّاسِ* مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**).

ثم ان العبــادة تعكس عــادة صــلة العابد بــالمعبود ، وصــلة هــؤلاء كــانت مع الجن دون الملائكة ، إذ أن الجن كانت توسوس في صدورهم ، وتدعوهم الى الضلالة.

(**أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ**)

فالجاهليون كانوا ينسبون الخوارق للجن ، ويقدسونها ، ولعل تغيير الصيغة من العموم الى الاكثرية جـاء بسـبب أن العبــادة أشــمل من الايمــان إذا فســرناها بالتســليم والطاعة المطلقة ، فكثير أولئك الذين يعبدون الســلاطين خوفا وطمعا ولا يؤمنـون بهم ، ومن أبـرز مظـاهر العبـادة بلا إيمـان طاعة البسـطاء للأحبـار والرهبـان ، واتخـاذهم أربابا من دون الله ، دون ان يســجدوا لهم ، أو يؤمنـــوا بأنهم خالقوهم ورازقوهم.

(42) وينسف القرآن الكريم أساس الشرك ، وعبادة الملائكة والجن بـأن الخلائق لا تملك نفعا ، ولا تـدفع ضـرا من دون أمر الله وإذنه.

(**فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا**)

ويؤكد ربنا مسئولية الإنسان عن أفعاله دون ان يقـدر الشركاء الذين يعبدون

من دون الله نجاته من النار.

(**وَنَقُـولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُـوا ذُوقُـوا عَـذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ**)

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قـالُوا ما هـذا إِلاَّ رَجُـلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقـالُوا ما هـذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جـاءَهُمْ إِنْ هــذا إِلاَّ سِــحْرٌ مُبِينٌ (43) وَما آتَيْنــاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُــونَها وَما أَرْسَــلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَــكَ مِنْ نَــذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْنــاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (45) قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْـنى وَفُـرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصــاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُــوَ إِلاَّ نَــذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَــدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (46) قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْـرٍ فَهُـوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ (47) قُـلْ إِنَّ رَبِّي يَقْـذِفُ بِـالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُـوبِ (48) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِـلُ وَما يُعِيـدُ (49) قُـلْ إِنْ ضَلَلْتُ

فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50) وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (51) وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

---

52 [التناوش] : بمعنى التناول ، أي لا يتمكنون من تناول الإيمان المفيد لحالهم.

قل جاء الحق

وما يبدأ الباطل وما يعيد

هدى من الآيات :

في سياق معالجة أمـراض الفـؤاد ، والتـبريرات الـتي يتشبث بها الكفار يداوي الذكر هنا مـرض التقليد الأعمى ، الـذي يـدعو الى تكـذيب الرسـول ، ويسـوق الحجج على صدق الرسالات :

أولا : بان القـوم جـاهليون ، ولا رسـالة إلهية لهم من قبل حتى يفتخروا بها ، ولا رسول نذير.

ثانيا : ان الله أهلك القـرون الغـابرة بتكـذيبهم ، وقد كـانوا أشد منهم قـوة ، وما بلغ هـؤلاء معشـار ما بلغه أولئك.

ثالثا : ليقومـوا لله مثـنى وفـرادى ، ثم يعـودوا الى ضمائرهم ويتساءلوا في أنفسهم : هل صـحيح ما يتهمـون به رسولهم من الجنـون ، أفلا يعرفـون ان صـفاته صـفات من ينذرهم بعذاب شديد وليس صفات مجنون حاشاه؟!

رابعا : ان ما نســـبوه اليه من الكـــذب ينفيه شـــدة إخلاصه لرسالته ، وانه لا يطالبهم بــأجر ، بل كل ما يبتغيه هو خير لهم ، وان يشهد ربه على أفعاله.

خامسا : انه يــذكر أبــدا بــالحق ، وان الحــقّ بــاق ، ويقذفه الله على الباطل فيدمغه ، وانه إذا جاء الحق زهق الباطل ، وهذا أكبر شهادة على صدق رسالات الله ، حيث انها حق ، وأن الله ينصرها.

وتشير الآيـات الى ان الهـدى من الله ، وان الرسـول يهتدي بهدى الله ، وان عاقبة الضلالة تعود الى صاحبها.

سادسا : يحـذرهم عـذاب الله الـذي أعـده للكـافرين برسالاته حين يؤخذون فزعين ، لا يفـوت أحد منهم هربا ، بل يؤخذون من مكان قريب.

وحينـذاك قـالوا : آمنا ، ولكن كيف يؤمنـون هنالك ولا ينفعهم الايمان الا في الدنيا؟! ويكون مثلهم مثل من يريد التناوش من مكـان بعيـد. أو ليسـوا قد كفـروا به من قبل يوم كانت الفرصة متاحة؟!

وهكذا لا يبلغـون منـاهم كما لم يبلغ الأولـون أمـانيهم لأنهم كانوا في شكّ مريب.

بينات من الآيات :

(43) يخلط أعداء الرسالة أمرها عادة وأمر صاحبها ، فاذا بهم يتركون الحديث عنها وعن الآيات الواضـحة الـتي تتلى عليهم ويحاولون النيل من رسولهم (مبلغها إليهم).

(**وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّنـاتٍ قـالُوا ما هـذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ**

(**يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ**)

فهم يريدون أولا إسقاط شخصية الرسول (ص) في المجتمع ، حتى يتسنى لهم رفض أفكاره ، وذلك عن طريق إثارة العصبيات الجاهلية ، وأنهم لو أفلحوا في ذلك لأوجدوا هدفهم وهو العداء بين المجتمع وبين الرسول ، بحيث يتخذ المجتمع موقفا مسبّقا تجاه كل ما يصدر عنه من الأفكار ، وكان هذا وراء كفرهم ، الّا أنهم بررّوا كفرهم بأن اتهموا الرسول (ص).

(**قالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً**)

حتى لا يسلّم الناس مباشرة للرسالة ، ثم يقوموا بإعطاء المقاييس الخاطئة التي تنتهي الى نتيجة من جنسها ، ولهذا أسموا الرسالة بالإفك المفترى وهو الكذب المحبوك ، ولما اكتشفوا ان الكذب هو ما يخالف الحقيقة ، وان الذي يقوله الرسول (ص) عين الحقيقة ، فكروا في تغيير موقفهم بالبحث عن تسمية أكثر مناسبة من الكذب ، فيها شباهة بالواقع ولو ظاهرا ، حتى يقنعوا المجتمع بأن ما يراه ليس هو الحق ، فلم يجدوا في نظرهم أفضل من تهمة السحر.

(**وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**)

(44) ويبين الله الدافع الحقيقي لهؤلاء نحو تكذيب الرسالة ومعارضتها الا وهو الجهل ، وفي الحديث قال أمير المؤمنين (ع):

«**الناس أعداء ما جهلوا**» [1]

وجهل المجتمع الذي جاءه الرسول (ص) يتجسد في انعدام الخلفية الفكرية

---

(1) بح ج / (78) / ص (14).

الصحيحة.

(**وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها**)

اي لم تصلهم أصداء الرسالات الأخرى فيستنيروا بها.

(**وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ**)

فتكـــون ثمة بقايا لحركته الرســـالية فيهم ، ليقيســـوا بينك وبينه فيعرفون الحقيقة ، فإنكار هؤلاء نابع من غـرور الجهل لا من أسس علمية ، ولعل في الآية اشـارة الى ان هؤلاء الذين يتغنون بامجاد أجـدادهم ، ويخشـون عليها من الرســـالة ، لا يوجد في ماضـــيهم نـــور المعرفة أو ضـــياء الرسـالة ، فلا ينبغي لهم ان يقلـدوا آبـاءهم البعيـدين عن العلم والرسالة.

(45) ثم ينسف الله قاعـــدة أخـــرى لكفـــرهم وهي غـرورهم بقـوتهم ، وينـذرهم بـان القـوة الظاهرية لا تمنع عنهم جزاء كفرهم وظلمهم ، وان الذين كفروا بالرسالات من قبلهم كانوا أشد منهم قـوة ، وأكـثر جمعا ، ولكن الله دمرهم فهل يقدرون على تجنب هذا المصير.

(**وَكَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُـوا مِعْشـارَ ما آتَيْناهُمْ**)

من القوة.

(**فَكَذَّبُوا رُسُلِي**)

غرورا بما يملكون من طاقات وامكانـات وجهلا بهما ، ولكن هل منعت قوتهم عنهم العذاب؟! كلا .. انما تعرضوا لنقمات الله الجبار ، والقرآن يوجّهنا لدراسة

تاريخ تلك الأمم ومصائرهم للاعتبار بها فيقول :
(**فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ**)
والنكـير : السـوء الـذي ينكـره الإنسـان ولا يريـده ، اشارة الى فظاعة الخطب والدمار اللاحق بهم.
وبعد ان نسف القــرآن قواعد الكفر ، وأبطل أعــذار رفض الرسالة من اتباع الآباء ، أو الغرور بـالقوة ، دعـاهم الى التفكر. وهذا هو المنهج السليم في الدعوة : ان ترفع في البدء الحجب التي تمنع الرؤية ، ثم تخاطب الوجدان ، وتستثير العقل بالدعوة الى التفكر.
(**قُـلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِـدَةٍ أَنْ تَقُومُـوا لِلَّهِ مَثْـنى وَفُرادى**)
بصورة جماعية ـ اثنان اثنان وأكثر ـ أو بصورة فردية.
ويجب ان يكـون هـذا القيـام بهـدف التفكر لمعرفة الحقيقة الـتي تخـالف أراجيف الكـبراء والمـترفين حـول الرسول (ص).
(**ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ**)
وأول ما يــذكرهم به بعد اســتثارة عقــولهم هو ان صاحبهم الذي عرفوه طـوال أربعين سـنة ليس بمجنـون ، وكيف يكـون به جنة والحكمة تتفجر من جوانبه ، وتشـهد مواقفه على كمال عقله ، وفصل منطقه؟!
فهو انما يتحدث لكم عن حقيقة لو تركتموها أصابتكم نقمة ، وهذا أدعى الى

التفكر ، وأقوى في اثارة العقل.

وإذا كـــان الله قد رفع عن أمة النـــبي محمد (ص) العذاب المادي كالصـواعق والـريح كرامة له ، فـان سـنته في تعـذيب الجاحـدين جارية في صـور أخـرى كـالتخلف والتبعية والحروب ، فما تعيشه الامة الاسـلامية الى اليـوم انما بسبب الأفكار والعادات المتخلفة التي تعارض رسـالة الله.

ولعل هذه الآية تنسحب الى كل الدعوات الاصلاحية ، وفي كل عصر ، فليس من الصحيح ان يرفض المجتمع أو يقبل اية دعوة بصـورة ارتجالية سـريعة ، فلعل ما يرفضه يكون صحيحا ، ولعل ما يقبله يكـون خطأ ، انما يجب عليه التفكر الشامل عميقا ، في ظروف مناسـبة ، وعـبر منهج حكيم ، وبهـدف شـريف هو التوصل الى الحقيقة ، ولهـذا أكّد القرآن أن يكون القيام لله وليس بهــدف آخر ، إذ من الممكن ان يطلب العلم من أجل المصـــالح الشـــهوانية المادية كالشهرة والمال فلا يبلغ الحقيقة ، بينما إذا أخلص الإنســان نيته لله عند بحثه عن الحق هــداه الله اليه ، لان من شروط التفكير السليم الهدف السليم منه ، ولعل هذا هو سبب تقديم النية المخلصة (القيام لله) على التفكير.

بعد ان نسف السياق قواعد الجحود ورفع عن الأبصار غشاوات العناد والمعاجزة ثمّ أمرهم بالتفكر بنية صادقة ، ذكّرهم بشواهد صدق الرسول (ص) ومن أبرزها :

إخلاصه في دعوته ، حيث لا يطمع في أجر ، اللهم إلّا أجرا يعود إليهم نفعه ، أو ليس الكاذب أو الساحر يقـترف جريمة التضليل بهـدف مـادي؟! وها هو الرسـول لا يبحث عن أجر مادي فهو إذا صادق.

(47) ولان التفكـير السـليم سـوف يقـود الإنســان للايمان بالله ، والالـتزام بالـدين ، الأمر الـذي يكلف شـيئا من التضـحية كضـريبة لتحمل الرسـالة ، يؤكد القـرآن أن هذه

التضــحيات تخــرج من يد النــاس لتعــود إليهم بــالنفع في الدنيا والآخرة.

(**قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ**)

وليس للرســـول ، لأنه يعمل لله وليس للمصـــلحة ، وهذا من الدلائل على صدق الأنبياء في دعوتهم.

(**إِنْ أَجْـرِيَ إِلَّا عَلَى اللــهِ وَهُـوَ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ شَهِيدٌ**)

يلحظ كل جهد وحركة في ســبيله ، ليضــيف ذلك الى رصيد الرســاليين ، ويـثيبهم على عملهم بـالتوفيق والنصر في الدنيا ، وبالجنة والرضوان في الآخرة.

(48) ثم تهدينا الآيات الى احدى خصائص الأنبيــاء في صــراعهم مع أنصــار الباطل وهي شـهادة الله على صـدق رســالاتهم ، لأنها حق ، والله يؤيد الحق ، ولمعرفة الرسل بهذه الحقيقة فإنهم يتوكلون على ربهم ، ويخوضون غمــار التحديات دون ان يخشوا أحدا أو يخافوا فشلا.

(**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِ**)

على كيان الباطل فيهدمه ، والله ..

(**عَلَّامُ الْغُيُوبِ**)

ولان الرسول يوحى اليه من لدن علام الغيــوب ، فهو يبصر مالا يراه الآخرون ، ويتــدرج من نصر الى نصر حــتى يفتح الله على يديه البلاد ، وهذا أقوى شاهد على صدقه ، وانه يدعوا الى الله الذي هو على كل شيء شــهيد ، ولعل خاتمة الآية السابقة كانت تمهيدا لبيان هــذه الحقيقة وهي شهادة الله على صدق رسالته.

(49) وحين يـــــــأتي الحق يزهق الباطل ، وربّ أمة تبقى ســادرة في الغيّ والضــلال مئــات الســنين ، لكنها تهتدي للحق إذا جاءها مصلح يحمل راية الحق.

(**قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ**)

فهو مسـلوب الارادة أمـام الحق ، وهـذا يعـني ان ما نـراه من غلبة ظاهرية لانصـار الباطل على أنصـار الحق ، ليس لقوة فيهم بل لضعف في الطـرف المقابل ، فهـؤلاء تـدعمهم ارادة الله ، وسـنن الحيـاة ومنطق الحق ، وكـان أحرى بهم ، ان يربحوا المعركة لو لا انفصام العلاقة بينهم وبين عوامل النصر.

ولعل معنى (**وَما يُبْدِئُ الْباطِـلُ**) : انه لم يكن ـ منذ البدء ـ شيئا ، فهو زهوق بذاته.

وفســروا الآية تفســيرات شــتى ، وربما الأقــرب ما ذكرناه آنفا ، ويحتمل أيضا ان يكـون المعـنى : ان الباطل لا يبتدأ في كيان جديد ولا يتجدد كيانه السابق.

(50) ثم ان الضـــلالة نابعة من نفس الإنســـان ، بما تنطـــوي عليه من الضـــعف والعجز والجهل و.. و.. ، بينما الهدى نعمة من الله له ، وإذا ضل الإنسـان فـان المـردود السلبي للضلالة سيعود عليه.

(**قُــلْ إِنْ ضَــلَلْتُ فَإِنَّما أَضِــلُّ عَلى نَفْسِــي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ**)

وفي الآية تذكرة بالرسالة ، وانها مبعث الهــدى ، وان الضلالة تعود على صاحبها بالخسار العظيم.

ولعل خاتمة الآية تشـــــتمل على طلب بالهداية ، في أرقى صيغ الدعاء ، بما تشتمل

عليه العبـارات من تنزيه لله ، واعـتراف بالضـعف أمامه ، والحاجة اليه ، وانه مصدر الخير الـذي ذروته الهداية للحق ، وانه السميع لدعاء عبـده برحمته ، والقـريب في الاجابة بكرمه وجوده.

(51) وفي نهاية السورة يعود السياق للتذكير بالآخرة ، لأنها أعظم فكرة تعطي التوازن لـروح الإنسـان وعقله ، ولهـذا نجد الـذكر الحكيم يؤكد على الايمـان بـالآخرة عند حديثه عن مختلف حقول المعرفة.

وانما يجحد البشر الحق اتباعا لشـــهواته ، وبحثا عن مصالحه في زعمه ، فـإذا عـرف ان الجحـود ينتهي به الى نار جهنم فأية مصلحة له فيه؟

(**وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ**)

فهم يرهبــون يــوم القيامة ، ولكنهم لا يســتطيعون الفرار من العدالة الالهية حينئذ.

(**وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ**)

لان قدرة الله وحكومته تشمل الكـون بأكمله ، فأينما كـــانوا فهم قريبــون من أخذ الله ، وجـــاء في رواية أبي حمزة الثمالي قال سمعت علي بن الحسـين والحسن بن علي يقولان :

«**هو جيش البيداء يؤخذون من تحت اقـدامهم**» [2]

وهو اشـارة الى يـوم ظهـور القـائم من آل محمد ــ صـــلى الله عليه وآله ـــ حيث يبيد الله جيش الكفر في منطقة بين مكة والمدينة تسمى بالبيداء.

---

(2) نور الثقلين / ج (4) / ص (343).

(52) وفي اللحظة الـتي يـنزل فيها عـذاب الله يـرى الكفار عين الحقيقة ، وانه لا خيـار سـوى الايمـان ، وكـان ينبغي لهم ان يؤمنوا بذلك ، في يوم الحرية والاختيار التي يكون عليها الثواب والعقـاب ، لأنها تلتقي وحكمة الله من خلق الدنيا.

(**وَقالُوا آمَنَّا بِهِ**)

لما رأوا العـذاب أو نصر المؤمـنين ، ولكن هيهـات فالإيمان بعيد عنهم ، لأنه قمة سامية لا يصلها الإنسـان الا بالنية الصـادقة والعمل الصـالح ، بل والسـعي الحـثيث والجهاد الدؤوب.

(**وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ**)

فليس الايمان كلمة يقولها الواحد في اللحظة الأخيرة من عمره ، وكيف يعيد الإنسان دورة الـزمن الى الـوراء ، فيشتغل الى أيام حريته الـتي قصر فيها ، كلا .. إنّه يشـبه التناوش من مكان بعيد ، كمن يقف على الأرض ويريد أن يتناول بيده ما على الذري السامقة.

وفي الحديث قال ابو حمزة الثمـالي سـألت أبا جعفر (ع) عن قوله عز وجل : (**وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ**) قال :

«**انهم طلبوا الهـدى من حيث لا ينـال وقد كـان لهم مبذولا من حيث ينال**» [2]

(53) لقد كفروا بالوحي في الدنيا وفاتت فرصتهم.

---

(2) نور الثقلين / ج (4) / ص (345).

(**وَقَدْ كَفَرُوا بِـهِ مِنْ قَبْـلُ وَيَقْـذِفُونَ بِـالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ**)

فهم يتكلمون على غـير بصـيرة ، وبعيـدا عن الواقع ، ومن دون هـــدف ، بينما يقـــذف الله بـــالحق وهو يعلم بتفاصيل كل شيء ، وهذا ما يجعل الوحي صــادقا لا نقص فيه ، بينما كلامهم باطل في باطل.

(54) ومن الشـواهد على ان الباطل سـراب لا ينتهي الى شــــيء ، ان من اتبعه كــــان يبحث من ورائه عن الملـذات والشـهوات ، ولكن المـوت أو نصر المؤمـنين ، الذي يقضي به الله عليهم يحول بينهم وبين الوصول إليها.

(**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ**)

وهذه سنة جرت على الأجيال الماضـية من أمثـالهم ، لكنهم لم يســـتفيدوا ممن ســـبقهم فحلّت بهم الندامة ، ولفّهم الأسف.

(**كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ**)

ويبين الله السـبب المباشر لهـذه النتيجة السـيئة ، الا وهو الشك في الرسالة ، الـتي لو آمنـوا بها لحصـلوا على مصالحهم أيضا ، ذلك انها الطريق للسعادة ، وقد حذرتهم سابقا من هذه العاقبة فلم يستجيبوا لها.

(**إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ**)

الفهرست

سورة الروم

فضل السورة..5
الاطار العام...7
لله الأمر من قبل ومن بعد..........................13
فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون........23
وله المثل الأعلى في السموات والارض..........34
فأقم وجهك للدين حنيفا..............................46
الشرك بين التبرير الثقافي والآثار الاقتصادية....63
ظهر الفساد بما كسبت أيدي الناس...............75
إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا........................91
هذا يوم البعث.......................................102

سورة لقمان

فضل السورة...113
الاطار العام..115
الاحسان تكامل وهداية............................121
ومن يشكر فانما يشكر لنفسه....................138
لماذا سخر الله الخليقة للانسان..................158
ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور.............176

سورة السجدة

الإطار العام..201
الذي احسن كل شيء خلقه.......................206
تتجافى جنوبهم عن المضاجع.....................218
وكانوا باياتنا يوقنون..............................231

سورة الاحزاب

فضل السورة..245
الاطار العام..247
واتبع ما يوحى اليك من ربك......................255
وكان عهد الله مسؤولا.............................268
ولا يأتون البأس الا قليلا...........................281
وما بدلوا تبديلا....................................295
موقف القيادة الرسالية من الأحداث والأشخاص.... 304
انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت 322
محورية القيادة الرسالية في المجتمع...........336
وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا...............346
وكان الله على كل شيء رقيبا....................362
صلوا عليه وسلموا تسليما.........................376
إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض.......392

سورة سبأ

فضل السورة..409
الاطار العام..411
وله الحمد وهو الحكيم الخبير....................418
اعملوا آل داود شكرا..............................429
صورتان لحضارتين.................................441
بل هو الله العزيز الحكيم..........................455
هل يجزون الا ما كانوا يعملون....................468
وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه..................478
قل جاء الحق وما يبدء الباطل وما يعيد.........492